المملكة العربية السعودية
الأمانة العامة للاحتفال
بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

تاريخ مكة

دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران

تأليف
أحمد السباعي

الجزء الأول

أعيد طبع هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

ⓒ **الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السباعي، أحمد بن محمد أحمد

تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران - الرياض.

١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)

١- مكة المكرمة - تاريخ ٢- التاريخ الإسلامي أ- العنوان

ديوي ١٢١، ٩٥٣ ١٩/١٨٠٢

رقم الإيداع: ١٩/١٨٠٢

ردمك :٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ للّه الذي أمرنا بشكر النِّعم، ووعدَ الشاكرين بمزيد من فضله العميم، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

أمَّا بعدُ، فإنَّ اللّه - جلَّ وعلا - قد أكرمَنا في هذه البلاد الطيِّبة بجمع كلمتنا تحت راية الإسلام الخالدة «لا إلهَ إلا اللّه محمدٌ رسولُ اللّه»؛ فكلمة التوحيد هي الأساس الذي قامت عليه هذه البلاد، واتخذتْها شعاراً لها، ومنهجاً لحياتها، وأساساً لنظامها؛ أكَّد ذلك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حين دخل مدينة الرياض في الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـ؛ استمراراً للمنهج الذي سار عليه آباؤه وأجداده، المستمَدِّ من كتاب اللّه وسنَّة رسوله ﷺ.

وقد جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز مدينةَ الرياض، وتأسيس المملكة العربية السعودية؛ تأكيداً لاستمرار المنهج القويم الذي سارت عليه المملكة العربية السعودية، والمبادئ السَّامية التي قامت عليها، ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسِّس الملك عبدالعزيز -رحمه الله- في سبيل توحيد المملكة؛ عرفاناً لفضله، ووفاءً بحقِّه، وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقَّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام، والتعريف بها للأجيال القادمة.

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظلِّ دوحة علم؛ أصولها ثابتة وفروعها نابتة، تولَّى غرسَها الملكُ المؤسِّس، وتعهَّدها من بعده بنوه؛ فواصلوا رعايتها حتى امتد ظلها، وزاد ثمرها؛ فعمَّ البلادَ خيرُها، وانتفع بها الجميع.

وهذا الكتاب يُعنى بجانب من جوانب تاريخ هذه البلاد المباركة، ويبرز من خلاله مدى التزام قادتها -عبر حقبها التاريخية- بمنهجها القويم، والاستمرار في تطبيقه، والدعوة إليه، والدفاع عنه.

ولما في نشر هذا الكتاب من تيسير للباحثين بتوفير المصادر التاريخية الموثقة، وربط للأجيال بماضي الآباء والأجداد، وبيان لمآثر المؤسِّس الموحِّد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -رحمه الله- فقد أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز -حفظه الله- بطبع هذا الكتاب ونشره بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة.

اللهم إنا نشكرك، ونتحدث بعظيم نعمتك علينا، وقد وعدت الشاكرين بالمزيد، فأدمْها نعمةً، واحفظها من الزوال.

وصلى اللّه وسلم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أمير منطقة الرياض

رئيس اللجنة العليا ورئيس اللجنة التحضيرية

للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

سلمان بن عبدالعزيز

هذا الكتاب

سبق أن طُبع هذا الكتاب أربع طبعات كان آخرها الطبعة الرابعة - طبعة النادي الأدبي بمكة المكرمة - وقد أشار المؤلف - رحمه الله- في مقدمة الطبعتين الثانية والرابعة إلى أولئك الذين أفاد من ملحوظاتهم واقتراحاتهم. ومن ذلك ما ذكره في مقدمة الطبعة الرابعة من إجازته للأستاذ/ عاتق بن غيث البلادي في إضافة ما يراه من تعليقات على الأماكن ونحوها. وقد مُيِّزت هذه التعليقات بحرف (ع).

ولما كان هذا الكتاب من ضمن الكتب التي أقرّت اللجنة التحضيرية للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة إعادة طباعتها، فقد رأت اللجنة العلمية المنبثقة عن الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة مناسبة إضافة بعض التعليقات. وكذا عزو الآيات. وتخريج الأحاديث الواردة به. وميَّزت ذلك بوضع نجمة (*) على كل تعليق لها.

وقد كلَّفت اللجنة العلمية للقيام بهذه التعليقات كلاً من: الأستاذ الدكتور/ عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش أستاذ التاريخ الحديث بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، والدكتور عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي أستاذ التاريخ الحديث المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والدكتور/ عبداللطيف بن محمد الحميد أستاذ التاريخ الحديث المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

اللجنة العلمية

بين يدي القارئ[1]

راودتني فكرة الكتابة عن تاريخ مكة في سن مبكرة من حياتي، وشاركني الرأي في هذا زميل كان -يرحمه الله- من أنشط من عرفت من شبابنا؛ هو المرحوم محمد سعيد عبدالمقصود، وحاولنا معاً أن نشرع في الكتابة ولكننا وجدنا الموضوع أوسع من أن يستقصيه شخص أو اثنان، فأخذنا نتصل ببعض من عرفنا من الزملاء، وكنا نؤمل أن نتضافر على دراسة الفكرة وكتابتها، فاستجاب لنا بادئ الأمر أكثر من واحد، ثم تراجعوا وتراجعنا مهزومين أمام ما يتطلبه موضوع البحث من جهد.

وعاودتني الفكرة فانطلقت أناقشها: ما يمنعني أن أعالج الكتابة والبحث في حدود إمكانياتي؟ وإذا كان تاريخ مكة لم يدرس إلى اليوم دراسة عصرية مستوفاة فما يمنعني أن أخطو الخطوة الأولى لتكون تمهيداً لغيري؟

قلت لنفسي: إن الأعمال لا تبدأ كبيرة قط، وإذا ظللنا ننتظر ألا نخطو إلا مستوفين شروط الكمال فليس لهذا غير معنى واحد هو أننا لا نخطو.

كنت أعلم أن تاريخ مكة مغبون عند أكثر من أرّخ من أسلافنا وليسوا ملومين على ما غبنوا، فقد كانت النظرة إلى تاريخ هذه البلاد إسلامية بحتة، عُني فيها المؤرخون بهذه البلاد يوم كانت مهداً للعرب، وعُنوا بها عندما أنتجت سيد العرب ﷺ، كما عنوا بها في الفترة التي تعاقب فيها خلفاء النبي ﷺ، ثم ما لبثت أقلامهم أن عرجت بعروج الخلافة الإسلامية إلى الشام ثم إلى بغداد، وتركت الحجاز دون أن تذكره إلا في مناسبات اقتضاها السياق والاستطراد.

(١) مقدمة الطبعة الأولى.

وعندما أرّخ لمكة أهلوها لم تكن نظرتهم اجتماعية بقدر ما كانت دينية ؛ لهذا ظفرت الآثار والمشاعر وأسماء الجبال المفضلة بما لم تظفر به ناحية أخرى من نواحي التاريخ .

وقد أرّخ بعضهم للسياسة فسجل لنا حوادثها العامة واضطراباتها وأسماء من تولّى الإمارة فيها ، فكان له فضل في ربط العصور بأجزائها ، ولكنهم لم يكتبوا ذلك إلا متأخرين ؛ بدليل هذا الفراغ الهائل الذي نجده في حوادث أواخر العهد الأموي وأكثر العهد العباسي الأول والثاني ، فقد ضاعت على التاريخ حتى أسماء الولاة ، واشتد الخلاف حتى في ترتيب ولاياتهم وتواريخها .

وحتى هذا الصنف لم يعن فيما كتب عن السياسة بالدقائق التي تعنى بها فلسفة التاريخ ، فقد كان يكفيه في أكثر الأحيان أن يذكر وقوع فتنة في مكة أو عرفات ويذكر اسم صاحبها وما انتهى أمره فيها ، دون أن يضطر إلى بحث الملابسات التي أدت إلى نشوبها ، أو النتائج الدبلوماسية التي ترتبت عليها ، وليسوا ملومين في هذا ؛ فقد عاشوا في عصر كان وعيه العام يعنى بأخبار الفتن ونتائجها في غلاء الأسعار وشؤون الاستقرار ، أكثر مما يعنى بالدبلوماسيات أو علاقة البلد الواحد بمعاصريه من الحكومات والدول .

فنحن نقرأ في أكثر ما كتب مؤرخونا القدامى عن حوادث لها أهميتها في عهد الفاطميين أو العباسيين أو المماليك ، فلا نستطيع أن نستنتج علاقة هذه الحوادث بالدول إلا في النادر القليل ، بل يتعذر علينا أن نعرف علاقتنا الصحيحة بهذه الدول : أكنا مستقلين عنها تمام الاستقلال ، أوبعضه ، أم كنا تابعين لها تبعية مباشرة ؟

ولست بهذا أريد أن أغمط جهود هؤلاء المؤلفين أو أنكرها عليهم، وهي ثابتة فيما خلفوه لنا من ذخائر نفيسة ، ولكني أريد أن أشير إلى ما قلته عن الوعي العام الذي كان لا يعنى بما نعنى به اليوم من أبواب التاريخ .

أما نواحينا العمرانية والاجتماعية والعلمية والأدبية والفنية فتلك بحوث لا نجد لها ترتيباً يصح اعتماده والأخذ به؛ لأن الوعي الذي ذكرت كان لا يأبه بتبويبه أو تنظيمه، على أنه كان لا يرفض أن يصادفه ذلك في سياق أو مناسبة أو قصة يراد بها التسلية والترفيه أكثر مما يراد بها البحث والتسجيل .

إذن فنحن لا نستطيع أن نكتب عن تاريخ مكة كتابة ترضي جيلنا؛ لأن ما نملكه من مصادر لا يصح اعتماده إلا في الأبواب التي كان يعنى بها أسلافنا .

قد نجد في خزائن التراث الإسلامي مطولات لا علاقة لها بمكة، ولكن آفاقها الواسعة وفنونها المتنوعة تسوقها أحياناً إلى الاستطراد في شيء هام له علاقته بمكة، فإذا استطاع المطلع أن يقتنص الاستطرادات من هذا النوع فإنه سيستنتج مادة لها قيمتها في الكتابة عن تاريخ مكة، ولا يتيسر هذا إلا لمتفرغ يقضي سني حياته في القراءة واقتناص ما يصادفه فيها .

لهذا كان من رأيي أن يخدم التاريخ في مكة لجنة تعينها الحكومة وتهيئ لها وسائل الاطلاع بصورة واسعة المدى.

مثل هذه اللجنة تستطيع أن تكرس جهودها إلى أعوام طويلة في مطالعة كل ما يصادفها من ألوان الكتب، واقتناص جميع ما يفيد موضوعاتها، حتى إذا اجتمع لديها في كل باب من أبواب التاريخ ذخيرة صالحة استطاعت تنظيمه وتبويبه وتكليف كل عضو بكتابة ما تخصص فيه .

كل هذه أشياء قدَّرتها قبل أن أبدأ في كتابة التاريخ، وكاد مفعولها يثبط من عزيمتي لولا أن أهبت بنفسي بأن لا بد من الخطوة الأولى، وأن استيفاء جميع شروط الكمال لا يعني إلا الإخلاد إلى الانتظار الممل.

كنت أقرأ في فترة مبكرة من حياتي ما يصادفني ثم أدون ما استنتجته فيما يشبه المذكرات بعد أن أضيف إليه اسم الكتاب وصاحبه، فاجتمعت لي مع السنين مدونات لا حصر لها من جميع الألوان غثها وسمينها.

ما كنت أدونها لأن فكرة التأليف مختمرة في رأسي تماماً، وإن كانت قد راودتني، بل لأن إحساساً عميقاً يزين لي تدوينها كما يزين لغاوي العاديات اقتناء القطعة من النسيج الأثري، أو النقد القديم ليشبع إحساسه فيما يقتني.

وغابت هذه المدونات عن عيني طويلاً، وشغلت عنها بشؤون كثيرة في الحياة، حتى رأيتني فجأة أستيقظ من حلمي وأعقد العزم على كتابة تاريخ لمكة، أستوفي فيه ما أملك من جهد، لتكون خطوة أمهد بها لمن يستوفي شروط الكمال بعدي.

هذه كلمة كان لابد لي أن أقولها كفاتحة لما أنشره، ليدرك القارئ أنه ليس في إمكاني غير ما بذلت، وأنه إذا تراءى له ما يتراءى فليجرب حظه في تأليف جديد يستوفي فيه الإمكانيات التي لم أستوفها، ويساهم به في خدمة عامة مساهمة فعالة، تهدف إلى البناء والإنتاج أكثر مما تهدف إلى شيء آخر!!

ولا شك في أن ما يكتبه الكاتب بعدي سيمتاز بجودة الخطوة التالية، وحسبي أني مهدت له السبيل وأيقظت فيه فكرة البحث.

وبعد، فليس لدي ما أقوله بعد هذا إلا كلمة أخيرة أريد ألا تفوتك: ذلك

أني عندما اعتمدت الكتابة في تاريخ مكة، كان لابد لي أن أعتمد -كمصادر للكتابة- تلك المدونات التي عشت في جمعها، وقد سهلت علي تلك المدونات أعمالي؛ لأنها أغنتني عن مراجع كان يجب أن تتقاضاني عمراً جديداً خشيت ألا أعيشه لأبدأ كتابتي بعده، إلا أنني وجدتني أخيراً مطالباً بصفحات تلك المصادر لأجعلها في الهوامش تمشياً مع الطريقة المستحدثة، ولم يكن في مدوناتي إلا أسماء الكتب وأصحابها؛ لأن العهد الذي جمعتها فيها لم تكن قد شاعت فيه طريقة تسجيل الصفحات فتحيرت في الأمر، ولم أجرؤ على استئناف مطالعة ما قرأته من قبل خشية نفاد العمر قبل إنجاز ما أردت، فاكتفيت بذكر المصادر في الهوامش دون الصفحات وفعلت مثل هذا في شأن المصادر التي طالعتها مؤخراً لتكون الوتيرة الواحدة، ثم ما لبثت أن غيرت رأيي عندما حاجَّني زميل من نوابغ كتابنا وأطلعني على مؤلف تاريخي حديث للمؤلف الدكتور طه حسين، اكتفى فيه بسرد مصادره في نهاية الكتاب، فرأيتني أتأسَّاه، وطابت نفسي لمتابعة منهجه فألغيت المصادر من هوامش الصفحات، وأدرجتها في نهاية الكتاب. وأسأل الله أن يجعل خطوتي في كل ما بذلت مسددة إنه الهادي إلى سواء السبيل.

أحمد السباعي

والآن[1]

عندما نفدت الطبعة الأولى - بحمد الله- في أقل من المدة التي كنت أقدر لها النفاد فيها، تضاعف الطلب على الكتاب، فرأيتني مطالباً بإعادة الطبع، وأن أؤجل كتابة الجزء الباقي عن تاريخ العهد السعودي الحاضر؛ لأنه عهدٌ مشاهد صالح لتأجيل الكتابة عنه إلى سنوات وسنوات .

وبلغ بعض المحققين عزمي على إعادة الطبع، فكتب إليّ الأستاذ عبد القدوس الأنصاري عن رأيه في ترتيب بعض فصول الكتاب، وكتب إليّ السيد هارون العطاس يقترح بعض ملاحظات رآها في كتابتي عن العهد الفاطمي، كما كتب إليّ الأستاذ عبدالله المزروع بما لاحظه في كتابتي عن بعض العصور المتأخرة، كما لاحظ الأستاذ عبدالله عبدالجبار والأستاذ إبراهيم فلالي -رحمه الله- بعض نقاط في الكتابة، كانت إحداها تتعلق بمذهب القرامطة، والأخرى تتعلق بالأمثال والحكم في العهد الجاهلي، فأعرت جميع ذلك انتباهاً خاصاً وراجعت في شأنه المصادر التي تعيَّنتْ مراجعتها، فأصلحت ما تراءى لي ضرورة إصلاحه، شاكراً لهم دقتهم في الملاحظة وعنايتهم بي .

وفي إحدى رحلاتي إلى الرياض، زرت العلامة المحقق الأستاذ حمد الجاسر في بيته مؤملاً أن أسمع رأيه فيما بدا له من ملاحظات في الطبعة الأولى، فوجدته يحتفظ بثبت أدرج فيه ما لاحظه عليّ للطبعة الأولى، فقدرت له هذه العناية وأكبرت إخلاصه للفن بعد أن تسلمت منه الثبت .

(١) مقدمة الطبعة الثانية .

وساقني الثبت إلى مراجعة المصادر اللازمة له، وبالرغم من كوني تحيرت في التوفيق بين بعض هذه المصادر إلا أني انتفعت بالكثير، واستطعت أن أضع يدي على أخطاء تَعَيَّن عليَّ إصلاحها على ضوء تلك المصادر فأقدم له جزيل شكري.

وكنت قد اعتذرت في الطبعة الأولى لأني اعتمدت في كتابة الفصول التاريخية على مدونات عشت أجمعها مما أقرأ (راجع مقدمة الطبعة الأولى) وهي لا تبين إلا أسماء الكتب دون صفحاتها، فاضطررت لدرج أسماء المصادر في نهاية الكتاب دون أن أذكرها وأرقام صفحاتها في هامش كل صفحة مما كتبت، والآن وقد عدت لتهذيب الكتاب استطعت أن أعين الأرقام في الجديد الذي قرأته، وأن أبحث ما أمكنني عن أرقام مصادري القديمة، فأدرجت هذا أو ذلك في هامش الصفحات، أما ما عجزت عنه فلا حيلة لي فيه، وقد اكتفيت بذكر مصادره في نهاية الكتاب.

ولقد بذلت من جهد المقل ما أمكنني لهذه الطبعة، فحذفت فصولاً برُمَّتها وكتبتها من جديد على ضوء ما تراءى لي، كما أني أضفت زيادات اضطررت للتوسع فيها واستغنيت عن صفحات ظهر لي ضرورة اقتضابها، وكنت أتمنى لو تهيأت لي أوقات أطول مما وجدت، أو ساعدتني الفرص فضمتني إلى لجنة أتخصص وإياها في كتابة الموضوع واستقصاء جوانبه بأكثر من الشمول الذي يستطيعه شخص واحد مثلي، ولكني لم أظفر بشيء من ذلك، فاكتفيت بما استطعت تقديمه، وأنا أؤمل للمرة الثانية أن يكون فاتحة بحوث جديدة تكلف بها لجنة خاصة، يتوافر لها من الوقت والمال والكفاءة ما يجعلها تهدي التاريخ صفحات أفضل مما استطعت تقديمه .

الخطوة الثالثة[1]

وها أنا اليوم بعد أن نفدت نسخ الطبعة الثانية أجدني في حاجة لأن أعيد طبعه للمرة الثالثة، بعد أن حاولت تهذيبه ما أمكنني. ولا أنسى أن أقدِّر للمشجعين والقراء ما أولوني من عناية ساعدت على نفاد الكتاب من الأسواق في أقصر وقت كنت أؤمله، والله أسأله التوفيق والسداد.

(١) مقدمة الطبعة الثالثة.

مقدمة الطبعة الرابعة

عندما نفدت نسخ الطبعة الثالثة من هذا الكتاب من سنوات، كان عليّ أن أبادر لإعادة طبعه سداداً لحاجة السوق، ولكني تباطأت في ذلك لعجزي عن الوفاء، فأنا لا أرى إعادة طبعه دون أن أعيد النظر فيه بالزيادة أو الحذف أو التنقيح، ولكن تقدمي في السن واعتلال صحتي هيّآني للخمول، إلا أن الأستاذ الكبير إبراهيم أمين فودة رئيس نادي مكة الثقافي، وبمساعدة الأستاذ فائق الصواف، رأيا أنه لا بد من إعادة طبع الكتاب، وأبديا استعداد النادي لطبعه، وأن يلتزما بالإشراف على كل ما يلزم لذلك من ترتيب دون أن يكلفاني أي نشاط يرهقني، فحمدت لهما هذا العزم، وأكبرت للأستاذ إبراهيم أمين فودة عنايته ونبله، وتراءى لي بعد هذا أن أستعين بمؤرخنا المعروف الأستاذ أحمد علي أسد الله ليتفضل بمراجعة الكتاب نيابة عني، فهو من خير من درس هذه الحقبة الطويلة من تاريخ مكة، وله جولات واسعة في نشر الفصول التي كان يترجمها مما كتبه المستشرقون عن أمراء مكة في التاريخ، فكان سعادته عند حسن الظن، فما كدت أرجوه لمراجعة الكتاب وأفوضه فيما يراه من زيادة أو حذف فيه أو تنقيح، حتى لبّى طلبي بصدر واسع وهمة أنا عاجز عن تقديرها وشكرها .

فإذا أبرز الكتاب اليوم في طبعته فليذكر القارئ أنه كان نتيجة جهود غيري من أصحاب الفضل . . كان نتيجة جهود الليالي الساهرة التي أرهقت أستاذنا أحمد علي أسد الله والتي أبى أن يقبل لقاءها أي جزاء رغم إلحاحي الشديد . كما كان نتيجة جهود نادي مكة الثقافي، وعلى رأسه سعادة رئيسه الشيخ إبراهيم أمين فودة، الذي أصرّ على تجنيد من يلوذ به في النادي ليظهر الكتاب

في ثوبه الجديد الذي أؤمل أن يرضي قارئه . كما لا يفوتني أن أذكر بالشكر دار مكة للنشر والتوزيع التي أسهمت بجهدها في إخراج هذا الكتاب لهذه الطبعة، وأخص بالشكر صاحبها الأديب المؤرخ النسابة الأستاذ عاتق بن غيث البلادي، الذي أجزته في إضافة ما يراه من تعليقات على الأماكن ونحوها، رمزها بحرف (ع) .

وللجميع مني الشكر والتقدير، ومن الله أسأل العون والتوفيق

أحمد السباعي

تضاريس مكة

تقع مكة على ٢١ درجة ونصف درجة تقريباً عرضاً شمالياً ، وعلى نحو ٤٠ درجة طولاً ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ متراً .

وتقع في واد تحيط به الجبال وتنحدر سيولها فيه [١] ، وإذا عصفت الرياح في مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادي فيما يشبه الدوامات ، وتعذّر تعيين ملتقى الرياح إلا في بعض الحالات .

وجوُّها حار جاف تختلف حرارته بين ١٨ درجة في شهور الشتاء و ٣٠ درجة في شهور الصيف ، وقد ترتفع الحرارة في بعض السنوات إلى ما يزيد على ٤٠ درجة .

أسماء مكة

وقد سماها القرآن مكة ، كما سماها بكة وأم القرى والبلد الأمين [٢] .

ويذكر بعض علماء الإسلام أنها سُميت مكة لقلة مائها ، وهم يقولون : أمتكَّ الفصيل ضرع أمه إذا امتصه ، ويقول بعضهم : سُميت مكة لأنها تمكُّ الذنوب ، أي : تذهب بها ، أو لأنها تمكُّ الفاجر ، أي : تخرجه منها ، كما قيل : إنها سميت بكة لأن الناس فيها يبك بعضهم بعضاً ، أي : يدفع .

(١) هذا هو وادي إبراهيم الذي يقع فيه البيت ، ولكن مكة خرجت من عهد بعيد عن هذا الوادي فشملت وادي طوى ووادي فخ ، وأنحاء أخر . (ع) .

(٢) وأورد مؤرخو الإسلام عدا ذلك نحو اثني عشر اسماً ، وكانوا يقولون : إن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى .

ونقل عن بطليموس [1] أن اسمها (مكوربا) وهو مشتق من الاسم السبئي (مكوارابا) ومعناه: مقدّس أو حرم.

قِدَم مكة

وقد عرفت مكة من أحقاب طويلة ممعنة في القدم قبل عهد إبراهيم، فقد كانت الكعبة مثابة للناس قبل بناء إبراهيم كما تروي ذلك مصادر إسلامية كثيرة*.

ولا شك أنها كجزء من بلاد العرب استقبلت هجرات سابقة تعدد فيها أنواع المهاجرين من أجناس البشر تعدداً لا نستطيع تعيينه؛ لأن المصادر التي توسعت في ذلك لايمكن التسليم بما كتبت تسليماً قاطعاً؛ لأن أكثر كتّابها عاشوا في العصر الإسلامي الأول متأخرين عن ذلك العهد بأحقاب طويلة المدى، ولم يكن لديهم من المصادر إلا المنقول عن تشويش واضطراب.

(١) البطالسة كثيرون، وقد سمي ١٦ ملكاً في مصر بالبطالسة، وقد عاشوا قبل الميلاد بنحو أربعة قرون وهم غير بطليموس المتوفّى قرب الإسكندرية في القرن الثاني بعد الميلاد، وكان من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافية، واشتهر بالنظرية البطليموسية التي تقول: إن الأرض لا تتحرك، وإن الأفلاك تدور حولها.

* أورد ابن كثير في (البداية والنهاية) ١/ ١٦٣ ما نصه: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام».

خصب مكة وجفافها

أما التاريخ الذي أنتجته دراسة الآثار وأسفرت عنه كتابات الجيولوجيين فقد أطال في بحوثه لا عن مكة وحدها، بل عن جزيرة العرب قاطبة، وكان مما ذكره أن صحاريها القفراء كانت في عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجاً خضراء آهلة بالسكان، لأن غيوم الرياح الغربية الشمالية كانت تصل إلى الجزيرة قبل أن تفقد رطوبتها، فتنهال الأمطار على قممها العالية وتجري في وديانها أنهاراً، فتروي أراضيها وتسقي مروجها، ولعل في عمق الوديان التي نشاهدها اليوم ما يشير إلى شيء من حقيقة هذا الرأي، ويذكر تقي الدين الفاسي في «شفاء الغرام» عن الفاكهي بسند رفعه الفاكهي إلى ابن اسحاق، أن الحجاز كانت أسحر أرض الله وأكثرها ماء.

ويعلل الجيولوجيون الجدب الذي طرأ فيقولون: إن عوامل الجفاف الطبيعي ما لبثت أن حالت بالتدرج على مر الأحقاب دون وصول الغيوم المرطبة فحرمت الجزيرة من أنهار جارية.

ولا أستبعد هذا؛ لأن المشاهد أن سورة الجفاف في عهودنا الحاضرة اشتدت وطأتها عن عهود سلفت، فاختفت واحات كثيرة كانت معروفة في العهد الجاهلي وصدر الإسلام، كما اختفى كثير من المناطق الخصبة التي كان يزرعها اليهود في المدينة، وثقيف في الطائف، وقريش حول مكة، ونضبت كثير من العيون والآبار، وقل شأن السيول التي كان يفيض بها عقيق المدينة والطائف ووادي إبراهيم في مكة[1].

(١) على سبيل المثال: ذكر أنه كان في وادي أمج نحو من سبعين وقيل تسعين عيناً لم تبق منها اليوم سوى بضع عيون، وقيل إنه كان بمر الظهران ثلاثمائة عين، لم تبق منها اليوم غير بضع عشرة عيناً. (ع).

والمعمرون في مكة وكثير من مدن الجزيرة يعلمون أن منسوب المياه ومساحة المناطق الخصبة كانت إلى قرن سابق أحسن منها اليوم، وأن بساتين مكة في أطرافها وضواحيها كانت منتشرة إلى مسافات بعيدة مما لم يبق له أثر نتيجة اطراد الجفاف، ويرى بعض الجيولوجيين أن الجفاف سيطّرد أمره في الجزيرة على مر العصور، وأن نسلنا سيعاني منه أكثر مما نعاني إلا في المناطق الجنوبية القريبة من المحيط الهندي.

نشأة مكة

وسواء صح نقل المؤرخين الإسلاميين في شأن من هبط مكة قبل عهد إبراهيم أو لم يصح، وسواء ثبت استنتاج الجيولوجيين عن خصوبة هذه الأرض في عهود مجهولة من التاريخ أو لم يثبت، فإن مما لا مجال للشك فيه أنه يصح اعتماد هجرة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إلى مكة مبدأ واضحاً لتاريخ مكة، ولسنا نعني أن جميع التفاصيل التي ذكر المؤرخون أنها لازمت هذه الهجرة أو أعقبتها كانت من الوضوح والصحة بحيث لا يتسرب إلينا شك فيها، ولكنها كانت منقولة وحسب، كما أن بعضها أشار إليه الحديث الشريف، واستكملت البعض الآخر روايات أهل الكتاب، وقد بذل المؤرخون الذين جاؤوا متأخرين في تصفية ما انتهى إليهم، فكان بعضهم دقيقاً ما أمكنته الدقة، كما أن بعضهم لم يتحرج في إيراد ما صادفه من حشو ولغو.

وإذن فسنبدأ كتابنا من عهد إسماعيل، محاولين أن نقتصر على النتائج التي ترتبت عليها نشأة مكة؛ لنربط الماضي بالحاضر، تاركين الروايات المطولة التي لابست هجرة إسماعيل لمن أراد أن يستقصيها في كتب التاريخ الإسلامي.

في عهد إسماعيل

قدم إسماعيل مكة أول ما قدمها طفلاً في صحبة أمه وأبيه ومكة إذ ذاك فلاة ينبت فيها السلم والسمر [1]، وقد قيل: إن العماليق سكنوها قبل قدومه[1]، وإن إسماعيل لم يصلها حتى كانت جرهم قد حلت محل العماليق في ظروف لم تثبت كيفيتها في التاريخ، وبذلك سكنت جرهم وادي مكة أو على مسافة قصيرة منها.

وتتعدد روايات مؤرخي الإسلام في تفسير الظروف التي لابست هجرة إسماعيل إلى مكة ونزوله فيها مع أمه وأبيه وهي فلاة لا تنبع فيها قطرة ماء، ولكنهم يتفقون على أن إبراهيم عليه السلام ما كاد يودع إسماعيل هذه القفار حتى توجَّه يدعو الله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (سورة إبراهيم ٣٥)، كما يتفقون على أن إسماعيل -عليه السلام- ما كاد يرهقه العطش حتى ظهر لأمه نبع زمزم فشربت وأروته [1](*).

وتسامعت جرهم بخبر البئر في رواية من يقول: إن جرهم كانت تسكن على مسافة قصيرة من مكة، فاستأذنت لتنقل بيوتها حول البئر، واحتضنت إسماعيل، فنشأ بينها وتعلم منها العربية، وتزوج من فتياتها فأنجبت نسلاً أطلق عليه المؤرخون اسم العرب المستعربة.

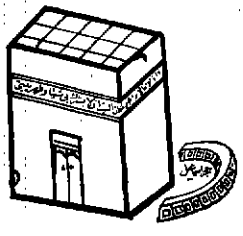
وجاء إبراهيم -عليه السلام- ليتفقد ابنه ويبلغه أن الله يأمر ببناء البيت الحرام ويتفقا على رفع قواعده، حيث بدت لهم علامات خاصة في القطعة

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/١٩، ٢٠.

(*) يشير إلى الأحاديث التي رواها ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ، وهي أحاديث طوال أخرجها البخاري في صحيحة، كتاب الأنبياء، باب يزفون النَّسلان في المشي: ٦/ ٣٩٥ - ٤٠٧ الأحاديث أرقام ٣٣٦٢، ٣٣٦٣، ٣٣٦٤ من كتاب «فتح الباري شرح صحيح البخاري».

المختارة للبناء على خطوات من بئر زمزم(١) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . (البقرة ١٢٧).

ولما ارتفع البناء وشق على الشيخ تناوله، قرّب إسماعيل -عليه السلام- حجراً يقوم عليه أبوه ليبلغ به المدى الذي يمكن أن يبلغه فوق الحجر، فسمّي الحجر «مقام إبراهيم» لقيامه عليه، أو سمّي المكان بذلك حيث ترك الحجر، والحجر باق إلى اليوم على حافة المطاف في المكان الذي تركه فيه إبراهيم في بعض الروايات، أو على غير بعيد من المكان الذي تركه فيه في روايات أخرى، ومن أجل هذا اختلف المفسرون في تفسير كلمة (مقام إبراهيم) فيطلقها بعضهم على الحجر نفسه، كما يطلقها بعضهم على المكان الذي وضع فيه الحجر، كما يطلقها بعضهم على المسجد أو جميع الحرم إلى حدود الحل* .



**

صورة الكعبة كما بناها إبراهيم عليه السلام وهي كما تبدو قليلة الارتفاع واسعة العرض مدورة جهة حجر إسماعيل، ويظهر الفرق في هندستها إذا قورنت بشكل بنائها فيما بعد كما سيأتينا.
والرسم من تصميم
الشيخ طاهر الكردي الخطاط بمكة

وهكذا أنشأ إسماعيل مكة ورفع أبوه بمعونته قواعد البيت.

جرهم وقطورا : ولما توفي إسماعيل تولى الأمر أبناؤه حتى انتهى إلى حفيده مضاض بن عمرو الجرهمي (٢) ، وكان الجرهميون قد انقسموا إلى قسمين :

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ٢٤ وما بعدها.

(٢) في تاريخ مكة للأزرقي ص ٨١ ح ١ ط ٢ دار الثقافة بمكة : أن عمرو بن مضاض الجرهمي جد ولد إسماعيل -عليه السلام- وأمهم السيدة بنت مضاض، فلما مات إسماعيل ولي البيت ابنه ثابت، فلما مات ولي البيت بعده جده مضاض بن عمرو. وقيل : إن أم بني إسماعيل (رعلة) بنت مضاض، وهذا مضاض الأول، وليس مضاض بن عمرو بن الحارث الذي زالت في عهده دولة جرهم.

* الراجح أن المراد هو الحجر نفسه كما جاء في صحيح البخاري في حديثه عند قوله تعالى : ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾(سورة البقرة ١٢٥).

** هذا الشكل يبدو عليه عدم الدقة في الرسم.

جرهم وقطورا، وقد سكن مضاض بمن معه من جرهم أعلى مكة وقعيقعان، كما سكنت قطورا وعلى رأسها السميذع أجياداً وأسفل مكة فما حاز ذلك، وكان مضاض يعشر من دخل مكة من أعلاها، وكان السميذع يعشر من دخل من أسفلها، وكل من البطنين على جباله لا يدخل واحد منهما على صاحبه[1].

ومن هذا يبدو لنا أن مكة عندما انقضى على تأسيسها العهد الذي عاش فيه إسماعيل إلى أن ولي الأمر حفيداه مضاض في جرهم والسميذع[2] في قطورا -وهو ما يقدره المؤرخون بنحو قرنين من الزمان- كان السكن في مكة قد امتد بجرهم من بطن الوادي بجوار زمزم، آخذاً سمته إلى قعيقعان في الشمال، ونسميه أوبعضه اليوم (جبل الهندي)، وإلى الشمال الشرقي بما يحاذي القشاشية والمسعى متوجهاً إلى أعلى مكة، كما تغلغل أبناء عمومتهم من قطورا في شعب أجياد إلى ما يتصل بالسد من ناحية، وفي شارع المالية إلى المصافي من ناحية أخرى، ثم انحدرت منازلهم بانحدار الوادي من أجيادين فيما نسميه المسيال حتى اتصلت بأطراف المسفلة، كما يبدو أن الأحياء الأخرى من مكة لم يتصل بها العمران إلا في قرون متأخرة، ولعلها كانت كذلك لوعورة الأرض فيها قبل أن تمهدها الحاجة للسكنى.

ولسنا نشك في أن مضارب السكان كانت من الشعر، وكانت تتلاصق مرة وتتباعد مرات في حواشي الوادي، وبين ثنيات الجبال في صور لا تختلف كثيراً

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤٠ وما بعدها.

(٢) في المصادر العربية يتكرر اسم (السميدع) بالدال المهملة، وأراه الصواب. وفي لسان العرب: ذو الصفات الممتاز. ولم يذكر (سميذع) بالمعجمة (ع).

عما نشاهده في مضارب البدو بين ظهرانينا اليوم .

الخلاف بين جرهم وقطورا: وما لبثت أن اختلفت جرهم مع قطورا، فخرج مضاض بن عمرو من قعيقعان في كتيبة سائراً إلى السميذع والسيوف والجعاب تقعقع معه، ولذلك سمي جبلهم (قعيقعان) ، وخرج السميذع بقطورا ومعه الرجال والجياد، ولذلك سميت منطقتهم (أجياداً) حتى التقوا بفاضح [1] فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل السميذع، وتراجعت قطورا ثم تداعوا للصلح .

ولاية مضاض : ثم صاروا حتى نزلوا المطابخ [2] حيث اصطلحوا فيه وأسلموا الأمر إلى مضاض بن عمرو الجرهمي، وبذلك استقام له الأمر في مكة[3] .

خزاعة : وظل الأمر على ذلك حتى استخفت جرهم بأمر البيت فسلط الله عليهم قبيلاً من اليمن من أولاد قحطان فأزاحهم في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الميلادي، وذلك أن عمرو بن ماء السماء وينتهي نسبه إلى امرئ القيس ثم يعرب بن قحطان -وكانت منازله في جنوب الجزيرة - ارتحل وقومه من منازلهم فراراً من حوادث سيل العرم، ثم سار من بلد إلى بلد لا يطأ بلداً إلا غلب عليه أهله وقهرهم، ثم يرتحل وقومه ليبحثوا عن أفضل منه حتى وصلوا مكة وعليها مضاض، فأبت جرهم أن تنزلهم طوعاً، وتعبَّأت لقتالهم فاقتتلوا ثلاثة أيام، ثم انهزمت جرهم فلم ينج منهم إلا الشريد، وبذلك تم الفتح للقحطانيين واستقام الأمر لهم في مكة [4] .

(١) ذكر ياقوت في معجمه أن فاضحاً موضع عند أبي قبيس عند سوق الرقيق إلى أسفل منه .

(٢) المطابخ شعب بأعلا مكة يقال له شعب ابن عامر كما ذكره الأزرقي ونسميه اليوم شعب عامر .

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤١ وما بعدها .

(٤) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤٢ وما بعدها .

ولا يتناسب المناخ وطبيعة الجو في مكة مع ما ألفه القحطانيون، وقد عاشوا في جنوب الجزيرة حيث الخصوبة ووفرة المياه وسهولة الأرض، فارتحلت أكثر بطون القبيلة ترتاد البلاد التي تتناسب وما ألفت، وانخزعت بمكة بطن من القحطانيين - أي انقسمت- وتلك هي خزاعة، وبذلك ورثت خزاعة الحكم في مكة، وقام سيدها ربيعة بن حارثة بالأمر فيها.

وكان بعض بني إسماعيل قد اعتزلوا في فترة الحرب وقبلها أخوالهم من جرهم غير راضين عن أعمالهم في مكة، كما أنهم لم يسايروا المغيرين من قحطان أويناوئوهم، بل ظلوا في حيادهم منعزلين، حتى إذا استتب الأمر لخزاعة سألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم.

ولما انتهى أمر مكة إلى عمرو بن لُحيّ سيد خزاعة تمنى عليه رئيس حكومة مكة السابق مضاض الجرهمي (١) أن يأذن له في السكنى بمكة، فأبى عليه ذلك ونادى في قومه: من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمه هدر(٢).

ونزعت إبل لمضاض تريد مكة بعد جلائه عنها، فخرج في طلبها حتى وجد آثارها قد دخلت مكة، فمضى إلى الجبال من ناحية أجياد حتى ظهر على أبي قبيس يتبصر الإبل في بطن الوادي، فأبصر الإبل تنحر وتؤكل ولا سبيل إليها، فخاف إن هبط إلى الوادي أن يقتل، فولى منصرفاً إلى أهله، وأنشد يقول:

كأن لم يكن بين الحُجُون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمَرْ بمكةَ سامر
ولم يتربَّع واسطاً فجنوبه ... إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العَواثر(٣)

(١) هذا هو مضاض الثاني، الذي تقوض في عهده أمر جرهم (ع).

(٢) أخبار مكة للأزرقي ١ / ٤٢ وبعدها.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ج ١ / ٤٩.

في قصيدة أوردها كثير من المؤرخين، ولا أجدني جريئاً كل الجرأة في الأخذ بصحة نسبتها إلى مضاض إلا إذا صح لدي مايثبت أن لغة الجرهميين كانت في مثل هذه الألفاظ السلسة، ومثل هذه المعاني الواضحة (١) .

وظلت خزاعة على أمرها في مكة يحكمها كبيرها عمرو بن لحي الذي بلغ بمكة من الشرف مالم يبلغه عربي قبله، حتى قالوا: إن الرجل منهم كان إذا ملك ألف ناقة فقأ عين فحلها، وقد فقأ عمرو بن لحي عين عشرين فحلاً (٢) .

وكان عمرو أول من أطعم الحاج بمكة سدايف الإبل ولحمانها على الثريد، وعم في تلك السنة جميع حاج العرب بثلاثة أثواب من برد اليمن، وكان قوله فيهم ديناً متبعاً لا يخالف، وهو الذي وصل الوصيلة، وحمى الحام، وسيب السائبة، ونصب الأصنام حول الكعبة، وجاء بهُبل من الجزيرة فنصبه في بطن الكعبة، فكان العرب تقتسم بالأزلام وهو أول من غيّر دين إبراهيم عليه السلام، فقد كان كثير الأسفار، وربما تأثر بالفينقيين أو الآشوريين أو المصريين وهم جيران الجزيرة العربية فنقل وثنيتهم إلى مكة، وقد يقال: إن العرب

(١) لا نشك في أن لغة قحطان كانت الأم بعد العرب البائدة، وأن جرهم انتقلت من اليمن بلغتها القحطانية، ولكن المعروف أن اللغتين تباعدتا على أثر انفصال جرهم، وقد مرت بجرهم أحقاب طويلة لا نشك في أنها كانت من أهم العوامل في تطوير الألفاظ والمصطلحات، يضاف إلى هذا أن مكة بحكم موقعها الديني كانت في حاجة إلى أن تتفاهم مع شتى القبائل بلهجات مختلفة؛ مما ساعد على تطوير لغتها وتهذيب حواشيها واتساع معانيها، حتى إذا ورثتها قريش ورثتها فصيحة البيان صالحة للتفاهم مع أكثر قبائل العرب، بينما ظلت لغة قحطان في الجنوب تكاد أن تنحصر في الناطقين بها محلياً. واتسعت ثقافة قريش على أثر ذلك وتهذّب ذوقهم الأدبي، فماتت أكثر الكلمات التي ورثوها من القحطانية وحلت محلها تعابير اقتضاها احتكاك البيئة في مكة، وجاء القرآن بهذه اللغة فأضاف إليها حلاوة جديدة وبهجة سلسة باعدت بهما عن لغة جرهم التي ورثوها عن قحطان.

(٢) لعل من الغريب أن يملك شخص ٢٠ ألف ناقة مع أن المعروف في أوائل الجيل الحاضر أن إحصاء الإبل في هذه البلاد بلغ رقماً قياسياً ومع ذلك فلم يجتمع مثل هذا العدد إلا لعدة قبائل.

تأثرت بجيرانها في عبادة الأوثان قبل عمرو بن لحي، وكلها أقوال يصح فيها الاجتهاد والحدس [1].

وولي البيت عمرو بن لحي وولده مدة حكمهم لم يخربوا في البيت شيئاً ولم يبنوا فيه حتى آل أمره إلى قصي بن كلاب في القرن الخامس الميلادي.

في عهد قريش

قصي بن كلاب: لبثت خزاعة على ما هي عليه وظل أولاد إسماعيل بعد جلائهم من مكة متفرقين بين اليمن واليمامة والبحرين وأطراف الحجاز، وقيل: إن بعض قبائلهم وصلت إلى العراق والشام، ويختلف المؤرخون في عدد القبائل التي تفرعت من أولاد إسماعيل، ولكنهم يكادون أن يتفقوا على أن أبرزهم عدنان، وتفرع من أولاد عدنان ربيعة ومضر وإياد وأنمار [2] فكان قصي من أولاد مضر، وقد عاش قصي بعيداً عن موطن أجداده في أرض قضاعة لا ينتمي إلا إلى زوج أمه ربيعة بن حرام من قضاعة.

وحدثت بين قصي ورجل من قضاعة شيء فقال له القضاعي: ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا، فرجع قصي إلى أمه وفي نفسه مما قال القضاعي شيء فسألها عما قاله فقالت: والله يابني أنت خير منه وأكرم. أنت ابن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة من أولاد مضر، وقومك أصحاب البيت الحرام وما حوله، فأجمع قصي على

(١) ويبالغ بعضهم استناداً على رواية ينسبونها إلى الكلبي فيقولون: إن عبادة الأصنام عرفت في عهد جرهم، ذلك أن قبائل من جرهم اضطرت مرغمة إلى الجلاء عن مكة فتفرقت في البلاد، فكانت القبيلة أو الجماعة تحمل معها في منصرفها من مكة بعض حجارة الكعبة فإذا حلت مكاناً نصبته وطافت به كطوافها بالكعبة، فنشأت الوثنية من حيث لا يحتسبون، وأخذت تتطور بتطور الأيام.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٠٠.

الخروج إلى قومه واللحاق بهم، وكره الإقامة في أرض قضاعة، فخرج مع الحاج حتى جاء مكة وأمر مكة يومئذ إلى حليل بن حبشية الخزاعي، وفي يده مفتاح الكعبة فخطب إليه ابنته، فلما عرف نسبه رغب فيه وزوجه فأقام معها حتى ولدت له، وكان حليل إذا اعتل أعطى المفتاح ابنته لتفتح البيت، فإذا اعتلت أعطت المفتاح زوجها قصياً أوبعض أولادها منه، ولما حضرت حليلاً الوفاة دعا قصياً فجعل له ولاية البيت وأسلم له المفتاح، فلما هلك حليل أبت خزاعة أن تدعه وذاك، وأخذوا منه المفتاح، فمشى قصي إلى قومه من بني كنانة فأجابوه إلى نصرته، وأرسل إلى أخ له من أمه في قضاعة فمشى إليه في جمع من قضاعة يبغون نصرته، فلما اجتمع الناس بمكة خرجوا إلى الحج، فلما كان آخر أيام منى أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي ما جعل له حليل، وعظموا عليهم القتال فأبت خزاعة، فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى فسمي ذلك المكان المفجر لما فجر فيه وسفك من الدماء[1]، ثم تداعوا إلى الصلح بعد قتال شديد واحتكموا إلى يعمر بن عوف وهو رجل من كنانة، فحكم لقصي بحجابة الكعبة وولاية مكة دون خزاعة، تنفيذاً لوصية حليل، وألا تخرج خزاعة من مساكنها من مكة، فسلمت خزاعة لقصي بذلك[2] فولي الأمر، وجمع قومه فأنزلهم مكة يستعز بهم، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس الميلادي تقريباً، وظلت خزاعة في رباعها لم يحركوا شيئاً، وبذلك كان قصي أول رجل من كنانة أصاب ملكاً، وقد نظم إدارته كما سيأتينا.

(١) المفجر مكان معروف بهذا الاسم اليوم بين منى ومزدلفة، وفيه مبنى الآلة البخارية التي ترفع المياه إلى مرتفعات منى. (ع) المفاجر بمكة ثلاثة: مفجر المزدلفة المتقدم، والمفجر الأوسط بين منى وجبل سدير يصل بين حوض البقر (العزيزية) والمحصب، والمفجر الثالث بين نور وسدير جنوب مكة.

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٦٦ ومابعدها.

أولاد قصي : وتوفي قصي فانتقل الأمر إلى ابنه عبدالدار ولم ينافسه في ذلك أخوه عبدمناف، ولكن أبناء عبدمناف أبوا على أبناء عمهم عبدالدار انفرادهم بمصالح قريش بعد وفاة الأبوين، وكاد أن ينشب القتال لولا أن أسرع الوسطاء بينهم بالصلح، وقد أرضى الصلح الفريقين بتقسيم مصالح قريش بينهم بالقرعة(١).

وبذلك كانت الرياسة في بني عبدمناف فوليها هاشم، ثم نافسه أخوه أمية فكانت منافرات طال شأنها وغلب في نهايتها أمية على أمره، فكانت أول منافرة بين الأمويين والهاشميين.

وانتهت الرياسة في قريش بعد هاشم إلى ابنه عبدالمطلب فتفاقم الخلاف بينه وبين بني عمومته بني أمية، ولكن كان حظ عبدالمطلب كحظ أبيه هاشم فظفر من الشرف والرياسة والجاه في قريش بما لم يظفر به بنو عمومته (٢).

نثل زمزم :ومن أهم أعمال عبدالمطلب كشفه عن بئر زمزم وكانت قد خفيت معالمها ومحيت آثارها بتقادم السنين، وقد قيل: إنه رأى في منامه من دلّه على مكانها، فصحت عزيمته على نثلها وحفر أعماقها، فلم تمكنه قريش من ذلك لقداسة الصنم الذي يقوم مكانها، فأسرّها في نفسه حتى تقادم العهد على الفكرة

(١) عندما اختلف أبناء عبدمناف مع أبناء عبدالدار عقد كل جماعة حلفاً خاصاً بألا يتخاذلوا أمام الفريق الآخر، ومما قيل: إن بني عبد مناف اجتمعوا على جفنة مملوءة طيباً، فغمسوا أيديهم فيها ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسموه حلف المطيبين، كما سموا بني عبدالدار الأحلاف. (راجع سيرة ابن هشام ١/ ١٤٣).

(٢) ومع هذا فقد ظلت كثير من بطون قريش لا تدين إلا للبارزين من أهلها كما سنبين ذلك في الناحية الإدارية لقريش.

واستوى له من صلبه عشرة أولاد، فمضى في عزمه مستنداً على سواعد أبنائه [1]، وبذلك عادت زمزم إلى سابق عهدها يستقي منها الشاربون، وقد وجد عند كشف زمزم غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً كان ساسان ملك الفرس قد أهداها للحرم فدفن ذلك مع زمزم، فلما وجدها عبدالمطلب صنع باب الكعبة منها.

موقعة الفيل: وفي عهد عبدالمطلب كانت واقعة الفيل. وأصحاب الفيل هم طغاة من الأحباش كانوا قد زحفوا على اليمن فاستعمروا أهلها، ثم ما لبث قائدهم أبرهة أن تطلع إلى مد نفوذه إلى الحجاز كعبة العرب، فشرع يناوئ مكانتها الدينية بإنشاءكعبة فخمة آملاً أن تنصرف إليها أذهان العرب عن مكة، فلما لم تنجح فكرته، وظلت الكعبة على قدسيتها في نظر العرب، أبى إلا أن يضع حداً عملياً لنهاية هذا التقديس، فجهز جيشاً عظيماً وسيَّره إلى مكة لهدم كعبتها [2] فأصبحت قريش ذات يوم على أصوات المغيرين يتقدمهم فيل عظيم، ولم يكن للعرب عهد بمثل ذلك، فلم يسع عبدالمطلب إلا أن ينادي في قريش أن يحجزوا إبلهم ويحموها ويتركوا أمر البيت: «فإن للبيت رباً يحميه»، ثم قام إلى باب الكعبة فأخذ بحلقه وهو يبتهل:

ياربِّ إن المرءَ يمنعُ رحله فامنعْ رحالكْ
إنْ كنتَ تاركَهم وقبلتَنا فأمْرٌ ما بدا لكْ
ولئن فعلتَ فإنه أمــرٌ تتــمُّ بــه فعالُك

(١) شفاء الغرام للفاسي ١/ ٢٤٧.

(٢) ويذكر بعض المؤرخين أن أحد المكيين أراد إغاظته فدخل الكنيسة في غفلة من أهلها فأحدث فيها، فحلف أبرهة ليهدمنَّ الكعبة.

ولقد حمى الله البيت بأبلغ ما تكون به الحماية ودفع عنه بأشد ما يكون الدفاع وأعظمه [1].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (سورة الفيل).

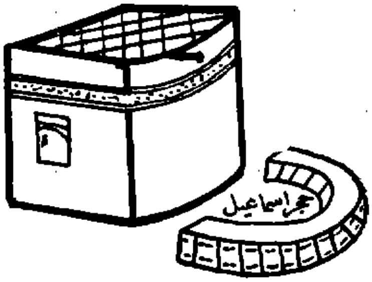
الانحلال في مكة: وظل الأمر لعبدالمطلب في مكة على أثر هذا، إلا أن القبائل النازحة إلى جوار البيت كانت قد تكاثرت وتفاقم تناسلها، فتفرقت بطوناً في بادية مكة، وشرعت كل بطن تعتز بسيد فيها، فتعددت السلطات وتنوعت أحكامها وتقاليدها، وتعددت العقائد والديانات، وغدا أصحاب الشهوات يتفننون في شهواتهم محتمين بتقاليدهم القبلية لا يهابون حكماً ولا يخشون سلطاناً.

إهلال النبي: وفي خضم هذه الفوضى وغمرة هذا الانحلال كانت آمنة بنت وهب تتمخَّض في بيت من بيوت عبدالمطلب. وفي ليلة زاهرة من ليالي قريش أهل هلال النبي ﷺ.

ودرج النبي ﷺ كأفضل ما يدرج الصبيان أدباً حتى يفع في أطهر ما يفع فيه شاب اختارته العناية الإلهية لا ليقود أمته إلى طريق الخلاص والنور فحسب، بل ليضع يده على مُقدّرَات التاريخ فيصوغها من جديد ويترك أثره فيها قوياً لا تمحوه جبابرة الأرض وأكاسرتها، خالداً لا تعفيه أحداث الحياة أبد الآبدين.

(١) ابن هشام ١/ ٥٤ وما بعدها.

عمارة الكعبة: وفي هذه الأثناء انتاب قريشاً ما انتابها من حريق الكعبة وتصدُّع بنائها ووهن أحجارها، فارتاعت قريش وحارت في أمرها أيما حيرة، ولما قال قائلهم بضرورة هدمها وإعادة بنائها وقفوا من ذلك وقفة الخائف الملتاع، حتى تقدم الوليد بن المغيرة فاقتلع أول حجر وهو يقول: اللهم لا ترع، لا نريد إلا الخير. فاتبعه الناس وقاموا بمعاولهم على نقضها.



بناء الكعبة في عهد قريش
والصورة من تصميم الشيخ
طاهر الكردي (الخطاط بمكة)

وشارك النبي وهو شاب في نقل حجارتها مع الناقلين من بني هاشم، فقد كانت كل قبيلة تجمع ما تنقله على حدتها، وشرع البنَّاؤون في البناء، وكانت قريش تنقل الحجارة من حراء وثبير ومن جبل المقطع بين الطائف وعرفات ومن خندمة ومن جبل حلحلة بالقرب من الزاهر.

وعندما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختصموا في شأنه[1]؛ كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، حتى إذا أعدوا أنفسهم للقتال خرج فيهم أمية بن المغيرة وهو يومئذ أسنُّهم فقال: يا معشر قريش، اجعلوا فيما تختلفون فيه أول داخل إلى المسجد، فكان أول داخل هو رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا هذا الأمين وقد

(١) شفاء الغرام للفاسي ١/ ٩٥.

رضيناه، فلما انتهى إليهم وأخبروه قال ﷺ : هلم إلي ثوباً. فأخذ الثوب فوضع الحجر فيه بيده ثم قال: لتأخذْ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب. ثم رفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده ثم بُني عليه.

وظلوا على عملهم في البناء حتى أتموا البيت في ارتفاع ثمانية عشر ذراعاً، أي: بزيادة تسعة أذرع عما كان بناها إبراهيم عليه السلام، وكان الحجر ضيقاً في عهد إبراهيم فوسعوه بما نقصوه من عرض الكعبة، ورفعوا بابها في مصراع واحد ليُدْخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا وكبسوها بالحجارة، وكانت في عهد إبراهيم غير مسقوفة فاتخدوا لها سقفا، وجعلوا لها ميزاباً لتصريف مياه المطر (١).

النواحي العامة في عهد قريش

الناحية العمرانية: كنا في حديثنا عن جرهم وقطورا أشرنا إلى أن العمران في مكة لم يزد عن مضارب من الشعر كانت تتلاصق أو تتباعد في حواشي الوادي وبين ليات جباله، وما أطل العهد الذي ندرسه -عهد حكومة قريش- حتى كانت المضارب من الشعر قد حلت محلها البيوت مرصوصة بالحجر أو مبنية بالطين والحجر فيما يحاذي المسجد، أو بالطين النيِّء وحده على حوافي الأباطح في أعلى مكة أو على شواطئ المسيل في أسفلها.

بناء البيوت وتبويبها: وكان سعيد بن عمرو السهمي أول من بنى بيتاً بمكة وقد قيل فيه:

---

(١) شفاء الغرام ١/ ٩٥ وما بعدها.

وأول من بوا بمكة بيته وسور فيها مسكناً بأثافي [(١)]

وكانوا يبنونها بحيث لا تستوي على سقوف مربعة كما نفعل اليوم. وأول من بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير، واستهولت قريش عاقبة التربع في هندسة البيت، فقالت: «ربع حميد بيتاً - إما حياة وإما موتاً»[(٢)] وأول من بوّب في مكة حاطب ابن أبي بلتعة [(٣)] وكانوا يجعلون بين يديها العرصات ينزل الحجاج فيها والمعتمرون، ولما شرعوا يصنعون لبعض الدور أبواباً كانوا يقصرون ذلك على بعض غرفها ويتركون مداخلها شارعة على عرصاتها دون أبواب، وقد قيل إن هند بنت سهيل عندما استأذنت عمر بن الخطاب في أن تجعل على دارها بابين أبى وقال لها: إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحجاج والمعتمرين، قالت: والله ما أريد إلا أن أحفظ على الحجاج متاعهم فأغلقُها عليهم من اللصوص، فأذن لها فبوبتها.

منازل القبائل في مكة: ويستطيع الباحث أن يستنتج أن العُمْران في مكة في عهدنا الذي ندرسه نشط نشاطاً طيباً، بعد أن تركنا المضارب تتباعد على حوافي وادي إبراهيم من أعلى مكة إلى أسفلها، ثم تعرج في ناحية منها إلى مداخل الشامية اليوم نحو قعيقعان، نجدها الآن وقد اتصلت وتكاثفت واتخذت كل قبيلة منزلها من الوادي وشعابه، ولم يزحف عمرانهم إلى مرتفعات الجبال وأكتافها كما نفعل اليوم، بل ظل مستوياً باستواء سطح الوادي.

فقد ذكروا أن قصياً خط للكعبة ساحة توازي صحن المسجد (المطاف) اليوم

(١) شفاء الغرام للفاسي ١/ ١٩.

(٢) الجامع اللطيف لابن ظهيرة ٢٦.

(٣) تاريخ القطبي ٢٣.

وأباح للناس أن يبنوا دون ذلك حول مدارها من الجهات الأربع، وكانوا لايبيحون لأنفسهم قبل قصي السكنى أو المبيت بجوار الكعبة، ثم أمرهم أن يجعلوا بين بيوتهم مسالك يفضون منها إلى ساحة الكعبة، وأهم هذه الطرق طريق شيبة وهو في مكان باب بني شيبة اليوم(١) ولم يبوب ساحة الكعبة أو يسورها، كما أمر بألا يرفعوا بيوتهم عن الكعبة لتظل مشرفة عليها، وكانوا يتخذون مجالسهم العامة في أفيائها، كما بنى دار الندوة لاجتماعاتهم الخاصة .

وفي استطاعتنا ان نرسم خطوطاً تقريبية لخريطة مكة نبين فيها باختصار مواقع البطون في مكة يومها وسير العمران بين شعابها؛ اعتماداً على ما ذكره الأزرقي في تخطيطه مواقع القبائل في كتابه أخبار مكة (٢) .

ولتوضيح ذلك في الأذهان نستطيع أن نجعل من باب بني شيبة نقطة ابتداء لتخطيطاتهم، فقد كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية في أم القرى، كما كان أهم مداخل المسجد الحرام ، وكانت البيوت تتكاثف حوله متجهة في الشرق إلى «حصوة» باب علي، وفي الشمال قليلاً إلى «حصوة» باب السلام تنزلها بطون من غساسنة الشام وبعض السفيانيين وتتخللها متاجر للعطارين، فإذا مضى بنا الخط مستقيماً إلى جهة باب النبي واجهنا بيت العباس ودار جبير بن مطعم ودور لبني عامر بن لؤي، واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشيرق، وهو إلى جانب زقاق الحجر حيث تقوم دار لابن علقمة ودور أخرى لآل عدي من ثقيف، فإذا نفذنا من ذلك إلى شارعنا العام في القشاشية (٣) متوجهين إلى أعلى مكة

(١) وقد أزيل في مشروع توسعة المطاف (ع) .

(٢) راجع الأزرقي ج٢ الصفحات من ١٨٧ – ٢١٤ .

(٣) لعل القشاشية منسوبة إلى الشيخ القشاشي وقد كان يسكن مكة حوالي القرن الحادي عشر «انظر في الجزء الثاني من هذا الكتاب حوادث الشريف أحمد بن عبدالمطلب » في عهد الترك العثمانيين .

استقام أمامنا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة، ثم سوق الرطب، ثم رباع كانت لبعض بني عامر، وعند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها (دار مال الله) وكانوا ينفقون فيها على المرضى ويطعمونهم. وبالقرب من الدار يلتوي شعب ابن يوسف وهو ما نسميه اليوم شعب علي، وفيه دور عبدالمطلب بن هاشم ودور أخرى لأبي طالب وأخرى للعباس بن عبدالمطلب، وإذا عدنا إلى استقامتنا في شارعنا العام تصافحنا دار العاص في فوهة شعب بني عامر، ثم يلتوي شعب بني عامر في دروب متعددة تقوم عليها دور لبني بكر وأخرى لبني عبدالمطلب بن عبدمناف، ونستقيم مرة أخرى في شارعنا العام فيواجهنا ردم آل عبدالله، وكانو يعارضون به مجرى السيل ويسمونه الردم الأدنى وعنده يقف الحمارون، ونمضي قليلاً إلى المعلاة لنجد الجزارين عن يميننا في شعب أبي دب، ثم مكان المقابر وهي بعد حدود شعب عامر، ثم بعض بساتين ننتهي منها إلى شعبة الجن، ثم ثنية الحجون، ثم بساتين أخرى نصل بعدها إلى شعب الصفي وهو ما نسميه اليوم المعابدة[1]، وفيه دور لبني كنانة وآل عتبة بن أبي معيط ودور لربيعة من بني عبدشمس.

وإذا بدأنا خطاً آخر من باب بني شيبة متوجهين إلى الشمال الشرقي في المسعى صادفتنا دور لبني عدي قائمة بين باب بني شيبة ورواق باب السلام، وفي المسعى يتوجه درب إلى يميننا كانوا يسمونه الخزامية كان فيه مكان للبانين، وفيه سقيفة ودار الحكم بن حزام ودور يتخللها عرصات لبني سهم، ويمضي بنا الدرب إلى بيت خديجة حتى يخرج إلى مكان المدَّعى اليوم.

(١) صفي السباب: أكمة في المعابدة تشرف على الخرمانية من مطلع الشمس. (ع).

وإلى يسارنا ونحن في المسعى طريق الساعين إلى المروة، وفي المروة دور لآل عتبة بن فرقد ودار كبيرة لآل ياسر في واجهتها الحجامون والحلاقون، وإذا مضينا في المسعى مصعدين في طريق المدَّعى انتهينا إلى رحبة واسعة كانت تحط فيها عير الحنطة والسمن والعسل والحبوب لتباع فيها وهي ما نسميها اليوم المحناطة، وفيها دور لبني عبدشمس ودار أبي سفيان وهي في مكان «القبان» اليوم، وقد أشار النبي ﷺ إليها عندما قال يوم الفتح: «من دخل دار أبي سفيان كان آمناً»، ثم دور لأولاد العباس تصل إلى قريب من المدعى، ثم دور لأولاد الحارث، ثم طريق إلى يسارنا يمضي إلى جبل الديلم وهو يشرف على القرارة[١] اليوم، ثم نمضي في استقامتنا إلى طريق المعْلاَة لنمرَّ على دور لبني غزوان وأخرى لأولاد الحارث بن عبدالمطلب.

ونبدأ خطاً ثالثاً من باب بني شيبة متوجهين غرباً إلى دار الندوة لنجد البيوت تتكاثف قبل الرواق إلى جانبها دار لشيبة بن عثمان، ودار لخزانة الكعبة، ودار لصاحب البريد، ودار لبيت المال، ودار للخطاب بن نفيل، ثم نصعد شمالاً إلى جهة الرواق الذي فيه باب الزيارة إلى باب الدريبة فتصادفنا دور لبني خزاعة بينها زقاق الحذَّائين نسلك منه إلى سويقة، ثم ننعطف منه إلى المروة، ومن جهة أخرى دور لآل زرارة من تميم، ثم يمضي بنا الشعب إلى قعيقعان في مداخل ما نسميه الشامية اليوم، فإذا توجهت إلى يمينك توجَّه بك درب إلى ناحية الديلم بالقرب من القرارة اليوم، ثم تصعد إذا شئت على تلال في مكان الفلق كانوا يصعدونها لينزلوا منها إلى مكان سوق المعلاة اليوم، ولم يفلق هذا الطريق إلا

(١) يذكر الأزرقي أنهم كانوا يسمونها قرارة المدحي، ولعل أطفال قريش كانوا يلعبون فيها المدحي وهو ما يشبه «البرجو» عندنا.

الزبير بن العوام في عصره، وسنعرف فيما بعد أنه فلقه ليتصل الطريق بين بساتينه بجوار المعلاة اليوم وبيوته التي اشتراها بجوار سويقة.

وإذا أردنا أن ننتقل من شق مكة الأعلى إلى شقها الأسفل تعيَّن علينا أن نجعل نقطة ابتداء تخطيطنا ما بعد صحن المسجد أمام باب أجياد، متوجهين إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقي.

كانت منازل بني عائذ تبتدئ من صحن المسجد فيما يوازي ركن الكعبة اليماني ممتدة غرباً إلى ما يحاذي بئر زمزم، ثم تصعد في الشرق نحو باب علي، وكانت دور بعض كبارهم شارعة على مكان المسعى على يسار القادم من الصفا يريد المروة، أي فيما يحاذي باب علي اليوم تقريباً.

وكانت منازل عدي بن كعب تبتدئ من صحن المسجد متوجهة إلى الصفا من ناحية وإلى أجياد من ناحية أخرى قبل أن ينقلوا إلى أسفل مكة.

وفي الطريق الذي يبدأ من باب الصفا متوجهاً جنوباً إلى باب أجياد كانت سقيفة لبني عائذ وسوق للبزازين (القماشين)، وبالقرب من ذلك كان البيت الذي اتخذه النبي ﷺ لتجارته قبل البعثة مع شريكه السايب بن السايب.

فإذا انتهيت إلى باب أجياد ووقفت حيث تكون القبلة في ظهرك ومداخل أجياد في وجهك امتد أمامك شعبان؛ أحدهما عن يمينك إلى ما نسميه اليوم بئر بليلة وكانوا يسمونه أجياد الكبير، وامتد الشعب الثاني على يسارك إلى ما نسميه اليوم السد وكانوا يسمونه أجياد الصغير، ولست أعني بالامتداد ما يتبادر إلى ذهنك من نفاذ الجادة واستقامتها بامتداد الشعوب.

فقد كان العمران يتخلل الجادة ويعرقل استقامتها . كان بنو تميم ينزلون حوالي

باب أجياد، وتمتد بيوتهم من جهة الغرب إلى قبيل حدود المسجد يومها وهو حدود صحن الكعبة اليوم، وكان بنو مخزوم ينزلون في فوهة أجياد الكبير مكان الرواق الجديد اليوم، وكان جماعة من الأزد ينزلون خلف ذلك مما يتصل بمكان الصحة العامة، وخلفها كان منزل أبي جهل بن هشام لا يبعد عن ذلك كثيراً، وفي أجياد الصغير إلى الجادة المتصلة بالسد كانت منازل لآل عدي بن عبدشمس، وفي أجياد مكان للحوَّاتين ودار لعبدالله بن جدعان التي كان فيها حلف الفضول، والتي تعاقدت فيها القبائل متفقة بألا يقر في مكة ظالم، وفيها دور لآل سلمة بن هشام، وفيها بئر يجمع بين أجيادين احتفرها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم، وكان يَرِدُها السكان في فوهة الشعب بأجيادين، وأكاد أعتقد أنها البئر الموجودة اليوم قبيلَ عمارة المستشفى؛ لأنها تجمع بين طرفي أجيادين.

وإذا تركت أجيادين ماضياً في الشارع العام إلى الجنوب نحو المسفلة بدأت بسوق الحزورة بجوار باب الوداع، ورأيت الدروب تمضي على يمينك إلى قرب المسجد عند حدود المطاف، ومن أشهرها درب الحناطين، وأعتقد أنه كان سوقاً للحنطة، فالحانط هو في اللغة كثير الحنطة، وموقع هذا الدرب صالح لبيع منتجات الجنوب من الحنطة في مكة، وفي هذه الجهة كانت تنزل بطون من آل صيفي، وفيها دور لآل عبدالدار وأخرى لجماعة من بني مخزوم، وإذا مضيت متجهاً في السوق الصغير كنت بجوار دور لبني أسد بن عبدالعزى.

وأحسبني لا أطمع في أن أعرف القبائل النازلة في الشبيكة(١) أو حارة

(١) جاء في كتاب «معجم البلدان» لياقوت أن الشبيكة موضع بين الزاهر ومكة. وفي «القاموس» أنها بين مكة والزاهر، وأنها بئر هناك مما يلي التنعيم، وقد عاش صاحب القاموس في مكة في أوائل القرن التاسع الهجري فيفهم منه أن مكة في عهده كانت دون الشبيكة، وأن الشبيكة بئر بين مكة والزاهر، أو نفهم أن بئر الشبيكة بعيدة عنها في الطريق إلى الزاهر.

الباب أو جرول؛ لأنها كانت قليلة السكان إلا في جهات قليلة من جرول الخضراء وهي الجزء الأدنى المتصل بأطراف المسفلة من ناحيته الخلفية، وإذا كانت الشبيكة قد سكنت في عهدنا الذي ندرسه بجماعة لم أتبين أسماءهم في بطون المطولات من كتب التاريخ، فلا أعتقد أنها حظيت بشيء من التكاثف الذي حظيت به المنازل الأخرى.

وقد نعثر على بعض المنازل في سفح ذي أعاصير، ولعلنا نستنتج من قرائن الأحوال أن ذا أعاصير هو جبل عمر، ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن هذا الجزء حفل بالمنازل إلا في أعوام متأخرة عن هذا العهد؛ لأن النزلة سميت باسم عمر ابن الخطاب، ولو كانت لبطن أو قبيلة لأطلق عليها في الغالب اسم نازلها قبل عمر بن الخطاب.

كما أننا لم نعثر إلى جانب ذلك على شيء يسير من العمران في الثنية التي نهبط من خلفها إلى جرول الخلفية، وكانوا يسمونها الحزنة وهي ضد السهلة ونسميها اليوم الحفائر[١]، ولم تكن الحفائر قد فلقت يومها لتخترم الطريق من الشبيكة إلى جرول الخلفية؛ لأن الذي حفرها وسهلها للمشاة هو خالد البرمكي في عهد بني العباس، ليجعلها تختصر الطريق إلى بستان له بناه فيما بعد في جرول الخلفية، أو جرول الخضراء كما يسمونها.

وإذا تركنا كل هذا ومضينا في طريقنا في ظل أعاصير - أي جبل عمر - نحو الهجلة صادفتنا الحتمة؛ وهي صخرات لابد أنها كانت سوداوات؛ لأن الحتمة

(١) وكانت تسمى المصادر، حيث كانوا يأخذون الطين منها للبناء. (ع).

في اللغة هي السواد، وعند هذه الصخرات كانت دار الأزلام ومنها يبدأ منبطح السيل أسفل مكة.

ولعلنا إلى هذا الحد استطعنا أن نرسم خطوطاً تقريبية لمكة الجاهلية*، ولا يفوتنا في أذيال هذا البحث أن نشير إلى الضواحي التي كان يحلو للمكيين أن ينتجعوها في الأصائل من شهور القيظ، وهي عادة نرى أثرها إلى اليوم في المتنزهين من أبناء مكة في أطراف الضواحي، وكأنما هم يمثلون بذلك عادة عرفها أجدادهم من نحو (١٥٠٠ سنة) تقريباً.

ومن أشهر المتنزهات في مكة الجاهلية[١]: * الليط. والليط في رأي بعض المؤرخين [٢] هو أسفل مكة فيما يقرب من بركة ماجل منتزهنا اليوم، ويقول الأستاذ رشدي الصالح ملحس في حاشيته على تاريخ الأزرقي: إنه يرجح أن يكون خلف القشلاق العسكري أي فيما يلي جرول الخلفية، ولست بالذي يستبعد صحة القولين، فإن الوادي بعد بركة ماجل يتصل بالجادة التي تنتهي خلف القشلاق، فلِمَ لا يكون الليط عبارة عن امتداد من جرول الخلفية إلى أطراف المسفلة؟

وكانت في الليط أقحوانة[٣] يجلس أهل مكة حولها في العشي يلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة، وفي هذا يقول الحارث بن خالد:

من ذا يسائل عنا أين منزلنا ... فالأقحوانة منا منزل قَمِنُ
إذ نلبسُ العيشَ صفواً ما يكدره ... طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمنُ[٤]

(١) يرى بعضهم أن (الجاهلية) كلمة يراد بها نقيض العلم، كما يرى بعضهم أنها تعني الأخلاق السفيهة. انظر فجر الإسلام ص ٦٩.

(٢) انظر أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٢٢٥.

(٣) الأقحوانة نسميها اليوم دوار الشمس.

(٤) أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٢٢٥ وما بعدها.

* الجاهلية ليست وصفاً لمكة وإنما هي وصف لمن سكنها في فترة من الزمن من كان بعيداً عن الله.

ومن منتزهاتهم شعب خم[1] وهو يتصل بالمسفلة اليوم، وكان مزروعاً فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم تتصل بجرول.

وكانوا يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة، فقد كان لهم هناك نخيل وزروع، وكانت بساتين تمتد إلى الخرمانية بقرب ما نسميه المعابدة، ثم تمضي إلى المحصب في الطريق المؤدي إلى منى.

وكان لهم في المحصب دكة يجتمع المتنزهون فيها أصيل[2] كل يوم، وكانت تشرف على نخيل باسق وبساتين تحتضنها شعاب الوادي الممتدة إلى منى.

وكانت لهم بساتين في وادي فخ ونسميه الشهداء اليوم، وأخرى بوادي طوى في امتداده من الحجون إلى ريع الكحل، وبساتين غير هذه في ضواحي مكة العليا[3] إلى مزدلفة فعرفة [4]، وكانت المنازل في المناطق التي ذكرناها لا تتكاثف على قاعدة المدن الحاضرة، بل تتفرق وتفصل بينها مساحات خالية على عادة العرب في بناء قراهم ومدنهم، أما الناحية المتصلة بالمسجد فكانت تضيق بنزلائها لتنافسهم في مجاورة الكعبة.

وقد بنى القرشيون في أواخر عهدهم ما يشبه السور في أعلى المدعى وبوَّبوه، ولم يثبت أنهم بنوا مثله في ناحية أخرى منها.

---

(١) هو جنوب مكة بيسير تخرج إليه من أجياد الكبير، ولعلهما خمان (ع).

(٢) هي الأقحوانة، وتسمى اليوم الروضة، وعن كثير من هذه المواضع راجع (معجم معالم الحجاز) (ع).

(٣) راجع أخبار مكة للأزرقي ج ٢ ص ١٨٣ باب ما جاء في العيون، والصفحات التي تليها عن العيور والرباع والشعاب.

(٤) تبعد المزدلفة عن مكة ١٣ كيلو ومنها إلى عرفات ١٢ كيلو.

الناحية الدينية : وشاعت في عهد قصي عبادة الأصنام واتخاذها آلهة في طقوس انتقلت إليهم من خزاعة أو جرهم كما أسلفنا في الفصل السابق، وقد ذكروا أن عمرو بن لحي في عهد خزاعة أمر بعبادة صنمين كانا منصوبين على الصفا والمروة[1] ، فلما كان عهد قصي حوَّلهما من موضعهما فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم، فكان أهل الجاهلية من قومه ينحرون عندهما ويتمسحون بهما، واشتد شيوع عبادة الأصنام بمرور الأيام حتى كان الأصنام يطاف بها في مكة فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم، وما من رجل من قريش إلا وفي بيته صنم، إذا دخل يمسحه وإذا خرج يمسحه تبركاً، عدا أصنام الكعبة التي ظلت قائمة في مواضعها من التبجيل إلى عام الفتح . ومن أشهر أصنامهم : «هُبَل»[2] وكان منصوباً في جوف الكعبة، «والعُزّى» وهي بوادي نخلة الشامية[3]، «واللات» وهي في الطائف[4]، و«مناة»[5] وهي في قديد على ساحل البحر الأحمر شمالي مكة، ونقل عن قريش أنها كانت تقول في طوافها : «واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجَى» . وكان لهذيل صنم يسمونه «سواعاً» تعكف على عبادته .

(١) ابن هشام ١/ ٧٨ والمسعودي ٣/ ١١٤ .

(٢) ذكر جرجي زيدان في «أنساب العرب» أن لفظ (هبل) لا اشتقاق له في اللغة العربية، وهو يرى أنها كلمة عبرية أو فينيقية، ثم يقول : وكان الكالدانيون يلفظون الكلمة (بل) وهي اسم الإله عندهم، أقول : من هذا ربما صح قول من قال : إن العرب قبل قريش استعارت عبادة الأصنام من جيرانها الفينيقيين أو العبريين أو غيرهم .

(٣) نخلة الشامية تمتد من وادي فاطمة إلى المضيق، وتتصل بها نخلة اليمانية وهي في طريق الطائف من واد يسمونه اليوم اليمانية . (ع) : والعزى : معلوم مكانها اليوم في شعب يقال له سقام يصب في نخلة الشامية في الجنوب .

(٤) هي قرب مسجد ابن عباس من مغيب الشمس (ع) .

(٥) انظر تحديدها في «على طريق الهجرة» (ع) .

وكانوا ينحرون عند صنم لهم يقال له «الغبغب»، وكانت لهم أقداح في الكعبة إذا اختصموا في شيء أو اعتزموا أمراً استقسموا بها، فإذا خرج القدح مكتوباً بأمر أو نهي عملوا به كما يفعل أصحاب «الخيرة - أو القرعة»* اليوم (١).

وقسم المؤرخون ديانة العرب الجاهلية إلى قسمين: حلة وحمس، والحمس هم أصحاب التشدد فيما يتدينون، وربما دلت اللفظة على معنى التحمُّس كما يبدو من اشتقاقها، والحمس قبائل من أشهرها كنانة وخزاعة والأوس والخزرج وغيرهم، وكانت قريش منْ أبلغ مَنْ تشدد في ديانة الحمس، وقد بلغ من تشددهم أن الرجل إذا أحرم بالحج أو العمرة لا يدخل داراً أو فسطاطاً أو حائطاً (بستاناً)، وقد تعرض له الحاجة فلا يدخل بيته بل ينقب نقباً في ظهره وينادي بأهله ليخرجوا له ما أراد، وكانوا يحرِّمون بعد الإحرام على أنفسهم السمن واللبن والزبد ولبس الوبر والشعر والاستظلال به وغزله ونسجه (٢).

وكانوا إذا وقف الحاج من العرب في عرفات يأبون أن يخرجوا إليها من حرمهم فيكتفون بالوقوف عند نمرة تقديساً لحرمهم، ويقولون: نحن الحمس أهل الحرم فلا ينبغي لنا أن نخرج إلى عرفات فنعظم بذلك غير الحرم.

وكانو يفرضون على مخالفيهم من أهل الحلة ألا يطوفوا إلا إذا لبسوا ثوباً أحمسياً يشترونه منهم أو يستأجرونه أو يستعيرونه، فإذا لم يجدوا تعين عليهم أن يطوفوا عرايا نهاراً للرجال وليلاً للنساء بعد أن يتركوا ثيابهم خارج المسجد

* إن كان المراد بالخيرة الاستخارة فهي أمر مشروع، أما القرعة فمشروعة لا تقاس بالاستقسام بالأزلام.

(١) انظر كتاب «الأصنام» لابن الكلبي ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١١٥ وما بعدها.

فلا يمسها أحد حتى يعودوا إليها [1]. وكان بعض فتيان مكة يتربَّص للنساء العرايا، فإذا أعجبته إحداهن دخل معها في الطواف عرياناً، وقد يؤول أمرهما إلى الزواج، وقد ألغى الإسلام هذه العادة*، وكانوا يفرضون على أهل الحل ألا يأكلوا من طعام جاؤوا به من الحل ما داموا في مكة، وبذلك كانوا يفرضون الأكل في مكة عليهم من بيوت الضيافة أو يشترونه من أسواق مكة.

وكانوا إذا بلغت الفتاة سن الزواج ألبسوها ما يزينّها وخرجوا بها سافرة إلى المطاف، ثم أعادوها إلى بيتها لتبقى حبيسة فيه لا تخرج إلا إلى بيت من تزوجها، وهم يريدون بطوافها ذلك عرضها سافرة على أعين الخاطبين، ولعلهم اختاروا ليأمنوا في جوار البيت نظرات الفاسقين. وكان الطائف يبدأ بأساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يجعل الكعبة على يمينه فيطوف بها، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن ثم استلم نائلة.

وكانوا يختنون أولادهم ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة، وقد تباعدوا في المناكح من البنت وبنت البنت وبنت الأخت، كما يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً.

وكانوا يبالغون في الغيرة على نسائهم حتى اشتط بعضهم فكره البنات ومنهم من وأدهنَّ مبالغة في الحرص على العرض، وقال قائلهم في ذلك، «دفن البنات من المكرمات»، وأنكر ذلك كثير من عقلائهم، ومن أشهر المنكرين: زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، الذي قيل: إنه أحيا ستاً وتسعين موؤودة.

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١١٥ وما بعدها.

* الصواب أن الإسلام حرّم هذه العادة.

وكانوا يدخلون الكعبة لابسي أحذيتهم حتى سن لهم الوليد بن المغيرة خلعها، وكانت الحوائض من نسائهم لا يدنين من الكعبة ولا يتمسحن بأصنامها بل يقفن بعيداً عنها، وربما عنَّ لأحدهم أن يصلي فيتوجه إلى الكعبة ويبدأ صلاته فإذا ركع كرر ركوعه عدة مرات حسبما يتسع له وقته، وكذلك يفعل في السجود دون أن يكون لعدد الركعات أو السجدات ضابط محدود.

وشاعت إلى جانب عبادة الأصنام ديانات أخرى أهمها الدهرية التي قال أصحابها: وما يهلكنا إلا الدهر، والصابئة وهم عبدة الكواكب والنجوم، ودان بعضهم باليهودية وآخرون بالنصرانية، وكانت جميعها نتيجة الاقتباس واحتكاك قريش بديانات الأمم المجاورة، ومن أشهر من نظر في الكتب السماوية منهم: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وأمية ابن عوف الكناني، وهاشم بن عبدمناف، وأنكر بعض هؤلاء تُرَّهات قومهم وعبادة الأصنام، وكانوا ينصحون بتركها ويجاهرون بالبحث في ألوهية واحد متفرد بالجلال و العظمة، ويعترفون بالبعث والنشور والثواب والعقاب.

الناحية التجارية: كانت مكة بحكم موقعها في طريق تجارة الطيوب والغلال وأنواع الأقمشة بين دول الجنوب وممالك الشمال ذات مركز إستراتيجي ممتاز، وكانت أسواقها تزدحم بالتجار صاعدين في الشمال إلى الشام أوهابطين في الجنوب إلى اليمن، كانوا ينقلون من منتوجات أفريقيا عن طريق اليمن: الرقيق والصمغ والعاج والتبر، كما ينقلون من اليمن: الجلود والبخور والثياب، كما ينقلون من العراق: توابل الهند، ومن مصر والشام: الزيوت

والغلال والأسلحة والحرير والخمور[١]، فمهروا في التجارة وتضخمت رؤوس أموالهم، وبلغت قوافلهم التجارية ألف بعير في عهد غزوة بدر، مضافاً إليه خمسون ألف دينار منقولة بين أثقالهم، كما بلغت في بعض المرات ألفين وخمسمائة بعير، وهي نسبة لها قيمتها المادية إذا قيست بالثروات في عهدها، وبلغ من ثراء قريش أنها استطاعت في غزوة بدر أن تفتدي أسراها من المكيين بأربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم إلا من عفا عنهم النبي ﷺ من المعدمين[٢].

وكانت إلى جانب هذا من أهم مراكز الصرافة في العالم القديم، وكان التاجر من أي بلد في الآفاق يستطيع أن يؤمن فيها على بضائعه صادرة أو واردة، وربما احتاج إلى كثير من المال لسداد ما تطلبه بضائعه، فتقرضه المصارف في مكة كما تفعل البنوك اليوم، وربما أفحشت في الفوائد فتضاعف الربا واضطهد المدين، حتى جاء القرآن بتحريم الربا عليهم.

الناحية الاجتماعية والعقلية: ووهم بعض المؤرخين في إدراج مكة مدارج القبائل من أحياء العرب، وحسب آخرون أنها كانت نزلة يمضي عليها ما يمضي على نزل العرب وقراهم في آفاق الجزيرة، ولكن شيئاً من الاستقراء ينتهي بنا إلى غير هذه النتيجة. فالقرآن سماها في أكثر من مرة «أم القرى» وفي هذا ما يشير إلى ميزتها في مستوى من حولها من منازل الجزيرة وقراها، والقرآن خاطبها بمعان ليس من يعتقد أنها غريبة عنها، فتحدث عن المشكاة والمصباح والزجاج، وعن

(١) الأزرقي ٢/ ٥٥.

(٢) كانوا يتعاملون بدنانير روم بيزنطة وهي من الذهب، ودراهم الساسانيين وهي من فضة، كما تعاملوا بنقود الدولة الحميرية في اليمن، ولم تضرب للعرب نقود إلا في العهد الأموي كما سيأتي في حينه.

المساكن يعرج إليها بالمعارج، وتحدث عن أنواع من الطيب كالكافور والزنجبيل والمسك، وأنواع من الأثاث المترف كالنمارق والزرابي والسرر والفرش المبطنة بالإستبرق والسندس، وأنواع الأواني من الفضة كالقوارير والأكواب والكؤوس، وأنواع من الحلي كالمرجان واللؤلؤ، كما حدثهم عن القراطيس والكتب والسجلات والصحف والأقلام والمداد، وأشار في كثير من آياته إلى النحاس والحديد والفخار والصحاف والجفان والقدور، ولا يقول إنسان: إن القرآن كان يخاطبهم بما لا يفهمون مدلوله من الألفاظ، وإنه كان يشير إلى معان غريبة عنهم.

إذن فبيئتهم كانت تعرف هذه المعاني معرفة من اختلط بها واندمج فيها، وفي هذا من الأدلة ما يقوم بحجتنا على من وهم من المؤرخين، وفيه ما ينطق بأن مكة كانت في ذلك العهد قد أخذت بطرف غير يسير من أسباب الحضارة الخاصة بجيلها الذي تعيش فيه.

وليس في هذا ما يدعو إلى الاستغراب، فقد كان المكيون من قريش يضربون في مناكب الأرض بين اليمن والشام والعراق وفارس والهند ومصر والحبشة، ويتصلون في رحلاتهم هذه بالقصور المشيدة والعمران الفخم وألوان من الحضارة تتعدد بتعدد الحضارات التي كانوا يختلفون إليها، فلا عجب أن تتلاقى في بيوتهم في مكة أكثر الحضارات الشائعة في عهدهم، وأن تبدو واضحة في حياتهم.

وكانت مخابئهم إلى جانب هذا تكتنز بالذهب والفضة، كما تكتنز بالنقد المضروب من الدينار والدرهم، وقد ذكرها القرآن في معارض مختلفة نستطيع أن نفهم منها أنهم كانوا يعرفونها معرفة تامة.

وكانوا يستعملون الموازين في أسواقهم والمكاييل، ويعرفون من مفردات أثقالها أنواعاً كثيرة كانوا يتعاملون بها، وليس أدل على هذا من خطاب القرآن لهم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (سورة المطففين آية ١-٣). ويسرد بعض المؤرخين بعض الحوادث الفردية التي يحسبون أنها تحدد معارف القرشيين في علم المال أو تبين مدى حيازتهم، له فيذكرون في رواية الصحابي الذي اشترت منه إحدى السبايا نفسها بألف درهم أن رفاقه عندما لاموه على رخص الثمن قال لهم: والله ما أعرف فوق الألف شيئاً، ويريدون أن يستدلوا من هذا على تحديد معارف القرشيين في الأموال والأرقام، ولعلهم نسوا أن القرآن كان يخاطبهم بأرقى من هذا المستوى وهو يستعرض هول يوم القيامة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (سورة المعارج آية ٤) أو يسرد لهم قصة يونس: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (سورة الصافات آية ١٤٧). وليس من شك أن قوماً أحصوا بعشرات الألوف ومئاتها كانوا على شيء كبير من الغنى، وكان يصحبه ما يتبع الثراء من الحضارة وما في الحضارة من ترف.

كانت بيوت أموية وأخرى مخزومية يضرب المثل بها في الغنى، وكان ابن جدعان يتَّجر في الرقيق، وقد أثرى منه ثراء فاحشاً حتى شبهوه بقيصر.

بوم ابن جُدعان بجنب الحزورة ... كأنه قيصر أو ذو الدسكرة[1]

وما ظننا بقوم كان القرآن يعرض أمامهم في صدد التشريع أدق من هذا، فيشير إلى النصف والثلث والربع والخمس والثمن والعشر في أوامره بتوزيع التركات، لا ريب أنهم كانوا في بيئة تجيد هذه الكسور ومضاعفاتها.

(١) معجم البكري ص ٤ .

واستعمل القرشيون في مكة الثياب والسراويل والقمصان والنعال، وتختموا بالذهب والفضة، واتخذوا لخواتمهم حبات اللؤلؤ، كما استعملت القرشيات الخُمر والجلابيب والخلاخل التي كنَّ يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن عدا ما تحلين به من عقود وأساور وما تطيبن به من ذي أريج فواح، وقد قيل: إن عبدالمطلب دُفن في حلتين قيمتهما ألف مثقال من الذهب، وإن من قريش من كان يلبس الثوب بخمسين ديناراً [١] وهو ما يقابل اليوم ٣٠٠ ريال، وجاء في القرآن ذكر من ينشَّأ في الحِلْيَة.

وكان لمترفيهم مجالس للسمر ينصبون لها الأرائك، ويمدون فيها الموائد، ويتفكهون بما طاب من ثمارهم، ويتلذذون بفواكه الطائف الطازجة أو مجففات الشام وفلسطين المستوردة لمتاجرهم، ويعرفون طعام الفالوذج نقلاً عن الأمم المجاورة[٢].

وكانوا يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب خموراً يعدُّونها في مجالسهم في آنية من فضة وأقداح من بلور، ويدور عليهم ساقيهم بها تفوح منها روائح المسك والكافور أو الزنجبيل.

وكانت لهم حلقات يعقدها القصاصون يتلون فيها عليهم أساطير الأولين، أو يقصون عليهم بعضاً من نوادر الحياة مما يصادفه الرجل في آفاق الأرض، فيجتمع إلى هذه الحلقات كهولهم في أقبيتهم الفضفاضة، وشبيبتهم في ثيابهم الموردة أو المحمَّرة من أغلى الحرير المجلوب من بلاد فارس أو المصنوع في العراق والشام.

(١) اليعقوبي ٢/ ١٣.
(٢) الأغاني ٨/ ٣٢٩.

وكانت مكة في عهد قريش تضم إلى هذا ما تضمه عواصم اليوم تقريباً من جاليات أجنبية يهبطون إليها بفنونهم وأموالهم وبعض علومهم، فلا تلبث أن تتسع لما يهبط إليها وتفسح لها من المجال ما تفسحه اليوم، وكثير من كتب السير في مجموعها تحدثنا بأنه كان من سكانها نصارى الروم ووثنيون من فارس، وأنه سكنها جاليات من العراق ومصر والحبشة والسريان، ونحن لا نستبعد أن يكون نزوح هذه الجاليات فراراً من الثورات وألوان الاضطهاد[١]، وتحت عوامل أخرى شبيهة بالتي تؤثر في انتقال الموجات البشرية في كل دور من أدوار التاريخ.

ولست أرى رأي من يقول بشيوع الأمية شيوعاً مطلقاً في هذه البيئة التي ندرسها، ولا ممن يرى أن وسائل الكتابة اليوم كانت تقتصر على العظام والحجارة؛ لأن القرآن ذكر عن الصحف المنشرة[٢]، وسجلاَّت الكتب[٣]، والمداد[٤]، والأقلام[٥] ما يشير إلى معرفتهم بها وأنهم كانوا لايجهلونها.

ومما يلفت النظر أن القرآن في أوائل نزوله بمكة كان يكتب وينسخ. ويذكر ابن هشام في سيرته أن عمر دخل على شقيقته قبل إسلامه وفي يدها صحيفة قرآنية، ويؤيد هذه الرواية أكثر المؤرخين، وهي تدل فيما تدل على وجود الصحف يومها

(١) ذكروا أن بعض رجالات قريش شعروا باضطهاد بعض الجاليات الأجنبية في بيوت بعض كبار القوم، فاجتمعوا في دار عبدالله بن جدعان وتعاهدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم، وأن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم ثم جاؤوا بماء من بئر زمزم فغسلوا به أركان الكعبة ثم شربوه توكيداً لعهدهم، وقد حضر النبي ﷺ حلفهم قبل البعثة وقال فيه بعد ذلك: لو دعيت به في الإسلام لأجبت (راجع ابن هشام١/ ١٤٥).

(٢) ﴿أن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ (٥٢المدثر).

(٣) ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (١٠٤الأنبياء).

(٤) ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ (١٠٩ الكهف).

(٥) ﴿مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ (٢٧ لقمان).

وأن نسخها كانت تتداول في مكة، ولا يصح فيما أرى أن تكتب الصحف ويتداول نسخها في بيئة تشيع فيها الأمية شيوعاً مطلقاً، وتقتصر المعرفة فيها على أشخاص معدودين على أصابع اليد كما يذكر بعضهم.

الناحية الأدبية: ومارست قريش في جاهليتها ألواناً من الأدب العالي، فقد كانت من أبلغ العرب وأفصحها، وكان حظها في الخطابة والوصايا والأمثال لايستهان به، وقد حفظت لنا أمهات الكتب الأدبية القديمة من أمثال: الأمالي، وطبقات ابن سعد، والعقد الفريد، والأغاني، وأمثال العرب، ومجمع الأمثال، وغيرها طائفة كبيرة من نفيس الأدب الذي عاش في عهد قريش.

واشتهرت قريش بشعرائها المبرزين في العهد الجاهلي، ومن أظهرهم: أبو طالب، وأبو سفيان، وعبدالله بن حذافة، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وعبدالله بن الزبعري، والزبير بن عبدالمطلب، كما اشتهر حول مكة من شعراء هذيل جنادة، وجندب، وعروة، والمتنخِّل، وأبو ذؤيب، وأبو خراش، وأسامة ابن الحارث، والعجلان بن خلية، كما اشتهر في بادية مكة ومدنها القريبة ما يطول سرده ولا يصعب متابعته لمن شاء في مظانِّه من كتب الأدب المعروفة.

ومن الأمثال القليلة التي نوردها فيما يلي يستطيع القارئ أن يكوِّن فكرة مختصرة عن المستوى الأدبي الذي بلغته مكة في عصرها الذي ندرسه:

«مَنْ أجمل قليلاً سمع جميلاً، أنفك منك وإن كان أذن، إن البلاء موكلٌ بالمنطق، عند جهينة الخبر اليقين، الجزاء من جنس العمل، إذا عز أخوك فهن، كل خاطب على لسانه تمرة، الحرب سِجَال، حظ في السحاب وعقل في التراب، ما حيلة الرامي إذا انقطع الوتر، من خان هان، كما تزرع تحصد، من

سابق الدهر عثر، لكل عود عصارة، ما كل عورة تصان، غدرك من دلّك على الإساءة، كل الصيد في جوف الفراء، مكرهٌ أخاك لا بطل، كل شاة برجلها معلقة، زارع لنفسه حاصد لسواه، لا قرار على زأر من الأسد».

واتسعت أسواق مكة التجارية للتنافس بين مفكريها من الشعراء وأصحاب البيان، فكانت ملتقى الخطباء من سائر بلاد العرب، وكانت مجالاً ثقافياً لم يسبق له نظير بين دول اليمن في الجنوب وحكام الحيرة وغسان في الشمال، وفي مظانِّ التاريخ المطولة من أخبار أسواقهم ما يغني عن الإفاضة.

ومن أشهر أسواق العرب في منطقة مكة: سوق عكاظ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد موقعه، وأجدني أميل إلى ما ذكره صاحب «معجم البلدان» وهو أنه في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وكانت هناك صخور يطوفون بها وهو وصف ينطبق من أكثر وجوهه على محطة السيل الكبير، وبه صخور لا تزال قائمة إلى اليوم، وهو واد يتسع كثيراً لقوافل العرب(١)، ثم سوق مَجَنَّة(٢) وهو موضع قرب مكة، وذو المجاز وهو على نحو ميلين من عرفات(٣).

وكانت قوافل العرب تتجمع في عكاظ إلى العشر الأخير من ذي القعدة، ثم يفيضون تباعاً إلى ذي المجنة، ولا يبدأ سوق ذي المجاز إلا في يوم التروية الثامن من ذي الحجة، ويضيف بعضهم إلى هذه سوق مكة ومنى ودومة الجندل،

(١) خلال السنوات القليلة الماضية صدرت عدة كتب عن سوق عكاظ، وكتبت مقالات كثيرة، وتكاد كلها تجمع على أنه شرق الحوية يمين الذاهب إلى الرياض من الطائف على نيف وأربعين كيلا. (ع).

(٢) أرجح أنه بلدة بحرة، وانظر معجم معالم الحجاز (ع).

(٣) هو على ١٥ كيلاً شمال عرفات، في شعب ينقض من كبكب غرباً، على يمين المتجه من مكة إلى الطائف ماراً بحنين، فيه آثار لا زالت ترى (ع).

ولكنها أسواق لا تبلغ مبلغ عكاظ في محافله الأدبية ومجالاته التي كانت تصطفق بمفاخرهم ومنافراتهم ومناقشاتهم، ويذكر تقي الدين الفاسي في شفاء الغرام أن عكاظ ظلت قائمة إلى أن كانت ثورة المختار في مكة عام ١٢٩ فتفرق الناس خائفين ثم تركوها إلى اليوم، وتركوا بعدها مجنة وذي المجاز واستغنوا عنها بأسواق مكة ومنى وعرفات.

الناحية العلمية: وليس غريباً أن تكون لهم حياة علمية، فقد كانت لبيئتهم علوم ألموا بها، وبرّز بعضهم فيها تبريزاً واضحاً ترك أثره في معارف الأجيال إلى حقبة طويلة من العصر الإسلامي.

كانوا يعنون بأنساب العرب وأخبارهم، ويروون من أحاديث الأمم التي سبقتهم أو عاصرتهم أو احتكت بهم في تجارة أو جوار، وظلوا يتناقلون ذلك في أسمارهم ومجالسهم، حتى أصبحت معارفهم في ذلك مادة ثرة استطاع بعدهم كثير من المدونين أن يعتمدوا ما تناقل عنهم ويسجلوه كتاريخ معترف به.

وعنوا عناية خاصة بالنجوم ومواقعها وحركاتها وأتقنوا منازلها في البروج، وكان الكلدانيون في عهدهم شبه متخصصين في فن النجوم، فتفرغ بعضهم للاتصال بهم والأخذ عنهم حتى استقام لهم علم كامل كانوا يعتزون بمعارفه الواسعة.

وتوسعوا في فهم الأنواء والأمطار فكان لهم علم بالسحاب وأنواعه، ومواقع المطر بالنسبة لوديانهم، وعرفوا الرياح واتجاهات سيرها وسموا أنواعها بما يتفق مع حركاتها؛ فمنها: الصَّبا، والدبور، والصرصر، والعاصف، إلى غير ذلك من أسماء لا يزال أصحاب الفراسة إلى اليوم يطلقونها عليها تقليداً للعرب في جاهليتها.

ومارسوا الملاحة في البحر الأحمر، وأتقنوا وربطوا أوقاتها بحركات النجوم، كما اهتدوا بالنجوم في سيرهم إلى المواطن البعيدة من موانئهم، وامتدت رحلاتهم جنوب البحر حتى اختلطوا بالمحيط الهندي، وغذ بعضهم في المحيط الهندي إلى شواطئ بعيدة المنال ذكرها بعضهم في رحلات العرب، وبذلك استقامت لملاحتهم قواعد ظلت متوارثة، واستطاع المسلمون في عصرهم الذهبي أن يستفيدوا منها.

وكانت لهم معلومات في الطب يُعتد بها . . معلومات أظهرتهم على جميع العضلات في الجسم، فأطلقوا الأسماء عليها مما تجده مفصلاً في كتب اللغة ومصادرها الأصلية، وأنَّى لهم أن يعرفوا هذه المسميات لو لم يعرفوا مواقعها في الجسم ويدركوا وظائفها فيه، وامتدت معلوماتهم تبعاً لذلك إلى النباتات فعرفوا خواصها وكانوا يستفيدون منها لوصفاتهم، وعرفوا إلى جانب ذلك العلاج بالكي والبتر والفصد والحجامة، وكان لهم في ذلك حكماء مبرِّزون اشتهر منهم الحارث بن كلدة الثقفي، وقد عاش حتى أدرك معاوية واعتمده المتطبِّبون في عصر معاوية كأستاذ له قيمته العلمية، ولا نزال إلى اليوم نقلد ما ورثناه من طب العرب في بعض مجتمعاتنا حتى المتمدنة منها، ونعترف بكثير من آرائهم فيه، ولا يزال في باديتنا إلى اليوم من يقصده صاحب مرض استعصى على الطب الحديث فيفيدونه بأعشابهم أو فنِّهم في الكي، ولا ننكر أنهم استفادوا معلوماتهم من أمم سبقتهم شأن الحياة في مختلف عصورها، ولكننا نعرف أنهم أضافوا إلى ذلك ما اكتسبوه بتجاربهم وحذقهم.

ومن معارفهم القيافة، والفراسة، والرياضة، ولها قواعد عندهم لا تكاد تجاريهم فيها أمة إلى اليوم رغم مرور نحو ألفي سنة على شيوعها بينهم، فمن

قيافتهم تتبع آثار الضال والهارب إنساناً أو حيواناً، ومتابعة خطواته مهما اختلطت بخطوات غيره، وهو فن لم يبلغ حد الإتقان عند غيرهم إلى اليوم، ولا يزال بيننا من ورثهم في هذا الفن ويثير الدهشة في أرقى مجتمع متحضر، ومن فراستهم الاستدلال بهيئة الشخص وشكله وكلامه على أخلاقه، وهو فن يدرس اليوم في الجامعات، وربما قصر عن الشأو الذي بلغه في البادية قبل ألفي سنة.

ومن عنايتهم بالقيافة أنهم كانوا يكتشفون مواطن الماء ويعرفون مظانّه باستدلالات خاصة لا يستعينون فيها بآلة، وقد توصَّلوا بذلك إلى مئات الآبار التي احتفروها في مكة يوم كانت مكة لا تجود بقطرة ماء، كما احتفروا مثلها في سائر المواطن التي سكنوها من البادية وكانت مظنة لوجود الماء.

وعرفوا الكهانة* والعرافة والعيافة(1) فكانوا يستدلون على الحوادث بالنجوم، وكان الكاهن يمتاز بينهم بذكاء يعتمد فيه على القرائن ومقارنة الماضي بالحاضر، وقد استطاع الكهان والعراف لفرط ذكائهم أن يضللوا عامة الناس ويستغلوا غفلتهم فحاربهم الإسلام وأنقذ الناس من براثن ذكائهم.

الناحية الفنية: ونقصد بها حياة الفن اللاهي، فقد قيل: «لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب»(2)، ولا نشك أن قريشاً في مكة كانت وجه العرب البارز، فلا بد أنها برزت في الغناء، يساعدها على ذلك ثراؤها وأرباحها وانعدام الرباط المقدس الذي يحد من حريتها.

* من وسائل الكهانة التقرب إلى الشياطين والجن مما يؤدي إلى التوسل بهم والإشراك بالله تعالى.

(1) الكهانة: الإخبار عن المغيبات في المستقبل، والعرافة: إخبار عن المغيبات في الماضي، وقيل: معناهما واحد، كما قيل: إن الكهانة خاصة بالمستقبل والعيافة خاصة بالماضي، وكلها ترهات تعتمد على ذكاء المحترف.

(2) المسعودي ٨/ ٣١.

ذكروا أن عاداً أرسلت في أيام العماليق وفداً يستقي لها من مكة، فلما انتهوا إلى مكة أقبلوا على الشرب واللهو والسماع[1] فإذا حفلت مكة باللهو والغناء من عهد العماليق فما بالها لا تحفل به وقد تطور ذوقها وتوافر لها غنى كان يسيل على أعطاف شبابها، إذا تهادوا بين منتزهاتهم في الليط أو وادي فخ.

كانت بيوت مكة في هذا العهد تزدحم بالقيان، وكانت النساء الأصيلات لا يحتجبن بل يتبرجن التبرج الجاهلي الذي نعاه القرآن[2]، وكن يشتركن مع الرجال في حفلات عامة يعزفن على الدفوف والمزامير وخاصة في ليالي الأعراس [3]، وكانوا مشهورين بالنصْب -بسكون الصاد- وهو لون من الغناء الديني كان شائعاً في حفلاتهم حول الأوثان، وكان لأعيان الأمويين والمخزوميين وغيرهم من وجهاء البطون القرشية قيان تخصَّصن في اللهو والغناء وتقديم الشراب في مجالس الأنس، ويذكر صاحب «الأغاني» أن أبا سفيان نصح قريشاً أن ترجع في غزوة بدر فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، وننحر الجزر، وننطعم الطعام، ونسقي الخمور، وتعزِف علينا القيان!! وتسمع بنا العرب [4].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ (سورة لقمان آية٦)، يقول صاحب «الكشاف»: إن النضر بن الحارث كان يتصيد من يبلغه أنه يريد الإسلام، فيدعوه إلى قينة له في بيته ويأمر أن تطعمه وتسقيه وتغنيه ليلهو

(١) الطبري ١/ ٢٣٣.

(٢) ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣

(٣) الطبري ١/ ١١٢٦.

(٤) الأغاني ٤/ ١٨٣.

عما يدعو إليه النبي، ويقول: إنه كان يقتني القيان المغنيات في بيته.

نستطيع أن نفهم من هذا أن مكة حفلت في جاهليتها بفن اللهو، وأن موجة حادة من الغناء اكتسحت مجالسها العامة ومنتزهاتها وبيوت الأعيان من أغنياء بطون قريش. وليس أدل على ذلك من كلمة كان يرويها حسان بن ثابت وفيها يقول: إن جبلة بن الأيهم كان يستدعي لمجالس أنسه من يغنيه من مكة[١].

الناحية الإدارية: ذكرنا أن قصياً كان أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً، فكانت إليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة والقيادة[٢]، وسمي قصي مجمعاً لأنه جمع قريشاً بمكة، وسميت قريش في ذلك العام قريشاً لأنها تجمعت، والتجمع: التقرُّش في بعض كلام العرب، ولم يُسَمَّ قرشي قبل ذلك اليوم.

وكان قصي عملياً أكثر مما كان يظنه قومه، فإنه ما كاد يستلم زمام الحكم في مكة حتى أسس دار الندوة لشورى قريش ولم يكن يدخلها من قريش إلا من بلغ الأربعين وهيَّأه مركزه أو خدماته لدخولها من بطون قريش البطاح وهم: هاشم، وأمية، ومخزوم، وجمح، وسهم، وتيم، وعدي، وأسد، ونوفل، وزهرة[٣]، كما كان أرستقراطياً؛ لأنه أباح لأولاد قصي دخولها كما شاؤوا بلا فارق في السن.

(١) الأغاني ١٦/ ١٥.

(٢) قسم قصي هذه المهام على أولاده قبل وفاته. ولم يعين المؤرخون وارثاً لإدارة الملك أو الحكم، والمفهوم من ذلك أن البطون والقبائل في مكة كانت تطيع من تدين له بالفضل بعد قصي، وقد ذكروا أن عثمان ابن الحويرث حاول أن يؤمر نفسه عليهم فلم يفلح، وفي ذلك يقول الجاحظ: «لم تزل مكة أمناً ولقاحاً لا تؤدي إتاوة ولا تدين للملوك، ومن أشهر من دانت له قبائل قريش من بني هاشم: عبدالمطلب وأبوطالب، والزبير. ومن بني أمية: حرب بن أمية، وأبو سفيان بن حرب. ومن بني زهرة: العلاء الثقفي. ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة. ومن بني سهم: قيس بن عدي. ومن بني عدي: كعب بن نفيل.

(٣) المسعودي ٣/ ٩١١.

وعني قصي بسقاية الحجاج فاتخذ لهم حياضاً من أدم[1] توضع بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب من الآبار محمولة على الإبل من أطراف مكة البعيدة، كما عني بتتبع مظان الماء العذب في مكة، فحفر بئر العجول وهي في المكان الذي يمتد فيه رواق المسجد اليوم مما يلي باب الحميدية[2] وباب الوداع، وحفر بئراً عند الردم بجانب مسجد الراية وهي البئر الموجودة اليوم في «الجودرية» في الزقاق الواقع أمام قصر الجفالي [3] وسمي بئر جبير بن مطعم؛ لأن جبيراً هذا نثله بعد أن اندثر، واتخذت العناية بالآبار بعد قصي سنة لأولاده، فكانوا يتتبعون مظان المياه العذبة ويحتفرون فيها الآبار.

وعني قصي إلى جانب العناية بسقيا الحجاج بالرفادة، فكان على قريش خرجٌ تخرجه من أموالها في كل موسم فتدفعه إلى قصي يصنع به طعاماً للحاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.

وكان يشتري بما يجتمع عنده دقيقاً، ويأخذ من كل ذبيحة -بدنة أو بقرة أو شاة- فخذها فيجمع ذلك كله ثم يجزر به الدقيق ويطعمه الحاج، واتخذ أولاده هذه سنة بعده حتى إن عَمراً حفيده اضطر عندما أصاب مكة في عهده جدب شديد أن يجمع ما تجمَّع لديه من قريش ويخرج به إلى الشام فيشتري به دقيقا وكعكاً فيهشم الكعك وينحر الجزور ويطبخه ويجعله ثريداً ويطعم الناس في مجاعتهم، وقد سمي بذلك هاشماً[4]، وفيه يقول الشاعر:

(١) بفتح الدال: الجلد.

(٢) دار الحكومة، التي بنيت في عهد السلطان عبدالحميد، وقد أدخلت في توسعة المسجد (ع).

(٣) في كتابنا بحث بتحقيق مسجد الراية تجده في فصل الناحية العمرانية للعهد الأموي.

(٤) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٢٧ .

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وجاء الإسلام وقريش تتخذ هذه السنة عادة موسمية، فأمضاها النبي ﷺ إذ أرسل بمال مع أبي بكر -رضي الله عنه- عندما أمره أن يحج بالناس سنة تسع للهجرة ليصنع به طعاماً للحجاج[1]، وفعل مثل ذلك في حجته للوداع، ثم أقام أبو بكر على هذا، وكذلك بقية الخلفاء بعده، يقول أبو الوليد الأزرقي: وظل العمل على هذا، إلى أيامنا هذه يطعم الخلفاء الموسم في أيام الحج بمكة ومنى حتى تنقضي أيام الموسم، وقد عاش أبو الوليد في القرن الثالث الهجري وتوفي حول منتصفه.

ولم أقع فيما قرأت على العهد الذي ألغيت فيه هذه العادة الحسنة، وأكبر ظني أنها أبطلت على أثر الفتن والحروب التي كانت السبل تقطع فيها دون مكة، ويلفت نظرنا في هذه السُّنَّة أنها كانت خرجاً عاماً تشترك فيه قريش بأموالها ويشترك المسلمون فيه في الصدر الأول للإسلام، وأن هذا الاشتراك الشعبي ما لبث أن انتقل بتقادم العصور إلى خزائن الخلفاء أوبيوت الأموال، فهل تقاعس المكيّون عن المجد، أم أن أحوالهم ضاقت دونه؟! الواقع أن قريشاً كانت من أنشط القبائل في جزيرة العرب تجارة كما بينا ذلك في بحث أعمالها التجارية، فكانت بذلك في غنى تسع فضلاته إطعام الموسم، وجاء الإسلام فاتسع نشاط قريش باتساع رقعة الإسلام، ودرَّت الفتوحات والتجارة النشيطة عليهم الأموال الطائلة. وأخصبت أراضيهم في الطائف والمدينة وبعض ضواحي مكة وكثير من

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ٦٤.

أوديتها القريبة بتأثير نشاط المال والعناية بحفر الآبار، ثم ما لبث أن فتر النشاط وفتر بفتوره الغنى والثروة والخصب على أثر انتقال الصفوة الممتازة من قريش إلى الأمصار بثرواتهم وأموالهم وكفاءتهم يتبَّعون مواطن الخلافة خارج الجزيرة، وظل الحجاز بلداً لا يُعنى به إلا كرباط أو تكية يمنحه الخلفاء والملوك صدقاتهم، ولا يهيئون أهله لغير تطويف الحجاج، وأن يدعوا لأصحاب السلطان بطول البقاء.

في عهد النبي ﷺ

كانت حياة النبي ﷺ نقطة تحول في تاريخ مكة، بل كانت -بلغة أوضح من هذا- فاصلاً بدأت به عهدها الجديد كقبلة يتوجه إليها الملايين من المسلمين في كل يوم خمس مرات، ومحجة يهرع إليها مئات الألوف في كل عام من شتى أصقاع الأرض.

ونحن إذ نكتب هذا عن هذه الفترة الفاصلة من تاريخ مكة وتتابع أحداث البعثة فيها لا أعتقد أننا مطالبون بالتفصيلات الطويلة التي توسع فيها كتاب السيرة؛ لأن المظان الخاصة بهذا حافلة بالكثير الذي لا نطمع إلى مزيد فيه، وبحسبنا أن نمر هنا بالحوادث مروراً سريعاً لا نهدف فيه إلا إلى ربط الحوادث العامة وتسلسل نتائجها.

بعثة النبي: بعث النبي في وسط كانت العقلية السائدة فيه رغم نضجها الذي ذكرنا لا تحجُر على متع الحياة ولاتفرض سلطاناً على مستبيح في لذة، وكانت القيم الأخلاقية تزن الحياة بمعايير خاصة، فليس من السمو الإنساني في مقاييسها أن تهادن في عصبية، أو أن تنحاز إلى غير قومك مهما كان ظلمهم، أو أن تنسى ثأرك مهما كان لونه، أو تسلِّم بقاعدة يكون الفخر فيها لغير بني أبيك.

بعث النبي في وسط يعتنق هذه المبادئ ويدين بها كما يدين العابد بأقدس ما يعتقد، فلم يكن على النبي أن يقاوم ما عبدوا من أوثان أو نسكوا من منسك ضال فقط، بل عليه أن يصمد لهذه القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع حوله، والتي لا تستسيغ الوحدة تضيع فيها معالم القبيلة.

بُعث النبي من بني هاشم، فأي دعوة هذه التي ينقاد إليها بنو أمية، وبنو سهم، وبنو عدي، وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو مخزوم، وبنو أسد، وسائر البطون من قريش والقبائل من كنانة؟! إنها الاستهانة بكيان الأفخاذ وأمجادها في عرفهم، وإنها الاستكانة لداع سيحوز الفخر لبني هاشم دونهم، فما بالهم لا يقاومون؟ وما بال هذه القيم الأخلاقية الفاسدة لا تعارض فيما يضاد عرفها ما بالها لا تتكبر على الدعوة وتكابر في الحق؛ ضناً بكيان الفخذ أو البطن أو القبيلة ومجافاة لهذا الإعداد الذي سيصهرهم غداً في بوتقة تنسيهم تراث آبائهم وتضيع معالمهم؟

بهذا العنت قوبل النبي في فجر دعوته، وعن هذه البواعث حورب في الصور والأشكال التي نجدها في مظانها من كتب السيرة، والتي لا نستدل منها إذا أردنا الاستدلال إلا على التعصب والحزبية لأوضاع القبيلة والفخذ.

واحتمل النبي ﷺ ما لا يحتمله إلا صاحب عقيدة راسخة، ثم وجد أول ما وجد في مكة من استجاب لدعوته من الأفذاذ الذين تسمو عقولهم على ما ورثوا من أوضاع، وترتفع بهم نفوسهم عن المكابرة إذا أبلج الحق، والأفذاذ من هذا النوع ندرة لا يظفر التاريخ بهم إلا فيما قل، فلا عجب إذا رأيناهم حوله - أول ما نراهم - أقلية لا يعدون أصابع اليد.

ويسفر الدين الجديد عن تعاليم جديدة، فإذا في هذا الدين دعوة إلى التكتُّل ونسيان القبيلة والكفر بالأصنام، وإذا في الدين حد للإباحة المطلقة، وإذا فيه كبح للذائذ والشهوات، وإذا فيه تحليل وتحريم، فأية أخلاق منحلَّة تقوى على التوحيد والتكتل؟ وأية فوضى تحتمل التشديد والكبح؟ إنه اختبار لا ينجح فيه شهواني. وأي خطوة لا يستطيع أن يخطوها إلا وجدان عامر بغير الأهواء التي كان يعمر بها

الوجدان في القبائل من قريش ومن حولها؟ وإنه قبل ذلك يدعو إلى إلغاء الأصنام وقد عاشوا في مكة على سنتها، وقامت متاجرهم على الانتفاع من مواسمها.

لا بد إذن لهذا التعصب من أن يستعرّ أواره، ولا بد للمقاومة من أن تنشط للدفاع. لا بد أن يجتمع إلى عامل المحافظة على كيان القبيلة عوامل أخرى مبعثها الحرص عى مصدر أرزاقهم وقداسة التقاليد الموروثة والذود عن حظوظهم في الدعارة الشائعة والإباحية المطلقة*.

هذه العوامل تضافرت على شخص واحد لايملك إلا يقينه، وإلا صبره، وإلا بضعة نفر مستضعفين تطاردهم قريش وتعذب بعضهم بالجلد والحجارة المحماة، وتتحالف بطونهم فتجمع على عهد يقاطعون بموجب نصوصه جميع بني هاشم، فلا يبايعونهم ولا يعاملونهم حتى ينبذوا محمداً ﷺ.

ولم تقتصر المقاومة على حدودها في قبائل مكة، فقد بثوا حوله العيون ترصده في المواسم كلما اتصل بقبيلة، أو بث في قوم، أو التجأ بزوار؛ تضييقاً عليه وفتاً في عضده.

وعندما هاجر - عليه الصلاة والسلام- إلى الطائف ليلجأ بثقيف فيها أبت ثقيف أن تناصره ضد قريش، أو تغضب أصنامها فعاد خائباً** إلى مكة (١).

هجرة النبي: وعندما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة أبى عنادهم إلا أن يحاولوا القضاء على دعوته قبل أن تضرب في الأرض فتأوي إلى ركن شديد

* في هذا الإطلاق مبالغة فهذه الأمور كانت محصورة في فئة خاصة.

** لم يورد ابن هشام لفظة (خائباً)، وهي لا تليق بمقام الرسول ﷺ.

(١) ابن هشام ١ / ٩٧٢.

يغزو منه عقيدتهم، ويعبث بكيانهم القبلي، ويحد من إباحيتهم، ولكنها عناية الله أبت إلا أن ينفذ أمر الله فيما قضى، وأن تحرم مكة إلى حد ما من شرف مؤازرته ونصرة دعوته [١].

وهاجت بطون مكة لخلوصه من أيديهم رغم ما حاولت من عراقيل، وأصرت على قتله إنفاذاً لما اتفقت عليه من قبل، فأرسلوا روّادهم إلى كل جهة بحثاً عنه، وجعلوا لمن يأتي به أو يدل عليه مائة ناقة، ولكن جهودهم ضاعت هباء ومنيت مساعيهم بالفشل.

قتال قريش: وأذن الرسول في المدينة بقتال قريش، فأرسل عمه حمزة في سرية تعترض عيراً لقريش قادمة من الشام، وأرسل أخرى بعدها لمثل الغرض، وفي السنة الثانية من الهجرة[٢] أرسل عبدالله بن جحش في سرية ثالثة فأصاب العير وغنم ما فيها، وخرج ﷺ بعد ذلك في ثلاثمائة رجل ليعترض قافلة جديدة، فعلمت بذلك قريش فخرجت في نحو ألف رجل، فتقابل الفريقان على ماء ببدر وهو من المدينة على طريق ينبع، فكانت غزوة بدر الكبرى وكان النصر فيها للمسلمين[٣].

وفي السنة الثالثة أرادت قريش أن تثأر لنفسها فمشت في رجالها إلى المدينة، واستيقظت المدينة فكان القتال بجوار جبل أحد في ضواحي المدينة، وكاد ينتصر

(١) كانت الأوس والخزرج قبيلتين متنافرتين في يثرب، وكانت اليهود تجاورهم فيها وهم أهل كتاب، وقد بلغهم مما سمعوه في وصف النبي من كتب اليهود ما أقنعهم بصدقه، فرأوا أن يتبعوه ويناصروه ويدعوه إلى بلادهم ليجمع كلمة القبيلتين ويعتزوا به ضد اليهود.

(٢) سيعتمد التاريخ الهجري في جميع فصول الكتاب؛ لأنه التاريخ المتناسب مع وقائع التاريخ في مكة وهو ما يستعمله المكيون إلى اليوم.

(٣) ابن هشام ١ / ٤٣٦ وما بعدها.

المسلمون لولا أن شغل الرماة بالغنائم، وتلك هي غزوة أحد(١) .

وكانت غزوات في السنة الرابعة والخامسة لم تبرز فيها قريش، ثم كانت السنة السادسة وفيها خرج النبي ﷺ من المدينة معتمراً لا محارباً ، فلما انتهى إلى الحديبية وهي بجوار «الشميسي» اليوم على نحو ٢٠ كيلو متراً من مكة أوفدت إليه قريش من يحدثه وأوفد إليها عثمان بن عفان في ذلك، ثم عادوا فأوفدوا إليه سهيلاً يقترح أن يرجع عامه هذا؛ لئلا يتحدث العرب بأنهم أخذوا ضغطة وله أن يدخلها في العام القادم فرضي النبي ﷺ فكان الصلح وكانت الهدنة واستأنف النبي رحلته راجعاً إلى المدينة (٢) .

وقد جاء في شروط الهدنة أن يكف الفريقان عن الحرب مدة عشر سنين، وأن تخرج قريش عن مكة عامها المقبل؛ ليدخلها النبي معتمراً، وأن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

وفي السنة السابعة عاد النبي ﷺ في ألفي معتمر إلى مكة وأدى نسكه دون أن يعوقه شيء، وقد تفتحت لهيبته بعض النفوس فأسلم اثنان من كبار قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص (٣) .

فتح مكة: وكانت خزاعة قد دخلت في حلف رسول الله، كما كان بنو بكر ابن كنانة قد دخلوا في حلف قريش، فاقتتل القبيلان في عرفة فأمدت قريش

(١) ابن هشام ١/ ٤٣٦ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٧٤٦ وما بعدها.

(٣) مع اختلاف في تاريخ إسلام عمرو. (انظر ابن هشام ٢ / ٧١٦).

حلفاءها من بني بكر بالسلاح وظللوهم وسقوهم الماء، فكان هذا الإمداد نكثاً للعهد، وكان نقضاً للاتفاق بدأت به قريش.

وأحس عظيم مكة أبو سفيان أنه أمام حدث جديد جاء نتيجة لنكث العهد، ثم حملت إليه عيونه أن المدينة تجهز أمرها لحركة عظيمة، فخف إلى المدينة وهو يأمل أن يتلافى ما فات، ولكن القضاء كان قد جرى بما سيكون.

وأمر النبي ﷺ بالسير إلى مكة فأذن في الناس بالغزو وسار في جيوشه وهو يقول: «اللهم اضرب على آذانهم فلا يسمعوا حتى نبغتهم نبغتهم»* وأخذ في السير حتى انتهى إلى مر الظهران(١) فخرج أبو سفيان فيمن خرج من مكة يتجسس أخبارهم حتى وقع في أسرهم، وسيق إلى رسول الله فقال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟! فقال: لو كان مع الله غيره لأغنى عني شيئاً. فقال: ويحك، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، أما هذه ففي النفس منها شيء. قال العباس: فقلت: ويلك، تشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك، فتشهد، قال العباس: يارسول الله، اجعل له شيئاً يكون به في قومه. فقال رسول الله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

وأمر النبي ﷺ بحبسه عند خطم الجبل حتى يمر به الجنود، ثم أطلقه فأتى مكة مسرعاً وصاح في المسجد: يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به، قالوا: فمه؟ قال: من دخل داري فهو آمن، فقالوا: ويحك، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

* ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» نقلاً عن موسى بن عقبه ولفظه: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرون إلا بغتة، ولا يسمعون إلا فجأة» (انظر ٤/ ٢٨١).

(١) مر الظهران نسميه اليوم: وادي فاطمة، وهو يقع على ٢٢ كيلو متراً شمالي مكة.

وأوصى النبي قواده بألا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفراً سماهم لهم وأمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، كما أوصاهم ألا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبراً ولا يقتلوا أسيراً.

وتقدم جيش خالد فوجد الأحابيش(١) فاستل وفرقته سيوفهم حتى هزموهم، وتقدم الزبير فتفرقت قريش تعتصم برؤوس الجبال، وجاء أبو سفيان إلى النبي صائحاً: يارسول الله، أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

فقال رسول الله: من دخل دار أبي سفيان كان آمناً، ومن دخل دار حكيم كان آمناً، ومن أغلق بابه كان آمنا، ومن ألقى السلاح كان آمناً(٢).

وأغلق الناس أبوابهم وألقوا سلاحهم، وغص المسجد وغصت دار أبي سفيان بطالبي الأمان، ومضى موكب رسول الله إلى المسجد، فاستلم النبي الحجر، ثم طاف بالكعبة ونادى في قريش: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ألا إن مكة حرام ما بين أخشبيها، لم يحل لأحد من قبلي ولا يحل لأحد من بعدي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار.

---

(١) قال بعضهم: إن الأحابيش زنوج استوطنوا بعض الجبال في مكة وحالفوا قريشاً، ولكن ابن هشام ينقل عن ابن إسحاق أن الأحابيش جماعة من بني الحارث وبني خزيمة وبني المصطلق تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش، أي: سواد الناس، وسواد الناس هو الجمع الكبير.

وقال العصامي (سمط النجوم العوالي): إنما سموا الأحابيش لعقدهم الحلف مع قريش عند جبل بأسفل مكة يقال له: حبشي. (ج ١ ص ١٩٣).

(٢) دار حكيم كانت أسفل مكة، وأعتقد أنها كانت بجوار مسجد خالد بن الوليد في الشبيكة. ويرى الأستاذ حمد الجاسر أنها تقع بالقرب من باب الوداع ودار أبي سفيان قبيل المدعي في مكان «القبان» اليوم. وقد زال القبان في توسعة ساحات المسجد. والقبان: الميزان الذي توزن به البضائع الثقيلة ونحوها.

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي إلا سدانة البيت وسقاية الحاج» ثم قال: يا معشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وعمد النبي ﷺ إلى صنم بجانب الكعبة فجعل يطعن في عينه ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: آية٨١) وتسابق المسلمون إلى الأصنام فجاؤوا بها الأرض كسراً وتحطيماً، ودفع النبي ﷺ في هذا اليوم مفتاح الكعبة إلى سدنتها قبل الفتح وقال: خذوها، يا بني عبدالدار، خالدة تالدة إلى يوم القيامة، لا ينزعها منكم إلا ظالم. وهي باقية في أعقابهم إلى اليوم [١].

أول أمير في مكة:

ولبث النبي ﷺ في مكة أسابيع، ثم بلغه أن هوازن وثقيف يجمعان جموعهما لغزوه في مكة، فخرج النبي ﷺ في جيش من أصحابه وانضم إليه من مكة ألفان آخذاً طريقه إلى الطائف بعد أن استعمل على مكة عتاب بن أسيد وأوصاه بهم: «أتدري على من ولّيْتك يا عتاب؟ على جيران بيت الله، فاستوص بهم خيراً».

وعتاب أموي من قريش أسلم يوم الفتح. . كان معروفاً بالورع، حلف مرة فقال: ما أصبت في الذي بعثني فيه رسول الله إلا ثوبين [٢].

وظل النبي في الطائف يحاصر أهلها سبع عشرة ليلة ثم تركهم بعد أن دعا الله أن يأتي بهم، وقد أتى الله بهم بعد ذلك فجاؤوه مستسلمين.

---

(١) راجع بن هشام ٢ / ٨٢٢ وما بعدها عن فتح مكة.

(٢) الاستيعاب ٣/ ١٠٢٤.

وأتى النبي الجعرانة[1] في منصرفه من الطائف فاعتمر ثم مضى إلى مكة فأدى نسكه فيها، ثم استأنف رحلته إلى المدينة بعد أن أيد إمارة عتاب بن أسيد وفرض له كل يوم درهماً، وهو يساوي أقل من ريال واحد من نقد اليوم تقريباً، وكان عتاب لهذا أول أمير ولي مكة بعد الإسلام.

أول أمير للحج : وفي السنة التاسعة وفد إلى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والأنصار والقبائل تحت إمارة أبي بكر، فكان أول أمير للحج في الإسلام، وانتهى أبو بكر إلى مكة وفيها المشركون يؤدون مناسكهم على ما ورثوا من تقاليد آبائهم، والمسلمون على ما أبان لهم أبو بكر، وإنهم لكذلك إذ وافاهم علي بن أبي طالب مندوباً من المدينة ليعلن في الناس يوم النحر من منى[2] نزول الوحي بسورة (براءة) وفيما تضمنته: ألا يحج بعد عامهم هذا مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وألا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحداً كان له عند رسول الله عهد وعهده إلى مدته، وأن الله أمر بجهاد الشرك ممن نقض من أهل العهد الخاص، ومن كان لا عهد له فأجله أربعة أشهر يرجع فيها كل قوم إلى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها.

وفي هذا الإعلان تضمين عام شامل لكل ما نزلت به سورة (براءة) وفيه تحديد لأمور شتى كانت متروكة لانتظار التحديد*.

حجة الوداع: وفي السنة العاشرة أعلن النبي ﷺ في المدينة عزمه على أداء الحج وشرع يتجهز له، فابتدر الناس له في المدينة وأطرافها وبلغ الخبر مكة

---

(١) تبعد الجعرانة عن مكة نحو ٢٩ كيلو مترا.

(٢) تبعد منى عن مكة نحو ١٠ كيلو متراً.

* الإعلان تضمن ما ورد في سورة براءة وما أبلغه الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب.

فاستعدت قريش للقائه والحفاوة بمقدمه، وخرج ﷺ من المدينة في أواخر ذي القعدة بعد أن صلى الظهر بها، واصطحب معه جميع زوجاته ووجهاء المهاجرين والأنصار ولحق به جمع غفير، فمضى ﷺ في موكب عظيم كان يزيد احتشاداً كلما مضى به الطريق إلى مكة، ولما انتهى ﷺ إلى مكة دخلها من أعلاها ثم سار في موكبه إلى المسجد فابتدأ الطواف، ثم خرج إلى الصفا والمروة حتى إذا انتهى من مكة رجع إلى قبته في ظاهر مكة، وقد أقام فيها أربعة أيام إلى أن كان يوم التروية ثامن ذي الحجة، ثم توجه ضحىً بمن معه من المسلمين إلى منى فصلى فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر وبات ليلته، ولما أشرقت شمس اليوم التاسع استأنف سيره إلى عرفات وكانت قبته قد ضربت له في نمرة [1] فنزل بها، ولما زالت الشمس أمر بناقته القصواء فركبها وركب المسلمون بركوبه، فلما كان في بطن وادي عُرَنة على خطوات من قبته وقف يخطب الناس على راحلته خطبته العظيمة الشهيرة بـ(خطبة الوادع)، وفي هذه الخطبة قرر قواعد الإسلام وهدم قواعد الشرك، ووضع أمور الجاهلية تحت قدميه، وأبطل الربا وحرم الحرمات من الدماء والأموال والأعراض، وفصل كثيراً من شؤون الإسلام، وأوصى أمته بالاعتصام بكتابهم فقال: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً. ثم نادى: اللهم هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم فاشهد، اللهم فاشهد، اللهم فاشهد» [2].

ثم أمر بلالاً فأذن، ثم أقام الصلاة وصلى الظهر والعصر قصراً، ثم مضى حتى أتى الموقف فوقف على بعيره متضرعاً مبتهلاً حتى غربت الشمس، ثم أفاض عن عرفات حتى أتى المزدلفة فصلى فيها المغرب والعشاء، وأمر ابن عباس

(١) يقع مسجد نمرة قبيل جبل عرفات بنحو ٥ كيلو مترات.
(٢) ابن هشام ٢ / ٩٧٠ وما بعدها.

فالتقط له حصى الجمار ثم عاد إلى منى ثم إلى مكة.

ومضى موكب النبي ﷺ بعد فراغه من الحج حتى أتى المحصب[1] حيث نصب قبته فبات ليلة واحدة خف في أثنائها إلى طواف الوداع، ثم نادى بالرحيل في صبيحتها فارتحل القوم يتبعونه في الطريق إلى المدينة، ومضى في ركابه أعيان قريش ووجهاء مكة محتفين بتوديعه.

ولم يمض على فراق النبي مكة شهران وبضعة أيام حتى وافاها نعيه ﷺ، فكان لذلك وقعه من الأسى العميق والحزن العظيم.

ووصفته ﷺ بعض كتب السيرة فقالت[2]: كان وسيماً قسيماً، معتدل القامة، بعيد الهامة، أشم العرنين، واضح الجبين، برّاق الثنايا، بعينيه دعج وأسنانه فلج.

---

(١) المحصب والأبطح: موضعان يقعان بعيد المعابدة في ضواحي مكة في الطريق إلى منى (ع) هما الآن مغموران بالعمران، وفيهما أحياء: المعابدة، والروضة، والششة.

(٢) راجع كتاب «فتوح مصر» لابن إسحاق ص ٩.

النواحي العامة
في عهد النبي ﷺ

الناحيـة الدينية : بدأت الحياة في مكة بعد الفتح تأخذ شكلاً جديداً غير الشكل الذي كانت تعرفه قبله، فبعد أن كانت مثلها العليا تفانياً للقبيلة، وتفاخراً بالآباء، وأخْذاً بالثأر، وكرماً يؤدي إلى التلف، وامتيازاً لأصحاب الصدارة، وقدرة على الشراء بالحق والباطل، أصبحت وقد هذّبها القرآن تدين بالإخاء لله، وتعتقد بسيادة الدين، وأنه لا فضل لعربي على عجمي، وأصبحت الصدارة في رأيها لأصحاب التقوى. وأثر هذا في عقليتها العامة فارتسمت لها أخلاق جديدة مستوحاة من القرآن، وتفتحت أمامها آفاق لا عهد لها بها من سيرة الرسول ﷺ، فاندمجت فيما رأت، ونسيت نخوتها الجاهلية وعصبيتها للقبيلة، واستتبع ذلك أن ضاقت بها دائرة الشعر، فلم تجد لها فيه مجالاً إلا ما استمد روحه من الدين، واصطبغ بلون من أخلاق القرآن.

على أننا لا نريد أن نطلق هذا على جميع المكيين في ذلك العهد، ونحن نعلم أن مكة حفلت يومها بالمتمردين من البدو والجفاة من الحضر إلى جانب المؤمنين الذين أخلصوا دينهم واحترموا عقائدهم.

الناحية الاجتماعية : واستتبع ذلك دعوة اجتماعية شملت جل تقاليدها وعاداتها، فنقضت كل ما ورثت، وبنت على أنقاضه شيئاً جديداً حدَّده القرآن وفصلت تعاليمه السنة .

أُلغي في هذه الدعوة الاجتماعية وأد البنات الذي شاع بين قبائل قريش وكثير من العرب، وحُرِّم نكاح المقت الذي كان يبيح وراثة نكاح المرأة لأبناء زوجها أو

أقاربه، كما حُرِّم نكاح الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت، وأُلغي تعدد الزوجات إلى أكثر من أربع، وحتى هذا التعدد المحدود فرض القرآن عليه شروطاً تقلل شيوعه أو تمحوه*.

ومُنحت المرأة كثيراً من حريتها التي كان العربي ينكرها عليها بعد أن حددت لتلك الحرية حدوداً لا يباح تعديها، فهي لا تبدي زينتها إلا في حيز منصوص، ولبعلها عليها من الحق ما بيّنه القرآن، كما له أن يهجرها أو يؤدِّبها في غير المغالاة التي ورثوها عن تقاليدهم (١) .

ونظمت في هذه الدعوة الاجتماعية** شؤون الزواج والطلاق، كما فصلت شؤون الرضاع، وحوربت العبودية بمعناها الواسع، وحل محلها تنظيم دقيق خفف العبء على الرقيق، وأعطاه حقوقاً كانت قريش وكانت العرب لا تقرُّها، وفتح أمامه من أسباب العتق والفكاك لا نهاية لحصرها (١) .

وجاءت الدعوة الاجتماعية على تحريم الربا، وقد كان أداة لاستغلال الضعفاء في جميع البيئات العربية وفي مكة بالخصوص، حيث كان الغنى يسيل في بطحائها، كما حُرِّم الخمر والميسر، وألغيت جميع نظم البيوع والأقضية والميراث التي كانت تسودها روح الطغيان، وشرعت على أنقاضها نظم جديدة راعت العدل وفرضت المساواة في حدودها الشرعية (١) .

وإذا كان جلَّة المكيين من كبار الصحابة أو البارزين في قبائل قريش قد نفروا بين يدي هذه الدعوة الاجتماعية أو في أعقابها خفافاً أو ثقالاً إلى المدينة محتذين

* أباح الله للمسلمين التعدد إلا عند خوف عدم العدل بين الزوجات، ولا يهدف هذا الشرط إلى تقليل التعدد أو محوه.

(١) أوضحت ذلك آيات متفرقة من القرآن الكريم.

** الجانب الاجتماعي جزء من دعوة الرسول ﷺ وقبل هذا هي دعوة إلى عبادة الله وحده.

حذو رسول الله ﷺ ، وإذا كان رسول الله قد كره لهم بعد الفتح أن يعودوا إلى الاستيطان بها ؛ براً بالمدينة وقد آوتهم ، وإخلاصاً لأهلها وقد ناصروهم ، فإن مكة بقيت رغم هذا غاصَّة بالكثير من سكانها الأصليين من بطون القبائل ، والنازحين إليها من العرب المجاورين ، والموالي المجلوبين ، ترعى التعاليم الجديدة في معاملاتها التجارية ، وتباشر أعمالها في الصناعات المحدودة التي عرفتها ، وتباشر ما تعودت زراعته من بساتينها في بعض أطراف مكة وضواحيها .

الناحية العلمية : كانت مكة بحكم وضعها التجاري في عهد قريش مضطرة لضبط أعمالها التجارية ، فكان فيها بعض الكاتبين الذي يستطيعون أن يسجلوا أعمال التجارة التي تمتد شرقاً وغرباً ، بل نجد في التاريخ ما يدلنا على أن بعض نساء هذا العهد كن يكتبْن ، فإن السيدة حفصة بنت عمر زوج النبي ﷺ كانت تعرف الكتابة .

وعندما بدأ الوحي ينزل على النبي ﷺ في مكة كان النبي يحرص على أن يدوِّنه بعض الكاتبين ما أمكنهم ذلك ، إلى جانب الاعتماد على الحافظة القوية التي يمتاز بها بعض صحابته رضوان الله عليهم .

لم تكن كتابة قوية ولا سريعة ، ولكنها مع هذا كانت كتابة صالحة للتدوين على أي مادة ميسورة من خشب أو عظم أو خزف أو جلد أو حجارة ، بل ربما كتبوا في بعض الأحيان على ورق ، بدليل أننا نقرأ في خبر إسلام عمر -رضي الله عنه- أن أخته وزوجها كانا يقرآن شيئاً من القرآن في صحيفة معهما حين دخل عليهما .

إذن كانت مكة لعهد النبي ﷺ تعالج الكتابة في درجة تصلح للتدوين وإن كان التدوين غير منقوط الحروف ؛ لأن الحروف لم تنقط إلا في عهد الحجاج ، وقد عني

النبي بهذه الظاهرة وشجعها واصطحب بعض رجالها إلى المدينة ليواصلوا التدوين، واشتدت عنايته بذلك في المدينة، ففرض على من يعرف الكتابة من المكيين أسرى بدر أن يفتدي الرجل منهم نفسه بتعليم الكتابة لعشرة من المسلمين[(١)].

واستفادت مكة بعد الفتح من ثقافة القرآن ما هيأها للفهم الجديد، فإن كتب السيرة والمغازي ومدوني كتب الطبقات يحدثوننا في أخبار علي وابن مسعود وابن عباس وأبي ذر الغفاري وابن عمر وأبي الدرداء أنهم كانوا يترددون إلى مكة بعد الفتح، فنتبين من ملابسات هذا أن مكة كانت تستفيد من علومهم وتتوسع معارفها الجديدة بحكم هذه الاتصالات المستمرة، خصوصاً ونحن نعلم أن أصحاب هذه الأسماء كانوا يحتلون الدرجة العلمية الأولى بين صحابة رسول الله، وقد كانوا يقولون عن بعض هذا النفر: إنه لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم بعلمه، وإذا أضفنا إلى هذا أن المكيين أنفسهم ظلوا قبيل وفاة النبي ﷺ يترددون عليه في المدينة، وأنهم كانوا ينزلون على من فيها من جلة المهاجرين فيجدون لديهم ما يروي غلتهم من العلم استطعنا أن نعرف إلى حدٍّ بعيد نوعاً من أنواع



(١) الروض الأنف، شرح سيرة ابن هشام ج ٥ / ٢٤٥ تحقيق: عبدالرحمن الوكيل.

* نموذج كان يستعمل للكتابة من الحجر والفخار.

الاستفادة العلمية التي كانت تعتمدها مكة في عهدها هذا الذي نؤرخه .

ويحدثنا ابن هشام بعد هذا عن معاذ بن جبل فيقول : إن النبي ﷺ اختاره يوم الفتح للقضاء في مكة عندما ولى إمارتها عتاب ابن أسيد، ونحن إذ لا نجهل كفاية معاذ بن جبل وميزته العلمية وإلمامه الواسع نستطيع أن نتبين نوعاً آخر من أنواع الاستفادة التي اعتمدتها مكة يومها في شأنها التعليمي، وإذا كانت كتب التاريخ تجمع على ندب معاذ بن جبل لتعليم اليمن، فليس في هذا ما يتنافى مع إقامته في مكة عقب الفتح مباشرة لينفع المكيين قبل ندبه إلى اليمن، ويضيف الطبري أن رسول الله ﷺ أشرك معه هبيرة بن سبل الثقفي، ويقول ابن حجر في الإصابة : إن هبيرة تولى مكة عام الفتح، ولما رجع النبي ﷺ من الطائف عاد فولاها عتاباً .



كان كتف الجمل مما يستعمل
للكتابة في هذا العهد

في عهد الخلفاء الراشدين

في عهد أبي بكر : ذكرنا فيما تقدم أن النبي ﷺ ولّى أمر مكة بعد الفتح عتاب ابن أسيد، وعتاب بن أسيد من أفاضل بني أمية ينتهي نسبه إلى قصي بن كلاب القرشي، وقد ظل في إمارته مدة حياة النبي مثالاً للسيرة الحميدة التي أوصاه النبي بها في قوله : «أتدري على من وليتك ياعتاب؟ على جيران بيت الله، فاستوص بهم خيراً».

ولما ولي الخلافة أبو بكر - رضي الله عنه- أقر عتاباً في إمارته فظل بها طيلة عهد أبي بكر، وذكر بعض المؤرخين أنه توفي في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر، وذكر غيرهم أنه توفي يوم وافى نعيه مكة.

في عهد عمر :وتولى أمر مكة في أول خلافة عمر بن الخطاب المحرز بن حارثة من بني عبد شمس القرشي، ثم وليها قنفذ بن عمر بن جدعان، ثم نافع بن عبدالحارث الخزاعي، ثم أحمد بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي، ثم طارق بن المرتفع،(1) ثم الحارث بن عبدالمطلب من بني هاشم(2).

وأنت ترى أن عدتهم تلفت النظر، ولكنك وأنت تعلم سياسة عمر نحو ولاته وشدته في مراقبتهم تستطيع تعليل هذه الظاهرة، فقد كان عمر لا يرضيه من ولاته إلا القليل النادر؛ لهذا كان كثير العزل فيهم، كما ذكروا أنه سن لهم في عهده نظام المقاسمة، فكان يحصي أموال عامله قبل توليته، فإذا ما انتهت ولايته أحصى ثروته من جديد وصادر ما زاد فيها أو بعضها وردها إلى بيت المال، إلا إذا

(1) ذكره ابن حجر في الإصابة باسم طارق بن المريفع، بالياء المثناه تحت.

(2) شفاء الغرام٢/ ١٦٤ طبعة الحلبي.

اتضح له أن هذه الزيادة قد نالها العامل من طرق مشروعة .

في عهد عثمان : عندما ألممنا بذكر الولاة في عهد أبي بكر وعمر لم نتعرض لحياة الشيخين في المدينة ؛ لأننا نقتصر فيما نؤرخ على أخبار مكة ولا نتعرض لأحداث الإسلام إلا ما كانت له علاقة خاصة بما نؤرخه ، وأحسبنا الآن في أشد الحاجة إلى الاستطراد إلى ما كان من أمر عثمان في الحدث الإسلامي الكبير ؛ لما ترتب على هذا الحدث من نتائج لها علاقتها الخاصة بمكة .

وأمْر عثمان -رضي الله عنه- أوسع من أن تلخِّصه عجالة محدودة أو يحدده فصل مقتضب فقد اختلف المؤرخون في القديم والحديث في تعليل أسبابه ، كما اختلفوا في تحقيق نتائجه ، وإن كانوا قد اتفقوا بإجماعهم على أنه أول حدث فجع المسلمين في كلمتهم ، وأنه أول ثغرة دخل منها الوهن إلى صفوفهم .

ولست أرى في أمر عثمان ما يدعو إلى شدة الغرابة ، فقد كان -رحمه الله- سمحاً كريماً ، لين الجانب ، يسالم مستشاريه ، ولا يتعصب لرأي دونهم . ولقد جاءت خلافته بعد الفاروق عمر ، وعندما أقول الفاروق أعني الرجل المهيب الجانب ، القوي الشكيمة ، الشديد العزم ، الذي هابته قريش ، وخاف سطوته المتمردون ، ورهب جانبه المقربون ، فإذا حلت السماحة وحل لين الجانب مكان هذه المميزات الجبارة فلابد أن يحدث رد الفعل الذي انتهى إليه أمر عثمان ، وأنت تعلم أن رد الفعل بدأ يأخذ شكل الاستياء في أوساط محدودة ، ثم ما لبث أن اتسع الفتق ، وشرع المعارضون يجاهرون بانتقاد خليفتهم وينكرون عليه شيعته ، كما ينكرون على شيعته حفاوتهم بالأمويين وتوليتهم الأعمال [1] وبرهم بأعطياته السخية من بيت مال المسلمين ، حتى دخل عليه علي بن أبي طالب

(١) الكامل ٣/ ٤٢ ، ٦٩ .

وقال له : «نعم يا عثمان ، إن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ، إني أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقمته ، فإن عذابه شديد أليم» .

وحفظ بعض أمراء الأجناد في الأمصار وهم من عِلْية قريش على عثمان أن ولي الخلافة قبل أن يؤخذ رأيهم(١) .

واستمرت المعارضة تطَّرد كلما تقدمت الأيام بها ، حتى انتقلت عدواها إلى الأمصار وكثر القيل والقال ، ثم عقدت الاجتماعات للبحث وتوحيد الجهود . *

الفتنة : وأهلَّت السنة الخامسة والثلاثون للهجرة ، فأهلَّت بإهلالها الثورة ؛ بدأت في الكوفة ثم انتقلت عدواها إلى عرب الأمصار وكبار القراء المرابطين في مصر ، خرجوا يدعون إلى الثورة ، وخرج عرب الكوفة في ساقتهم ثم عرب البصرة . وقد انتهت جموعهم إلى أبواب المدينة يبغون افتتاحها ، فنشط أهل المدينة للذود عنها ، وقد كره الثائرون أن يقاتلوا أصحاب رسول الله فاتفقوا على الظهور بمظهر الناكصين ، حتى إذا أقلعوا بعيداً عن المدينة واستيقنوا أن المدافعين عنها أمنوا إلى بيوتهم أعادوا الكرة فاقتحموا المدينة بدون قتال ، وأحاطوا بدار عثمان فحاصروه ، وظلوا على حصاره أياماً حتى قتلوه(٢) .

وتقول أكثر المصادر التاريخية إن أكثر أصحاب رسول الله ﷺ في المدينة حاولوا إصلاح البين وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب ، ولكن الأمر كان قد عز على الإصلاح وعظمت شروره على كل المساعي .

---

(١) الكامل ٣ / ٤٢ .

* أورد ابن الأثير في كتابه «الكامل» ٣/ ٧٩ أن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أجمع أهل الشورى على مبايعته وتبعهم الناس .

(٢) الكامل ٣/ ٨٥ وما بعدها .

ولاة مكة لعثمان : مضى عهد عثمان في صورته الحزينة وفتنته العظيمة دون أن يترك في مكة الأثر الذي تركه في أمصار الإسلام الهامة التي تقدم بنا ذكرها، وأحسب أن من أهم أسباب الهدوء في مكة أن عمال عثمان عليها كانوا لا يملكون اضطهادها بقدر ما يملك غيرهم في الأمصار*؛ لاتصال العائلات الكبيرة فيها بأقربائهم من كبار المهاجرين بالمدينة، وسهولة نقل الأخبار والشكاوى بين المدينتين كلما دعت الحاجة إلى نقلها من طريق المترددين من الأقارب، ويؤيد لنا هذا أن عثمان -رضي الله عنه- كان كثير العزل لولاته في مكة، فقد تنقلت الإمارة فيها لعهده بين علي بن عدي بن ربيعة وهو من بني عبدشمس، وخالد بن العاص وهو مخزومي، والحارث بن نوفل وهو من بني عبدالمطلب، وعبدالله بن خالد بن أسيد بن عبد شمس، وعبدالله بن عامر الحضرمي، ونافع بن عبدالحارث من خزاعة[1] .

حركة عائشة : لما اشتد الحصار على عثمان قبل قتله استنجد بعلي وطلحة والزبير وعائشة وأمهات المؤمنين، فكان أولهم إنجاداً له علي وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وقد جاءت الأخيرة على بغلة لها برحالة مشتملة على أداوة فقيل : أم المؤمنين أم حبيبة، فضربوا وجه بغلتها، فتلقاها الناس وقد مالت راحلتها فتعلقوا بها وأخذوها، وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها.

وعلمت عائشة بالأمر فجهزت نفسها للرحيل إلى مكة[2] وجاءها مروان مبعوثاً من عثمان يقول : لو أقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل، فقالت : أتريد أن يُصنع بي كما صنع بأم حبيبة؟ لا والله . ومضت في عزيمتها حتى لحقت بمكة.

* هذا الحكم على عمال الأمصار في عهد عثمان رضي الله عنه غير مقبول على إطلاقه.

(١) شفاء الغرام ٢/ ١٦٥ طبعه الحلبي.

(٢) الكامل ٣ / ٩٩٢ وما بعدها.

ولما قضت حجها وافاها خبر عثمان وبيعة علي فقالت : قتل مظلوماً، والله لأطلبنَّ بدمه، فقال لها ابن أم كلاب : ولم؟ فو الله إنك أول من أمال حرفه، فقالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه، واجتمع الناس إليها فخطبتهم في حجر إسماعيل خطبة جامعة قالت : أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة بادؤوا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه.

ومضت عائشة في دعوتها وانضم إليها طلحة والزبير عند عودتها من المدينة، كما انضم إليها الأمويون من أهل مكة والنازحون إليها مستجيبين للثورة[1]، وانضم إليها أمير مكة لعثمان والتحق بهم واليه على اليمن يعلى بن أمية، وجاد المنضمون بأموالهم دون حساب، وغالى الأمويون منهم في الجود، وتقدم يعلى ابن أمية بالكثير من أمواله التي قدم بها من اليمن، وفعل مثله عبدالله بن عامر، ثم توالت المؤتمرات وكثرت الاجتماعات لتقرير الاتجاه الذي تتجه نحوه هذه الحركة، فكان من رأي عائشة أن يُبَاغَت القتلة في المدينة، ومن رأي طلحة والزبير أن يشخص الجيش إلى البصرة تدعيماً له بمن فيها من صنائعهم، وقد نزلت عائشة في نهاية الأمر على رأي من يقول بهذا ونادى مناديها بالخروج، وخرجوا في ثلاثة آلاف رجل بينهم عائشة محمولة في هودجها على جمل شديد قوي[2].

وعلم علي بالأمر فجمع الناس وخطب فيهم : «ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالؤوا على سخط أمارتي، وسأكفُّ إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني

(١) الكامل ٣/ ٩٩، ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

منهم» . ثم رأى أن يأخذ عليهم الطريق ، فنشط إلى الخروج ، وخرج بخروجه بعض أهل المدينة وجماعة من الكوفيين والبصريين ، حتى أتى الربذة وهي من قرى المدينة ثم انتقل إلى ذي قار[1] ليكون على مقربة من جيش عائشة ، ولتتصل رسله بها فيستطيع أن ينصح لها ويرمي بآخر سهم في كنانته .

وقد مضت رسله إلى عائشة تترى ثم كتب لها : «يا عائشة ، كونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرِّضونا للبلاء ، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم» في حديث طويل ترك أثره في عائشة كما ترك أثره في طلحة والزبير ، فقالوا لسفيره : ارجع ، إن قدم علي بمثل هذا صلح الأمر ، فرجع سفير علي في أحسن ما يرجع به سفير .

وبات الفريقان ليلتهما في أحسن ما يبيت فيه جيشان متصالحان ، واستأنف علي سيره إلى البصرة في جموعة العظيمة ؛ ليكون أقرب إلى مواطن الصلح ، حتى إذا انتهى قريباً منها ترك جيشه ومضى ليجتمع بعائشة وطلحة والزبير ، فقابلوه في ناحية منها وبدؤوا حديثهم جميعاً في جوٍّ يسوده -بلغة اليوم- التفاهم والود ، وانفض المجلس على وئام واتفاق .

ولم يكن الوئام والاتفاق في صالح فريق ثالث كان يؤلِّب على عثمان حتى قتل ، لهذا ما فتئ أن تآمر هؤلاء على الإخلال بقواعد الصلح وإثارة القتال بين الصفين في غرَّة من الفريقين ، فقد انسلُّوا بغلس حتى انحاز بعضهم إلى جيش علي وانحاز آخرون للجيش الآخر ، ووضعوا السلاح فثار الفريقان وكانت الفتنة .

(١) ماء بين واسط والكوفة في العراق .

والفتنة عمياء أبد الدهر لا تبصر ما دونها، فكيف بها والجيشان متقابلان على أُهْبة القتال في أعصاب مرهفة؟!.

وتريَّث المتقون في كلا الفريقين، وكان من رأي كل جماعة ألا تكون البادئة بقتال، ولكن الفتنة أبت أن تدع الفرصة لعاقل، ونشاط السيوف الغادرة أبى إلا أن يثيرها عمياء.

وهكذا تضرم القتال وحمي الوطيس عامة النهار، وما وافى المساء حتى تراجع جيش عائشة، واستبسل أصحاب علي فعقروا الجمل وحملوا الهودج في احتشام حتى أبرزوه على الأرض، ونادى منادي علي بالأمان بعد أن قتل من الفريقين نحو عشرة آلاف.

وقتل في هذه الموقعة طلحة والزبير ومحمد بن طلحة وكثير من مشيخة الصحابة وحملة القرآن[1]، وقدَّر بعضهم سائر القتلى من الفريقين بعشرة آلاف في نسبة تكاد تكون متساوية بينهما، وزاد غيرهم على ذلك وبالغ فيه بعضهم مبالغة شديدة.

وبهذا انتهت أول فتنة تبارز فيها جيشان مسلمان للقتال، وإذا كان لمثلي رأي فلا أكثر من أن أقول: إنها كانت سابقة أعطت للحياة دليلاً قوياً على تعدد الجوانب في كل شيء، فهذان رعيلان اشتدا في سبيل الحق الذي يعتقدانه، ولسنا نعقل أن الحق كان متعدداً في هذه الفتنة، فقد كان حقاً واحداً ولكنه متعدد الجوانب بتعدد وجهات النظر. إنه درس إسلامي ثمين ليت المسلمين في كل زمان

---

(١) الكامل ٣/ ١٢٤ وما بعدها.

يتعلمون منه ألا يشتطوا فيما يرون، وأن تتسع آفاقهم لآراء مخالفيهم، وأن ينظروا إلى مواطن الخلاف بنظرة غيرهم إليه عسى أن تتقابل النظرات وتتقارب الاتجاهات.

تنسّكت عائشة في المدينة على أثر ما حدث منقطعة للعبادة والصيام والاستغفار، وبلغ من ندمها على ما سلف أنها كانت تتمنى لو ماتت قبل يوم الجمل بعشرين سنة، نسأل الله أن يسعهم جميعاً بعفوه، وأن يهبهم لحسناتهم ورضى أعمالهم، إنه غفور رحيم.

ولاة مكة: واستتب الأمر لعلي على أثر تسليم أصحاب الجمل في مكة والحجاز وبقية الأمصار، إلا إذا استثنينا أمر الشام الذي سنلمُّ بأموره فيما بعد، وقد ظل علي في مقامه بالكوفة على رأس جيوشه بعد أن عهد بإمارة مكة إلى أبي قتادة الأنصاري، ثم عزله وولاها قثم بن العباس[١]، وقثم بن العباس من رجالات قريش الهاشميين كان قد أخلص العمل لعلي في مكة وأحسن في سيرته مع جيرة بيت الله، بذل كثيراً في سبيل الإصلاح مما سنلم به في فصل «النواحي الاجتماعية»، ولم يتفق لعلي أن يحج بالناس في عهد خلافته؛ لا شتغاله بالحروب، فحج بالناس سنة ٣٧ عبدالله بن العباس، وحج بهم في سنة ٣٩ قثم ابن العباس.

حركة معاوية: عندما استتب الأمر لعلي في أهم أمصار الإسلام ظل الشام بقيادة معاوية خارجاً على طاعته يعلن العصيان، وأنه لا يبايع مالم يتسلم معاوية قتلة عثمان ليقتلوا به[٢]. وفي الشام جندٌ ألفَ طاعة قواده طاعة عسكرية قلَّ أن يناقش فيها، وعلى رأس هذا الجند معاوية، وليس من يجهل تدبير معاوية

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٦٥.

(٢) الكامل ٣/ ١٥٠ وما بعدها.

وحسن سياسته للأمور وقدرته على امتلاك النواصي وكان في بلاط معاوية، وكم يحسن ألا ننسى أن لمعاوية -رضي الله عنه- بلاطاً، له في الشام أبهته الخاصة ومظهره الفخم ؛ لأنه -رحمه الله- كان الأمير الذي لم يبن إمارته على غرار الإمارات في الحجاز في مظاهرها المتواضعة .

أقول: وكان في بلاط معاوية من ساسة بني أمية من أخلصوا الود لأمويتهم كما أخلصوا لمعاوية زعيمهم كما أخلصوا لمبدئهم الذي اتفقوا عليه: «أنت يا معاوية لا تبايع علياً إلا إذا تسلمنا منه قتلة عثمان»[1] . وقتلة عثمان في رأي علي شائعون في جنده لم يقو سلطانه على حجزهم أو إدانتهم، وهنا نرجو ألا يفوتنا - وقد جاء السياق على جند علي- أن نعلّق بشيء على نوع العلاقة التي تربط علياً -رضي الله عنه- بجنده، فقد علمنا أن جند معاوية ألف طاعته وأسلس له قياده في أسلوب عسكري لا يناقش، أما الأمر في جند علي فقد كان على العكس تماماً.

يقول الأستاذ عبدالوهاب النجار في تاريخه عن الخلفاء: «إنَّ علياً لم يكن القويَّ على جنده، المالك لزمام عسكره، الحذر لكل ما يخاف، الواقف على ما يحدث» وكان خيراً في رأيي أن يقول: إن جند علي لم يكونوا جنوداً بالمعنى المعروف في عسكر معاوية يدينون بطاعة قائدهم ولا يناقشونها، بل كان مجموعة هائلة متطوعة من أصحاب دين نفروا لنصرة إمامهم متطوعين وقراء، خرجوا لأنهم وجدوا لأنفسهم في القرآن ما يدفعهم إلى الخروج، وأصحاب تقوى

---

(١) الكامل ٣/ ١٥٠ وما بعدها.

وصلاح اقتنعوا بالدفاع عن مبدأ رأوه، ولسنا بهذا نريد أن ننفي الدين والتقوى والصلاح عن جميع جيش معاوية، وإنما نريد أن نقول: إن هذه الخصال كانت أوضح في جيش علي، وإن العسكرية بمعناها المعروف كانت أظهر في جيش معاوية.

ونريد بعد هذا أن نقول: إن النافرين مع علي بعقائدهم كانوا يستوحون في مواقف الخلاف ما يؤدي إليه اجتهادهم في العقيدة، فكان على علي -رضي الله عنه- أن يقنعهم في كل موقف بما قال الله وما قال الرسول، ولهذا رأينا علياً كثير الخطابة كثير الاستشهاد بآيات القرآن، ولكن المغالين منهم قد يجدون في بعض الآيات خلاف ما استشهد به، فلا يلبثون أن يعارضوا، ولا تلبث المعارضة أن تأخذ شكل التجمْهُر فينشب الخلاف وتكون الفتنة، ولهذا كانت العسكرية بأوامرها التي لا تناقش في كل زمان عمدة السلطان وعدته في التغلب.

ونمضي بعد هذا في ساقة علي فنجده يكتب إلى معاوية ليبايعه فيتلقى الرفض أو يقبل تقديم قتلة عثمان، فيدرك علي أنه إحراج؛ لأن أموره التي لم تستتب لا تهيئه لمثل هذا العمل، فيمضي في جيشه إلى الشام، ويستأنف رسله فلا يوفقون، فيبدأ قتاله في أواخر عام ٣٦هـ ويستمر فيه نشيطاً إلى منتصف عام ٣٧هـ.

ويظهر جيش علي في بعض الجهات من الميدان، وتبرز أبطاله في مواقفها، وعندئذ يرى أصحاب الرأي في جيش معاوية أن يرفعوا المصاحف في وجه الجيش المتقدم[١]، وأن ينادوا إلى كتاب الله ولا يراها أهل العراق حتى يلقوا سلاحهم مستجيبين. قال الرواة: فصاح بهم علي أن امضوا، فليس في هذا إلا

(١) الأخبار الطوال ١٩١، ١٩٢.

الدهاء والكيد، فأبوا أن يسمعوا وصاح صائحهم: لا يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى، فكانت معارضة أوحاها اجتهادهم، وكانت مخالفة عانى من جرَّائها علي ما لم يعانه معاوية في جيشه الذي رباه على الطاعة العسكرية[1].

الأشعري وابن العاص: وعندما نزل علي على رأيهم وفوَّت على قائده الأشتر أغلى الفرص التي كانت يتحيَّنها استأنفوا معارضة أخرى في شأن من ينتدبونه عن العراق ليقابل عمرو بن العاص مندوب الشام، فقد كان من رأي علي أن ينتدب الأشتر قائده ليتكافأ الدهاء، ولكنَّ المتطوعين لا يعرفون الرضوخ، وإن ثقتهم في أبي موسى الأشعري الرجل الصالح المتدين المنحاز إلى منتآه بعيداً عن معترك الحياة لا تعدلها ثقة أخرى، وما كان في أصحاب علي من يعتقد في مرانة أبي موسى بالنسبة لصِنْوه ابن العاص ولكنها فكرة المتغلبين ولا بد من النزول عليها.

واجتمع المندوبان فقررا تسريح الجيشين إلى أجل جعلوا مدته رمضان من ذلك العام ٣٧، حيث يجتمعان في دومة الجندل بين العراق والشام ليقولا كلمتهما، ويفصلا في الأمر بما يحكمان[1]. وتفرق الجيشان فعاد معاوية إلى الشام ليستجمَّ وجنده من عناء حرب كانت ستدور رحاها عليهم، وآب علي بن أبي طالب إلى العراق ليعاني من معارضة المتزمتين من جيشه ما يعاني، قال له بعضهم: تُبْ من خطيئتك واذهب بنا إلى عدوِّنا حتى نقاتلهم، فقال علي: قد أردتكم على ذلك فأبيتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ**﴾ (النحل: آية٩١) فقال له حرقوص [2]: إن معاهدتكما كانت ذنباً

(١) الكامل ٣/ ١٦٢, ١٦٦ وما بعدها.

(٢) حرقوص بن زهر السعدي شهد مع علي صفين ثم صار مع الخوارج ومن أشدهم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (أسد الغابة ج ١ ص ٣٩٦).

ينبغي أن تتوب منه، وقال له زرعة بن البرج [1] : أما والله يا علي لئن لم تدع تحكِّم الرجل في كتاب الله لأقاتلنك.

وهكذا نراهم بعد أن خيل لهم الاجتهاد أن يستجيبوا إلى رفع المصاحف عادوا فاستبانوا -أو بعضهم- أنهم في استجابتهم كانوا مذنبين، وأن على علي أن يتوب من ذنبه في متابعته لهم[2] ، وأمعن بهم التزمُّت حتى خرجوا على علي، وحتى ظنوا الكفر بكل من لم يقل قولهم، واستحلوا فيما يقول أكثر المؤرخين دماء المسلمين في الوقت الذي كان أحدهم يتورَّع عن التمرة يصادفها بين النخيل فلا يأكلها قبل أن يأذن صاحبها .

واجتمع الحكمان في موعدهما في رمضان عام ٣٧ في دومة الجندل بين الكوفة والشام ، ودلَّل عمرو بن العاص على دهائه الواسع باستدراجه أبا موسى الأشعري إلى القرار الذي قرراه معاً بعزل الخليفتين؛ ليختار المسلمون من يختارون، ثم بتقديمه أبا موسى ليعلن هذا العزل وليعقِّب عليه فيقول: «أيها الناس، إنه عزل علياً وأيدت معاوية» [3]. وينفضُّ المجلس لينتهي رسل معاوية إلى الشام يسلمون عليه بالخلافة، ويعود رسل علي إلى العراق يفصِّلون له خبر الخلع.

وتعقَّد الأمر على علي في العراق، وأشار عليه أصحابه باستئناف القتال في الشام، وأشار آخرون بالبدء بالخارجين «الخوارج» تفادياً من استفحال الأمر بين يديه فنزل على الرأي الأخير وأرسل نذره إلى الخوارج، فعاد إلى طاعته بعضهم

(١) أحد الخوارج الذين خرجوا على علي وخالفوه في التحكيم (الطبري ج ٤ ص ٥٣) .
(٢) الفصل في الملل لابن حزم ٤ / ٥٥ .
(٣) الكامل ٣/ ١٦٧ وما بعدها.

وأبى البعض الآخر وتحشدوا في النهروان، فسار إليهم وقاتلهم حتى انهزموا[1].

ثم عاد يستنفر الناس للخروج إلى الشام فتباطؤوا وأعلن بعضهم أن مواصلة الحروب أرهقت جهودهم، بينما نشطت أعمال معاوية في الشام ومضت جيوشه تغزو مصر وأطرافاً أخرى من الولايات التابعة لعلي.

مكة بين علي ومعاوية : وفي عام ٣٩هـ انتدب علي عبدالله بن عباس ليتولى موسم الحج في مكة، وبعث معاوية من ناحيته يزيد بن شجرة الرهاوي[2] في ثلاثة آلاف فارس؛ ليقيم بالناس الحج ويأخذ له البيعة بها وينفي عنها قثم بن العباس عامل علي، فلما أحس قثم بقربه استعد للقتال، فلما وصل ابن شجرة قبل التروية بيومين وعلم باستعداد مكة لصده استدعى أبا سعيد الخدري وقال له: إني لا أريد الإلحاد في الحرم، وإني أرى أن أعتزل الناس أنا وقثم ويقيم الحج بهم من يختارون. فوافقه قثم واختار الناس شيبة بن عثمان حاجب البيت فحج بهم، ولما قضى الناس الحج عاد يزيد في جيشه إلى الشام وترك مكة لقثم، وقد ظلت كذلك إلى أن استتب الأمر لمعاوية في بلاد الإسلام فأرسل من يتولى أمرها كما سيأتي.

وأهل عام «٤٠هـ» وجيوش معاوية ماضية في عزيمتها تفتح الولايات التابعة لعلي وتأخذ البيعة فيها لمعاوية حتى انتهى الأمر إلى فتح * المدينة ثم مكة ثم اليمن، وظلت جيوش علي على تثاقلها في العراق، وظل علي -رضي الله عنه- يقاسي من خلافها ما لا يحتمله إلا قوي صابر، ولم يستطع بعد عناء شديد أن يستنفر إلا أقلية لا تصمد لحرب وقد وجهها إلى اليمن فامتلكتها، ثم مضت إلى مكة

(١) الكامل ٣/ ١٦٧ وما بعدها.

(٢) يزيد بن شجرة الرهاوي من أصحاب معاوية (الأعلام ج ٣ ص ١١٦٠).

* الأولى استعمال لفظة «دخول»؛ لأن لفظ «فتح» يستخدم فيما فتحه المسلمون من بلاد يحكمها غير المسلمين.

فما وافتها حتى كانت أخبار اغتيال علي قد سبقت، فخرج أهل مكة إلى قائد علي جارية بن قدامة[1] صائحين: لم نبايع وهذا علي مقتول؟ فأبى إلا أن يأخذ البيعة لمن يتولى خلافته فقبلوا ذلك.

اغتيال علي: واغتيل علي نتيجة التعصب في غير هدى، فقد تراءى لثلاثة من الخوارج أن يحسموا خلاف المسلمين باغتيال الزعماء الثلاثة علي ومعاوية وعمرو ابن العاص، وجعلوا موعدهم ١٧ رمضان من عام ٤٠هـ، وقد نَفَذ عبدالرحمن بن ملجم وهو المكلف باغتيال علي -رضي الله عنه- إلى مسجد الكوفة وكَمَن له حتى قتله في خروجه إلى صلاة الفجر، ونَفَذ المكلفان بمعاوية وعمرو بن العاص إلى أصحابهما فلم يوفقا [2].

ودفن علي -رضي الله عنه- في النجف[3] قرب الكوفة، وربما اختير قبره على حافة الصحراء لئلا ينبشه الخوارج.

النواحي العامة في عهد الخلفاء الراشدين

الناحية الدينية والعلمية: توسعت ثقافة مكة في هذا العهد على ضوء دينها الجديد، وبالرغم من أن قبائل العرب في كثير من جوانب الجزيرة تراءى لها أن ترتد على أثر موت الرسول لولا أن أدركها حزم أبي بكر، فإن مكة ثبتت على ما تعلمت.

وعندما نُدب فريق كبير من رجالها للاشتراك في تأديب العاصين من مرتدِّي القبائل، أو اختْير للعمل في المدينة بجانب بيت الخليفة، ظل الكثير من شيوخها

(١) من قواد الإمام علي رضي الله عنه (الطبري ج ٤ ص ١٠٥).
(٢) الكامل ٣/ ١٩٦.
(٣) معجم البلدان ٨/ ٢٨٦.

عاكفاً على ما علّمه القرآن، وظل شبابها يتدارس ما حفظه من آياته، وزاد عدد الكاتبين الذي حفلوا بتدوين ما تلقنوا من آياته عن شيوخ الصحابة وكبار المهاجرين.


*

وظل المسجد الحرام على صغره يزدحم في هذا العهد برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى، وظلت حلقاتهم تناقش تفسير الآيات وتقارن بينها وبين ما عرفت عن القواعد في لغة آبائهم من قريش. ويتضاعف اتساع الحلقات في مواسم الحج، ويشتد تنافس الطلب كلما هبط من المدينة أحد الصحابة المشهورين بترددهمَ على مجالس رسول الله.

* قطعة كتبت في صدر الإسلام من غير شكل ولا نقط

الناحية الاجتماعية : اتسعت في هذا العهد هجرة المكِّيين باتساع الفتوح، وعظم ثراؤهم، فبدأت رؤوس الأموال تتضخم عما كان عليه الأمر في حياة النبي ﷺ، وبدأت تجارة قريش في مكة تتجاوز الحدود التي كانت تعرفها في عهد رحلتي الشتاء والصيف.

وتدفق المهاجرون من أنحاء الأمصار المفتوحة، وتدفق بتدفقهم شيء من لغاتهم وكثير من عاداتهم، فعرف المكي في طعامه بعض الألوان الجديدة، واتخذ بعض الأردية التي قلَّدها في أواخر العهد الجاهلي بعد أن حذف منها الحرير الذي علَّمه القرآن تحريمه واستعاض عنه بالمبالغة في التصبيغ وتلوين الأثواب بالأحمر والمورد والأصفر الفاقع.

وبدأت مجالس السمر التي كان يتفنن المترفون في إعدادها تأخذ أشكال الحلقات يدرَّس فيها بعض العلوم، وتتلى المواعظ، ويحدِّث فيها أصحاب السير والمغازي، أو يتبسط المتمولون في أحاديثهم فيها عن التجارة وأصناف السلع المجلوبة.

وتعلمت مكة في هذه الأثناء معاني التوحيد في الحكم، فنسيت التعصب لشيوخها في البطون والقبائل، ودانت جميعها أول ما دانت لحكم عتاب بن أسيد، فاعتبرته مصدراً وحيداً للأوامر والنواهي بعد القرآن والسنة، بعد أن كانت في جاهليتها موزعة بين عشرات الشيوخ يحكمونها بشتى أنواع الحكم.

ودأب عتاب على الحدب عليهم وتوزيع عدله بينهم بالتساوي بصورة لم يعرفها المجتمع في مكة قبله، وكان لهم من حلمه وتواضعه ما غمرهم به في بحبوحة من الأمن لا يخشون فيها عتواً من مستبد ولا إرهاقاً من ظالم، وظل الأمر على ذلك طيلة العهود التي تولاها عمال الخلفاء الراشدين، فقد كان هؤلاء العمال يعرفون قربهم من مركز الخلافة وعلاقتهم بأصحاب الشأن في المدينة .

الناحية العمرانية : وتكاثف زحام البيوت في هذا العهد حول المسجد؛ لأن الأغلبية من مهاجري الآفاق كانوا يفضلون قربه، فأخذ وسط أم القرى شكل المدينة المكتظة، وتركت الأطراف للقبائل التي تنزلها تؤدي معاني الضواحي للبلدة.

ولم يزد الاكتظاظ في طول البلدة عن «المُدّعى» من الناحية الشمالية، وعن أوائل الهجلة وقبل الشبيكة من الناحية الجنوبية، أما شرقها إلى غربها فقد كان تكاثُف السكان فيهما من أوائل مدخل أجيادين إلى القشاشية إلى النواحي القريبة من سوق الليل وشعب بني هاشم، ومن سويقة إلى قرارة المدحي إلى الجزء القريب مما نسميه الشامية.

وبدأت الثروات في عهد عثمان تزيد أرقامها في مكة عما عهدنا في عهد الشيخين؛ ذلك لأنه أضيف إلى نشاط مكة التجاري مصدر جديد من مصادر الثراء ذلك هو عطاء عثمان، وليس غريباً أن يكون عطاء عثمان مصدراً للثراء، فقد كان قبل خلافته من أجواد العرب الممتازين، ونوادره في هذا معروفة مشهورة، فلما انقادت إليه الخلافة وكانت الفتوحات قد اتسعت وغنائم الأمصار قد انهمرت على المدينة كان لا بد لجود عثمان أن يتسع مداه، ولا بد لجلة قريش وكبار أهليها من ذويه وأقاربه أن ينالهم جوده الواسع، ذكروا أنه أعطى الزبير ستمائة ألف، وأعطى طلحة مائتي ألف، وأعطى غيرهم مثل ذلك، فتدفقت الأموال على مكة إلى جانب ما تدفق إليها من غنائم الحروب، وجُلب الرقيق إليها من أطراف الأرض المفتوحة شراء أو إهداء، فأينعت الحضارة وكثرت الأيدي العاملة في المزارع المحيطة بمكة، وأنشئت الجنات في بعض ضواحيها، وحفرت الآبار، واتخذت السدود من مياه الأمطار، ووجدت الإقطاعات

الضـخـمـة في أراضي الطائف، وأكـثـرها ملك للقـرشـيين. وانتـقل إلى هذه الإقطاعات كثير من قريش يسهرون على غلاتها، وقد ظل كثير من بطونهم يعيش إلى اليوم في بعض ضواحي الطائف.

وماجت مكة على أثر هذه الحركة بسكانها من القبائل النازحة إليها والموالي المجلوبين من الفرس والروم، وبدأت تستقبل في عهد عثمان كثيراً من الذين نزحوا عنها في عهد الشيخين للالتحاق بالجيوش الفاتحة.. عاد إليها البعض بما كسبه من غنائم، كما عاد البعض الآخر بما في صدورهم من العلوم، فحفلت مكة بحلقات المعلمين كما حفلت أسواقها بمتاجر أهل الثراء، ولم تشترك مكة في فتنة عثمان التي اشتركت فيها أهم أمصار الإسلام، وإذا كان بعض المهاجرين من أهلها في المدينة اتصلوا بالفتنة من بعض أطرافها فذلك بحكم بقائهم فيها واشتغالهم بالسياسة العليا في حكومتها.

ولعلنا لسنا في حاجة إلى استقصاء الأسباب التي عصمت مكة من مزالق الفتنة؛ لأننا ألمحنا -فيما سلف من بحثنا في عهد عثمان- أن مكة بحكم جوارها بالمدينة واتصال عائلاتها بكبار المهاجرين هناك كانت تتمتع في حكومة عثمان بمعاملات خاصة لا أثر فيها للتذمر الذي يدعو إلى القلاقل والفتن. وعندما نادت عائشة بقيامها لم يتبعها من مكة إلا الأقلون، وأكثرهم من أشياع بني أمية وأتباعهم وبعض المشتغلين بالسياسة العليا، وهؤلاء لا يكوِّنون الرأي العام في البلاد.

وكما تعاونت مكة من ولاة عثمان مدة خلافته وساعدت في تنشيط الحركة العمرانية لعهده رضيت بولاة علي وأخلصت الود لهم، ولما أراد قثم بن العباس أن يحارب الترف الذي بدرت بوادره كنتيجة لتضخم الثروات التي أشرنا إليها كادت أن تسلس له القياد وتصيخ إلى دعوته، وإني أكاد أجزم أنه لو طال عهد قثم

في ظل خلافة علي لظلت مكة الغنية بما أثرت باقية على حدودها المباحة، ولما طغى الترف طغيانه الذي بدت ألوانه فيما بعد واضحة طيلة عهد الأمويين على ما سنبينه في الفصول الآتية.

الإصلاحات : وعني عمر بالإصلاحات العامة فوسع في طريق المسعى، وكان لآل الخطاب دار فيها فأمر بهدمها وجعلها رحبة ومناخاً للحجاج، ويذكر الأزرقي أن بعضهم استغل تلك الرحبة فيما بعد فاتخذوا فيها مقاعد، وفي المقاعد صناديق يبيعون عليها ويجعلون متاعهم فيها ليلاً، ثم صارت لها خيام بالجريد ثم ما لبثت أن بنيت باللبن النيِّئ في عهد بني أمية يكرونها في الموسم، فخاصم فيها بنو عمر حتى حازوها وكان فيها أصحاب الأدم[1] . وفي عهد عمر دهم المسجد سيل يعرف بسيل «أم نهشل» وهي امرأة في مكة سمي السيل بها؛ لأنه اجترفها فماتت فيه وقد علا السيل مكة من جهة المدعى لا من وادي إبراهيم كعادته، فدهم المسجد واقتلع مقام إبراهيم، فذهب به إلى حيث وجدوه في أسفل مكة، فلما علم ابن الخطاب بذلك ركب من المدينة في رمضان عام ١٧هـ وحقق عن الموضع الذي اقتلع منه مقام إبراهيم حتى تأكد له فأعاده إليه[2]، ثم عالج موضوع السيل بأن أمر بردم أرض المُدّعى لتعلو عن مستوى السيل، فيجري في مسيله بوادي إبراهيم -وهو ردم بني جمح- وقد كبس بالتراب والصخر العظام[3]، فكان الركبان والمشاة يصعدون في الطريق المردوم حتى يشرفوا في نهايته على الكعبة؛ لذلك سميت المدعى، ثم عنّ له إصلاح المسجد وتوسيعه فاشترى بعض الدور الملاصقة للمسجد، ولما امتنع أهلها قُوِّمت أثمان دورهم وجعلت أمانة لدى بيت المال، فلما رأوا عزمه أخذوا الثمن[4] .

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ١٣٥ .

(٤) شفاء الغرام ١ / ٢٢٤ .

ثم سور المسجد بحائط يبلغ ارتفاعه دون القامة ، وجعل له أبواباً في محاذاة المسالك التي كانت تؤدي إليه وذلك سنة ١٧ . ولم يذكر المؤرخون مساحة التوسعة التي زادها ابن الخطاب ، ويظن الشيخ حسين باسلامة أنها لا تزيد عن محاذاة المقامات الأربعة واتخذ للمسجد مصابيح جعلها فوق حائط المسجد ، وكسا الكعبة بالقباطي(١) ، ولما فتح عمر المدائن بعث بهلالين علقهما في الكعبة .

وعني عمر بشؤون الحج ، فكان يشرف على أعماله طول سني حياته ، ولم يفته حضوره إلا في العام الذي توفي فيه ، وقد أناب عنه عبدالرحمن بن عوف .

وجاء عهد عثمان فظهرت الحاجة من جديد إلى توسعة المسجد الحرام ، فاشترى دوراً وهدمها لتوسعة المسجد (٢) ، ثم اتخذ له رواقاً مسقوفاً وهو أول رواق أظل المسلمين وكسا الكعبة بالقباطي كما فعل ابن الخطاب قبله ، وعُني بتجديد أنصاب الحرم في الحدود التي تفصل الحل من الحرم ، وفي عهده حوَّل الميناء من الشُّعيبة إلى جدة ، فقد كانت الشعيبة ساحل مكة في عهد الجاهلية وصدر الإسلام ، إلى أن تحول الميناء في عهده إلى جدة ؛ وذلك أن أهل مكة كلَّموه في أن يحول الساحل من الشعيبة إلى جدة لقرب الأخيرة من مكة ، فخرج عثمان ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل إليها (٣) .

وثابر عثمان على الحج في سني خلافته إلا في السنة الأولى منها فقد أناب عنه عبدالرحمن بن عوف ، كما حج بالناس في آخر سني عهده عبدالله بن العباس .

ولم يجد علي بن أبي طالب فرصة للعناية بشؤون مكة في عهد خلافته ، فقد كان مشغولاً بحروبه الطويلة طيلة عهد خلافته كما مر بنا في الفصل السابق .

(١) الأزرقي ١ / ١٦٨ والقباطي : نسيج كان يصنعه أقباط مصر .

(٢) الأزرقي ٢ / ٥٥ .

(٣) الشعيبة على نحو ٣٠ كيلو متراً جنوب جدة ، والجدة في اللغة الشاطئ .

في عهد الأمويين

تمهيد:

مبايعة الحسن وتنازله : ما كاد يُقضى على علي بن أبي طالب في الكوفة بالصورة التي ذكرناها في عهد الخلفاء حتى بايع أهل الكوفة ابنه الحسن بالخلافة .

وقد قيل لعلي قبل وفاته : استخلفْ يا أمير المؤمنين. فقال : لا ، ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله بغير استخلاف فإن يرد الله بكم خيراً يجمعْكم على خيركم كما جمعكم بعد رسول الله ، فلما توفي تقدم قيس بن سعد بن عبادة إلى الحسن فبايعه في العراق وبايعه الناس بعده في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ وهو يوم وفاة علي .

وبايع في العام نفسه أهل الشام لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم ركب الحسن في جنود العراق على غير إرادة منه ، وركب معاوية في أهل الشام ، فلما تواجه الجيشان وتقابل الفريقان سعى الناس بينهما بالصلح ، فانتهى الحال إلى أن خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلَّم الأمر إلى معاوية في ربيع الأول سنة ٤١ ، وبذلك استوثقت الأمور لمعاوية شرقاً وغرباً وسُمِّي هذا العام عام الجماعة (١) .

وأورد ابن كثير حديثاً عن أبي العريف قال : كنا في مقدمة الحسن بن علي اثني عشر ألفاً مستميتين لقتال أهل الشام ، فلما جاء صلح الحسن كان كأنما كسر ظهورنا من الغيظ فلما قدم الحسن على الكوفة قال له رجل : منا السلام عليك يا مذل المؤمنين . فقال : لست بمذل المؤمنين ، ولكني كرهت أن أقتلهم على الملك ! ! .

---

(١) أسد الغابة ٤ / ٣٨٧ .

خلافة معاوية : ولما استتب الأمر لمعاوية بسط سلطانه على جميع الأمصار، وشمل خصومه بكثير من عطاياه وحلمه وغير قليل من بأسه، ووجد أنصاره في مكة والمدينة أن من الخير لمصلحتهم أن ينتقلوا بأسَرِهم إلى الشام وقد أحسن معاوية وفادتهم.

إمارة مكة في خلافة معاوية : كما أحسن العناية بشؤون الإمارة في مكة، فولاها جماعة من أجلة قريش وصفوتها، وقد اختلف المؤرخون في أسمائهم وتاريخ ولايتهم، ولكن من الثابت أن أشهرهم: أخوه عتبة بن أبي سفيان، وأحمد بن خالد بن هشام المخزومي، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص. وقيل أيضاً: أبو عبدالرحمن أحد أشراف مكة وأجوادها وفصحائها، وعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، وعبدالله بن خالد بن أسيد[(1)] .

وقد حج معاوية في خلافته بالناس في عام ٤٤ وكان على إمارة مكة عبدالله ابن خالد، كما حج بهم في عام ٥٠ وتجلى كرمه كما تجلى حسن سياسته في كلتا الحجتين مما سنبسطه في حينه.

ولاية العهد ليزيد وعصيان الحجاز : وما كادت مكة تسلس قيادها لمعاوية، وما كاد ساستها من بني هاشم وعبدالمطلب وأولاد الزبير يخلدون إلى الهدوء والسلام رغبة في حقن الدماء، أو براً بنعم معاوية في الشام، أو رضا بالأمر الواقع حتى ظهر قرن الفتنة من جديد، ولما تمض بضع عشرة سنة من خلافة معاوية. فقد رأى المغيرة بن شعبة أن يخدم بيت معاوية، فاقترح أن يعقد معاوية البيعة بالخلافة لابنه يزيد بعده فتردد معاوية ثم رضي بالفكرة وتحمس لها، وكتب إلى الأمصار في شأنها، فعارضه الحجاز دون أكثر الأمصار[(1)] ، فكتب إلى عامله في

(١) شفاء الغرام ٢/ ٦٦ .

المدينة مروان يأمره بأخذ البيعة ليزيد، فقرأ ذلك مروان على الناس في المسجد، فهاج القوم وماجوا وقال عبدالرحمن بن أبي بكر: ما الخيار أردتما لأمة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية «كلما مات هرقل قام هرقل». وقام الحسين ابن علي وأنكر ذلك، وفعل مثله عبدالله بن الزبير، وانتهى ذلك إلى معاوية في الشام، فلم يأبه لهذه المعارضة كثيراً، ومضى في عزيمته يأخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى.

جعل يأتلف الناس بالبذل ويداريهم بالحسنى حتى استوثق أكثر الناس، ودان المبايعون له في الشام والعراق، واستعصى عليه أمر مكة والمدينة بعصيان من ذكرت من المعارضين فيها، فسار إليها بنفسه وقابل في المدينة رؤساء المعارضة فحاجُّوه وأغلظوا له، ثم دخل على أم المؤمنين عائشة يستعين بها عليهم فلم ينجح، فعزم على انتهاج الشدة وأخْذ الأمر بالقوة الصارمة(٢).

وهنا نستمع إلى ابن كثير ليحدثنا قال: قال معاوية - والحديث موجه إلى الحسين ابن علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر -: إنه قد أعذر من أنذر، إني أخطب فيكم فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذِّبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح، وإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن ردَّ علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقينَّ رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب سيفه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة تصديق أو

---

(١) الكامل ٣/ ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٩.

تكذيب فليضرباه بسيفهما، ثم خرج معاوية وخرجوا حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يقضى أمر إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله. فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر.

في خلافة يزيد: وهكذا انتهى الأمر ببيعة يزيد ولم يعمَّر معاوية بعد ذلك إلا سنوات ثم وافاه أجله في سنة ٦٠هـ وكان قد أوصى ابنه فقال: «انظر إلى أهل الحجاز؛ فإن منهم أصلك وعزَّتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعاهده، إلى أن قال: وإني لست أخاف عليك إلا ثلاثة: الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر. فأما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله، وأما ابن الزبير فإن ظفرت به فقطعه إرباً، وأما ابن عمر فإنه رجل قد قرقره الورع؛ فخلِّ بينه وبين آخرته يخل بينك وبين دنياك».

وعلى أثر ولاية يزيد في عام ٦٠هـ كتب إلى واليه في المدينة الوليد بن عتبة: «أما بعد، فخذ حسيناً وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام»، فلما وافاه ذلك أرسل إلى الحسين وابن الزبير فاستدعاهما، فبادر الحسين إليه فقدَّم إليه كتاب معاوية، فقال الحسين: إن مثلي لا يبايع سراً ولكن إذا اجتمع الناس دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً. أما ابن الزبير فماطل في مقابلته حتى ركب في مواليه إلى مكة، فبعث الوليد خلفه فلم يستطع رده، واغتنم الحسين الفرصة وانشغال الوليد بابن الزبير فجمع أهله في الليلة الثانية من سفر ابن الزبير ولحق بمكة، أما ابن عمر ففي رواية أنه بايع، وفي رواية أخرى أنه قال: إذا بايع الناس فلم يبق غيري بايعت، وفي رواية ثالثة أنه كان في

هذه الأثناء في مكة، وأنه وابن عباس لقيا الحسين في منصرفه من المدينة فعرفا منه الخبر ثم مضيا إلى المدينة فبايعا(١) .

ثورة الحسين وقتله : واجتمع الناس على الحسين بوصوله إلى مكة وعقدوا مجالسهم حوله يستمعون إليه، وتوافدت إليه رسل الشيعة من العراق يحملون إليه كتباً من أعيانهم يطلبون إليه فيهما أن يبادر بالذهاب إليهم : «إنه ليس علينا إمام، فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى»، فبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليتبين الحقيقة، فلما انتهى مسلم إلى الكوفة التف حوله خلق كثير فاغترَّ بما شاهد وأرسل الى مكه يستحث الحسين في القدوم.

ويعجبني رأي ابن عباس في هذا الموقف : «إن كانوا دعوك وعليهم أمير قاهر تجبي عماله بلادهم فإنهم إنما دعوك للحرب والقتال، ولا آمن عليهم أن يتركوك» فقد كان رأياً يرمي إلى البعيد من حقائق الأمور وينظر إلى الحياة نظرة المفكر المجرب . وأشار على الحسين غير ابن عباس بمثل هذا الرأي، ولكن الكائن في غيب الله هو الكائن.

جهز الحسين أتباعه في مكة وهم لم يتجاوزوا الثمانين، ومضى بهم في طريقه إلى الكوفة، فما انتهى إلى قربها حتى وافته الأنباء بأن الخليفه انتدب من أدب الكوفة واشتد على الشيعة فيها حتى تفرقوا عن مسلم بن عقيل، وأن مسلم بن عقيل قد قتل، فهال الحسين ذلك فهمَّ بالرجوع، إلا أن إخوة مسلم أبوا عليه ذلك حتى يأخذوا ثأر أخيهم أو يُقتلوا دونه، وقد قتلوا دونه في أول خطوة عرّجوا فيها إلى كربلاء ليُعدوا صفوفهم؛ لأن جيوش يزيد مالت عليهم وأبادتهم عن

(١) راجع الكامل ٣ / ٢٥٩ واليعقوبي ٢ / ٢٨٧ وما بعدهما.

آخرهم، وتركت أرض كربلاء ملطخة بدماء ابن بنت رسول الله في أبشع صورة ظل ذكرها إلى اليوم وإلى آخر يوم في الدهر، وكان ذلك في ١٠ محرم سنة ٦١هـ(١).

ولاة مكة ليزيد: وقد ولي إمارة مكة في أول عهد يزيد عام ٦٠ عمرو بن سعيد ابن العاص المعروف بالأشدق لفصاحته وظل فيها أقل من سنتين، ثم انتدبه يزيد إلى المدينة في عام ٦١ عندما بدأ أصحاب القلاقل يهمون بحركات ثورية فيها، فتولى الأمر بعده في السنة نفسها ٦١ الحارث بن خالد بن العاص المخزومي. ويذكر بعض المؤرخين أن توليته كانت نيابة عن عمرو بن سعيد.

ثم تولى الأمر بعده في عام ٦٢ أو ٦٣ الوليد بن عقبة بن أبي سفيان، وفي عهده بدأت تستيقظ في مكة حركة ابن الزبير على النحو الذي سنفصله في الفصل الآتي، كما تولاها جماعة منهم: عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، ويحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية، وفي ترتيب ولاياتهم اختلاف(٢).

---

(١) راجع الكامل ٣/ ٢٥٩ - ٢٨٦ واليعقوبي ٢/ ٢٨٨ وما بعدها.

(٢) شفاء الغرام ٢/ ١٦٨.

حركة ابن الزبير(١) تقدم بنا أن يزيد بن معاوية كتب إلى واليه بالمدينة في عام ٦٠ هجرية ليأخذ له البيعة من المعارضين في المدينة، كما تقدم بنا أن الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير رأسا المعارضين واحتالا للخروج إلى مكة، حتى إذا انتهيا إليها لم يلبث الحسين فيها إلا ريثما أعد عدته للخروج منها إلى شيعته في الكوفة مستجيباً لدعوتهم التي لقي حتفه فيها.

أما ابن الزبير فقد ظل في مكانه من مكة، ولما وافاه خبر مقتل الحسين رأى الفرصة سانحة للنهوض بفكرة كان قد طال عليها السكوت، ولا نبعد كثيراً ونحن نسميها فكرة خاصة به، فابن الزبير كان يحس إحساساً عميقاً بأهليته للخلافة من أول يوم أمَّره عثمان بن عفان على داره أيام الثورة ضده، ولا يؤمِّره عثمان دون غيره من أصحاب الكفايات إلا وهو عارف مكانه من الكفاية الممتازة، ولقد سكت ابن الزبير يوم ولّى المسلمون علياً الخلافة، ولكنه ما لبث أن انضم إلى جيوش المعارضين من حزب خالته عائشة، ثم سكت عندما تناقلت الأخبار أن جيوش الشام بايعت معاوية، ورأى بقية الأمصار تنضم إلى هذه البيعة بما فيها من أجلة قريش وكبار الصحابة وعندما رأى معاوية يترضَّاه ويتودد إليه ويبالغ في التودد إليه: «مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواريه. يا غلام، احمل إليه مائة ألف وارفع إليَّ بجميع حوائجه»(٢).

سكت كل هذه المدة الطويلة واقتصر نشاطه على العناية بأقاربه وحاشيته، وفتح داره الكبيرة- بجوار باب دريبة- لزوَّاره وقاصديه، وعقد المجتمعات التي

(١) عبدالله بن الزبير ولد في السنة الأولى للهجرة، كان أبوه الزبير أحد حواري الرسول وكانت أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وخالته عائشة، كان معروفاً من صغره بالشجاعة.

(٢) الكامل ٤ / ٢٦ وما بعدها.

كانت لا تخلو من المجاهرة بآرائه في الحكم القائم ونقداته التي كانت تقلق بال عامل الأمويين في مكة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق .

وكان عمرو بن سعيد بن العاص تبلغه أنباء هذه المجتمعات ، ولكنه لا يملك إلا أن يتغافل لعلمه بمنزلة ابن الزبير من عامة الأهلين في مكة ، وما يتمتع به من جرأة نادرة المثال ، كما أن معاوية في الشام كانت تصله أخبار ابن الزبير فيعالجها بحلمه ويقابلها بمعروفه وبره .

ومات معاوية رضي الله عنه ، وبويع ليزيد في عام ٦٠ الهجري ، فتوثب ابن الزبير للعمل في خطوته الأولى وئيداً ، إلا أن منافسه الحسين بن علي كان يحتل في مكة وأمصار الإسلام مركزاً يطغى على منزلة ابن الزبير ، فلما وافاه خبر وفاة الحسين عام ٦١هـ نهض على قدميه ورفع صوته بالدعوة .

وحاول الأشدق والي مكة ليزيد أن يعالج الأمر في حرص وحذر ، وأن يحد بالمداراة نشاطه ، فبث العيون حول أنصاره ، ورتب الجواسيس ليحصوا حركات أتباعه ، وسن ما يشبه نظام مراقبة الأجانب اليوم ، فجهز مكة بمختصين يكتبون أسماء القادمين إليها ويتعرفون هويتهم ، فمن وجدوه ذا علاقة خاصة بابن الزبير يمنعونه من الدخول ، إلا أن محاولاته جميعاً لم تفتّ في عضد ابن الزبير ولم تهن من عزيمته ، وجاءت أوامر يزيد بإرسال ابن الزبير مقيداً ، فلم يستطع الأشدق عمل شيء أكثر من أن يرسل إليه سلسلة من فضة[1] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٠٥ .

حملة لتأديب ابن الزبير : وتناقلت الأخبار في هذه الأثناء حوادث بدء الاضطرابات في المدينة، فأمر يزيدُ عمرَو بن سعيد أن ينتقل إلى المدينة، فأناب عنه في مكة الحارث بن خالد المخزومي بعد أن أوصاه بالتيقظ لأعمال ابن الزبير فلم تنفع وصيته شيئاً؛ لأن ابن الزبير أبى أن يعير يقظة الولاة اهتماماً وهو يشعر ببأسه في مكة واتفاق من فيها عليه (١) .

وبدا ليزيد في هذا العام ٦١ تأديب ابن الزبير، فأرسل إلى عمرو بن سعيد المنقول إلى المدينة أن يجهز على ابن الزبير، فجهز له جيشاً من ألفي مقاتل أمَّر عليه عمر بن الزبير أخا عبدالله وأنيس بن عمر الأسلمي ، فسار الجيش حتى عسكر بعضه في الأبطح وبعضه في ذي طوى، فقابلهم ابن الزبير بجموعه وأبادهم، ثم أسر أخاه عمر وكان ذلك في أواخر عام ٦١ وهي أول حملة تأديبية ضد ابن الزبير.

عصيان المدينة وإباحتها: ودخل عام ٦٢هـ والاضطرابات على حالها في المدينة ومكة، وكان أهل المدينة قد كتبوا قبل ذلك إلى عبدالله بن الزبير يقولون : «أما إذ قُتل الحسين فليس من ينازع ابن الزبير» ، ثم ما لبثوا أن اجتمعوا على خلع طاعة يزيد وإخراج عامله، فتطورت الأحوال في تلك السنة وانتهت بواقعة الحرة عام ٦٣ ، وفي واقعة الحرة سجَّل سيف يزيد إلى جانب ما سجله في مقتلة الحسين مأساة جديدة تمثلت في أوامر يزيد باقتحام المدينة عنوة وإباحتها* لجنده ثلاثة أيام (٢) .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٥.

* استباحة المدينة من قبل جيش يزيد أمر مشكوك فيه، وهو لم يرد إلا في مصادر مناوئة للأمويين، وحتى هذه المصادر لا تذكر وقوع استباحة للأعراض، وإنما مصادرة للسلاح والأموال.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٩٨ .

النخاولة : ويسوء المنصف بهذه المناسبة أن يقرأ ما رواه بعض المؤرخين بأن شيعة المدينة من سكانها اليوم ويسمونهم «النخاولة» من ذرية هاتيك الإباحة، فذلك رأي يبدو فيه التعصب كأوضح ما يكون، وإلا فما علاقة تلك الذراري بالتشيع؟ وإذا كان أهل المدينة كما تقول بعض الروايات قد نبذوا ذراريهم من تلك الإباحة في ناحية من المدينة فلم لا يكون أولئك الذراري خجلوا من وسمهم وتفرقوا في البلاد؟ إن هذا أقرب إلى منطق العقل من تماسكهم إلى اليوم في طرف من المدينة وبقائهم فيها.

الواقع أن بعض المؤرخين يلغون عقولهم لدى نقل الروايات، وأن بعضاً آخر تتحكم أهواؤهم في معتقداتهم، فيسجلون لشهواتهم أكثر مما يسجلون للحقيقة والتاريخ.

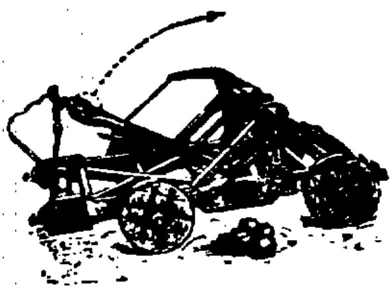
والمؤسف أن بعض العامة في المدينة يتأثرون إلى اليوم بمثل هذه الروايات العابثة، فينظرون إلى إخوانهم النخاولة مثل هذه النظرة، ويؤكد ذلك في نفوسهم خروجهم على مذهب السنة، والواقع أن النخاولة [1] جزء من الشيعة في العالم الإسلامي، وليس التشيع غريباً في بلاد العرب، وقد عرفه التاريخ في جميع أدواره في أواسط كثيرة من أشرافهم وعامتهم، وقدتعلم الناس نبذ النخاولة لأن العثمانيين كانوا حرباً على التشيع لأسباب سياسية، وليس بين النخاولة والإجماع إلا أن يعنى المسلمون بهم ويتفقوا على إقناعهم؛ لينضموا بذلك إلى صفوف إخوانهم ويتحدوا وإياهم على كلمة واحدة تجمع هذا الشتات، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الجمع والتوحيد.

---

(١) واسمهم الرسمي في الدوائر الحكومية (النخليون) واحدهم (نخلي). وقد كتبت عنهم فصلاً في «معجم قبائل الحجاز» وبينت هناك رأيي فيما تساءل عنه سعادة المؤلف . (ع).

القتال في مكة وحرق الكعبة : وما انتهت واقعة الحرة في المدينة في أواخر عام ٦٣ حتى صدر أمر يزيد إلى قائده مسلم بن عقبة [١] أن يتوجه في جيشه إلى مكة لقتال ابن الزبير فسار إليها، ولما كان في بعض الطريق أدركته الوفاة فأوصى بقيادة الجيش إلى الحصين بن نمير[٢]، فتولاه واستأنف سيره حتى انتهى إلى مكة في أواخر المحرم سنة أربع وستين ونزل في ظاهرها.

وخرج إليه ابن الزبير في جموعه من مكة وبعض القبائل من أطرافها وعدد ممن التحق به من أشراف المدينة، وبدأت المناوشات والتقى المتبارزون من الفريقين، وظل شأنهم كذلك حتى بدا لجند الشام نصب المجانيق فنصبوها في ٣ ربيع الأول سنة ٦٤ ورموا الكعبة بالنفط والحجارة حتى احترقت كسوتها وتصدعت حيطانها[٣].



بدا لهم نصب المجانيق

ولست ممن يرى أن الكعبة كانت مقصودة لذاتها بالرمي؛ لأنني أعلم أن جيش الشام كان يستقبلها في صلاته، ولا يرمي الكعبة رجل يصلي إليها، ولا يرضى أن يقذفها بالحجارة كما في رأي بعض المؤرخين، أو بالنار كما في رأي البعض الآخر.

والذي أستطيع أن أستنتجه أن ابن الزبير كان يعوذ بها ويحتمي خلفها، فبدا للجيش أن يصيبه من ورائها وقد فعل، فنالت الأحجار بعض أركانها، ويذكر

(١) ابن رباح المري: من قواد العهد الأموي «الأعلام للزركلي». وقد لقب مسلم هذا الشنيع فعله (مسرف ابن عقبة).

(٢) السكوني: من قواد العهد الأموي (المصدر السابق).

(٣) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٣٥.

بعض المعتدلين من الرواة أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون النار وهم حول الكعبة، فعلقت النار في بعض أستارها فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت[1]، وهي رواية أقرب في اعتدالها إلى الواقع مما عداها من روايات التهويل والتشنيع.

نجاح ابن الزبير: وظل القتال على حاله حتى وافت الأخبار بنعي يزيد، ففتر الحماس بين صفوف جند الشام، ورأى الحصين بن نمير أنه يقاتل منذ اليوم إلى غير غاية، فاجتمع بابن الزبير في ظاهر مكة وقال له: «إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فهلمَّ وارحل معي إلى الشام، فوالله لايختلف عليك اثنان».

ولكن ابن الزبير حسبها خدعة فرد عليه رداً أساءه فنفر منه ابن نمير، وفي رواية أخرى أن ابن الزبير ندم على ما كان من غلظته فبعث إليه يقول: أما الشام فلا آتيه، ولكن خذ لي البيعة من هناك إن شئت. ويعلّق صاحب «تاريخ الإسلام السياسي» على هذا فيقول: إن ابن الزبير كان متأثراً بالفكرة القومية*، وهي إعادة النفوذ والسيطرة إلى بلاد الحجاز كما كان في عهد النبي وأبي بكر وعمر وعثمان؛ لهذا أبى أن يغادر الحجاز. كما يعلق صاحب التاريخ السياسي للدولة العربية فيقول: إن بقاء ابن الزبير في مكة كان من أسباب ضعفه؛ لعدم جواز القتال فيها، وقتاله فيها يسيء إلى حرمة الكعبة.

وإني لا أستبعد تأثر ابن الزبير بالفكرة القومية، فقد كان من أشد معاصريه تحمساً لها، ولكني أفهم أن ذلك لا يمنعه من الرحيل إلى الشام لأخذ البيعة ثم

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٣٩.

* من المبالغة وصف ميل ابن الزبير إلى جعل الحجاز مركزاً للخلافة كما كان في عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين بأنه نابع من تأثر بالفكرة القومية.

العودة إليها بعد أن تستقيم له الأمور وتستقر شؤونها، إذن فلابد من عامل كان له أثره في امتناع ابن الزبير، ولا أستبعد أن يكون ذلك هو خوفه من الخدعة التي أشارت إليها الرواية السالفة، وليست الخدعة غريبة على مثل الحصين بن نمير، فقد يكون أرادها ليحمل خصمه إلى الشام غنيمة باردة لمن يتولى الأمر فيها، وليس غريباً على مثل ابن الزبير وهو يضطلع بمهام خطيرة أن يكون يقظاً حريصاً.

ومهما كان الأمر فقد اختلف الفريقان في هذا الاجتماع السلمي، ورأى الحصين ابن نمير أنه لا حاجة له في قتال لا يعرف غايته ففك الحصار ورجع إلى الشام، وبرجوعه كانت الخلافة قد وليها معاوية بن يزيد، ثم تنازل عنها في ربيع الأول سنة ٦٤ في اجتماع عام قال فيه: «أيها الناس إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، وقد تركت لكم أمركم، فولوا عليكم من يصلح لكم». واختلف المؤرخون في مدة خلافته بين نصف شهر وثلاثة أشهر.

واستتب الأمر لابن الزبير في مكة وما والاها وبايعه الناس فيها وفي المدينة، ثم بايعه أهل البصرة وأهل الكوفة، وأرسل إلى مصر ثم إلى أهل اليمن فبايعوا جميعاً، كما أرسل إلى أهل خراسان فبايعوه واتفقت فرقة كبيرة من الخوارج على بيعته، كما بايعه أهل حمص وفلسطين والعراق وسائر بلاد الشام إلا دمشق.

ورأى الناس في دمشق اتساع الأمر لابن الزبير، فاجتمعوا إلى نائب دمشق لبني أمية الضحاك بن قيس الفهري - وهو من أصحاب النبي ﷺ - فخطب فيهم خطاباً جامعاً دعا فيه إلى مبايعة ابن الزبير (١).

ورأى مروان بن الحكم أن الأمر سينتظم لابن الزبير في الشام كما انتظم له في بقية الأمصار، فعزم على الرحيل إلى مكة لمبايعة ابن الزبير وليأخذ منه أماناً لبني

---

(١) العقد الفريد ٢ / ٣١٣ وما بعدها.

أمية، فسار في بعض الطريق فلقيه بعض بني أمية في خلق كثير وأثنوه عن أمره، وقالوا: أنت كبير قريش، وخالد بن يزيد غلام، وعبدالله بن الزبير كهل، وإنما يقرع الحديد بالحديد، فلا تناوئه بهذا الغلام، وارم بنحرك في نحره ونحن نبايعك، ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه بالجابية في ٣ ذي القعدة عام ٦٤.

ثم سار بمن معه نحو أنصار ابن الزبير من أهل الشام وعلى رأسهم الضحاك بن قيس فنشب القتال بينهم عنيفاً قليل المثال، فقتل الضحاك وتفرق أصحابه وذلك في أواخر ذي الحجة من عام٦٤، وبذلك استقر الأمر لبني أمية في الشام وتمت البيعة فيه لمروان بن الحكم، بينما استقر الأمر في بقية الأمصار لابن الزبير وبويع فيها خليفة على المسلمين [(١)].

العصبية اليمنية القيسية: وإذا راق لنا أن نتتبع أسباب الخلاف في بلاد الشام بين أنصار ابن الزبير وأنصار بني أمية فسيبدو لنا الأمر أغزر مما يتراءى بين الأموية والزبيرية، فالمعروف أن بلاد الشام كانت تنزلها سلالات هاجرت أصولها القديمة من اليمن قبل الإسلام بعهود طويلة فطال استيطانها، ثم ما لبثت أن طرأت عليها من الفتح الإسلامي قبائل حجازية شاركتها الاستيطان، وقد عرفوا باسم العدنانيين أو النزاريين ثم غلب عليهم اسم القيسيين.

وقد تكاثر اليمنيون والقيسيون فعموا بلاد الشام بما فيها الأردن وفلسطين.

ولا نشك في أن اليمنين كانوا يتيهون على القيسيين بأصولهم، فقد كانوا في أحد أدوار التاريخ سادة الجزيرة العربية، وكان الخزاعيون حكام مكة قبل قريش من اليمن، كما كان الأوس والخزرج في المدينة يمنيين مثلهم، كما لا نشك أن القيسيين وهم سلالة الفاتحين في صدر الإسلام يتيهون على اليمنيين بأنهم هداة

(١) الآداب السلطانية للفخري ١٦٤.

البلاد، فكان لهذه المفاخرة أثرها في التحيز للعصبية التي نهى عنها الإسلام .

ولقد مر بالإسلام عهد نسي فيه المتعصبون هذا التحيز، ولكنه ما لبث أن أثير على أثر الفتن التي نشبت بسبب الخلاف على اختيار الخليفة، وما لبث بعض الخلفاء من بني أمية أن استغلوا هذه الإثارة لتأييد مراكزهم، فهم رغم نسبهم إلى القيسية كان يحلو لبعضهم أن يصاهر اليمنية ليعتد بها إذا ناوأه بعض القيسية، خصوصاً في الأوقات التي اشتد فيها ميل القيسية إلى البيت الهاشمي، فلا غرابة إذا تفاقم التعصب واشتد أواره .

ولا غرابة أن نجد في الشام يوم حركة ابن الزبير من يدعو له وينادي بخلافته، كما نجد فيها من يدافع بسلاحه ضدها لصالح الأمويين .

لم تكن هناك زبيرية وأموية بقدر ما كانت هناك قيسية تتمنى أن تنجح قبائل الحجاز، ويمنية تتمنى فشل القيسيين ولو ضد مصلحة الأمويين أصهارهم .

لقد شعر معاوية أن في الشام احتكاكا بين القيسية واليمنية، فدارى ذلك في سياسة عديمة النظير، وجاء اليزيد بعده فلم تعجزه المداراة، ولكنه ما إن قضى حتى عادوا إلى الاحتكاك، واستطاع مروان بن الحكم أن يستفيد من احتكاكهم وأن يستعين بسيوف اليمنيين وهم كثرة هائلة على القيسيين الذي أرادوها ربحاً للحجاز في شخص ابن الزبير [١] .

مؤهلات ابن الزبير: على أنه ليس كثيراً على ابن الزبير أن تتفق الأمصار على بيعته، فقد كان ابن حواريِّ رسول الله وأمه بنت الصديق وخالته عائشة، وكان

---

(١) راجع «تاريخ دمشق» لابن عساكر ٣١٩ فما بعدها، وتاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٩٩، والكامل لابن الأثير ٣/ ٢٥٨.

بيعته، فقد كان ابن حواريّ رسول الله وأمه بنت الصديق وخالته عائشة، وكان من القانتين لله المتمسكين بطاعته، وكان إذا سجد وقفت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم حائط، وليس كثيراً أن يصمد لدعوته ويثبت وقد عرف بالجَلَد وقوة العزيمة والصبر. حدث عمر بن عبدالعزيز قال: قلت يوماً لأبي سليكة: صفْ لنا ابن الزبير. فقال: ما رأيت جلْداً قط ركب على لحم، ولا لحماً على عصبَ، ولا عصباً على عظم مثله، ولا رأيت نفساً ركبت بين جنبين مثل نفسه، ولقد مرّت آجرة من رمي المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع ولا قطع لها قراءته ولا ركع دون ما كان يركع.

وكان إلى هذا ذا أَنَفة، وكانت له نفس شريفة، كما كان فصيحاً قوي البيان جهوري الصوت، إذا خطب تجاوبه أصداء أبي قبيس [1].

في هذه مقومات الزعامة ومؤهلاتها، فلا عجب إذا قاد المسلمين واضطلع بأعبائهم، يضاف إلى هذا ما عُرف من غيرته للبلاد التي أنبتت مجد الإسلام في الحجاز، وتلهُّفه إلى إعدادها من جديد إعداداً قوياً يلمُّ به شَعَث الإسلام ويسيطر من برجها على مقدرات العالم. يضاف إلى هذا أن الاستياء من تصرفات الأمويين كان قد شمل جميع الأمصار، وأصبح المسلمون في بقاع الأرض ينظرون إلى أحداث الأمويين الجسام كمقتل الحسين وإباحة المدينة وغزو مكة وتحولهم من طريقة الشورى في الحكم إلى نظام الوراثة، نظرة فيها كثير من النقد والاستياء.

هذه الأسباب مضافة إلى مقومات الزعامة في ابن الزبير ساعدت على نجاح

(١) راجع الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٦٠ فما بعدها، والطبري ٢ / ٨٥٠ فما بعدها.

دعوته والتفاف المسلمين في الأمصار حولها [١] ، إلا أننا سنرى عما قليل أن هذا النجاح بالرغم من جميع مقوماته لم يلبث طويلاً حتى مُني بالفشل ، وعادت الخلافة إلى بيوت الأمويين في دمشق بتأثير عوامل خاصة سنأتي عليها في السياق .

بوادر فشل ابن الزبير : ما كاد ينجح مروان بن الحكم في إخضاع أنصار ابن الزبير في الشام -كما أسلفنا في عام ٦٥- حتى جهز جيشاً قوياً وقاده بنفسه إلى مصر لطرد عامل ابن الزبير فيها ، وجيشاً آخر إلى جهة العقبة بقيادة ابنه عبدالعزيز لمساعدته ، وقد نجح الجيشان واستولى مروان على مصر .

وعاد مروان إلى الشام وجهز جيشاً إلى الحجاز وآخر إلى العراق ، ولكنه مات قبل أن تصل إليه نتيجة أحدهما ، ولما تولى الأمر بعده ابنه عبدالملك أبلى في تثبيت ملكه أحسن البلاء ، فقاتل من ثار عليه من شيعة الكوفة حتى هزمهم ، ثم زحف إلى العراق فطرد والي ابن الزبير منها ، ثم بلغته أنباء بعض القلاقل التي حدثت وراءه في الشام فعاد إليها حتى قضى على كل فتنة فيها [٢] ، ووطد للملكه بذلك في أكثر الأمصار ، ولم يبق أمامه ما يمكن أن يسميه خطراً هاماً إلا مشكلة مكة في شخص ابن الزبير .

انحلال الزبيريين : ولقد كان عبدالملك بن مروان حكيماً أكثر مما يجب عندما رأى ابن الزبير يناجز الخوارج والشيعة العداء في العراق فتركه وما يناجز انتظاراً لليوم الذي تهن فيه قوته وتضعف ، وقصة الخوارج قصة ألممنا بها يوم خرجوا على علي وجيشه منتقدين قبوله للحكم ، كما أن قصة الشيعة مررنا بها في وثبتهم

(١) بالرغم من ذلك وقف بعض أقطاب الإسلام موقف المحايد من حركة ابن الزبير ومن أشهرهم : عبدالله ابن العباس ، ومحمد بن الحنفية ، وعبدالله بن عمر ، وعلي بن الحسين ، وقد اضطر ابن العباس لترك مكة فرحل إلى الطائف ومات بها .

(٢) المسعودي مروج الذهب ص ٢٤٢ فما بعدها .

للأخذ بثأر علي والحسين ابنه من ظالميه وقد ظلت ذيولها لا تنقطع، وظل ابن الزبير يكوى بإحنها ويعاني في جهادها ما يعاني، حتى إذا نفد الكثير من قوته بدأ عبدالملك يزحف في جيوشه إلى الكوفة، حيث يقاتل مصعب بن الزبير ضد فريق من الشيعة يرأسه المختار بن عبيدالله، فقابله مصعب بجيش أضنته الحروب وقواد أضرَّهم إمساك ابن الزبير في الأموال، وشعب كان موتوراً بقتل المختار زعيمه المهزوم.

ومضى الأمويون في طلائعم بدر الأموال تمشي إلى مراكز القادة من الزبيريين، وعذب الأماني تنثال إلى بيوت الرؤساء فيهم، وبذلك انحلَّت عرى الزبيريين، ووجد الأمويون طريقهم إلى النصر على جثث العراقيين والحجازيين، وبه تم النصر لعبدالملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير في عام ٧١ وبويع له بالخلافة في الكوفة [1].

حصار ابن الزبير في مكة للمرة الثانية: وما استقر الأمر للأمويين في العراق بعد الشام ومصر ومدن الإسلام التي فتحوها حتى فكر عبدالملك بن مروان أن يختم جهوده باستئصال الزبيريين من منابتهم في مكة، فسيَّر الحجاج بن يوسف الثقفي[2] في جيش عظيم إلى مكة في عام ٧٢ فمضى إلى العراق ثم نزل الطائف بلده التي ولد فيها، وبدأ يرسل طلائعه إلى عرفة فتقابله سرايا ابن الزبير فينشب القتال بينهما فتنهزم خيل الزبيريين، ثم تقدَّم الحجاج إلى بئر ميمون وهي

(١) الكامل ٤ / ١٣ وما بعدها.

(٢) الحجاج من قبيلة ثقيف بالطائف، ولد بها ونشأ يعلم الصبيان، ولما لم تسعه مهنة التعليم خرج إلى الشام ولحق بشرطة روح بن زنباع، ولما احتاج عبدالملك بن مروان إلى حازم يسوق مؤخرة الجيش قدمه روح ابن زنباع بعد أن وصف قسوته وحزمه لعبدالملك فكان عند ظنهم، فارتفعت مكانته عند عبدالملك وزادت درجته حتى تولى قيادة الجيش لمهاجمة ابن الزبير في مكة «انظر وفيات الأعيان ١ / ١٧٣ فما بعدها».

بين مكة ومنى، ووافاه في بئر ميمون القائد الأموي طارق بن عمرو في جيشه قادماً من المدينة بعد أن فتحها وبايع فيها لعبدالملك بن مروان .

وأهلَّ هلال ذي الحجة عام ٧٢هـ ومكة محصورة ولا سبيل للحجاج إليها، ولما وافى يوم عرفات وقف الحجاج بجيشه ملبياً، ثم ازدلف وإياهم إلى المزدلفة ومنى، ولم يستطيعوا دخول مكة لإتمام مناسكهم فبقوا في إحرامهم، ولم يستطع الزبيريون والأهالي في مكة أن يقفوا على عرفات فنحروا بدنهم يوم النحر وظلوا محصورين في مكة .

وتقدمت جيوش الحجاج في مستهل عام ٧٣ حتى نزلت بين الحجون وبئر ميمون بعد أن أذن له عبدالملك بن مروان بدخول مكة، وكان قد أوصاه بحصار ابن الزبير وأن يتجنب دخولها (١) .

ثم تقدموا حتى اتصلت بعض سراياهم ببعض أبواب المسجد الحرام مما يلي باب بني شيبه إلى ما يحاذي باب الصفا تقريباً، ولاذ الزبيريون بالمسجد يتحصَّنون بالكعبة، فأمر الحجاج بنصب المجانيق فنصبت ورمي بها المتحصنون للمرة الثانية في عهد ابن الزبير، فكانت الأحجار تنال الكعبة وتقع على جدارها(٢) . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الحجاج كان يرمي بها الكعبة فيتبادر إلى بعض الأذهان أنها كانت مقصودة، وهي فكرة كان أحرى أن ينالها تدقيق العبارة، فالحجاج على قسوته وعناده ليس بالرجل الذي ينسى إسلاميته ويرمي قبْلته التي يصلي إليها بحجارة المنجنيق، إنما هي حُمَّى الحرب وثورة الأعصاب أَسلمت المسلمين مع كل أسف في كثير من أزمنة التاريخ إلى كبائر وأخطاء لا

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٧٠ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٥ / ٢٥٨ فما بعدها.

ندَّعي أنها كانت مقصودة لذاتها بقدر ما نرى أنها نتائج طبيعية لثورات من الغضب يفقد العقل فيها توازنه، على أننا لا نبرئ الزبيريين، فقد ساهموا بنصيب طيب من العناد، وأحرجوا الأمويين بتحصنهم بالكعبة، فكانت الحجارة تنال الكعبة بقدر ما تنالهم، ولو استعانوا بشيء من هدوئهم لأدركوا وقتئذ تحرُّج الحالة واستحالة الدفاع في حصار تمده جيوش لا قبل لهم بها فأعلنوا طاعتهم؛ استبقاء على دماء من حولهم، واحتراماً لقدسية البيت الحرام.

الواقع أن الشجاع لا يستطيع أن يصيخ إلى نداء العقل، ولقد كان عبدالله بن الزبير على إيمانه بحقوقه في إمارة المسلمين واعتقاده بفساد الحكم في الشام ووثوقه بنفسه كان الرجل الفذ الذي يستطيع أن يضطلع بأمور المسلمين. ولقد كان شجاعاً من نوع ممتاز، وحسبك أن تعلم أن الأمويين كانو يحملون على باب من أبواب المسجد فيشد عليهم ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم منه إلى الحجون(١)، ولقد اجتمع إليه المكِّيون فقالوا: ألا تكلمهم في الصلح؟ فقال: والله لا أسألهم ذلك أبداً. وضاق الناس بإصراره فجعلوا يتسللون إلى الأبطح طالبين الأمان من الحجاج فيؤمنهم حتى قالوا: إن عدد من تخلَّى عنه يومئذ لا يقل عن عشرة آلاف رجل، ومع هذا لم يزعزع ذلك من ثباته شيئاً(٢).

شجاعة أسماء: وضربت أمه بشجاعتها مثلاً لم يسبق إلى مثله التاريخ فيما أعلم، ولا أحسب أنه سيدركها مضارع فيما يأتي. قال الواقدي: حدثني مصعب ابن نائب عن نافع مولى بني أسد قال: شكا ابن الزبير إلى أمه خذلان الناس له، فقالت: إن كنت تعلم أنك على حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك،

(١) شفاء الغرام ٢/ ١٦٩.

(٢) الكامل ٤/ ٢٣.

ولا تمكِّن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، قال: فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فانظري يا أماه، فإني مقتول في يومي هذا، فقالت: اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك.

إلى هذا الحد نستطيع أن نُكْبِر في السيدة أسماء شجاعتها وثبات عزمها، أما الشطر الآتي من القصة فإنه يتجاوز عن إكبارنا آلاف المراحل؛ لأن ما سنسمعه لا يوصف بالعزم ولا بالثبات والشجاعة، إنما هو شيء أرقى من هذا وأكبر:

- وما هذا الدرع الذي تلبسه يا عبدالله؟. إنه لباس الرجل الذي لا يريد الشهادة.
- إنما لبسته لأطيِّب خاطرك وأسكِّن قلبك.
- لا.. ولكن انزعه.. انزعه يا عبدالله.

إنها تقول: انزعه. كأني بالتاريخ يتحدَّى معجمات اللغة لتعطيه كلمة تؤدي معنى هذه الجرأة الفذة أداء صحيحاً فلا تستطيع.

هذه الشجاعة أو بالأصح هذه المعاني التي تسمو على الشجاعة عشرات المرات، كانت مسؤولة إلى حد كبير عن المأساة في تفاصيلها وضحاياها وما نال الكعبة منها.

نهاية ابن الزبير: مضى ابن الزبير على أثر هذا فصلى الفجر في ثبات المطمئن، ثم حث الأقلية الباقية حوله على الصبر، وبادر القتال بحملات قوية كشف فيها نحو خمسمائة فارس وراجل عن باب المسجد حتى أعادهم إلى الحجون، فأصابته آجرة في وجهه ففلقت رأسه، فلما وجد سخونة الدم تمثَّل:

ولسنا على الأعقاب تَدْمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدِّما

ثم أغمي عليه وسقط على الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه، وبقتله -رضي الله

عنه- سقطت حكومته في مكة، ودخل الأمويون المسجد فطافوا بالكعبة وتعلقوا بأذيالها حامدين شاكرين الله ساجدين، وكان ذلك في ١٧ من جمادى الأولى سنة ٧٣ (١).

وأمر الحجاج بابن الزبير فصُلب على ثنية كدا عند الحجون بأعلى مكة (٢)، وقد حدَّث عقبة بن مكرم بسند متصل إلى بني نوفل حديثاً جاء فيه أن الحجاج أرسل إلى أسماء أم الزبير فأبت أن تأتيه، فأعاد إليها الرسول لتأتيني أو لأبعثنَّ إليك من يسحبك من قرونك، فأبت وقالت: والله لا آتيه حتى يبعث إلي من يسحبني بقروني. إلى أن قال ما معناه: ثم انطلق الحجاج حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتيني صنعت بعبد الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك. وفي رواية أن ابن الزبير ظل مصلوباً حتى أمر الحجاج بدفنه فدفن في الحجون بعد أن غسلته أمه وكفنته وطيبته.

وأقام الحجاج في مكة بعد أن أخذ البيعة من أهلها لعبدالملك بن مروان، ولم يحجم عن التنكيل ببني هاشم، وكاد يبالغ في ذلك لولا أن عبدالملك بن مروان منعه من ذلك(٣)، وهدد ابن الحنفية وابن عمر لحيادهما فبايع ابن عمر للأمويين مضطراً (٤)، ثم استصحب الحجاج نفراً كبيراً من الصحابة والتابعين إلى الشام فبايعوا عبدالملك بن مروان مكرهين، وبذلك انهارت الفكرة التي نعتقد أن ابن الزبير أبلى في سبيلها ما أبلى ليعيد إلى الحجاز نفوذه الديني ومركزه من خلافة الإسلام.

---

(١) الكامل ٤ / ٢٤.

(٢) كدا: بفتح الكاف، وهي غير كدا وكدى بالضم وهما يقعان في نهاية مكة من جهة المسفلة، وغير كداء بالهمز وضم الكاف وهي عند مقبرة الشيخ محمود.

(٣) العقد ٢ / ٣١٧.

(٤) ابن سعد ٥ / ٨١ فما بعدها.

وقد دامت حكومة ابن الزبير في مكة من سنة ٦٣ إلى ٧٣ نحواً من عشر سنوات بسط نفوذه في خلالها على أكثر أمصار الإسلام .

عودة الأمويين إلى مكة : وبسقوط حكومة ابن الزبير تولى أمر مكة للأمويين جماعة من صفوة بني أمية ، وقد اختلف المؤرخون في تعيين أسمائهم ، وأعتقد أن من أهم أسباب هذا الاختلاف أن أنظار المؤرخين في هذه الفترة انصرفت عن العناية بتفاصيل الحوادث في الحجاز كما تنصرف عادة عن كل بلد مغلوب ، واتجهت عنايتهم بالمقدرات العامة للمسلمين في الشام وبعض أمصار الإسلام التي تميزت بحوادثها العامة إذ ذاك .

ولقد ذكر مؤرخو مكة ما بلغهم من أسماء ولاة مكة للأمويين ، وذكر غيرهم ما يخالف ذلك قليلاً أو كثيراً ، ونحن نستطيع من مقابلة هذه الأقوال أن نستنتج أن عددهم كان نحواً من واحد وعشرين والياً دام حكمهم في مكة إلى نهاية العهد الأموي عام ١٣٢ نحواً من ٥٩ سنة ، وذلك عدا من جهل التاريخ اسمه منهم .

ولعل أوضح من نستطيع اعتماده فيما رواه من أسمائهم هو تقي الدين الفاسي ، وقد ذكر في «شفاء الغرام» (١) أنه ممن ولي مكة لعبدالملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير جماعة وهم : ابنه مسلمة بن عبدالملك ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، والحارث بن خالد المخزومي وينقل السنجاري -من مؤرخي مكة- أن من غرائب ما وقع في عهد الحارث أن عائشة بنت طلحة حجت في عهده وكان يهواها ، فأرسلت إليه أن أخِّر الصلاة حتى أفرغ من الطواف ، فأخرها فأنكر أهل

(١) ج ٢ ص ١٧٠ فما بعدها .

الموسم ذلك ولما علم أن عبدالملك بن مروان بلغه ذلك قال: ما أهون غضب ابن مروان عليَّ إذا رضيت عائشة! ثم قال: ولما قضت عائشة حجها أرسل الحارث إليها أن عديني يا ابنة عمي إلى مجلس نتحدث فيه، فبعثت إليه أن موعدنا من غداة الغد ثم رحلت من ليلتها. وأحسب أن في هذه الرواية ما يشتم منه الدعاية بالسوء ضد الأمويين.

ومن ولاة هذا العهد: خالد بن عبدالله القسري، ثم عبدالله بن سفيان المخزومي، وعبدالعزيز بن عبدالله بن خالد، ونافع بن علقمة الكناني، ويحيى ابن الحكم بن أبي العاص، ويذكر الفاسي أنه يظن أن من ولاة عبدالملك في مكة: هشام المخزومي، وأبان بن عثمان بن عفان [1].

وولي مكة للوليد بن عبدالملك أعدل الأئمة بعد الراشدين عمر بن عبدالعزيز. ويذكر ابن فهد أن العراقيين كانوا يلجؤون إلى مكة للإقامة بها في عهد عمر بن عبدالعزيز فراراً من جور الحجاج في العراق، وأن عمر كتب إلى الخليفة الوليد يخبره بما أدى إليه تعسُّف الحجاج، فلما كتب الوليد إلى الحجاج أجابه هذا يقول: «إن قبولهم في مكة وَهْنٌ ينتفع به أهل العصيان، وإني أرى أن يولَّى أمر مكة خالد القسري»، فقنع الوليد برأيه وعزل عمر بن عبدالعزيز عن مكة وولاها خالداً للمرة الثانية في شعبان سنة ٩٣. ثم يقول: وقد أَمَرَ خالد بسب علي فوق المنبر، فسبَّه الخطباء وأثنوا على الحجاج، ثم أمر بلعن الحجاج ففعلوا! ويقول: إن خالداً كان يحث على طاعة بني أمية ويقول: لو كنت أعلم أن هذه الوحوش لو نطقت ولم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم، وإنه أمر بإخراج أهل العراق

(١) شفاء الغرام ج ٢ ص ١٧٢.

كرهاً وتهدَّد من أنزل عراقياً أو أجاره، وقد بقي في إمارته إلى وفاة الوليد عام ٩٦هـ.

ووليها في خلافة سليمان بن عبدالملك طلحة بن داود الحضرمي ثم عبدالعزيز ابن عبدالله بن خالد للمرة الثانية .

وظل عبدالعزيز بن عبدالله في إمارته إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز. وولي أمر مكة -على ما قيل- محمد بن طلحة، ثم عروة بن عياض، وعبدالله ابن قيس، وعثمان بن عبيد الله بن قيس، ويذكر ابن جرير ما يدل على أنه لم يتولَّ إمارة مكة في خلافة عمر بن عبدالعزيز رجل سوى عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد، ويذكر الفاسي نقلاً عن الفاكهي أن بقية الولاة ربما تولوها لعمر بن عبدالعزيز في عهد إمارته قبل خلافته وقد كان مقيماً بالمدينة .

وفي عهد عبدالعزيز بن عبدالله ورد كتاب من الخليفة عمر بن عبدالعزيز ينهى عن كراء بيوت مكة ويأمر بتسوية بيوت منى، فجعل الناس يدسُّون إليهم الكراء سراً(١) .

وولي مكة في خلافة يزيد بن عبدالملك بن مروان جماعة أولهم: عبدالعزيز بن عبدالله سالف الذكر، ثم عبدالرحمن بن الضحاك، ويذكر ابن جرير الطبري أنه في سنة ١٠٣هـ ضمت إليه مكة مع المدينة، ثم عزل عنهما في النصف من ربيع الأول عام ١٠٤ . ويقول ابن كثير: إن سبب عزله أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبوله فألحَّ عليها وتوعدها، فشكته إلى يزيد بن عبدالملك فعزله وولى عبدالواحد بن زياد النصري.

---

(١) شفاء الغرام ح ٢ ص ١٧٣ .

ووليها في خلافة هشام بن عبدالملك جماعة أولهم: عبدالواحد السالف الذكر، ثم إبراهيم بن هشام المخزومي. ويذكر ابن فهد أن إبراهيم كان معتداً بنفسه إلى حدٍّ متطرف، فقد قيل: إنه خطب في منى فقال: إنكم لا تسألون أحداً أعلم مني، فقام إليه عالم من العراق، فسأله عن الأضحية أواجبة أم مستحبة؟ فلم يحر جواباً. ولعلها من مبالغات الناقمين على بني أمية، ثم وليها محمد بن هشام، ونافع بن علقمة الكناني، ووليها في خلافة الوليد بن يزيد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي وهو خال الخليفة الوليد، وقد ظل فيها إلى نهاية خلافة الوليد، وفي عهد يوسف أمر الخليفة بالقبض على إبراهيم بن هشام وأخيه محمد وكانا في إمارة مكة قبله، فلما حملا إلى الشام أمر الخليفة بجلدهما لأشياء كانت تبلغه عنهما في عهد إمارتيهما، ثم وجههما إلى الكوفة وأضاف إليهما خالداً القسري، فسجنهم عامل الكوفة، وأمر بتعذيبهم حتى ماتوا جميعاً في يوم واحد من شهر المحرم سنة ١٢٦ .

ثم وليها في خلافة يزيد بن الوليد عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك[(١)] .

أبو حمزة الخارجي: وفي عهد عبدالواحد بن سليمان هاجم مكة أبو حمزة الخارجي في ذي الحجة من عام ١٢٩ وكان في جيش كثيف لم يستطع عبدالواحد مواجهته، ففر في يوم عيد الأضحى إلى المدينة وترك أبا حمزة يعبث في مكة ويستولي عليها .

وأبو حمزة رجل من شيعة علي اسمه المختار بن عوف كان من حضرموت

(١) شفاء الغرام ٢ ص ١٧٣ .

وكان يصاحب الحاج في المواسم عدة سنوات داعياً فيهم إلى الخروج على طاعة الأمويين، وقد لقي عبدالله بن يحيى الكندي في مكة، وكان يدعو إلى نفسه وقد لقبوه بطالب الحق، فحسن له أبو حمزة الشخوص معه إلى حضرموت، وهناك بايعه وقومه على القتال ضد الأمويين، ومن ثم ثاروا على عامل الأمويين في حضرموت وصنعاء واستولوا عليها.

ثم زحف أبو حمزة بجيشه إلى مكة فاستولى عليها في ذي الحجة عام ١٢٩هـ بعد أن فرَّ عاملها عبدالواحد إلى المدينة، ثم زحف إلى المدينة فقابله عبدالواحد في طريقها، فقاتله وهزمه أبو حمزة، واستمر في زحفه حتى استولى على المدينة في عام ١٣٠هـ، ثم سار إلى الشام لقتال الأمويين، فأرسل إليه مروان جيشاً هزمه واستعاد منه المدينة، ثم تراجع أبو حمزة إلى مكة، فحصره جيش الأمويين في وادي القرى [١] قريباً من خيبر، فقتله واستولى على مكة[٢].

وينقل الفاسي [٣] عن الذهبي أن الأمويين عندما هزموا جيش أبي حمزة في وادي القرى فر أبو حمزة في بعض جيشه إلى مكة فأدركوه فيها، وتقدم بعض الخيالة فحاصروه من ناحية المسفلة، كما حاصره فريق آخر من جهة المعلاة، فلم يجد منفذاً للفرار وقتل من يومه بعد أن دافع عن نفسه دفاع المستميت.

واستأنف جيش الأمويين زحفه بعد ذلك إلى اليمن حتى لقي الخليفة المنصوب عبدالله بن يحيى، فقتله وفرّق جيشه وقضى على حركته في مهدها، وأعاد مكة وجنوب بلاد العرب إلى حكم الأمويين.

(١) وادي القرى من أودية الحجاز المشهورة ويقع في شمال المدينة.

(٢) راجع الكامل لابن الأثير ٤ / ٢٩٧ وما بعدها.

(٣) شفاء الغرام ٢ / ١٧٥.

النواحي العامة في العهد الأموي

الناحية السياسية : كان انتقال الخلافة إلى الشام حداً فاصلاً بين عهدين في الحجاز ، فلقد كان الحجاز يشعر أنه يمارس سلطة الحاكم الديني في الإسلام ، كما كانت مكة تضع نفسها في الطليعة من أصحاب الحل والعقد في هذا الحكم ، فما كاد معاوية يتحول بالخلافة إلى الشام حتى شعر الحجاز أن أمره بات تابعاً بعد أن كان متبوعاً ، وأن إمارته مربوطة منذ ذلك اليوم بعجلة القيادة العليا في الشام .

ولقد حاول معاوية أن يعوض مكة وأن يعوض المدينة ما فقدتاه من السلطة ، وأن يسرِّي عن أصحابهما من كبار المهاجرين والأنصار ما ملك سبيلاً إلى ذلك ، فأغدق عليهم من العطايا ما لا يوفى حصره ، وأباحهم من سجاياه الطيبة ونداه الفياض ما يعجز عنه الوصف .

كان يفد إليه عبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر الطيار وعبدالله بن عمر وعبدالرحمن بن أبي بكر وأبان بن عثمان وناس من آل أبي طالب وغيرهم من عظماء مكة والمدينة فيكرم مثواهم ، ويقضي حوائجهم ، ويغدق عليهم من أمواله أرقاماً خيالية .

وكما كان يسع الناس بهذا الندى كان يسعهم بحلمه الواسع وأخلاقه المتينة ويحتمل جرأة بعض المعارضين بصبر قلَّ أن يكون له مثيل بين الرجال .

ذكر صاحب «صبح الأعشى» (١) أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل الحجون يقال لها (الدارمية) ، فجيء إليه بها وكانت سوداء مكتنزة

---

(١) القلقشندي .

اللحم فقال: ما حالك يا ابنة حام؟ قالت: لست لحام أدعى، إنما أنا امرأة من كنانة، قال: صدقت، أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله، قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتيني وواليتيه وعاديتيني؟ قالت: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك، قالت: أما إذا أبيت فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق، قال: ولذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك، قالت: يا هذا، بهند كانت تضرب الأمثال لا بي، قال: يا هذه، أربعي، فإنا لم نقل إلا خيراً، ثم قال: كيف رأيت علياً؟ فقالت: رأيته لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك، قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: وتفعل إذا سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها، قال: تصنعين بها ماذا؟ قالت: أغذي بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأصلح بها بين العشائر، قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي؟ قالت: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك، قال: يا سبحان الله! أو دونه؟ ثم أنشأ يقول وفي قوله جماع سجاياه الكريمة:

إذا لم أعد بالحلم مني إليكم ... فمن ذا الذي بعدي يُؤمَّل للحلم؟
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال: أما والله لو كان علي ما أعطاك منها شيئاً، قالت: والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين!!

والذي يستطيع الباحث أن يستنتجه رغم مبالغة القصة أن المجتمع في مكة لم تفتنه يومها انتصارات معاوية، كما أن إنعاماته السخية لم تُلْغِ ملكات النقد فيها، وأن رفاهية الحياة التي أصبحوا يعيشونها في هذا العهد لم تنسهم طلاقة البداوة وصراحتها ورجولتها، وأن قوة معاوية وجبروته لم يثن من عزيمة امرأة يسألها: إن أعطيتك فهل أحل عندك محل علي؟ فتقول ولا توارب: «ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك».

كما يستطيع أن يستنتج أن معاوية كان يحاول بكل ما ملك من صبر وحلم وجود أن يعوض مكة والمدينة ما فقدتاه من السلطة، ولقد نجح في ناحية السياسة كما أراد، كأني بمكة رأت أنه من الخير أن تدين بالطاعة لهذا الرجل العظيم في الشام، كما رأت أن له من صحبته برسول الله، وعلو بيته في قريش، وقوة شخصيته، وشدة منعته بالشام، وكريم أخلاقه، ومننه الغظيمة الفياضة، ما يؤهله للقيادة ويجعله حرياً بالطاعة.

لهذا قنع المعارضون فيها وفي المدينة بالأمر الواقع. وأعتقد أنه لو لم يفكر في أخريات أيامه في توريث الخلافة لولده يزيد لما عاد الثائرون في الحرمين إلى المعارضة، ولجرى سير التاريخ في غير ما جرى.

إذن فقد أهابت فكرة التوريث إلى يزيد بالمعارضين ليعيدوها جذعة، ليذهب ضحيتها ابن بنت رسول الله، وليجد عبدالله بن الزبير الفرصة سانحة لدعوته التي طال عليها السكوت.

ولقد كان عبدالله بن الزبير -كما أسلفنا- مثال الزعيم الناهض، وكان له من بأسه وشجاعته النادرة وتدينه كل مقومات الزعامة، ولست أشك في أنه كان

يحتضن رأي القائلين بإعادة الخلافة إلى مهدها في الحجاز ، وأوشك ابن الزبير أن ينجح في المهمة التي اضطلع بها ، وكاد أن يعيد إلى مكة مركزها من السلطة الدينية ، وشوهد مروان بن الحكم حجة الأمويين في عهده يعتزم الرحيل إلى مكة ليبايع ابن الزبير فيها ، لولا أن الشباب من بني أمية قطعوا عليه سبيله في الجابية وأعلنوا مبايعته بالخلافة .

وكان لهذا أثره ، فقد تكاثرت جنود الشام يقودهم بنو أمية على صاحب النهضة في مكة حتى أحبطوا مساعيه ، ودفنوا آماله في بطحائها ، وعلقوا جثته على مرتفع فيها عند الحجون .

ولم يقتصر هذا الأثر على ما علمت من إحباط مساعي ابن الزبير ودفن آماله في بطحاء مكة ؛ لأننا نرى أنه كان لذلك رد فعل تعدت نتائجه إلى الروح السائدة بين المكيين ، فأخمدت جذوتها وأطفأت شعلتها ، وأحالتهم من جديد إلى أناس يعيشون على هامش السياسة الإسلامية بعد أن كانوا منها في الصميم .

فقد جدَّت على أثر فشلهم في حركة ابن الزبير حوادث إسلامية هامة في أمصار الإسلام أثناء حكم بني أمية إلى نهايته ، اصطفق فيها المسلمون واضطربت أمواجهم فيها ، فكان للخوارج شأن ، وللمتشيعين والعلويين والزيديين شأن آخر ، وللمرجئة والمعتزلة والشعوبية شؤون غيرها ، فلم يختلط المكيون بشيء مما حدث ، ولم يشايعوا فريقاً ضد فريق ، كما لو كانوا قد قنعوا بما جربوا أو يئسوا بعد أن حاولوا ، وشيء آخر لا يصح أن نغفله من حسابنا ونحن ندرس هذه الحقبة من تاريخ مكة ؛ ذلك أن المكيين كانوا فيما يبدو مأخوذين بالروح التي كانت تسود في عهد الشيخين ، وبخيال الظل الذي تألق فيما بعد في صورة ابن الزبير ، فلما أسقط في أيديهم وفاجأتهم الحوادث بغير ما يتخيلون أدهشتهم المفاجأة ، فظلوا

في سكوتهم لا ينظرون إلى الحياة بغير نظرة العابث الساخر الذي لا يواجه الحقائق بقدر ما يزوغ منها. إنهم جدوا مرة عندما اعتنقوا مذهب أبي بكر وعمر، فلما تشعبت الآراء وانقسمت المذاهب وتحمس أصحاب الدعاوى وكثر الدجاجلة والمهديون والمتنبِّئون نظروا إلى هذه الفوضى حولهم بروح العابث الذي يلهو ولا يجد.

ولعل أصدق وصف يعطينا دليلاً على صحة ما نرى ما جاء في خطبة علي بن محمد بن علي العباسي، وهو أحد دعاة العباسية فيما بعد، وفيها يقول: «أما الكوفة وسوادها مشيعة على، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف، وأما الجزيرة فحرورية صادقة، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير طاعة بني أمية، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر[1] » هذه النظرة العابثة التي شاعت في المكيين بسبب الثبات على ما ورثوا من أبي بكر وعمر أسلمتهم إلى استقرار طويل دام إلى نهاية العهد الذي ندرسه عهد الأمويين. إلا إذا استثنينا بعض النزوات التي كانت تتألق في قصيدة شعرية أو مساجلة أدبية في مجلس من المجالس، التي كان بعض الشباب يعقدها في المسجد حول الكعبة - كما تقدم بنا - يناقشون فيها حياتهم أو يعرضون فيها لنقد الأمويين، ومع هذا فقد قاست هذه الأقلية من أصحاب النزوات ما لا يستهان به، فقد ضيَّق يوسف بن محمد بن هشام على العرجي الشاعر في مكة لما بلغه من هجو بني أمية، ثم جلده وسجنه إلى أن مات في السجن بعد نحو تسع سنوات، وضيق خالد بن عبدالله القسري على سعيد ابن جبير وعذبه، وضيق الوليد بن عروة السعدي آخر عمال بني أمية على جماعة من شبابها كانوا يسمرون في المسجد إلى ما بعد منتصف الليل وقد بلغه أنهم يتحدثون في سياسة الأمويين ويتعرضون لنقدها، فجعل عليهم الأرصاد حتى

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ٣ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

تفرق بعضهم ونكل بالبعض الآخر، كما نكَّل بشاعرهم المعروف سديف بن ميمون وكان من أفراد جماعتهم، فأمر بسجنه وجعل يجلده في كل سبت مائة سوط، وقد ذكروا أنه بقي في سجنه حتى أطلقه العباسيون في دخولهم إلى مكة، وفي ذلك أنشأ قصيدته المعروفة ومطلعها:

أصبح الدين ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس[1]

وفيها يندد بالأمويين:

فلقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارق وكراس

والقصيدة مطولة حفلت بها كتب الأدب.

ونعود إلى روح السخرية الذي ساد مجموع الأمة لنجده وقد أسلمهم إلى القناعة، ثم أسلمت القناعة بعضهم إلى نوع من الزهد، فكان منهم المتعبدون والورعون والمنقطعون إلى العلم، كما أسلمت بعضاً آخر إلى شيء من العبث بالحياة، وساقهم إلى لون من المجون فيه شيء من الفن وشيء آخر من اللعب واللهو كما سيأتينا.

الناحية العلمية والدينية: ونحن هنا نستعرض القسم الذي زهد الحياة فانقطع للعبادة والعلم.

يذكر المؤرخون أن مكة غصَّت في هذا العهد بجمهرة كبيرة من هذا القسم، وأنه أضيف إليهم أمثالهم من مهاجري الآفاق الذين عصفت بهم الفتن فهرعوا إلى مهبط دينهم ينشدون الاطمئنان بعيداً عن القلاقل، فكثر سوادهم وامتلأت برجال العلم منهم حلقات الدروس في المسجد.

(١) راجع محاضرات الخضري ص ٤٨.

وقد لحق ابن العباس بهم في أوائل العهد الأموي فراراً من الاختلافات السياسية، فاتخذ مقعده في دار زمزم على يسار الداخل إليها يذيع معارفه وينشر علومه، ونحن في غنى عن أن نصف ابن العباس، فليس من يجهل أنه من أجلاَّء الصحابة، وأنه من أوسعهم علماً وأكثرهم اطلاعاً وأفضلهم عقلاً، وأنه حَبْر هذه الأمة، ومفسِّر كتاب الله وترجمانه، وأن عودته إلى مكة ليضطلع بالتدريس فيها كان كسباً ما ظفرت مكة بعده كسباً يضاهي ربحها العلمي منه [١].

اتسعت حلقة ابن العباس في المسجد الحرام، وهُرِع الظامئون إلى مناهل العلم يروون غلتهم منها، فكانت حركة قوية تركت أثرها في جموع المتدارسين الموزعين في أفناء المسجد، وأنتجت ضَجَّة علمية اتصل صداها ببيوت مكة من أطرافها إلى أطرافها، وتوافد على صيتها من أقطار الأرض طُلاَّب المعرفة وقُصَّاد العلم[٢].

وأنتجت هذه المدرسة فيما أنتجت مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار، وأبا الزبير محمد بن مسلم بن تدرس، وعمرو بن دينار الجمحي [٣]، وعكرمة مولى ابن عباس، وكان أكثر الناس اتصالاً بابن عباس مولاه عكرمة؛ لهذا كان أكثرهم رواية وأغزرهم معرفة، كما اشتهر مجاهد بن جبر بميزات خاصة وقضى وقتاً طويلاً يتولى قضاء مكة.

---

(١) ينقل الأزرقي بسند متصل إلى عطاء أنه كان لزمزم حوضان: أحدهما بينها وبين الركن يشرب منه الماء، والثاني: من ورائها للوضوء، ثم يقول: وكان موضع مجلس ابن العباس في زاوية زمزم التي تلي الصفا، والوادي وهو على يسار من دخل زمزم.

(٢) كان ابن عباس يتردد على الطائف أيام إقامته في مكة، وعندما حضرته الوفاة عام ٦٨ كان بالطائف فدفن بها. (راجع محاضرات الشيخ محمد الخضري ص ٧).

(٣) مولى أحد الأعلام التابعين، كان موثقاً في الحديث، وقدمه بعضهم على عطاء ومجاهد. (العقد الثمين ج ٦ ص ٣٣٤).

وظلت هذه المدرسة تؤدي وظيفتها بأقوى ما تؤديه المدارس الحية، وتنتقل معارفها من طبقة إلى أخرى ومن جيل لتسلمه إلى آخر حتى أنتجت سفيان بن عينية(١)، ومسلماً بن خالد(٢)، ثم أنتجت الإمام الشافعي فيما سيأتينا من تفصيل.

الناحية الفنية *: أما القسم الآخر الذي أنتجته النظرة العابثة في الحياة فقد أسلم أصحابه إلى كثير من الترف والفنون واللعب.

شاع التظرف الأدبي بين هؤلاء شيوعاً قد لا نجد له نظيراً في تاريخ مكة، فأنتج لنا عمر بن أبي ربيعة، وعبدالله بن قيس(٣)، والعرجي، والحارث بن خالد المخزومي، وشعراء غيرهم لم يبلغوا شأوهم ولكنهم كانوا على العموم يمثلون ناحية الترف والمجون في عصرهم تمثيلاً صادقاً.

وتأنَّقت المترفات فبدأنَ يستَمْرِئْنَ الأدب ويتلذَّذْن بسماعه، وتعرَّض الأرستقراطيات منهن للشعراء يستزدْنَهم ويشحذن خيالهم، وترقق بعضهم فاستسغن الاجتماعات البريئة يشجيهن فيها الشاعر برقيق ما ينشد:

قالت: لو أن أبا الخطاب وافقنا ... اليوم نلهو وننشد فيه أشعارا

ومضى بهن التظرف إلى الاستئناس بالسمر يلهون في غفلة عن الناس ثم يعفين آثاره بأكسيتهن الجميلة من الخز.

---

(١) ابن أبي عمران أبو محمد، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم أهل الحجاز. توفي بمكة سنة ١٩٨هـ (العقد الثمين ج ٤ ص ٥٩٢).

(٢) ابن قرقرة، ويقال: ابن جرجة، فقيه مكة وفقيهها المعروف بالزنجي، كان من فقهاء أهل الحجاز، ومنه تعلم الشافعي الفقه. (العقد ج ٧ ص ١٨٧).

* يلاحظ أن المؤلف اعتمد في هذا الجانب على ما ذكره صاحب كتاب الأغاني وهذا الكتاب يحسن التعامل مع ما ذكره بحذر.

(٣) كتاب «طبقات الشعراء» يسميه عبيدالله، ويشايعه على هذا صاحب «الأغاني»، ولكن أكثر الرواة على أن اسمه عبدالله.

سـمـرن يقُلْن: ألا ليـتنا نرى ليلنا دائمـاً أشـهـرا
ويغـفل ذا الناس عن لهـونا ونسـمـره كله مـقـمـرا
غـفلن عن الليل حـتى بدت تبـاشـيـر من واضح أشـقـرا
وقـمن يعـفِّين آثارهن بأكـسـيـة الخـز أن تقـفـرا
وقـمن يقلـن لو ان النهـا ر مـدّ له الليل فـاسـتـأخـرا

لا أعتقد أنهن كن فاجرات في سمرهن أو فاسدات في تعرضهن للشعراء، ولكنهن كن ساخرات بالحياة عابثات بها، وكن مرحات يستذوقن الجمال ويستمرئن الهوى في حدوده التي رسمتها بيئة عصرهن (١).

مضت لوثة هذا التظرف حتى اتصلت بمواقف الحج من المشاعر، فنحن نرى المسعودي ينقل إلينا ما يقوله أحد الحجاج من الشعراء:

يا حـبـذا الموسم من مـوقف وحـبـذا الكعبـة من مـسـجـد
وحـبـذا اللاتي يزاحـمننا عند اسـتـلام الحـجـر الأسـود

فيغضب والي مكة خالد بن عبدالله القسري ويأمر بمنع اختلاط النساء بالرجال في المطاف، ونسمع المغنين يرددون لنا بيت العرجي المشهور:

من اللائي لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا

وتضيف الروايات التاريخية إلى هذا أن بعض فقهاء الحجاز أدركتهم هذه اللوثة من التظرف، وتقول: إنهم كانوا أرق شعوراً وأكثر تسامحاً من غيرهم، وإن

(١) راجع الأغاني ١/ ١٠٥ وما بعدها.

عبيد الله بن عمر العمري يقول: خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام فيه رفث، فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها: يا أمة الله، ألست حاجة؟ أما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً، ثم قالت: تأمل يا عمي، فإني ممن عنى العرجي بقوله:

من اللائي لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البريء المغفلا

قال: فقلت: أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار. وقد بلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال: أما والله لو كان من فقهاء أهل العراق لقال لها: اغربي قبحك الله. ولكنه ظرف عباد الحجاز.

وكان كثير من النساء يخرجن سافرات الوجوه (١)، ويطفن بالبيت في غير نقاب، وقد أورد الأزرقي في أخبار مكة ما يشير إلى ذلك، ثم قال في حديث عن جده: إن عطاء كان يكره أن تطوف المرأة متنقبة، وكذلك كان يرى ابن أبي مخارق، ثم قال: وقد ظل عطاء على رأيه حتى ثبت له أن عائشة كانت تطوف متنقبة فأرخص في ذلك.

وتسامح المكيون في سماع الغناء حتى اقتنوا له الجواري من طبقات ممتازة، فأدبوهن بآداب العربية، وعلموهن صناعة الشعر، وتركوهن يغنينه بما عرفن في بلادهن مصبوغاً بصبغة الحجاز. ويروي أبو الفرج أن أول من غنى بمكة من أهلها سعيد بن مسجح؛ سمع غناء الفُرْس وألحان الروم، وتعلم الضرب، ثم ألقى ما استقبحه من النبرات الخارجة عن غناء العرب، وغنى على مذهب يجمع بين ما استحسنه من الأنغام، وتبعه الناس فيما بعد (٢).

---

(١) انظر الأغاني ١٠/ ٥٤ و ١٤/ ١٦٥.

(٢) الأغاني ٣/ ٢٨١.

واشتركت المدينة في هذه اللوثة، وشاع أمر الغناء بينها وبين مكة، ولكن مكة سبقت إلى الشعر الغنائي بما شاع فيها من شعر ابن أبي ربيعة وأصحابه، واشتهر بين المدينتين من الموالي المغنيين والمغنيات جميلة، وهيت، وطويس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومعبد، ومالك، وابن عائشة، ونافع، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة القس [1]، وبلبلة، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وتجد أخبار ذلك مفصلة في كتاب «الأغاني».

وشاع التندر والفكاهة في مكة كما شاعت خفة الروح، وكثرت التائهات بحسنهن المعتزات بجمالهن القاتل:

نحن أهل الخيف من أهل منى ... ما لمقتول قتلناه قود

وأغرقن في حلل من الخز والديباج، وزينتهن من الياقوت والزبرجد:

يرفُلْن في مطرفات السوس آونة ... وفي العقيق من الديباج والقصب

ترى عليهن حُلْيَ الدر متسقاً ... مع الزبرجد والياقوت كالشهب

وكلف هؤلاء بمنتزهاتهم في أطراف مكة والزاهر، وفي عقيق المدينة وضواحي الطائف، كما يذكر صاحب «الأغاني» فكانوا يمتطون الدواب الفارهة في أعناقها القلائد الذهبية، أو يمشون في أقبيتهم المطرزة بالوشي تحت الثياب الرقيقة المصبغة من الكتان أو القز بعضها أطول من بعض، كأنها المدارج تقوم قياماً من شدة الصقال، كما كلف أغنياؤهم بتشييد القصور في ضواحي المدن، ومن أشهرها قصور العقيق بضاحية المدينة.

(١) القس: هو عبدالرحمن بن أبي عمار الجشيمي، اشتهر بالعبادة فسُمي القس، وقد عرفت سلامة به لأنه سمعها على غير عمد منه، فبلغ غناؤها منه كل مبلغ، واشتهر بها كما اشتهرت به. راجع الأغاني ٨/ ٣٣ وما بعدها.



قصر ابن العاص في عقيق المدينة

وشاعت بين المترفين في هذا العهد ألوان من الطعام الشامي والفارسي، كما شاع بينهم اتخاذ الكراسي حول الموائد واستعمال الملاعق من الخشب والمناشف إلى جانب السكاكين التي كانوا يستعملونها من عهود سابقة، وشرعت بيوتهم تأخذ أشكالاً جديدة من هندسة البناء، وترتفع طبقاتها في الهواء بالحجارة والرخام[1] مرفوعة على الأعمدة والأقواس، مزينة بالفسيفساء في أبهائها، ولايزال آثار ذلك ماثلاً إلى اليوم في أطلال قصر ابن العاص في ضواحي المدينة.

وبلغ من انتشار الترف أن أصابت عدواه -كما قلنا- بعض المحتشمين، فكلفوا بالتنزه والمطاولة في البنيان، وأباح بعضهم لنفسه حضور مجالس الأغاني والاستماع إلى رقيق الشعر والترنم به، ولم تتحرج سكينة بنت الحسين من الحفاوة

(١) الأغاني ١ / ٢١١ .

بشعر عمر بن أبي ربيعة، فقد كان يصادفها في الطريق، ويأخذ بلجام بغلتها لينشدها شعره، فتستمع إلى نشيده وتناقش بعض معانيه .

وشاع في أكثر الأوساط لهذا العهد، لبس العباءة من وبر الجمل فوق القباء الطويل الذي يتدلى إلى العقب مشقوقاً من وسطه، وكان بعضهم يلبس العمامة ويختلف حجمها حسب السن والمركز، ويلف بعضهم الطيلسان فوق العمامة وهو عبارة عن منديل كبير يتدلى إلى الكتفين. وتلبس المرأة سروالاً فضفاضاً وقميصاً مشقوقاً عند الرقبة، وتضيف إليه رداءً قصيراً ضيقاً في فصل البرد، وتشتمل في خروجها بملاءة طويلة وتلف رأسها بمنديل، وكان بعضهن سافرات الوجوه تضرب الخلاخل في أرجلهن .

وبالجملة فقد عاش الحجازيون في هذا العهد على أثر خمود حركة ابن الزبير على هامش الحياة السياسية، شغل بعضهم الزهد والعبادة والعلم كما شغل الفن ولهوه البعض الآخر، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على إشاعة الفن في دمشق تارة وفي اليمن والعراق أخرى، فقد استقدم الوليد بن عبدالملك وأخوه يزيد أشهر المغنين من مكة، فأشاعوا أصواتهم في الشام[1]. وفر الغريض من والي مكة إلى اليمن فنشر ألحانه فيها [2] وانتقل تلاميذ مسجح في مكة إلى العراق في أواخر عهد الأمويين فشاعت ألحانهم في العراق، وكانت لهم مدرسة أخذ عنها فيما بعد إسحق وابن جامع وغيرهم، ونزل الأبجر المغني المكي مصر فشاعت ألحان مكة فيها [3] واختلط الحجاج من كل جنس بالفن الغنائي بمكة فنقل من طريقهم إلى

(١) الأغاني ٥ / ١٠٩ .
(٢) الأغاني ٢ / ٣٩٨ .
(٣) الأغاني ٣ / ٣٤٦ .

أكثر أمصار الإسلام وقد ساعد الأمويون على هذا التوجيه بما يسروه لهم من الأسباب حتى خلف الخلف الذي ورث العيش من جوانبه السهلة وألف الأعطيات والصدقات واتكل على ما ينتجه غيره في أمصار أخرى، ونسي أن له حقوقاً في السياسة العامة والحكم.

ولو جاز لي أن أستبق الحوادث لقلت: إن هذا التوجيه الأموي في هذا البلد قلده جميع الحكومات الإسلامية التي تعاقبت على حكم هذا البلد أو الإشراف عليه، فقد كانوا بالتتابع يغدقون عطاياهم على الحجازيين ليعيشوا مشغولين بهذه المنح لاهين عن جد الحياة، لا همَّ لهم إلا أن يأكلوا ويطربوا أو يزهدوا فيدعوا لخليفة المسلمين بالنصر، ولو أرادوا الإخلاص فيما كانوا يمنحون لأبدلوا هذه العطايا بدور علمية يبنونها وأرض موات يحيونها، وبيوت صناعية ينشئونها، ولكنهم كانوا مغرضين ففي ذمة التاريخ ما ورثنا من تواكل وما نشأنا عليه من فقر وما تعلمناه من استجداء الحجاج والزوار، وما فقدناه في تضاعيف ذلك من رجولة وما ضيعناه من مجد نحن أولى المسلمين بتراثه وأحقهم بحقه.

الناحية العمرانية: ينقل القطبي في الأعلام عن الفاكهي أن من آثار النبي مسجداً بأعلى مكة عند بئر جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل ثم يقول: وكان الناس لا يتجاوزون في منازلهم في قديم الزمان هذا البئر، وما فوق ذلك خال من الناس وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة:

نزلت بمكة من قبائل نوفل ... ونزلت خلف البئر أبعد منزل
حذراً عليها من مقالة كاشح ... ذرب اللسان يقول ما لم يفعل

ونستطيع أن نفهم من هذا أن قديم الزمان الذي يشير إليها الفاكهي هو عهد بني أمية، وفي شعر ابن أبي ربيعة وهو من معاصري الأمويين ما يؤيد ذلك، فقد نزل خلف البئر أبعد منزل . إذاً فقد كان العمران في هذا العهد لا يتجاوز البئر والمسجد المذكورين، وقد أدركت العامة وهم يسمون المسجد الموجود الآن أمام الحلقة مسجد الراية وكنت لا أستبعد أن يكون البئر المذكور هو بئر الكمالية الموجود اليوم على بعض أمتار منه، ولكني علمت أن الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري حقق مكان البئر والمسجد وانتهى في ذلك إلى أن مسجد الراية هو المسجد الموجود في الجودرية وتقع عمارة شركة الكهرباء الآن خلفه، وبجواره مباشرة بئر جبير بن مطعم، وأجدني اليوم أميل إلى متابعة رأيه لأسباب أذكرها وقد يكون ذكر غيرها.

١ - بعد أن ذكر القطبي في كتابه الأعلام أن العمران كان لا يتجاوز البئر قال: أما في زماننا «وزمانه في أوائل العهد العثماني»فقد تجاوز العمران كثيراً صوب المعلاة، فإشارته إلى تجاوز العمران كثيراً صوب المعلاة فيها مايدل على أن مسجد الراية كان بعيداً عن المعلاة، فإذا افترضنا أن مسجد الراية الموجود أمام الحلقة، فإن المدى بينه وبين المعلاة مدى يسير وإن أقل العمران يصله بالمعلاة مباشرة .

أما اذا جعلنا مسجد الراية في «الجودرية» (١) فإن جملة العلامة القطبي تستقيم تماماً؛ لأن المدى بينه وبين المعلاة يحتمل قوله أن العمران تجاوز كثيراً صوب المعلاة.

---

(١) الجدر بفتح الجيم وكسرها: هو نبات رملي ولعله كان ينبت بجوار ما نسميه مسجد الراية لقلة البيوت فيه فسميت (الجودرية) بالتصغير . (ع) : الجودري عند أهل الحجاز لحاف من قطن ملبس بالقماش، وكان جزءاً رئيسياً من أثاث كل منزل إلى عهد قريب، وقال لي أحد المعمرين: إن شارع الجودرية كان مبيعاً للجوادر .

٢ - يذكر مؤرخو مكة أن ابن الزبير عندما فلق الطريق الذي نسميه اليوم «الفلق» -كما سيأتي- كان غرضه أن تتصل بيوته في نواحي سويقة ببساتينه من ذلك الطريق، فتعين لدينا أن بساتينه لا تبعد عن الفلق كثيراً، وأن المتوقع أن يكون موقعها في الحلقة أو بالقرب من ذلك؛ لأن الحلقة كانت موقع بساتين ولا يزال آثار ذلك بجانبها إلى اليوم، فإذا صح أن بساتينه في الحلقة أو ما يقرب منها، فإننا نستبعد أن يكون عمران مكة ينتهي إلى ما يسامت البساتين؛ لأن المعروف في تخطيط المدن العربية في العادة أن تقع بساتينها في ضواحيها، ولما كان عهد ابن الزبير متصلاً بعهد الأمويين فإن المظنون أن بساتينه كانت تقع في ضاحية مكة، وأن العمران ينتهي بعيداً عن بساتينه بنحو مائة متر وهو ما يتفق مع موقع المسجد الموجود خلف عمارة شركة الكهرباء اليوم؛ لهذا فالأوفق أن يكون مسجد الراية وبئر مطعم هما الموجودان اليوم أمام شركة الكهرباء في الجودرية حيث كان ينتهي عمران مكة في عهد الأمويين .

ولا أعتقد أن العمران تجاوز من الجهة الأخرى الشبيكة؛ لأن حدود حارة الباب لم تعمر إلا بعد هذا العهد كما سيأتي في حينه، ولم يكن لمكة في هذا العهد سور، لأن المفهوم من سياق ما ذكره التقي الفاسي أن العمران في هذا العهد تجاوز السور الذي عرفناه في العهد الجاهلي بالقرب من المدعاة فهدم السور وظلت مكة على ذلك إلى أن سورت في المعلاة في عهد قتادة كما سيأتي .

على أننا لا نعني بتحديد العمران في مكة في هذا العهد التحديد المتبادر إلى الذهن؛ لأن المعروف أن كثيراً من السكان كانوا يسكنون إلى مسافات تتجاوز هذه الحدود، فشعب عامر كان مسكوناً في العهد الجاهلي وكذلك كانت الحجون

والمعابدة، وإذن فالمراد بالتحديد هو العمران المتصل وهو لا يمنع وجود المساكن في الضواحي القريبة أو البعيدة .

الإصلاحات العامة : وتضخمت الثروات في هذا العهد بزيادة الأموال التي كانت تنقلها البيوت المكية التي كانت تضرب في البلاد المفتوحة من آفاق الأرض والأعطيات التي كان يبذلها معاوية ومن خلف بعده من خلفاء بني أمية، فزاد النشاط التجاري عما كان في عهد عثمان، وتوسع المزارعون أكثر مما توسعوا في عهده ؛ فأصلحوا كثيراً من الأراضي البور وتنافسوا فى حفر الآبار واتسعت إقطاعاتهم الزراعية فى الطائف وضواحيها، حتى ذكروا أن سليمان بن عبد الملك مر فى الطائف أيام خلافته ببيادر الزبيب فظنها حراراً سوداء .

وعني معاوية بأمر الشرب في مكة، فأنشأ لها نحو عشر عيون، ذكرها الأزرقي وعين مواقعها وقال : إنه اتخذ لها أخيافاً فكانت حوائط «بساتين» وفيها النخل والزرع، منها عيون في المعلاة والحجون والشهداء وبعضها في ضواحي مكة، وكان لبعضها مشارع يردها الناس، ومنها عين في أسفل مكة تمر في بطن واديها تحت الأرض ولها مشروع يستقي منه الناس(١) .

واحتفل ابن الزبير بهذه العيون في عهده واحتفر بعض الآبار(١) وبذل جهوداً طيبة في تنمية الزراعة فأنشأ البساتين من ماله الخاص في مواضع من النقا والسليمانية مكان الحلقة اليوم(٢) إلى أطراف المعابدة وفلق الطريق الموصل بين القرارة والنقا وكانت في موضعه تلال ما تزال آثار النحت فيها باقية إلى اليوم،

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ١٨٣ .

(٢) يعني المؤلف الحلقة التي في المعلاة، وقد تغيرت اليوم ونقلت إلى جوار ذي طوى بجرول. (ع).

وعني بتخطيط الدروب وهدم بعض الدور لإنفاذ الشوارع بين الأحياء، وترصد أصحاب الثروات الضخمة من قريش، يحثهم على إحياء الأرض في ضواحي مكة لتوفير الحبوب والخضروات لأهلها، وفعل مثل ذلك في الطائف حتى بلغت الطائف في عهده شأناً زراعياً لم تبلغه قبله، وانتشرت البساتين في شمال مكة وجنوبها انتشاراً كبيراً، وفاضت أسواق مكة بمنتوجات ضواحيها من الحبوب والخضر وشاع الرخاء فعم الحضر والبادية، وشجع رجال الصناعة من مهاجري الآفاق فأسسوا بيوتاً في مكة، ولودام ابن الزبير ولم تشغله الفتن والحروب لنهض بشؤون مكة، فقد كانت نظرته إلى حياتها تختلف عن نظرة الذين أرادوها لتكون مستودعاً للعجزة.

الإصلاحات الإدارية : واتخذ ابن الزبير لنفسه إدارة خاصة تشبه إدارة الشرطة اليوم، ورتب فيها بعض رجاله ليشرفوا على أمن البلاد، كما رتب آخرين للإشراف على الأسواق وخصص أناساً لأعمال البريد وجعل لهم الدواب السريعة لينقلوا إليه أخبار المدن والقرى المجاورة.



درهم ضرب في دمشق في عهد بني أمية
وقد نقش في مركز الدائرة
«لا إله إلا الله وحده لا شريك له»

ولما غلب الأمويون على مكة بعده استحدث عاملهم وظيفة الحاجب ليحتاط لنفسه في بلاد مفتوحة وكلفه بتقديم الشكاوى والرفع إليه، واتخذ له جنداً من الشام يرابطون في الأبطح، وجعل له كُتّاباً يضبطون أعطيات الناس ووسع في البناء الخاص ببيت المال بجوار دار الندوة،

وأناب بعض العمال في هذه الفترة من يقوم مقامهم في القضاء والصلاة واستعانوا بابن عباس وبعض خريجي مدرسته في معضلات المشاكل القضائية، وكان التعامل إلى نهاية عهد ابن الزبير أساسه الدرهم العُمري الذي ضربه عمر بن الخطاب في المدينة إلى جانب بعض القطع الفارسية. فاتخذ الأمويون لهم نقوداً مضروبة في دمشق فتداولها الناس في مكة إلى جانب ما كانوا يتداولونه من نقود.

ووسعوا شؤون البريد، وربطوا مواصلاته بعاصمة الشام ليتصلوا بمركز الخلافة فيها.



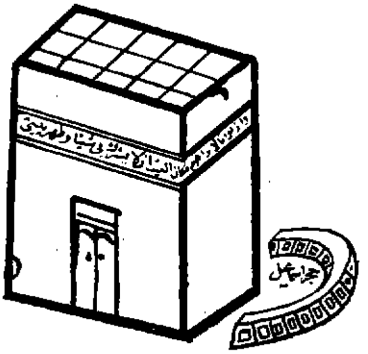
نموذج لدينار
ضرب سنة ٧٨هـ

الإصلاحات في المسجد: وفي هذا العهد عني معاوية بإصلاح المسجد ولم يوسع فيه، واصطحب معه من الشام منبراً من ثلاث درجات في قدومه إلى الحج ليخطب عليه، وكان الخلفاء قبله لا يخطبون إلا قياماً على أقدامهم في وجه الكعبة وفي الحجر(١)، واتخذ للكعبة خدماً من العبيد لا أظنهم كانوا خصياناً، وكساها الديباج الخراساني والقباطي، ثم كساها

(١) أخبار مكة ٢ / ٩٧ .

بعده يزيد والزبير وبقية خلفاء بني أمية بعده[1] .

وعني ابن الزبير بالمسجد فاشترى دوراً وسع بها المسجد توسعة كبيرة من جانبيه الشرقي والجنوبي، يذكر الأزرقي أن مما اشتراه ابن الزبير في سبيل توسعة المسجد بعض دور كانت لجده الأزرق شرقي المسجد بثمن لا يقل عن بضعة عشر ألف دينار، وقد بلغت مساحة المسجد في توسعته هذه نحو ٣٢٤٠٠ ذراعاً مربعاً واتخذ له رواقاً مسقوفاً على عمد [2] .


*

صورة للكعبة كما بناها ابن الزبير
وهي من رسم
الأستاذ/ طاهر كردي
الخطاط بمكة

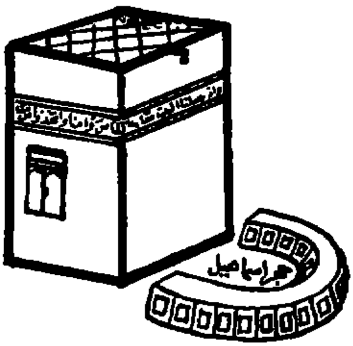
بناء الكعبة: وعندما مال بعض جدار الكعبة من تأثير الحريق الذي نالها من حصار ابن الزبير في عام ٦٤ أمر ابن الزبير بهدمها حتى انتهى إلى أساسها، ثم بناها على قواعد إبراهيم لحديث بلغه عن خالته عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- معناه أن رسول الله ﷺ قال: «لولا حدثان قومك بكفر، لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً يدخل الناس من أحدهما

(١) أخبار مكة ٢/ ٩٧.
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٥٥ .

* هذا الشكل يبدو عليه عدم الدقة في الرسم.

ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا(١) وقد ورد الحديث بمعناه في الصحيحين(٢) .

أعاد ابن الزبير بناء الكعبة على ضوء الحديث الذي ذكرناه، وظلت على حالها حتى استولى الحجاج على مكة، استأذن الخليفة عبدالملك في أن يعيد الكعبة إلى ما كانت فيخرج الحجر منها ويكتفي بباب واحد يرفعه عن الأرض كما هي اليوم فأذن له بذلك ويذكر المؤرخون أن عبدالملك بن مروان بلغه الحديث بعد ذلك فقال: وددنا لو تركنا الكعبة وما فعل ابن الزبير بها(٣) كما ذكروا أن المهدي الخليفة العباسي همَّ أن يعيدها إلى ما بناها ابن الزبير، وأنه استشار الإمام مالكاً في ذلك، فقال: أني أكره أن يتخذها الملوك لعبة، فهذا يرى رأي ابن الزبير ، وهذا



*

صورة الكعبة كما بناها الحجاج وتصميمها باق إلى اليوم وهي من رسم الأستاذ/ طاهر كردي الخطاط بمكة

(١) شفاء الغرام ١/ ٩٧ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنيانها . . انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣/ ٤٣٨ حديث رقم ١٥٨٥ ، وحديث رقم ١٥٨٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: الحج، باب: نقض الكعبة وبنائها ٩/ ٩٠-٩٣ .

وأخرجه النسائي في سننه، كتاب: مناسك الحج، باب: بناء الكعبة ٥/ ٢١٤ - ٢١٥ .

وأخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١١٣ ، ١٧٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ .

(٣) شفاء الغرام ١/ ٩٩ .

* هذا الشكل يبدو علية عدم الدقة في الرسم .

يرى رأي عبدالملك بن مروان فيتناولونها بالنقض والبناء فأحجم المهدي ولم يفعل شيئاً[١].

وعني عبدالملك بتجديد سقف المسجد واتخذ له خشباً من الساج، واستورد له السواري محلاة رؤوسها بالذهب في عام ٧٥[٢]، وأمر عامله خالداً القسري بإضاءة ما بين الصفا والمروة، كما أمره باتخاذ مصباح كبير مقابل الركن الأسود، ثم أنشأ للمصباح عموداً وهو أول مصباح اتخذ في المسجد رسمياً فقد كان بعض جيران المسجد قبله يضع على بيته مصباحاً لينتفع الناس بضوئه في المسجد. وفي هذا يذكر الأزرقي أن جده عقبة ابن الأزرق كان يضع على طرف داره مصباحاً يضيء لأهل الطواف حتى كان خالد بن عبدالله القسري الذي منعه أن يضع المصباح ووضع بدله مصباح زمزم في ما يقابل الركن الأسود[٣].

ودهم المسجد سيل عظيم في عهد عبدالملك عام ٨٠ اخترق جدار بعض الدور المحيطة بالمسجد واتصل به، فكتب عبدالله بن سفيان عامله على مكة إليه بذلك فأرسل مالاً عظيماً وأمره أن يبني ظفائر للبيوت الملاصقة للمسجد تحول دون اختراق السيل لها.

وأمر عبدالملك بعمارة المسجد فرفع جداره وسقفه بالساج وزين إسطواناته بالذهب فجعل على رأس كل واحد منها خمسين مثقالاً من الذهب ولم يوسع فيه شيئاً[٤].

(١) شفاء الغرام ١/ ١٠٠.
(٢) أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٥٦ وما بعدها.
(٣) أخبار مكة ١/ ١٩٣.
(٤) عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامة ص ١٩.

وأهدى عبدالملك إلى الكعبة شمسيتين من الديباج وقدحيْن من زجاج فعلق ذلك في سقفها[1] .

ولما تولى الوليد نقض أعمال أبيه في سقف المسجد وأقام بناءً محكماً فوق العقود المزخرفة بالفسيفساء ووسعه وأزّر داخله بالرخام وقد جاء بالأساطين الرخام من الشام ومصر ونقلها على العجل إلى مكة .

كما جعل له شرافات[2] وأهدى للكعبة هلالين وسريراً من ذهب ، وقد علق الشيخ حسين باسلامة على موضوع الشرافات . فقال : إنه لايستبعد أن يكون الفاسي أراد بذلك سرادقات كانت تنصب للمصلين في صحن المسجد .

أوليات في المسجد : وفي هذا العهد عرف عبيد الكعبة الذين رتبهم معاوية كما أسلفنا ولم يذكر المؤرخون ما إذا كانوا خصياناً أم لا ، ولكن المعروف أن يزيد ابن معاوية هو أول من اتخذ الخصيان فلا يبعد أن يكون قد أهدى منهم إلى المسجد .

فيما يذكره المؤرخون ما يشير إلى أن العبيد في هذا العهد كانوا يرتبون صفوف المسجد ويقومون بحراسته[3] .

ومن أوليات هذا العهد إدارة الصفوف حول الكعبة ، وقد كان الناس يصلون القيام في رمضان خلف مقام إبراهيم على خطوات بعيدة منه ويتركون المطاف وخلفهم المقام المباشر لمن أراد الطواف فلما تولى خالد بن عبدالله القسري «في عهد عبدالملك بن مروان» أمر أن يصلي الإمام القيام خلف المقام مباشرة وأن تدور

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٤٧ .

(٢) تاريخ عمارة المسجد ص٢٣ .

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٥٢ .

صفوف المصلين حول الكعبة من جميع جوانبها، فلما قيل له: إن ذلك يمنع الطائفين من طوافهم أمر بألا يطوف الطائفون إلا بعد ترويحتين، ولا يقوم المصلون حتى تنتهي أشواط طوافهم، فظل الناس يتناوبون الصلاة مرة والطواف مرة إلى مطلع الفجر تحت إشراف عبيد الكعبة (١).

وفي عهد القسري أمر بتخصيص رجل يتحرى مطلع الفجر فوق أبي قبيس فإذا بان نادى بأعلى صوته: «أمسكوا رحمكم الله».

ويذكر صاحب مرآة الحرمين أن خالداً القسري أمر في عهده بهدم المنائر لأنه بلغه أن بعض المؤذنين كانوا يغازلون فيها.

ومن أعمال خالد أن حفر بئراً ساق منها الماء حتى أخرجه في المسجد عند زمزم.

وكان يجري في قصب من رصاص ثم يظهر في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام. وتفرغ الفسقية في سرب من رصاص يخرج منه الماء إلى بركة كانت في السوق عند باب الصفا يتوضأ منها الناس -وكان باب الصفا أقرب إلى صحن المسجد منه اليوم- ويكاد يجمع المؤرخون أن خالداً ساق ذلك الماء إلى المسجد ليضاهي به زمزم (٢) ولا أستبعد أن يكون بعضهم قد أشاعها انتقاماً منه أو من بني أمية لأن من أعمال خالد في مكة ما لا يتفق مع هذه الجرأة على الدين، وقد مر بنا ما نقله المسعودي من غضب خالد عندما بلغه قول بعض الشعراء:

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢/ ٥٢، وقد ذكر أن السنجاري أورد أن الحجاج أول من أدار الصفوف وأن غيره ذكر أن أول من أدارها عبدالله بن الزبير.

(٢) أخبار مكة ٢/ ٨٥.

يا حـبــذا الموسم من مــوفــد وحـبــذا الكعـبــة من مـشــهــد
وحــبــذا اللاتي يزاحــمننا عند اسـتــلام الحــجــر الأســود

وإنه قال : أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف وأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط .

ولا أعتقد أن رجلاً يغضب لاختلاط النساء يستطيع أن يجرأ على محاربة زمزم ، ولكن خالداً كان يمتاز بشيء من الشدة في معاملته ، ولعل لذلك أو لمقت بعضهم حكم بني أمية شيئاً من الأثر فيما أشاعه الموتورون عنه .

ومن أدلة شدة خالد ما روي عنه أنه أرسل إلى عبدالله بن شيبة ليفتح له الكعبة في وقت لم ير عبدالله أن يفتحها فيه ، فلما رأى خالد امتناعه أمر به فضرب مائة سوط فرحل ابن شيبة حتى أتى سليمان بن عبدالملك في الشام فشكا له منه فكتب سليمان إلى خاله في مكة محمد بن هشام أن يضرب خالداً مائة سوط ففعل .

في العهد العباسي الأول

تمهيد:

سقوط الأمويين: أشرنا في حديثنا عن الأمويين إلى مبلغ الجهود التي بذلها الأمويون في سبيل تشييد ملكهم وتثبيت أركانه، ويستطرد بنا القول في هذا الفصل إلى أن هذا البناء ما كادت دعامته ترتفع حتى دبَّ إليه الوهن وبدأ الضعف يتسرب إلى كيانه، وأنه ما كاد القرن يوفي على نهاية سنة ١٠٠ حتى كان الهزال قد جاء على جسمه، ثم ما لبث أن قضى بانقضاء العالم ١٣٢هـ من التاريخ الهجري.

وأحسبنا مسؤولين أمام ارتباط التاريخ الذي ندرسه بالتاريخ الإسلامي العام؛ أن نلخص أهم العوامل التي ساعدت على انقراض الحكم الأموي في تضاعيف هذه المدة القصيرة وقيام الحكم العباسي على أنقاضه، لنستطيع أن نمضي في بحوثنا عن مكة على ضوء الأحداث الإسلامية العامة، ولعله يمكنني أن ألخص ذلك فيما يأتي:

١ - بذور الشقاق التي بذرها التنافس على ولاية العهد بين أفراد البيوت الأموية ومحاولة كل منافس الإساءة إلى منافسه والتنكيل به وبمعاونيه من السادة والقواد.

٢ - إثارة الروح العصبية بانحياز بعضهم إلى المضرية وآخرين إلى اليمنية مما أثار الحفائظ وأوجد الشقاق.

٣ - تعصبهم للعنصر العربي السائد واحتقارهم لمن عاداه من الموالي وأهل الأمصار الأخرى مما بعث روح الشعوبية وذكّى أوارها وهيأ النفوس لقبول الثورات والانضمام إلى حركات المناوأة من الخوارج مرة ومع الشيعة أخرى ومع غيرهم في مرات غيرها.

٤ - انغماس بعضهم في الترف وذهابه بلذائذ الحياة التي اختصوا أنفسهم ومن حولهم بها، وانصرافه إلى المجون واللهو وأنواع من المنادمة مما جعل المحافظين والمتمسكين في كل مصر يشددون النكير عليهم، قد سئل أحد شيوخ بني أمية عن سبب زوال الملك عنهم فقال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا . . إلخ(١) .

وقال العباس لأخيه بشر بن الوليد: إني أظن أن الله قد أذن في هلاككم يابني مروان ثم تمثل:

إني أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم ... فثمة حسرة تغني ولا جزع(٢)

٥ - إهانة المسلمين في أعمق شعورهم بتجاوزهم إلى ضرب الكعبة بالمنجنيق واستباحة المدينة للأجناد ثلاثة أيام واستعمال أشد أعمال القسوة والعنف في قتال الحسين وقتله، وإني وإن كنت قد استبعدت الملابسات خاصة فيما بحثت أن يتعمد الأمويون إصابة الكعبة ولكن الشعور العام إذا أثير لا يطمئن إلى الفلسفة ولا يستمع إلى مثل مبرراتي .

من جميع ما تقدم يتلخص لدينا أن البواعث العاملة في سقوط الأمويين كانت

(١) مروج الذهب ٢ ص ١٩٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٦٦ .

قد تعددت وكان لا بد لهذه الدولة من أن تستعجل نهايتها فلا عجب إذا استغل المناوئون الفرصة المواتية للعمل.

العلويون والخلافة: وكان من أهم المناوئين جماعة العلويين الذين لم يناموا عما سموه حقوقهم المغتصبة في الخلافة، ولم ينسوا دم الحسين المسفوح. وقد وجدوا في عطف سواد المسلمين عليهم واستنكار الثقاة والمتمسكين ما شجعهم، كما وجدوا من مؤازرة الشيعة في العراق ما يقوي يقينهم، فظلوا طوال العصر الأموي يجتمعون سراً كلما أتيحت لهم الفرص، وكانوا يجعلون أمرهم سراً إلى إمام منهم حتى إذا قضى استخلفوا غيره، فلما كان عام ٩٦ علم سليمان بن عبدالملك شيئاً من أسرارهم فدس إلى إمامهم اذ ذاك أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية، فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله وجد بجواره محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس ولعله كان أهلاً لثقته فنزل له عن حقه في الخلافة (١).

خلافة العباسيين: وبهذا تحول الحق من أولاد علي إلى بني عمومتهم من أولاد عبدالله بن العباس، وقد اضطلع هذا العباسي ببث الفكرة في خراسان عام المائة من التاريخ الهجري ثم أرسل إلى بعض الأمصار، وما وافى عام ١٢٨ الهجري حتى كانت الدعوة العباسية قد تسلحت والتف حولها شيعة علي وبعض المتدينين والمحافظين والمغبونين من الموالي والكارهين من رجال السياسة والمستنكرين من عامة الناس، يتقدم صفوفهم أبو مسلم الخراساني الذي استطاع أن يستولي على خراسان وينشر راية العباسيين عليها.

(١) الفاطميون في مصر لحسن إبراهيم حسن ص ٣٨.

ثم استأنف العباسيون أعمالهم في القتال في صورة توسعت كتب التاريخ في تفاصيلها حتى انتهوا إلى فتح دمشق في أواخر عام ١٣٢ وركزوا رايتهم على أعلى سارية فيها، وبذلك دالت دولة بني أمية وصارت الخلافة إلى أبي العباس السفاح أول خلفاء العباسيين.

الدعوة للعباسيين في مكة: ونشط أخو السفاح أبو جعفر المنصور للدعوة للعباسيين في الحجاز فكان يأخذ البيعة لأخيه في مكة والمدينة، ولم يجد مقاومة تذكر إلا من بعض العلويين.

ظهور النفس الزكية في مكة واختفاؤه: وترأس هذه الفكرة في مكة والمدينة رجل من أفاضل العلويين من بني هاشم هو محمد بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان معروفاً بورعه وزهده علاوة على شرفه وعلمه ولذلك لقبوه بالنفس الزكية .

ولم يجد هذا العلوي في تلك الأثناء من القوة ما يؤيد حقه فلم يفعل أكثر من أن يمتنع من إعطاء البيعة عن نفسه ثم يختفي [1] ولعل العباسيين أدركوا أن عنايتهم بمطاردته ستشغلهم عن المهام الأولى للتأسيس فحاولوا استمالته إلى البيعة ووسطوا لذلك بعض بني عمومته ليرغبوه فيها بالمال والمصالحة فلما لم ينجحوا تركوه وشأنه ومضوا في تدعيم سلطانهم في الحجاز حتى استتب لهم أمر مكة والمدينة وقطعوا فيها دابر الأمويين بعد أن تغافلوا عن الممتنعين والمتهربين من أنصار النفس الزكية وأطلقوا المجرمين السياسيين من سجن العامل الأموي وفيهم

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٨١ .

سديف بن ميمون الشاعر المكي الذي دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام ابن عبدالملك وقد أكرمه، فقال:

لا يغـرنك مـا تـــرى من رجـــال إنّ تحـت الضلـــوع داءً دفـينـا
فـضع السيف وارفع السـوط حتى لا ترى فـوق ظهـرها أمـويا[1]

عمال العباسيين في مكة: ولما استتب الأمر للسفاح في مكة، ولّى أمرها ابن عمه داود بن علي بن عبدالله بن العباس في سنة ١٣٢ وأضاف إليه المدينة واليمن واليمامة[2]، وقد عمل داود على تدعيم أمر العباسيين وأمر بإزالة بعض آثار بني أمية في مكة، فأزال الفسقية التي جعلها خالد القسري بين زمزم والمقام والبركة التي كان الناس يتوضؤون منها عند باب الصفا وصرف ماءها إلى بركة أخرى بالقرب من المسجد في جهة أخرى.

ثم عزل السفاح داوداً وولى خاله زياد بن عبدالله الحارثي على مكة والمدينة واليمن، وقد ظل والياً عليها إلى سنة ١٣٦ ثم عزله وولى العباس بن عبدالله بن معبد بن العباس وظل فيها إلى أن مات السفاح.

وممن ولي مكة للسفاح عمر بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد الخطاب العدوي.

وفي سنة ١٣٧ ولي الخلافة عبدالله أبو جعفر المنصور وعلى مكة العباس بن عبدالله بن معبد ثم ولي بعده زياد بن عبدالله الحارثي وكانت قد تقدمت ولايته في عهد السفاح وقد دامت ولايته إلى سنة ١٤١، ثم ولي الأمر بعده الهيثم بن

(١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٣٣٣.
(٢) اليمامة منطقة واسعة في نجد وكانت تتبع مكة في كثير من عهود الخلفاء.

معاوية واستمر إلى سنة ١٤٣ ثم عزل، ووليها بعده السري بن عبدالله بن الحارث ابن العباس بن عبدالمطلب وقد استمر فيها إلى سنة ١٤٥ [١] حيث أجلته ثورة العلويين بقيادة زعيمها الثائر محمد بن عبدالله الملقب بالنفس الزكية .

عودة النفس الزكية : رأى الخليفة المنصور ألا يتهاون في شأن النفس الزكية وأخيه إبراهيم، خصوصاً وقد وافته أنباء استئناف نشاطهما، فانتدب لولاية المدينة رباح بن عثمان وأمره أن يأخذ أهلها بالشدة وألاّ يرحم علوياً من بني هاشم فيها، وقد فعل فاشتط في معاملة الحجازيين وحبس كثيراً من العلويين .

وتعقب النفس الزكية وأخاه فلم يقف لهما على أثر، وكان الأول ما يزال مختفياً في المدينة، أما إبراهيم فقد فر إلى البصرة ليدعو فيها إلى أخيه، فلم يجد الوالي بداً من أن يزج بأبيهما في السجن وقد حلف ألا يطلقه حتى يدل على بنيه، ولكن الأب كان أشد مراساً مما ظن رباح فقد بعث إليه ابنه النفس الزكية يستأذنه في التسليم فأبى [٢] وأمره في المضي في دعوته إلى نهايتها فلم يجد بداً من أن يعلن الثورة قبل أوانها ويستعجلها قبل أن يتفق مع أخيه إبراهيم في البصرة على حركتها .

وما كاد أن يعلن الثورة حتى انضم إليه في المدينة أكثر أهلها وشايعه عليها الإمام مالك وأبو حنيفة ومن في طبقتهما من العلماء وتخلف القليل من الأهالي براً بأيمانهم التي سبقت في بيعة بني العباس، فساعد الإمام مالك في تذليل هذه العقبة بفتواه فقد قال لأهل المدينة : إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين [٣] فتحمسوا مع الثائرين حتى أجلوا والي المدينة عنها ثم سير زعيم الثورة جيشه إلى

(١) ويذكر بعض المؤرخين ترتيباً للولاة يخالف هذا بعض المخالفة . انظر شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٧٧ .
(٢) البداية لابن كثير ١٠ / ٨١ .
(٣) المصدر نفسه ١٠/ ٨٣ .

مكة فافتتحها في عام ١٤٥ وأقصى السري بن عبدالله عامل بني العباس عنها وولى مكانه الحسن بن معاوية وهو من بني عمومته آل علي، وفي رواية للزبير بن بكار أن المتولي هو والد النفس الزكية واسمه جرير بن معاوية . . وامتدت الثورة إلى اليمن فاستخلصتها من حكم العباسيين كما اتصل خبرها بالبصرة فأسرع إبراهيم بحركته فيها وامتلكها .

ونشط المنصور العباسي لقمع هذه الفتنة فسير جيشاً عظيماً إلى بلاد الحجاز فهاجم المدينة واحتلها وقتل محمداً النفس الزكية في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ ثم مضى إلى مكة فتفرق العلويون يبغون النجاة وتركوها [١] .

وسير المنصور جيشاً آخر إلى البصرة فقضى على حركة إبراهيم ثم عاد فتتبع ذيولها في خراسان والسند واليمن والجزيرة وبلاد المغرب ومصر حتى قضى على كل نأمة تدل على حياة العلويين في أمصار الإسلام وبهذا استتب الحكم مرة أخرى للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور [٢] .

العباسيون في مكة من جديد: وما استتب الأمر للعباسيين في مكة حتى أعادوا إلى ولايتها السري بن عبدالله حاكمها السابق ثم عزل سنة «١٤٦» وولي حكمها بعده عم المنصور عبدالصمد بن عبدالله .

وشعر عبدالصمد أن فكرة العلوية لم تمت بموت صاحبها فنشط لمحاربتها ثم بلغه أن الشاعر المكي سديف بن ميمون ما يزال يشيد بها ضد العباسيين بعد

(١) البداية لابن كثير ١٠ / ٨٤ .
(٢) الطبري ٩ / ٢٥٩ .

الأمويين وقد بلغه قوله في هجاء المنصور :

أسرفت في قتل الرعية ظالماً　　فاكفف يديك أخالها مهديها

فلتأتينك رايــــة حسنية　　جرارة يقتادها حســـــنيها

فكتب بذلك إلى المنصور فأمر المنصور أن يأخذ أصحاب الفكرة بالشدة وأن يُدفن سديف حياً ففعل عبدالصمد ذلك، وظلت ولاية عبدالصمد إلى سنة ١٤٩ أو ١٥٠ وفي رواية عن ابن ظهيرة أنها دامت إلى عام ١٥٧، وكان عبدالصمد من عجائب المخلوقات فقد مات بأسنانه التي ولد بها وكانت قطعة واحدة في فكه الأسفل.

وولي مكة بعده محمد بن إبراهيم الإمام واستمر إلى سنة ١٥٨ وفيها توفي المنصور.

وفي خلافة المهدي ولي مكة إبراهيم بن يحيى إلى سنة ١٦١ ثم جعفر بن سليمان إلى سنة ١٦٦ ثم محمد بن إبراهيم الإمام مرة أخرى.

وفي خلافة الهادي وليها عبيدالله بن قثم وذلك سنة ١٦٦ أو ١٦٧ .

وكان هؤلاء الولاة جميعهم من أولاد العباس وكان أكثرهم يليها مضموماً إليها الطائف وجدة وبعضهم وليها مضموماً إليها المدينة كذلك [1] .

ثورة العلويين الثانية: ولم تخمد جذوة العلويين بالرغم من نشاط العباسيين فقد أهل عام ١٦٩ بحوادث جديدة استأنف فيها العلويون حركتهم في المدينة في مثل العنف الذي مضى أو أشد بزعامة رئيسهم الحسين بن علي بن الحسن بن

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ١٨٧.

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان الحسين لا يملك ما يلبس إلا فروة ليس تحتها إلا قميص وقد وفد مرة على المهدي فأعطاه أربعمائة ألف دينار ففرقها ببغداد والكوفة (١) .

ومن أغرب المفارقات أن يقود الثورتين في مدى ربع قرن زعيمان من أولاد الحسن بن علي بن أبي طالب في مغامرة لا تتفق مع ما عرف به جدهما الحسن من حب المسالمة، وأغرب من هذا أن تلازم المغامرة هذا الفرع من أولاد علي فنجدهم على الدوام ثواراً لا تهدأ لهم حركة حتى تقوم على أنقاضها حركة أخرى إلى قبيل أيامنا هذه التي نؤرخ فيها .

واستولى الحسين في المدينة على دار الإمارة بعد أن طرد صاحبها وهجم أنصاره على السجون فكسروها وأطلقوا المعتقلين من أصحابهم فيها . . وبعد أن بايعوه أقاموا بالمدينة أحد عشر يوماً (٢) وقد ذكروا أن من أهم العناصر في دعوته تحرير العبيد بحجة أن رقهم لم يثبت شرعاً وكان مناديه ينادي بعد نجاح الثورة أيما عبد أتانا فهو حر (٣) .

وقعة الشهداء: ثم قصدوا مكة فلقيهم جيش العباسيين بفخ هو وادي «الشهداء» في طريق مكة ويبعد عنها يومها بستة أميال (٤) وفي هذا المكان تقرر مصير العلويين حيث قتل الحسين بن علي وهو محرم بعد أن أبلى بلاء شديداً وقتل معه أكثر من مائة من أصحابه في نهاية عام ١٦٩ وكانت قبورهم معروفة

(١) البداية والنهاية ١٠ / ١٠٧ .

(٢) الآداب السلطانية ١٧٣ .

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٧٩ .

(٤) كانت مكة في هذا العهد لا تتعدى حارة الباب، لهذا فالمسافة بينهما كانت ستة أميال، أما اليوم فقد اتصلت مكة بالشهداء تقريباً بعد إنشاء شارع الأمراء في طرف مكة بجرول .

هناك ويشرف قبر زعيمهم الحسين بن علي على ربوة في الوادي وكانت هذه الوقعة من الشدة بحيث قيل: لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ (١) .

وهكذا دفن العباسيون ثورة العلويين الثانية في ثنايا وادي فخ، إلا أن ذلك ترك أثراً أقلق العباسيين حيناً من الدهر فقد هرب من الواقعة رجلان أحدهما يحيى بن عبدالله والثاني أخوه إدريس (٢)، أما الأول فقد مضى إلى بلاد الديلم حيث حشد له فيها أنصاراً دعوا إلى خلافته وأنشأ منهم قوة كلفت الرشيد خمسين ألف محارب للقضاء عليها، وأما الثاني فقد مضى إلى المغرب فالتف حوله البربر وأسس له فيها دولة دعيت فيما بعد بدولة الأدارسة، وأن الرشيد عندما رأى أنه لا طاقة له بإخضاعه دس له من قتله (٣) إلى آخر ما ذكره المؤرخون في ذلك مما لسنا بصدده (٤) .

عودة العباسيين إلى مكة للمرة الثالثة: وبانتصار الجيش العباسي في فخ عاد الأمر في مكة إلى ولاتهم، وقد وليها في خلافة الهادي والرشيد محمد ابن عبدالرحمن السفياني ثم تولاها في خلافة الرشيد جماعة لم يثبت ترتيبهم في الولاية، هم أحمد بن إسماعيل، وعماد البربري، وسليمان بن جعفر، والعباس بن محمد بن إبراهيم الإمام السابق ذكره، وعبدالله بن قثم السابق ذكره، وعلي بن موسى، والفضل بن العباس، ومحمد بن عبدالله،

---

(١) المسعودي مروج الذهب ٢ / ٢٥٧ .

(٢) هو إدريس بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى وسيأتي في فصل العهد الفاطمي أن جعفر بن محمد مؤسس حكومة الأشراف في مكة في أواسط القرن الرابع يجتمع مع إدريس هذا في جدهم عبدالله المحض بن الحسن بن المثنى.

(٣) تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهم حسن ٢ / ١٢٠ .

(٤) راجع أخبار الأدارسة في كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ / ٦٧ .

وموسى بن عيسى المتقدم [1] .

وفي هذا العهد كتب الرشيد عهداً بولاية الأمين ثم المأمون وعلقه في الكعبة وطلب إلى أهلها أن يحافظوا ما أمكنهم على تنفيذ ما فيه ، وأن يكونوا أعواناً على من يخالفه .

وقعة الأحباش : وفي هذا العهد هاجم فريق من الأحباش جدة في عام ١٧٣ أو ١٨٣ وأوقعوا بها ، ففر أهل جدة إلى مكة مستغيثين بأهلها فنفر الأهالي لمساعدتهم فأحس الأحباش بالهزيمة ففروا إلى مراكبهم ، وجهز صاحب مكة غزاة في البحر ليدفعوهم بعيداً عن جدة .

وتولى مكة في عهد الأمين داود بن عيسى فندب لإمارة المدينة ابنه سليمان[1] .

وكتب بعض أهل المدينة إلى داود يطلب انتقاله إلى المدينة ، ويحسن له اتخاذها عاصمة لإمارته في قصيدة طويلة ، فرد عليه رجل من مكة بقصيدة مثلها يمتدح فيها مكة ويفضل اتخاذها كعاصمة ، وعلم ناسك من أهل جدة بأمر القصيدتين فأنشأ قصيدة يرد فيها على المتفاخرين ويحكم بينهم وقد ذكرت القصة مطولة في بعض كتب الأدب ولم أستحسن -نقلها لأنها فيما يبدو لي- مخترعة أراد أصحابها المفاخرة بين المدينتين ، ويتجلى أثر الصنعة في سياقها ولسنا في حاجة إلى إعلان المفاخرة بين بلدين تجمعهما كل عناصر الاتحاد في الحياة بدون استثناء .

صدى خلع الأمين في مكة: وظل داود على أمره في مكة حين انتهى إليه خطاب الأمين يطلب فيه أخذ العهد الذي أودعه الرشيد الكعبة كميثاق لولاية العهد ، فغضب داود لهذا النكث ونادى في أهل مكة وحجاجها : الصلاة جامعة

(١) راجع شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٨٠ .

فلما اجتمع الناس خطب فيهم وأبان لهم غاية الأمين من نكث العهد، فوافقوه على خلعه فقال: اشهدوا بأني خلعته فبايعوني للمأمون فبايعوه فلما علم المأمون بذلك سُرَّ سروراً كثيراً ولما انتصرت جيوشه على الأمين أقره على مكة والمدينة فظل فيها إلى أواخر سنة ١٩٩ (١).

ثورة العلويين الثالثة بقيادة الأفطس: لم تكن مكة مصدر هذه الثورة ولكنها ما لبثت أن استقلت بأمره، فقد خرج السري بن منصور الشيباني على المأمون في العراق يدعو إلى العلويين، وما كاد يغلب العباسيين على بعض بلاد العراق حتى أرسل إلى مكة ببعض جيشه في عام ١٩٩ تحت قيادة الحسين بن الحسن (٢) بن علي بن أبي طالب وهو معروف بالأفطس وما كاد الحسين ينتهي إلى قريب من مكة ويعسكر في النوارية (٣) حتى أخلاها عامل مكة للعباسيين داود بن عيسى وقال: إني لا أستحل القتال في مكة فدخلها الحسين الأفطس مساء يوم التروية ثم ما لبث أن دفع إلى عرفة فوقف بها ليلاً، وكان بعض الحجاج وقد وقفوا بها نهاراً بغير إمام أو خطيب ثم ازدلف الأفطس إلى مزدلفة فصلى بالناس الصبح ثم مضى إلى منى فمكة فأقام بها ثم مضى إلى جدة فاحتلها وسطا على أموال الأهلين فيها، ولما أهل المحرم سنة ٢٠٠ كسى الكعبة كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء والأخرى بيضاء، بعد أن عمد إلى خزانة الكعبة فجردها مما فيها من الأموال (٤) وقسمها في جيشه، ولعله رأى أن الكعبة لا حاجة لها في أموال مجمدة تفتقر إليها الجيوش المحاربة في سبيل الإسلام في رأيه.

(١) راجع شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٨٢.

(٢) لعله الحسن المثلث، لأن الزمن بعيد، ولا يمكن أن يكون أحفاد علي أحياء سنة ١٩٩هـ (ع).

(٣) ذكر الأزرقي أنها بوادي بطن سرف وهو واقع بين التنعيم ووادي فاطمة.

(٤) البداية والنهاية ١٠ / ٢٤٠.

وظل الأفطس على أمره في مكة حتى بلغه مقتل صاحب الدعوة في العراق أبي السرايا ، ولعله شعر بانصراف الناس عنه ونفورهم من قسوته فعمد إلى رجل من أجلة العلويين هو «محمد بن جعفر الصادق» وسأله أن يبايع الناس باسمه فكره محمد ذلك ، فاستعان الأفطس عليه بولده حتى قبل البيعة وبذلك استقلت مكة .

ثورة الديباجة في مكة: كان محمد بن جعفر الصادق شيخاً من شيوخ آل أبي طالب روى عن أبيه علماً وكانوا يلقبونه بالديباجة لجمال وجهه ، وقد أكرهه العلويون على البيعة حتى بايعهم في ربيع الأول سنة ٢٠٠ فبقي شهوراً ليس له من الأمر شيء وإنما ذلك لابنه علي وللأفطس ، وهما على أقبح سيرة في الناس واتصل الخبر بالمأمون فانتدب لهم جيشاً عظيماً قاتلهم قتالاً شديداً عند بئر ميمون(١) ثم أجلاهم عن مكة في جمادى الآخرة سنة ٢٠٠ (٢) ، وفر محمد الديباجة إلى منازل جهينة شمالي ينبع فجمع منها جيشاً أراد أن يهاجم به المدينة فلم يظفر فقدم إلى مكة يطلب الأمان .

ومن الغريب أن يخرج العلويون على خليفة كالمأمون وقد عرفوه من أميل الناس إليهم (٣) فقد تودد إليهم وزوج علي بن موسى ابنته أم حبيب (٤) وجدّ في توليته العهد بعده ، كما خطب له على المنابر وضرب باسمه الدراهم وأمر في سنة ٢٠١ بطرح السواد ولبس الخضرة شعار العلويين (٥) ، وبذل لهم العطايا

(١) بئر ميمون في الطريق إلى منى .
(٢) الآداب السلطانية ٢٠١ .
(٣) يفسر بعضهم هذا الميل بأنه ميل سياسي أراد المأمون أن يكسب به ود الخراسانيين وهم أصحاب تشيع للبيت العلوي .
(٤) البداية لابن كثير ١٠ / ٢٤٩ .
(٥) المصدر نفسه ٢٥١ .

والأموال واستقدم بعض كبرائهم من مكة والمدينة وأكرمهم وكان يفضل أن يتنازل عن الخلافة لهم ومع هذا فقد أبوا أن يدينوا له بالطاعة أو ينسوا في سبيله حقوقهم التي يعتقدونها في الخلافة.

ويرى بعض المؤرخين أن خروج أشياع الديباجة كان بسبب ميل المأمون إلى أشياع أخيه موسى الكاظم، فقد كانت العلاقة بين الشيعتين على شيء من الخلاف[1].

عودة العباسيين للمرة الرابعة: وولي مكة بعد هزيمة الديباجة في خلافة المأمون عيسى بن يزيد الجلودي قائد جيش العباسيين المهاجم، ثم يزيد بن حنظلة المخزومي[2].

ثورة علوية رابعة: ثم ما لبث أن هاجم مكة سنة ٢٠٢ علوي جديد من اليمن هو إبراهيم بن موسى الكاظم وأخوه علي الرضا الذي ولاه المأمون ولاية العهد فاحتل مكة وقتل عاملها وأوقع بأنصار العباسيين فيها، ثم ما لبث العباسيون أن أجلوه عنها، وينقل تقي الدين الفاسي عن العتيقي أن إبراهيم الكاظم كان والياً على مكة من قبل المأمون، وبذلك ينفي عنه فكرة الثورة ويقول إنه حج بالناس ٢٠٢ وهو أمير مكة للمأمون. ويذكر ابن كثير أنه في عام ٢٠٢ ثار في بغداد إبراهيم بن المهدي العباسي فخلع المأمون وبايع لنفسه فلا أستبعد أن تكون ثورة الكاظم في مكة انتصاراً للمأمون لأنه بايع فيها للمأمون ثم لأخيه علي الكاظم بعده[3].

---

(١) راجع الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ٢ / ١٢٠ .

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٨٣ .

(٣) راجع البداية لابن كثير ١٠ / ٢٤٩ .

وولي مكة للمأمون هارون بن المسيب وحمدون بن علي بن عيسى ولعلهما ولياها بالنيابة، ووليها صالح بن العباس ثم سليمان بن عبدالله، وممن وليها محمد بن سليمان والحسن بن سهل ومحمد بن هارون وعبيدالله بن الحسن (١) وأكثر هؤلاء من العلويين.

ومن ذلك يظهر أن المأمون كان لايرى بأساً في توليتهم مكة، أو لعله شعر أنهم غير متحزبين لسياسة بني عمومتهم فرأى أن يرضي باستعمالهم فريق المتشيعين ويذكر تقي الدين الفاسي في شفاء الغرام أن عبيدالله بن الحسن ظل في ولايته إلى سنة ٢٠٩ كما يذكر الدحلان أنه بقي إلى وفاة المأمون سنة ٢١٨ .

تأمير الأتراك: وتولى أمر مكة في خلافة المعتصم صالح بن العباس ثم أشناس التركي في سنة ٢٢٦ وهو أول تركي تولى شأن مكة، وأعتقد أن ولايته كانت مخزية وكان ينيب عنه من يقوم بأعبائها.

ولقد كان المعتصم أول خليفة عربي اعتمد على الأتراك واعتنى باقتنائهم وبذل الأموال في شرائهم من سمرقند وفرغانة والنواحي، وألبسهم الديباج ومناطق الذهب ثم أسند إليهم مناصب الدولة، وولاهم بعض النواحي. وآثرهم على الفرس الذي كان يؤثرهم أسلافه من العباسيين كما آثرهم على العرب الذين كان يؤثرهم الأمويون فقد كانت أُمّه تركية (٢).

وبلغ من حفاوة المعتصم بأشناس أنه عندما أراد أشناس الحج فوّض إليه ولاية كل بلد يدخلها حتى ينتهي إلى مكة ثم يعود منها، وبهذا دخلت مكة في ولايته

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٥٤

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي.

ذلك العام ودعي باسمه على منابرها ولكنه أقام على الحج محمد بن داود بن عيسى نائباً عنه .

وظل محمد بن داود بعد ذلك إلى وفاة المعتصم في سنة ٢٢٧ وبعض خلافة الواثق أو كلها (١) .

غارة بني سليم: وفي سنة ٢٣٠ أغار بنو سليم على بعض مدن الحجاز (٢) وعاثوا فيها فساداً ونهبوا الأسواق وامتد أذاهم إلى كثير من الناس وقطعوا الطريق وأوقعوا بجند والي المدينة، فأرسل الواثق في سنة ٢٣٠ جيشاً بقيادة أحد قواده من الأتراك «بغا الكبير» فقتل منهم نحو خمسين رجلاً كما أسر نحو ألف ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة (٣) .

وبنو سليم كانوا وما يزالون يسكنون بقرب المدينة في حرة بني سليم وهم من قيس غيلان اشتهروا بالبأس والكثرة، وأعتقد أنه أول عصيان غير سياسي تقوم به قبائل البدو في الحجاز في تاريخ الإسلام لا غرض له إلا الإفساد وإشباع البطون الجائعة .

ولا غرابة فقد بدأت في هذا التاريخ صولة الخلفاء تنهزم في نظر رعاياهم كما بدأت قبل هذا بقليل تشح أعطيات الخلفاء مما جعل بادية الحجاز تشعر بالفاقة واجتمعت إلى الفاقة قلة المبالاة بالسلطان وهيبته فأدى ذلك إلى عبث البدو بالأمن العام، واستمرأ العابثون هذا العدوان بمرور الأجيال فاتخذوها عادة،

---

(١) من أشهر الأتراك الذين استعان بهم المعتصم: الأفشين، وأشناس، وإيتاخ، ووصيف - راجع الطبري ٣٠٧/١٠ .

(٢) هي مدينة الجار، الميناء الذي كان آنذاك كجدة اليوم. انظر كتابي (معجم معالم الحجاز) (ع).

(٣) تختلف الروايات في عدد القتلى والأسرى. راجع محاضرات الخضري الدولة العباسية ٢٤٩ .

ونشـأت على ذلك قـبـائل حـرب بين مكة والمدينة وقـبـائل أخـرى في شـرقـهـا وجنوبها ، وعـانت الحكومات كما عانى الحجاج الكثير من إفسادهم طوال أجيال مـضت قبل أن تضـرب على أيديهم حكومـة آل السـعـود الحـاضـرة . ولو فطن العباسيون يومها إلى تشغيل هذه القبـائل فيما يفـيدهم لشغلوهم عن العبث وأغنوهم من الإفساد وهيؤوا منهم رجالاً نافعين .

ويعد المؤرخون نهاية عهد الواثق في دولة العباسيين سنة ٢٣٢ نقطة تحول ينتقل عندها تاريخ بني العبـاس من عـصـره الأول الذهبي إلى عـصـره الثـاني عـصـر الانقسام والفتن العظيمة .

النواحي العامة
في العهد العباسي الأول

الناحية السياسية : لاح نجم العباسيين السياسي في الأفق ومكة على حالها يعنى المتدينون فيها والمعلمون بحلقات الدروس والعبادة، ويلهو مترفوها بمجالس اللذة بالشكل الذي سبق الحديث عنه في عهد بني أمية .

أما السياسة فقد ظل ميدانها محدوداً يمارسها فيه بعض العلية من أقطاب العلويين، وعندما شرعت الحركة العباسية تأخذ دورها الجدي في أمصار العالم ونشط أبو جعفر المنصور أخو الخليفة السفاح يدعو لها في مكة حاول العلويون فيها أن يستثيروا الأهالي باسم البيت الهاشمي فلم ينجحوا كثيراً[1] وأعتقد أن أهم البواعث على إخفاقهم أن المكيين نسوا في غمرة لهوهم نعرة الخلافة وتورع أصحاب الورع منهم عن البحث فيها .

لهذا ما فتئ المنصور أن وجد السبيل سهلاً إلى غايته، واستطاع بشيء من النشاط أن يجعل الأهليين فيها أمام أمر واقع فبايعوه بالخلافة للعباسيين وتركوا عظيم الهاشميين يومها «النفس الزكية» يفر بنفسه إلى أحضان البادية .

وما دمنا في صدد العلويين فمن الإنصاف للتاريخ أن لا ننسى أن العلويين بذلوا جهود الجبابرة في سبيل توطيد مركزهم، لا في مكة وحدها بل وفي أمصار عديدة من الإسلام، ولكن جهودهم أبت أن تثمر بفائدة أو تصل بهم إلى هدف .

---

(١) يرى الشيعة أن أولاد فاطمة بنت النبي ﷺ هم الورثة الشرعيون لخلافة النبي ويرى العباسيون أن ميراث الرسول آل لجدهم العباس؛ لأنه عم النبي ﷺ .

وإذا أردنا أن نستعرض الجهود الخاصة بمكة فمن السهل أن نعود إلى ما سقناه في الفصل السابق لنجد أن «النفس الزكية» ما كاد يفر من مكة سنة ١٣٢ حتى استأنف ظهوره في المدينة عام ١٤٥ معلناً ثورته باسم العلويين، وقد ساعده التوفيق ثم ما لبث أن خانه فقد انهالت عليه جيوش العباسيين تدك حصونه في طريقها حتى قضت عليه قتيلاً في السنة نفسها ١٤٥، وفرقت عنه جميع العلويين والمتشيعين.

وقويت يقظة العباسيين بعد الذي حدث فحرصوا على ألاّ يولوا إمارة مكة إلا من أولاد البيت العباسي ليضمنوا غائلة العلويين فيها، كما حرصوا على ضم الطائف وجدة إلى إمارة مكة في كثير من الأوقات، ليوسعوا دائرة نفوذ من يختارونه لذلك إلى حدود البلاد التي كانت مظنة اشتباه عندهم.

إلا أن هذا لم يفتّ في عضد العلويين في مكة، لأننا لا نفتأ أن نواجه في عام ١٦٩ ثورة ثانية، ثم في عام ١٩٩ ثورة ثالثة، غير أن هذه الجهود جميعاً ضاعت هباء وراح أصحابها ضحية أهدافهم في الحياة.

وثار للمرة الرابعة علوي جديد في اليمن في عام ٢٠٢ هو إبراهيم بن موسى الكاظم ومضى في جيشه إلى مكة، فاستقل بها في عهد المأمون بالرغم من أن المأمون كان من أكثر الخلفاء عطفاً على أماني العلويين[1]، ثم باء بالهزيمة التي باء بها أسلافه من قبله.

وهكذا ظلت مكة طوال أكثر هذا العهد الذي نؤرخه نهب الثورات التي شنها التنافس بين أصحاب السلطان من العباسيين وخصومهم فيها من العلويين.

---

(١) راجع أخبار ثورات العلويين في فصل العهد العباسي.

لهذا لم يجد الاستقرار السياسي سبيلاً موطاً إلا في سنوات قليلة من هذا العهد، وقد ترتب على هذا أن عانت من الضيق وغلاء الأسعار شيئاً كثيراً في الفترات التي كانت تعاني فيها من بلاء الثورات.

ويجد الباحث السياسي أن تبعية مكة في هذا العهد كانت تبعية مباشرة يحكمها فيه خلفاء بني العباس حكماً مباشراً لا أثر فيه للاستقلال الذاتي، وليس أوضح دليل على هذا من تأمير أولاد بني العباس عليها في جل سني العهد، ولا يحكمها أولاد العباس إلا ليستوحوا سياسة بغداد في كل ما يتعلق بأمورها الداخلية، ولا عجب في هذا فقد كان المسلمون لذلك العهد لا يعرفون الاستقلال الإقليمي أو النعرة باسم الوطنية، فقد كان الخليفة هو قبلة جميع الأقطار الإسلامية إلا الخارجين عليه أو مدعي الخلافة دونه.

وهي نظرية قلدوا فيها الأمويين وأيدها لهم الوعي الفارسي، فقد كان الفرس يقولون بفكرة الحق الملكي المقدس، وأنت تستطيع أن تلمس هذا في قول أبي جعفر المنصور: «إنما أنا سلطان الله في أرضه» لذلك شعروا أنهم إنما يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب، وفي هذا ما يخالف شعور الحاكم في عهد الخلفاء الراشدين[1].

عطف الخلفاء: ولا بد لنا من أن نسجل للخلفاء العباسيين في هذا العهد عطفهم على مكة بالرغم من ثوراتها عليهم، ولعلهم كانوا يفرقون بين عامة أهلها وغيرهم من رجال السياسة العلويين، أو أنهم كانوا يريدون مداراة الأمر فيها بما يبذلونه من عطف إلى جانب الضربات التي يكيلونها لهم.

(١) راجع تاريخ الإسلام السياسي ٢ / ٢٢١ وما بعده.

واستقبلت مكة في هذا العهد بعض الخلفاء الحاجين إليها، فقد حج إليها الخليفة أبو جعفر المنصور أربع حجج كانت في سنة ١٤٠و١٤٤و١٤٧و١٥٢ غير الحجة التي حجها قبل خلافته سنة ١٣٦ ثم حج حجته السادسة في سنة ١٥٨ ولكنه مات ولم يبلغها؛ لأن المنية عاجلته في بئر ميمون على كيلومترات من مكة وهي بالقرب من منى [١].

وحج المهدي سنة ١٦٠و١٦٤ أما الرشيد فقد بلغ الرقم القياسي الذي لم يبلغ شأوه خليفة فقد حج تسع حجج كانت في سنة ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٤ و١٧٥ و١٧٧و١٧٩و١٨١و١٨٦و١٨٨ وفي حجة عام ١٧٣ أحرم من بغداد وبلغ من تواضعه أن صعد في عام ١٧٩ إلى منى فعرفات من مكة ماشياً وشهد جميع المشاهد ماشياً، وفي هذه السنة حضر العمرة في رمضان ثم ذهب إلى المدينة فبقي بها إلى أن وافى وقت الحج فحج بالناس وهو آخر خليفة حج من بغداد [٢] وقد ذكروا أنه أول خليفة حمل إليه الثلج إلى مكة [٣].

وفي بعض حجات الرشيد أخلي له المسعى ليسعى فيه فتعلق ببغلته وهو يسعى عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وصاح به يا هارون فقال: لبيك يا عم قال: ارق إلى الصفا فلما رقى قال: أعلم أن كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصة نفسه وأما أنت وحدك فتسأل عنهم أجمعين، فبكى هارون بكاءً شديداً. ثم قال له: وأخرى أقولها لك: إن الرجل إذا أساء التصرف في ماله حجر عليه فكيف

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٢٥ .

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٢٥ .

(٣) أعتقد أنه ثلج طبيعي كانوا يحتفظون به في الأقاليم الباردة بوسائل صناعية وتقدمت صناعة حفظه عندهم حتى استطاعوا أن ينقلوه محفوظاً إلى البلاد النائية في معظم شهور السنة .

أنت تسرف في أموال المسلمين وتسيء التصرف فيها وأنت محاسب عليها بين يدي الله فازداد بكاؤه وأراد جنده أن يطردوه فكفهم عنه .

وبذل الخلفاء الحجاج من الإحسان ما يدل على مبلغ عطفهم على بلاد الحرم فقد أنفق المهدي في سنة ١٦٠ ثلاثين مليون درهم و ٣٠٠ ألف دينار وصلته من مصر ومائتي ألف دينار وصلته من اليمن و ١٥٠ ألف ثوب .

وبلغ عطاء الرشيد في مكة في إحدى السنوات التي حج فيها مليوناً ونصف مليون دينار (١) .

ولا يملك المؤرخ الباحث أن يمضي به القلم في هذه الأرقام الضخمة دون أن يسترعي انتباهه ضآلة الفوائد التي كانت تجنيها البلاد من هذه الأرقام على ضخامتها ، فإن مثل هذا البذل السخي لو أنفق في مرافق للإنتاج لظلت آثاره باقية إلى اليوم في ثروة البلاد الإنتاجية ولتعودت البلاد شيئاً آخر لا يتفق مع قبولها الصدقات والعطايا ولكنهم كانوا لا يأبهون إلا بشراء القلوب وإرضاء كبريائهم بما يبذلون من بيوت المال .

الناحية العلمية : تركنا مكة تزدهي بمدرسة ابن عباس في أواسط العهد الأموي وكنا قد رأينا مجالسه تنتج لنا مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح وطاووساً وعكرمة وأمثالهم ، فإذا انتقلنا إلى ما يلي ذلك نحو العهد العباسي الأول بدت لنا مجالس عمرو بن دينار وعبدالله بن أبي نجيح ومحمد الأوقص ثم عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج يغص بها المسجد الحرام وتزدحم أفنيته بأقران هذه الطبقة من الفقهاء والمحدثين مما يطول سرد أسمائهم .

ويحدثنا التاريخ أن عمر بن دينار كان ثقة كثير الحديث ، وأنه كان يفتي في

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٢٥ .

مكة، وأنه مات سنة ١٢٦ فخلفه في إفتاء الناس عبدالله بن أبي نجيح، كما يحدثنا أن عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج كان علماً من أعلام مدرسة مكة، وأنه من أول من ألف في الحديث إن لم يكن أولهم، وأنه عندما توفي سنة ١٥٠ كان قد تلقى عنه جمهور من الفقهاء أشهرهم الأوزاعي وسفيان بن عيينة والفضيل بن عياض، وأن سفيان بن عيينة كان من أبرزهم، وقد أخذ عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ومحمد بن إسحق ويحيى بن أكثم القاضي وغيرهم، وكان الشافعي رحمه الله يقول: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، وأخذ عن الشافعي عبدالعزيز الكناني[1] وهو من ألمع رجال الفقه والتفسير.

ولم يقتصر نشاط مكة العلمي على حلقات الدرس فيها، فقد رحل كثير من فقهائها إلى أمصار الإسلام فنشروا علومهم ورووا أحاديثهم علاوة على كونها كانت مفتحة الأبواب لجميع الرواد يقصدونها من سائر الأقطار لينهلوا من علومها ويغترفوا، وكانت مجامعها في مواسم الحج غاصة بالمسترشدين والمستفتين والمناقشين، وكانت مجالس المناظرات تعقد في بيوت فقهائها وفي حلقاتهم من المسجد فتجد من غزارتهم العلمية ما يروي غلة السائلين والمناظرين.

وكان التشريع في هذا العهد الذي ندرسه قد تطور شأنه في بعض أمصار الإسلام كالعراق وأخذ يتسع لقياس الفقهاء* إلا أن أمره في مكة والمدينة ظل على حاله لا يحفل إلا بالنص الوارد بالسند المتصل إلى المشرع الأعظم صلوات

(١) ينسبون إليه كتاباً اسمه «الحيدة» أملى فيه قصة امتحانه في مجلس المأمون بخلق القرآن، وجاء في ذلك أن المريسي رئيس المعتزلة قال للكناني: إن كلمة (جعل) في قوله تعالى: ﴿جعلناه قرآناً عربياً﴾ وفي سائر القرآن تؤدي معنى (خلق) فرد الكناني: يقول: إن قوله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات﴾ وقوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ ليس فيهما معنى (خلق) فأفحم المريسي وسجلها المأمون انكساراً.

* التشريع الإسلامي له صفة الثبات، ومصادره معروفة، والتجدد في الحوادث يقتضي تنزيل الحكم المستنبط من المصادر الشرعية على المستجد.

الله عليـه، وبذلك تميز النشاط العلمي في مكة والمدينة يومها بعنايته بالمأثور من أقوال النبي ﷺ وأفعاله في الوقت الذي شاعت فيه شتى المذاهب القائلة بالرأي والآخذة بالقياس والضاربة في آفاق الاجتهاد والتأويل.

الناحيـة الفنية : وإذا تركنا هذا المجال في مجامع الفقهاء والعلماء منتقلين إلى أوساط المتظرفين والماجنين واللاعبين، وجدنا مكة تعج بترفهم ومجالس الأنس كما كان الشأن في العهد الأموي، كما يرى أن مدى هذا التظرف والفن لم يدم طويلاً في العصر الذي ندرسه لأن الغنى الذي كان يتمتع به الحجازيون طيلة العهد الأموي وصدراً من العهد العباسي الأول بدأت موارده تنضب بفعل التحول السياسي الذي اقتضته ظروف الحياة في الحجاز، فقد كانت سياسة الأمويين كما علمنا فيما سلف تقتضيهم أن يغدقوا على الحجازيين الأموال الطائلة والهبات العظيمة ليشغلوهم بها عن التطلع إلى الخلافة فأثرت مكة من هذه الهبات وأثرت المدينة، وانغمس المترفون منهم فيما انغمسوا، فلما جاء العباسيون لم يكن لهم هم إلا العناية بالفرس مؤسسي دولتهم فتحولت الهبات الحكومية إلى القادة والعظماء من مدن العراق أو خراسان وبذلك ضعف شأن الحجاز بالتدريج وبدأ الفقر يأخذ طريقه إلى بيوتاته المترفة ، ولم يبق لهم من تلك الهبات الطائلة إلا نفحات الحجاج من الخلفاء أو العظماء وبعض الصلات اليسيرة، يضاف إلى هذا أن الحجازيين لم تتحسن علاقاتهم جيداً مع العباسيين فقد كانوا -كما مر بنا- مصدر تعب طويل لاقى العباسيون فيه كثيراً من العناء وبذلوا الكثير في سبيل إخماد ثوراتهم، ويصح لنا أن نضيف إلى هذه الثورات خروج البدو في خلافة الواثق وإعلانهم الفساد والأذى ولا يكفينا أن نعتذر لهذا الفساد بفقر البادية أو جوعها لأن الحاكمين بأمرهم من بني العباس لم يكونوا

بالذين تعنيهم فلسفة الأخلاقيين بقدر ما يعنيهم تدعيم دولتهم وتوطيد أركانها فالخارجون بأي الأسباب ومن أي الألوان لا يستحقون إلا الحرمان والموت .

كل هذه الأسباب مجتمعة تركت أثرها في الهبوط بمستوى الثروات في الحجاز ، وساعد الإسراف في الترف ، والبذل في تجنيد الثائرين ، وجدب البلاد الطبيعي على ضعف الحياة فيه ثم ما لبثت أن جرته إلى الفقر وأدت به إلى موارد الحاجة .

ولعل البقية الباقية من بيوت الترف وأصحاب الفنون ضاقت بالفاقة التي انقلب إليها الحجاز فتسللت في أرض الله بحثاً وراء المتعة وسعياً إلى التكسب ، فقد حدثنا صاحب الأغاني عن مشاهير كانوا يكتسبون بفنونهم في العراق منهم يحيى المكي[(١)] وابن جامع [(٢)] ويزيد حوراء [(٣)] ودنانير[(٤)] ، وجميعهم مكيون هجروا بلادهم إلى العراق نقلوا إليها معهم فنونهم ، ويذكر صاحب الأغاني أن إبراهيم الموصلي [(٥)] وهو من أشهر المغنين في العهد العباسي أخذ فنه عن رجل من أهل الحجاز وفي هذا ما يدل على مبلغ ما استفاده العراق من هجرة الحجازيين ، كما يدل على أن الهجرة بالفن الغنائي كانت أمراً واقعياً دعت إليها حاجة المغنين للتكسب .

(١) يحيى بن مرزوق المكي من الموالي ، أديب من المغنين المشهورين ، نشأ بمكة في العصر الأموي ، توفي سنة ٢٢٠هـ (الأعلام طبعة قديمة ج ٣ ص ١١٥٥) .

(٢) المكي : مغن مشهور كان خبيراً بالألحان له أخبار مع الرشيد وأدباء زمانه . توفي حول سنة ١٨٧هـ (٨٠٩) م المنجد .

(٣) من الموالي كنيته أبو خالد : مغن من طبقة إبراهيم الموصلي ولد ونشأ بالمدينة ودخل العراق في عهد المهدي .

(٤) جارية يحيى البرمكي ، من أشهر المغنيات في القصر العباسي ماتت حول ١٩٣هـ (٨١٥) م الموسوعة الميسرة .

(٥) إبراهيم بن ميمون التميمي النديم الموصلي أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان . توفي سنة ١٨٨هـ (الأعلام طبعة قديمة ص ١٩) .

ويلوح أن هبوط مستوى الثروات في مكة في هذا العصر وارتحال أصحاب الفن من المغنين واللاعبين والمترفين ترك أثره في الحياة العامة فقد انكفأ الأهالي فيها على المنهل الوحيد الذي بقي لهم بين حلقات العلماء ومجالسهم فهيأ ذلك إلى اتجاه تعلموا فيه الزهد والتقشف والرضا والرغبة في ثواب التعلم والتفقه فكانت الحركة العلمية التي أشرنا إليها في صدر بحثنا والتي رأينا أجلة العلماء بسببها يبرزون في التفسير والحديث والإفتاء .

وتبع هذا أن اشتهرت مكة في هذا العصر بكثير من عبادها وزهادها، وبدأ المهاجرون من هذه الطبقة يجدون في مكة مأوى يفرون إليه من زيف الحياة في الأمصار، متفيئين بظل الكعبة منقطعين للعبادة حولها ،وتبع ازدياد المنقطعين وأكثرهم من طبقات فقيرة أن احتشد الفقر باحتشاد هذه الصنف من الناس وبدأ المحسنون يبنون لهم التكايا ويرتبون لهم الصدقات، وبذلك خطت مكة خطوتها الأولى في هذا العصر نحو العيش في ظل التكايا وقد ظهر أثر ذلك واضحاً في العهد العباسي الثاني مما سيأتي بيانه في فصول آتية .

الناحية العمرانية :لا يستنتج الباحث من مطالعاته فيما كتب عن مكة أن عمرانها اتسع في هذا العهد عما عرفناه في عهد الأمويين، أو أن مساحة المأهول فيها توسعت عما كانت، بل يجد أن الأمر على عكسه وأن السكان قل تعدادهم جداً، فقد تفرق أبناء مكة في الآفاق واستوطنوا الأراضي المخصبة واتخذوا لهم أملاكا في مصر والمغرب والشام والعراق حتى لم يبق في مكة من أهلها إلا أقل من القليل، مع من جاورهم من مسلمي الآفاق للتشرف بالجوار وكان من عادة حكام مكة أن ينادي مناديهم بعد أداء الحج «ياغريب بلادك» تقليداً لابن الخطاب

لئلا يستأثر المجاورون بثروات البلاد .

والذي يبدو أن لثورات العلويين التي تحدثنا عنها في الفصل الخاص بالناحية السياسية وما نتج منها من حروب وفتن أكبر الأثر في إقفار البلاد من أهلها وتأخر مقدراتها في العمران، على أن إقفار البلاد من أهلها لم يحرمها كل الحرمان من الإصلاحات وإن قلت؛ لأننا نجد الخلفاء من بني العباس عنوا ببعض المرافق فيها .

عني الرشيد بالعيون التي طمرت بعد عهد معاوية فأحياها وصرف مياهها في عين واحدة، يقال له «الرشا»، واتخذ البرك لها في أعلى مكة وأسفلها تصب فيها الماء فيستقي منها الناس وتلك كانت عادتهم قبل إنشاء موارد الماء في القرون المتأخرة[1] ولما لم يف ذلك بالغرض نشطت زبيدة زوجته للأمر فاشترت أرض حنين وكان فيها نخيل وزرع فألغته وبنت للماء قنوات يصب فيها إلى أطراف مكة[2] ثم اشترت أرضاً أخرى في وادي نعمان فوق عرفات وبنت قنواته ليصب في عرفه، ثم أصلحت البرك الموجودة في مكة وبنت بركة غيرها ليصب فيها الماء ويستقي الناس، وقدرت نفقات ذلك بنحو ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب وهو يعادل مليون وسبعمائة ألف دينار ذهبي [3] .

وأمر المأمون بإنشاء خمس برك في مكة تتسلط عليها عين زبيدة فجعل إحداها عند شعب ابن يوسف (شعب علي)، والثانية عند الصفا، والثالثة عند الخياطين

(١) راجع أخبار مكة للأزرقي ٢ / ١٨٦ .

(٢) عين حنين تنبع من جبل يقال له: طاد بالقرب من مزارع الشرائع في طريق الطائف، وكان يصب في بستان حنين فاشترت زبيدة بستان حنين وأجرت منه الماء إلى مكة في قنوات. راجع ملحق عين زبيدة في أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢٦٥ وقد انتهت القنوات إلى طرف مكة من أعاليها ولم تدخل مكة إلا في قرون متأخرة.

(٣) المصدر نفسه .

بجوار ما نسميه «باب إبراهيم» عند فوهة سكة الثنية [1] والرابعة عند سوق الحطب «في الهجلة» والخامسة في ماجل أبي صلابة[2] وجعل المسارب بين البرك يجري فيها الماء من بركة زبيدة .

وبنى الرشيد له داراً بين الصفا والمروة شارعة على المسعى كان يقال لها دار القوارير[3] وفيها دخلت بئر هاشم وكانون يسمونها «سحلة» أو بئر جبير بن مطعم ؛ لأنه اشتراها واستوهبها من هاشم وهي موجودة إلى اليوم في باب قايتباي[4] وقيل : إن عبدالمطلب وهبها لمطعم عندما استغنى عنها بحفر زمزم .

وأنشأ ياسر خادم زبيدة بأمرها ميضآت على باب أجياد الكبير وأدخل فيها بئر الحفر[5] وقد دخل كل هذا في رواق باب أجياد في التوسعة الجديدة .

واشترت زبيدة دوراً أوقفتها في مكة ومنها دار الأرقم وهي الدار التي كان يختبئ النبي ﷺ فيها قبل البعثة في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا ويسميها بعضهم دار الخيزران[6] ولكن القطبي يذكر أن دار الخيزران غير دار الأرقم وهي بجوارها [7] .

---

(١) ذكر الأزرقي أن درب الثنية هو درب الشبيكة .

(٢) الماجل في اللغة : كل ماء في أصل جبل أو واد ، وبركة المسفلة كانت ماجلاً لأبي صلابة ثم سميت بركة الماجل وحرفها الناس فقالوا بركة ماجن أو ماجد .

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢٠٢ .

(٤) أزيل وأزيلت البئر في توسعة المسجد الحرام الأخيرة .

(٥) أزيل هذا الباب في توسعة المسجد الحرام الأخيرة .

(٦) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢٠٢ .

(٧) دار الأرقم شملتها توسعة الصفا ويمكن معرفة موضعها إذا هبطت من درج الصفا ومضيت نحو ثلاثين متراً وجدت باباً يخرج إلى عمارة الأوقاف الجديدة وبين الباب المذكور وموضع دار الأرقم نحو ثلاثين متراً ، وقد أزيل كل ذلك في التوسعة الأخيرة .

وأنشأ الرشيد على رؤوس الجبال منائر تشرف على فجاج مكة، ورتب المؤذنين لها؛ لأن بعضهم كان لا يبلغه صوت المسجد فبنى على أبي قبيس أربع منائر، وعلى رأس الأحمر المقابل منارة، وعلى الجبل المشرف على شعب عامر منارة أخرى تشرف على المجزرة، ومنارة جبل كدى وغيرها، وبنى مولاه (بغا) غير ذلك على جبال أخرى في الفلق والمعلاة والشبيكة وأجياد وبئر ميمون في أعلى الأبطح ومسجد الكبش بمنى.

وكان بعض المؤذنين يسهرون فوق المآذن التي بناها الرشيد في الجبال ليؤذنوا فيها ولعله أذان السحر الذي كان مستعملاً، وقد أهملت هذه المنائر بتقادم الأجيال وخربت ولم يبق منها أثر [1].

وفكر الرشيد في أن يعنى بمواصلات مكة البحرية فينشئ قناة ما بين البحر الأحمر والأبيض، فأشير عليه بترك ذلك مخافة أن تتصل سفن الروم بأرض العرب، وتهدد الحرمين بأخطارها فعدل عن ذلك وما عدل عنه الرشيد نفذه الخديوي سعيد في مصر بفتح قناة السويس عام ١٢٨٦هـ.

الإصلاحات في المسجد: وعني العباسيون بعمارة المسجد فأمر أبو جعفر المنصور عامله على مكة زياد بن عبدالله الحارثي بشراء الدور الواقعة شمالي المسجد وغربه، فاشتراها وأدخل أرضها في المسجد، وأحدث رواقاً دائراً في صحن المسجد، واتخذ الأساطين من الرخام له وبذلك تضاعفت مساحة المسجد عما كانت في عهد الأمويين، وزين المسجد بزخارف من الفسيفساء والذهب وزينه بأنواع من النقوش وجعل الرخام في بناء حجر إسماعيل، وبنى على فوهة

(١) شفاء الغرام للفاسي ١ / ٢٤١.

بئر زمزم شباكاً لمنع السقوط فيها، وفرش أرضها بالرخام، وانتهى من ذلك في سنة ١٤٠هـ[١].

ولما حج المهدي في عام ١٦٠هـ اصطحب معه أموالاً عظيمة، وكلف قاضي مكة محمداً الأوقص المخزومي بشراء البيوت الواقعة بين المسجد الحرام والمسعى، فاشترى دوراً كثيرة وهدمها وأدخلها المسجد، وجعل دار القوارير رحبة بين المسجد الحرام والمسعى[٢]، كما اشترى دوراً أخرى في أسفل المسجد ناحية باب العمرة إلى باب الخياطين «باب إبراهيم» ووسع بها المسجد، كما وسع في الجانبين الشمالي والجنوبي وأمر بالأساطين الرخام فنقلت من الشام ومصر إلى ميناء مكة القديم «الشعيبة»، ثم نقلت على العربات ذات العجل إلى مكة، واتخذ المسجد أروقة جديدة سقفها بخشب الساج، وقد ظل العمل والإصلاح مستمراً في المسجد إلى عام ١٦٤هـ[٣].

وفي عام ١٦٤هـ حج المهدي حجته الثانية، فلاحظ أن ضلع المسجد من ناحيته الجنوبية لم يتسع كغيره ليبدو المسجد مربعاً، وكان الناس في مرورهم من المسجد إلى الصفا يسلكون في الوادي خارج المسجد ومنه إلى زقاق ضيق حتى يخرجوا إلى الصفا من التفاف، وكان السعي جهة باب علي في موضع المسجد اليوم، فأمر بشراء الدور التي كانت هناك وإدخال بعضها في المسجد، ومهد البعض الآخر ليكون طريقاً للمارة ومجرى للسيل، ولما قيل له: إن ذلك يكلفه كثيراً أبى

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٥٨.

(٢) وقد ظلت هذه الرحبة إلى أن بناها جعفر البرمكي نزلا لهارون الرشيد. ثم صارت رباطاً موقوفاً حتى استبدله السلطان قايتباي في عهد الشراكسة، وبنى مدارسه في مكان ذلك كما سيأتي.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٥٩ وما بعدها.

إلا تنفيذه، ولو نفدت أموال بيت المال جميعها، واحتاط للسيل الذي يدخل المسجد بأن جعل أمام باب الهواشم «باب علي» باباً يقابله، فإذا دخل السيل من الأول خرج من الثاني، وهو باب الحزورة «باب الوداع».

وبهذه العمارة دخل جزء كبير من منطقة المسعى في المسجد، فقد كانت منطقة السعي في صدر الإسلام عريضة، فبنى بعض السكان دورهم في جزء من عرضها بينها وبين المسجد، فلما أمر المهدي بزيادته الثانية استعاد تلك الأرض بشراء الدور التي قامت عليها وهدمها وأدخل بعضها في المسجد ناحية باب علي، وترك البعض الآخر لتوسعة المسعى، وبذلك دخل جزء من منطقة السعي في المسجد، وبانتهاء توسعة المهدي هذه أصبح المسجد شارعاً على المسعى لا تفصله البيوت، إلا أن السكان ما لبثوا أن أعادوا البناء مرة أخرى بين المسجد والمسعى، ومن أظهر ما بني في تلك الأثناء دار القوارير التي ذكرنا أنها بنيت بالزجاج في باطنها والفسيفساء [1] في خارجها لنزل الرشيد بين الصفا والمروة مكان باب «قايتباي» [2] اليوم تقريباً، وعمر المهدي منارة باب السلام ومنارة باب علي وباب الحزورة «الوداع» [3] ويقول ابن ظهيرة: إن ذلك كان تجديداً لا إنشاء إلا أن



صورة تقريبية للفسيفساء في عهد العباسيين

(١) الفسيفساء، قطع صغيرة ملونة من الرخام أو غيره يؤلف بعضها إلى بعض على أشكال مختلفة.

(٢) لم يبق للباب أي أثر بعد التوسعة الأخيرة.

(٣) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٦٣ وما بعدها، وكل هذه المنائر قد أزيلت وحل محلها منائر أخر.

المؤرخين لم يذكروا أن المنائر المذكورة أنشئت قبل ذلك .

وكتب سدنة الكعبة إلى المهدي يذكرون له أن حجر المقام قد انثلم فأمر بتضبيبه بالفضة ، وأنشأ قبتين بجوار زمزم من جهتها الشرقية إحداهما على السقاية التي كان يسقي فيها العباس والأخرى على بيت المحفوظات التي كانت تحفظ فيه المصاحف[1] .

وجدد المهدي بناء الصفا والمروة وأنشأ للأولى ١٢ درجة وللثانية ١٥ درجة .

وقد أنفق في أعماله لشراء الدور وتوسعة المسجد نحواً من ثلاثين مليوناً ونصف مليون درهماً كما يقدره بعض المؤرخين وهو يوازي نحو أربعة ملايين ريالاً عربياً تقريباً .

وحج المهدي في بعض السنين فرأى حجارة حجر إسماعيل بادية فاستدعى زياداً عامله على مكة وقال : لا أحج حتى يستر جدار الحجر بالرخام «المرمر» فبات الصناع يعملون على السرج حتى فرغوا من ليلتهم ، وفي عهد الرشيد أنشأ أمير مكة مظلة للمبلغين فوق سطح المسجد وكانوا قبل ذلك يؤذنون فوق السطح لا يظللهم شيء من الشمس والمطر صيفاً وشتاء[1] .

وفي إحدى السنوات التي حج فيها الرشيد أهدى له عامله بمصر منبراً عظيماً منقوشاً في تسع درجات فأمر بإقامته في مسجد مكة ونقل منبرها الذي صنعه معاوية إلى عرفات [1] .

(١) أخبار مكة للأزرقي .

وفي عهد الأمين قلَّ ماء زمزم أو نضب واستطاع بعضهم أن يصلي في قاعها فأمر الخليفة عامله في البريد والصوافي [1] عمر بن ماهان أن يضرب فيها عدة أذرع حتى يتفجر الماء وقد ظهر لهم أن قاعها ينبع فيه الماء من ثلاث جهات : واحدة حذاء الركن الأسود وأخرى حذاء أبي قبيس والصفا وثالثة حذاء المروة وكان ذرع غورها لذلك العهد ٤٠ ذراعاً بناء و ٢٩ نقراً في الجبل ، وعني المأمون ببعض الإصلاحات فأمر بإنشاء عمود طويل بحذاء الركن الغربي للكعبة وجعل عليه مصباحاً كبيراً ليسامت المصباح الذي جعله بنو أمية أمام الحجر الأسود وأضيف عمودان آخران بعد ذلك أمام بقية الأركان الأربعة .

وفي عهد الواثق أمر بهدم الأعمدة واتخاذها من النحاس وجعل على كل عمود ثريتين كبيرتين لإضاءة المطاف ، وكان العباسيون يكسون الكعبة بالديباج الأحمر والقباطي مرتين كل سنة فأضاف المأمون إلى ذلك كسوة ثالثة من الديباج الأبيض .

بعض أوصاف المسجد في هذا العهد: وفيما يذكره الأزرقي من أوصاف المسجد في هذا العهد أن ذرعه انتهى بعد زيادتي المهدي إلى مساحة قدرها مائة وعشرون ألف ذراع ، كما قدر أساطينه بـ ٤٨٤ أسطوانة منها ٣٢١ أسطوانة مذهبة الكراسي ، وأبوابه بـ ٢٣ باباً كما قدر ارتفاع جدره بـ ١٨ ذراعاً في بعض جهاته و ٢٢ ذراعاً في البعض الآخر [2] .

ثم قال : «وللمسجد سقفان : أحدهما فوق الآخر أما الأعلى منهما فمسقوف

---

(١) الصوافي : متطوعة من المجاهدين كانوا يغزون أوروبا في شهور الصيف .

(٢) أخبار مكة ٢/ ٦٥ وما بعدها .

بالساج والسَيلح الجديد وبين السقفين فرجة قدر ذراعين ونصف ذراع والسقف الساج مزخرف بالذهب [1] ولا نشك أنهم صنعوا السقف طبقتين ليَساعد ذلك على ترطيب الجو أيام القيظ . وذكر الأزرقي أنهم كانوا يصلون على الجنائز عند ثلاثة من أبواب المسجد هي باب الصفا ، وباب بني شيبة . . . ثم قال وإن الناس فيما مضى يصلون على الرجل المذكور في المسجد الحرام [1] .

ويذكر الأزرقي [1] أن للمسجد أربع منارات وذكر مواضعها ثم أوضحها ابن ظهيرة فقال : إن إحداها فوق باب العمرة والثانية فوق باب الحزورة ونسميه باب الوداع والثالثة فوق باب علي والرابعة فوق باب السلام[1] .

وذكر أن عدد قناديل المسجد كانت ٤٥٥ قنديلاً عدا ثمانية ثريات يستصبح بها في شهر رمضان والموسم [1] .

ثم يذكر حجرة زمزم في المسجد ويقول : إن لها حوضاً يدور في وسط جدرها الأربعة وله ٦٦ طاقاً «فتحة» يؤخذ منها الماء وفي مؤخرة الحجرة كنيسة [2] مما يلي الوادي يكون فيها القيم ، ويقال : إنها مجلس عبدالله بن العباس وفي حد حجرة زمزم مما يلي الكعبة أسطوانة ساج يعلق فيها مصباح لأهل الطواف ، ويذكر الأزرقي ما يشير إلى وجود الحصباء في المسجد الحرام في هذا العهد فيقول : إن سيلاً عظيماً اقتحم المسجد فجرف حصباءه بعد عام المائتين[3] .

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٧٧ فما بعدها .

(٢) المراد بالكنيسة هنا المخلاة ونسميها الخلوة .

(٣) أخبار مكة ٢/ ٨٠ .

في العهد العباسي الثاني

تمهيد : رأينا في فصل سابق أن عهد الخليفة الواثق سنة ٢٢٧هـ كان نقطة تحول انتقل فيها تاريخ العباسيين من عصره الذهبي إلى عصر الانقسام والفتن، والمطلع على حقائق التاريخ يعلم أن اعتماد المعتصم قبل الواثق على أخواله من الأتراك وإسناد المناصب العالية إليهم طبع الدولة من جديد بطابع الأتراك ومهد لأصحاب الطموح منهم سبيلهم إلى السيطرة، فلما تولى الأمر الواثق سنة ٢٢٧هـ كان نفوذهم قد شمل الدولة وبدؤوا ينصبون من شاؤوا من الخلفاء ويعزلون من شاؤوا[١] .

وظل الأمر على ذلك مدة المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر بل تطورت الحوادث بمرور الأيام حتى زادت الفتن في عهد المقتدر، وتدخل في شؤون الدولة نساء القصر وخدمه[٢] وقد وصف البيروني في الآثار الباقية «ص ١٣٢» الخليفة في عهده عام ٤٤٠ فقال: إنه كان رئيساً للإسلام لا ملكاً، ثم خرج عليه مؤنس الخادم ونادى بسقوطه فبويع القاهر بالله في سنة ٣٣٠هـ فما لبث أن ثار الجند وزادت الفوضى[٣] .

ولاة مكة في هذا العهد: في ثنايا هذا الوهن الذي دب في جسم الخلافة ببغداد كانت مكة ما تزال محكومة للعباسيين أو إن شئت لأصحاب النفوذ من الأتراك في البلاط العباسي وقد تولى إمارتها بعد خلافة الواثق علي بن عيسى بن جعفر العباسي في سنة ٢٣٢هـ ثم عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى العباسي

(١) الطبري ١١ / ٨ فما بعدها.

(٢) تجارب الأمم لابن مسكويه ١ / ٣ فما بعدها، الفخري ص ٢٣٥ .

(٣) ابن الأثير ٨ / ٩ .

في سنة ٢٤٢هـ ثم محمد بن سليمان بن عبدالله الزينبي[1] ويذكر ابن جرير أن الزينبي حج بالناس في سنة ٢٤٥هـ.

وتولى أمر مكة في عهد المتوكل ابنه المنتصر ويبدو أنها كانت ولاية شرف، وأن قائده إيتاخ كان ينوب عنه فيها[2] وقد ظل كذلك إلى أن قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ ثم أعاد الخليفة المستعين بالله إلى إمارة مكة عبدالصمد بن موسى العباسي في عام ٢٤٩هـ ثم عزله وولاها جعفر بن الفضل العباسي في سنة ٢٥٠[3] ولعل من الواضح أن جل الولاة السالفين كانوا من أمراء البيت المالك في بغداد.

ثورة خامسة للعلويين: وفي عهد جعفر هذا أطلت على مكة ثورة جديدة من سلسلة ثورات العلويين، بعد أن مضى على آخر ثورة قبلها نحو نصف قرن ولا تبدو خطوط هذه الثورة واضحة المعالم إلا أننا نستطيع أن نعرف أن اسم الثائر إسماعيل بن يوسف وأن نسبه يرتفع إلى الحسين بن علي بن أبي طالب وأنه تولى مكة بالتغلب في سنة ٢٥١ بعد أن هرب منها جعفر مهزوماً وأنه اغتصب ما في خزائن الكعبة من الأموال.

وبعد أن وطد لنفسه في مكة أقام بها خمسين يوماً، ثم زحف إلى المدينة فتوارى عنه عاملها، ثم رجع إلى مكة واستأنف حصارها حتى مات بعض أهلها جوعاً وعطشاً وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم كما بلغ سعر الرطل من اللحم أربعة

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ١٨٥.

(٢) ويذكر ابن الأثير أن إيتاخ كان غلاماً خزريا طباخاً اشتراه المعتصم فحظي عنده ثم حظي عند الواثق والمتوكل وأنه عندما خرج للحج في عهد المتوكل ولاه على كل بلد يمر بها حتى مكة «راجع البداية ١٠/ ٣١٢».

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ١٨٦.

دراهم وشربة الماء ثلاثة دراهم، ثم مضى إلى جدة فاحتلها واغتصب أموال تجارها وأصحاب المراكب فيها، ثم وافى الموقف والناس بعرفة فأفسد فيها وقتل من الحجاج نحو ألف ومائة ونهب الناس فهرب الحجاج ولم يقف في عرفة أحد سواه وجيشه ثم بعد انفصاله من عرفة رجع إلى جدة مرة أخرى وعاث فساداً فيها.

وقد مات إسماعيل في عام ٢٥٢هـ بالجدري وماتت ثورته بموته دون أن نعرف أسباباً أخرى واضحة غير الجدري[1] وفي السنة نفسها عقد الخليفة المستعين بالله لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وباشر ذلك غيره.

وولي مكة بعده محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين دون أن يباشرها ويقول الفاسي[1] : إن المعتز ولّى مكة عيسى بن محمد المخزومي. ويذكر ابن الأثير أن المعتز أنفذه مع محمد بن إسماعيل لحرب إسماعيل بن يوسف العلوي آنف الذكر.

ثم ولي مكة أحمد بن المنصور العباسي ويعرف بكعب البقر وولي في خلافة المهتدي علي بن الحسن الهاشمي في عام ٢٥٦[1] .

ولما تولى الخلافة المعتمد العباسي كان أخوه الموفق يقيم في مكة في حكم المبعدين، فقد نفاه إليها الخليفة المهتدي ففكر المعتمد في الاستعانة به فأرسل إليه يدعوه من مكة وولاه بوصوله بغداد الجزء الشرقي للمملكة بما فيه أرض الحرمين واستطاع الموفق أن يدعم نفوذه ويسيطر على أمور أخيه يعضده نفوذ الأتراك.

---

(١) راجع شفاء الغرام ٢ / ١٨٧ و ٢١٧ .

وإذا كان مؤرخو مكة مجمعين على اعتبار الموفق من ولاة مكة فالواقع الذي يدل عليه سياق التاريخ أنه لم يتولها مباشرة بل عقد له عليه فيما عقد له من بلاد الشرق في الوقت الذي ظل مقيماً بالعراق يهيمن على مقدرات الدولة العباسية وينيب عنه في مكة من يتولى إمارتها .

ويذكر ابن ظهيرة في الجامع اللطيف أسماء من تولى مكة في هذا العهد عهد المعتمد ولكن قرائن الحوادث تدل على أن هؤلاء الولاة لم يكونوا إلا نواباً على إمارتها ؛ لأن إمارتها ظلت معقودة للموفق طيلة عهد المعتمد ، ونحن نورد أسماءهم فيما يأتي : محمد بن المتوكل وقد تولاها سنة ٢٥٧هـ وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل وقد كان في ولايتها نحو سنة ٢٥٩ ويذكر بعض المؤرخين أسماء الولاة في صورة تخالف ما نقلناه مما يتعذر معه التحقيق .

ثورة علوية سادسة "ثورة الزنج": في هذا العهد قام في جهات من العراق ثائر علوي اسمه علي محمد بن أحمد فاستطاع أن يحتل كثيراً من بلاد العباسيين وأن يعيث فيها فساداً وقد اتصل بمكة فاحتلها وولي أمرها محمد بن عيسى بن محمد المخزومي وهي ثورة سادسة شهدتها مكة للعلويين وإن كان مبعث هذه الثورة خارجاً عن نطاق مكة ، ثم ما لبث الموفق أن أجلى عليَّ بن أحمد عن مكة بقيادة محمد بن أبي الساج وأعادها إلى حكم العباسيين وقد قاست مكة في هذه الفترة ضيقاً شديداً فبلغت قيمة الأوقيتين من الخبز درهماً[1] .

---

(١) قيل : إن صاحب الزنج دعي لا علاقة له بالعلوية وقد تكون الإشاعة دعاية عباسية فقد قام الرجل ضدهم=

ابن طولون: وأرسل أحمد بن طولون صاحب مصر إلى مكة في عام ٢٦٩ قائدين من مصر في أربعمائة وتسعين وألفي فارس لإجلاء العباسيين عنها فوافاها في أواخر ذي القعدة[(١)] .

وقسموا الأموال في عامة الناس فأعطي لكل رجل دينارين وأعطوا خاصتهم لكل رجل سبعة دنانير وكأنهم أرادوا الاستعانة بهم ضد والي مكة هارون بن محمد بن إسحق الهاشمي ، وكان أمير مكة في جيش عدته مائة وعشرون فارساً ومائتا عبد من السودان . ثم أيد في اللحظة الأخيرة بنحو مائتي فارس يقودهم جعفر بن الباغمردي فما انتهى المدد إلى مكة في ٣ذي الحجة سنة ٢٦٩ حتى اشتبك القتال مع الجيش الطولوني فانهزم عسكر ابن طولون وقتل منهم نحو مائتي رجل [(٢)] .

يقول ابن ظهيرة القرشي : وبهذا لم يثبت لابن طولون حكم في مكة وهو صحيح بالنسبة لما وهمه بعض المؤرخين من أن مكة حكمت للدولة الطولونية .

= وكانت له جولة في بعض نواحي العراق والبصرة والبحرين والأحساء جمع العبيد إليه وأعلن تحريرهم وقيل : إنه جهر بعقيدة الخوارج ولا أستبعد ذلك ففيها ما يساعد على طبيعة الخروج على السادة والملاك وقد ساعده الحظ فتجمهر العبيد حوله وخاضوا تحت قيادته من عام ٢٥٥ إلى عام ٢٧٠ عشرات الوقائع التي ظفروا فيها ولكن الموفق انتدب نفسه لقتالهم حتى قضى عليهم . راجع الآداب السلطانية ص ٢٧٧ ، وابن الأثير ٧ / ٧٥ فما بعدها وشفاء الغرام ٢ / ١٩٠ .

(١) أحمد بن طولون أحد موالي الأتراك كان أرسله أبوه إلى البلاط العباسي هدية فنشأ أحمد في بغداد في الوقت الذي ساد فيه العنصر التركي واستعان به أحد ولاة مصر ليقوم بعمله بالوكالة فأظهر نجاحاً ثم تطور الأمر فاستقل بولاية مصر سنة ٢٥٤ ثم استولى على بلاد الشام وفي هذه الأثناء ضاق الخليفة العباسي بالفتن في بغداد فرأى أن يحتمي بسلطان ابن طولون القوي فرحب ابن طولون بذلك ولكن عيون أخيه الموفق لم تترك له فرصة الالتجاء فقد قطعت عليه الطريق وأسلمته أسيراً إلى أخيه .

(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٨٩ .

وفي سنة ٢٦٩ تولى أمر مكة محمد بن الساج ثم تولاها في عام ٢٧٢ يوسف ابن الساج[١] وفي هذا العام انتدب أمير المدينة أحمد الطائي غلامه بدراً لإمارة حجاجها، فنشب بين أمير مكة يوسف الساج وبينه خلاف أدى إلى القتال على أبواب المسجد، وأسر بدر فغضب له بعض أهل الحج وثاروا على يوسف بن الساج حتى أسروه وساقوه إلى بغداد[٢]، وتولى أمر مكة في هذا العهد أبو عيسى محمد بن يحيى ثم ما لبث أن غضب عليه الخليفة المعتمد وانتدب له أبا المغيرة ليقصيه عن مكة وقد فعل وفيها قتل أبو عيسى وتولى مكانه أبو المغيرة[٣].

ثورة العلويين السابعة: وفي هذا العهد استغل محمد بن سليمان من أبناء العلويين فرصة انشغال العباسيين بالفتن فثار بمكة واستقل بإمارتها في عام ٣٠١ وخطب لنفسه في موسم الحج ومما قال: «الحمد لله الذي أبرز زهر الإيمان من أكمامه وكمّل دعوة خير الرسل بأسباطه لا بني أعمامه!»[٤] ولم أطلع فيما قرأت من مصادر على مدة بقاء هذا الحكم ولعلها كانت قصيرة لا تستحق عناية المؤرخين، كما أنها كانت آخر ثورة للعلويين إلا اذا اعتبرنا ثورة الأشراف في القرن الرابع الهجري استئنافا جديداً.

ومر عهد المعتضد والمكتفي والمقتدر إلى أن كان عام ٣١٧ من عهد القاهر في

(١) تتضارب الروايات المنقولة عن ابن جرير وابن حزم في شأن ولاة مكة في عهد المعتمد أشد التضارب كما أن الفاسي وابن ظهيرة ينقلان عن هذه المصادر وغيرها ما لا يمكن التوفيق بينه وقد نقلنا من ذلك ما نحسبه قريباً من الصحة.

(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٨٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) خلاصة الكلام.

فترة شبه مجهولة، لأن مؤرخي مكة يذكرون أن ولاة مكة في هذا العهد لم يعرف منهم سوى «عج بن حاج» و «مؤنس الخادم» وابن ملاحظ وابن مخلب دون أن يذكروا ترتيبهم وسني ولايتهم، والمعروف أن عج من موالي الأتراك المقربين في البلاط العباسي، وكذلك مؤنس الخادم وقد كان من قواد المكتفي وعرفه التاريخ لثورته المشهورة على الخليفة المقتدر، وكانت ولايته عقداً ولم تكن مباشرة لأنه من رجال البلاط في بغداد الذين لا يستطيعون البعد إلى ولايات قاصية أما ابن ملاحظ فيقول ابن ظهيرة في الجامع اللطيف: إن الهمذاني ذكر في ترجمته أنه كان سلطاناً في مكة «كذا» من غير أن يذكر تاريخاً، أما ابن مخلب ويسميه بعضهم ابن محارب ويرجح تقي الدين الفاسي اسمه الأول فمن المؤكد أنه كان في ولاية مكة إلى سنة ٣١٧ حيث أجلاه القرامطة عنها ويذكره الفاسي في حوادث القرامطة بمكة ويشير إلى أنه خرج لقتالهم في جماعة من أشراف مكة[١].

القرامطة في مكة: عرف القارئ مما أسلفناه في فصل سابق مقدار الوهن الذي دب إلى مركز العباسيين في عصرهم الثاني، كما عرف مبلغ الضعف الذي مني به خلفاؤهم وأن مواليهم من الأتراك كانوا يحكمون الدنيا بأسمائهم، ونريد أن نقول بعد هذا: إن النتائج السيئة لم تقتصر على ما أسلفنا بل تعدته إلى تغذية كثير من الحركات السياسية والدينية، فقد كان الطامحون إلى مراميهم البعيدة في بلاد العباسيين يجدون من عجز الدولة ما يشجعهم على الثورات والفتن، ويهمنا الآن من هذه الحركات قصة الثورات الدينية التي اضطلعت بها فرق من الشيعة والتي انتشرت بأسبابها في جهات كثيرة من بلاد العباسيين.

فهناك ثورات للزيدية وأخرى للإمامة الموسوية وغيرها للعلوية والإمامة

(١) راجع شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٩١.

الإسماعيلية والإمامة الاثنا عشرية وهناك فتن القرامطة. قرامطة العراق والشام، وقرامطة البحرين والقطيف، وقرامطة اليمن وهناك الكتاميون في المغرب والفاطميون في مصر.

كل هؤلاء تشيعوا لآل علي بأساليبهم التي كانت تختلف باختلاف أعراقهم[1] وكل هؤلاء شغلوا العباسيين في أوقات طويلة كان العباسيون أحوج إليها من بناء تاريخهم، وكثير من هؤلاء أقاموا لأنفسهم على حساب ضعف العباسيين بلاداً مستقلة وأنشأ بعضهم دولاً مضى صيتها في التاريخ إلى حد بعيد كان من أبرزهم في ذلك الفاطميون في مصر.

وبحثنا في هذا الفصل يتناول القرامطة لصلة القرامطة في عام ٣١٧ وعلاقتهم بما كنا في سياقه من حوادث مكة إلى العام المذكور.

ولعل القارئ يذكر ما قدمناه في فصل سابق عن موقعة النفس الزكية في مكة سنة ١٤٥ وما ذكرنا بعدها عن مقتلة الشهداء في وادي فخ عام ١٦٩ وإننا قلنا في ما قلناه أن اثنين من العلويين فرا من الموقعة، وأن أحدهما وهو إدريس استطاع أن يصل إلى المغرب الأقصى وأن يؤسس فيه دولة الأدارسة[2]، ونضيف هنا أن هؤلاء الهاربين استطاعوا بما ملكوا من نفوذ أن يساعدوا أنصارهم من الشيعة على نشر دعوتهم في الخفاء في بلاد متعددة من ممالك العباسيين .

---

(١) من أشهر فرق الشيعة: الإسماعيلية في الهند وهم يقولون إنما تميزنا بهذا الاسم عن فرق الشيعة لانتسابنا إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، والزيدية في اليمن وهم ينتسبون إلى زيد أخو الباقر وجد إسماعيل الصادق، والباطنية وقد سموا بذلك لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً، ومن فرقهم القرامطة والمزدكية في العراق والخليج العربي والداودية والبهرة والسليمانية وهم يسكنون الهند واليمن.

(٢) راجع من كتابنا صفحة (١٦٤).

ومن أشهر أصحاب هذه الدعوة ميمون بن القداح الذي تصدى لنشرها في بعض بلاد الشام، وقالوا: إنه وضع دعامة المذهب الإسماعيلي واتهمه البعض أنه كان إلى جانب شيعته يميل إلى الشعوبية وإعادة النفوذ الفارسي وأنه مهد بذلك لابنه عبدالله بن ميمون[١] .

ويذكر بعضهم أن عبدالله بن ميمون كان عالماً بجميع الشرائع والسنن كما يجعله رابع أربعة صنفوا رسائل إخوان الصفا المعروفة في التاريخ الإسلامي[٢] ويقول آخرون أنه اعتنق مذهب الشيعة ليخدم أغراضه في الدعوة إلى الفرس، وأرسل وهو في الأهواز أحد دعاته إلى سواد الكوفة فلقي حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط فدخل في دعوة ابن ميمون وسعى إلى نشرها، ولم يلبث أن زاد أتباع قرمط فأنشأ لهم داراً للهجرة وأمرهم باقتناء الأسلحة، وقد امتد نشاطهم في شمالي العراق وبعض بادية الشام وسمي هذا الفريق منهم بقرامطة العراق والشام[٣] .

وانتقلت الدعوة إلى البحرين والقطيف على يد الحسين بن بهرام فاستفحل أمرها وقويت شوكتها، وكان من قوادها أبو سعيد الذي أقلقت فتوحاته العباسيين في عهد المعتضد ثم ابنه أبو طاهر القرمطي الذي وصفه المؤرخون بالطغيان

---

(١) المقريزي خطط ج ١ / ٣٤١ .

(٢) جماعة إخوان الصفاء سر من أسرار العقائد لا نبرئه من التطرف؛ لأنه اعتمد العقل وحده وقد تعمد الجماعة إخفاء أسمائهم ليبيحوا لأنفسهم التوسع في الفلسفة العقلية بالشكل المتطرف الذي رأوه لأنفسهم وقد بلغ عدد الرسائل ٥٢ رسالة جاء أكثرها زاخراً بالرموز والكنايات والإشارات الباطنية التي اعتنقوا مذهبها وتوسع بعضها في مجالي الفلك والهندسة والطب والرياضة والموسيقى فخلفوا مادة ثرة اتخذها المستشرقون اليوم أصلاً للكثير من بحوثهم، راجع عبقرية الفاطميين ص ١٩ وما بعدها.

(٣) المقريزي خطط ١ / ٢٥٠ فما بعدها.

وذكروا أنه انتهك حرمات الله ونهب قوافل الحجاج[1] .

وقد سار أبو طاهر بجيشه إلى مكة لانتزاعها من عامل العباسيين فانتهى إليها في ٧ذي الحجة من عام ٣١٧ فخرج إليه أمير مكة يومها ابن محارب في جماعة من الأشراف يسألونه أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فهزمهم ووضع سيفه في الطائفين والمصلين والمتفرقين في مكة وشعابها وصاح به الناس أتقتل جيران الله؟ فقال : ليس بجار من خالف أوامر الله ، وظل كذلك حتى قتل ما يربو على ثلاثين ألف دفن كثيراً منهم في بئر زمزم كما دفن بعضهم في المسجد الحرام بغير غسل ولا تكفين ولا صلاة ، ونهب جيشه أموال الحجاج وأهل مكة[2] وكان ممن قتل بمكة أميرها ابن محارب[3] والحافظ أبو الفضل محمد بن الحسن الجارودي أخذته السيوف وهو متعلق بباب الكعبة وقتل إمام الفقهاء الحنفية أبو سعيد البردي وكثير من العلماء الصوفية وممن هرب قاضيها يومئذ يحيى القرشي إلى وادي رهجان[4] وقد نهب القرامطة داره وفيها ما قيمته مائة ألف دينار وخمسون ألف ديناراً ، وشمل النهب أكثر البيوت حتى أصبح أهل مكة يستعطون الناس .

(١) المقريزي خطط ١ / ٢٥٠ .

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢١٨ وقال صاحب درر الفوائد المنظمة : (وقتل - أبي القرطمي - في المسجد الحرام ألفا وسبعمائة ، وقيل : ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم يتعلقون بالكعبة ، وردم بهم زمزم ودفن بعضهم في المسجد ص ٢٣٥ .

(٣) اشتبه هذا الاسم على المؤرخين ، فذكره بعضهم باسم ابن محلب ، وقال بعضهم : ابن محارب ، وقال آخرون : ابن مجلب . وحققه الفاسي بانه ابن مخلب - بالخاء المعجمة . (شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٢ ط : البابي الحلبي القاهرة ١٣٧٦هـ) .

(٤) رهجان : شعب يصب في وادي نعمان من الجنوب ، سكانه هذيل . (ع) .

وركض أبو طاهر وهو سكران شاهراً سيفه راكباً فرسه ودخل المطاف فبالت فرسه وراثت وصعد إلى باب الكعبة وهو يقول :

أنا بالله وبالله أنا　　　　يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وقد أقام بمكة أحد عشر يوماً .

وفي ١٤ ذي الحجة قلع الحجر الأسود من مكانه وذهب به إلى بلاده هجر[١] وبقي موضعه خالياً يضع فيه الناس أيديهم للتبرك* نحو اثنتين وعشرين سنة ثم أعاده القرامطة بعد ذلك قائلين : أخذناه بقدرة الله ورددناه بمشيئة الله[٢] ، وقد حاول أحد خلفاء الفاطميين في المغرب إغراءهم بالمال ليعيدوا الحجر إلى مكة فعرض عليهم خمسين ألف ذهب فأبوا وبذل لهم مدير الخلافة في بغداد ٥٠ ألف دينار فأبوا وقالوا : إنما اخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر [٣] .

ويستوقفني في هذا السياق ركوض أبي طاهر بفرسه إلى داخل المطاف وترك الفرس تبول وتروث وهو شاهر سيفه صائحاً :

أنا بالله وبالله أنا　　　　يخلق الخلق وأفنيهم أنا

كما يستوقفني إعادتهم الحجر الأسود إلى مكانة بعد المدة التي غيبوه فيها وقولهم أخذناه بأمر ولا نرده إلا بأمر ، وأتمنى لو أستطيع التوفيق بين هذا الكفر

---

(١) هجر : بالتحريك اسم قديم لإقليم البحرين وهو ما يعرف اليوم بالأحساء وقد يخصص الاسم لمدينة الهفوف . (ع) .

* الحجر الأسود يمس ويقبل لأمر الرسول ﷺ بذلك وليس بغرض التبرك .

(٢) الإعلام بأعلام مكة للقطبي تصوير النسخة الأوربية ص ١٦٢ - ١٦٤ المجلد الثالث المدون باسم أخبار مكة المشرفة .

(٣) راجع محاضرات الخضري الدولة العباسية ٣٥٣ .

الذي يتجلى في تلويث المطاف وذلك الإيمان الذي يعلنونه وهم يردون الحجر بأمر الله بعد أن أخذوه بقدره كما يقولون.

يذكر صاحب الإسلام السياسي أنه نقل عن كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية للنويرية ولم يذكر اسمه[1] أن حمدان قرمط فرض على كل رجل وأمرأة درهماً سماه الفطرة وعلى كل بالغ ديناراً سماه الهجرة وإنه استنتج هذا من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ثم فرض خمس ما يملكه أتباعه معللاً ذلك بقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ وينقل صاحب مرآة الحرمين أن صلاتهم أربع ركعات اثنتان منها قبل طلوع الشمس واثنتان قبل غروبها، وأنهم يقرون بالأنبياء ومنهم محمد ﷺ ثم ابن الحنفية بعده، وأن القبلة إلى بيت المقدس وأن يصام يومان في السنة وأن النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة ولكن الوضوء كوضوء الصلاة.

ثم يذكر عن قرامطة اليمن أن خطيبهم كان ينشد على المنبر بصنعاء قوله:

خذ الدف يا هذه واضربي	وغني هزاريك[2] ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
أحل البنات مع الأمهات	وحط الصيام ولم يتعب

إلى آخر ما جاء في القصيدة من فحش وفجور لا يتفق والمبادئ التي قيل: إن أصحابها يستنتجون بعض أحكامهم فيها من القرآن بمثل ما استنتج القرامطة من بعض ما أسلفناه.

(١) آل النويري من أعلام مكة القدامى كان بيتهم مشهوراً بالعلم.

(٢) الهزار طائر حسن الصوت.

وما لبث أبو طاهر القرمطي أن كتب إلى الخليفة الفاطمي في المغرب بما أحدث في المسجد الحرام فرد عليه يعنفه على ما أحدث[1] وفي هذا ما يدلنا على صلة القرامطة بشيعة الفاطميين ويفسر لنا علاقتهم المذهبية بهم.

وظل سبيل الحج بعد ذلك مقطوعاً بتأثير القرامطة حتى كتب أبو علي عمر بن يحيى نقيب العلويين في الكوفة سنة ٣٢٧ إلى أبي طاهر أن يطلق السبيل للحجاج على مكس يأخذه منهم فامتثل أبو طاهر وجعل يأخذ المكس من الحجاج في طريقهم إلى مكة، ولا أدري كيف أجاز لنفسه المكس وهو من أصحاب الغلو في الدين، وقد عانت مكة من جراء هذا كثيراً من الضيق واستبد الفقر بأكثر الأهالي فيها سنوات طويلة.

وفي كتابة نقيب العلويين إليه ما يفسر معنى ما نذهب إليه.

الإخشيد في مكة: الإخشيد دولة أسسها في مصر أحد قواد العباسيين في عهد الانحلال العباسي. وقد تقدم بنا أن نفوذ الأتراك في بغداد قد تفاقم وأصبحوا يولون أتباعهم عمالاً في الأمصار، وكان العمال يستخدمون من يلوذ بهم. وفي هذه الأثناء التحق محمد الإخشيدي بخدمة ابن بسطام عامل بلاد الشام، ثم حارب تحت قيادة تكين في مصر ضد فاطمي المغرب ثم ولاه تكين الإسكندرية نيابة عنه في سنة ٣٠٧ فوطد لنفسه في مصر بقتال فاطمي المغرب مرة أخرى حتى ولّته بغداد إمارة مصر في عهد أمير الأمراء ابن رائق، ثم ما لبث أن ساءت العلاقات بين الإخشيد وابن رائق أمير الأمراء في بغداد فنشب القتال بينه وبين جند العباسيين ثم اصطلحوا على أن يتولى الإخشيد أمر مصر لقاء مائة

(١) محاضرات الخضري الدولة العباسية ٣٥٣.

وأربعين ألف دينار ذهباً يدفعها سنوياً إلى بغداد ثم ما لبث أن امتد نفوذه إلى الشام وبلاد الحرمين، وقد أقره الخليفة المتقي بالله العباسي على ذلك وعقد لولديه أبي القاسم وأبي الحسن من بعده على أن يكفلهما خادمه كافور الخصي المعروف بالإخشيد[1] وفي هذا العهد قاست مكة كثيراً من الضيق نتيجة لاضطراب العالم الإسلامي بأحداث الإخشيدي وبني رائق ومنع الحج سنوات طويلة فيما بين عامي ٣٣٢-٣٣٨هـ.

ولم يعين مؤرخو مكة السنة التي تم الأمر فيها للإخشيد على الحرمين، لكنه يبدو من تتبع حوادث الإخشيد أن ذلك كان حوالي سنة ٣٣١ وهي السنة التي عقد فيها لولديّ الإخشيد وذلك في غمرة الضيق الذي ذكرناه.

وما لبثت بغداد أن فكرت في استعادة حكمها على مكة فندبت رجلين من العلويين هما أبو الحسن محمد بن عبدالله وأبو عبدالله أحمد بن عمر بن يحيى ليقودا حج العراق، وزودتهما بما يلزم من الجند والسلاح ليستخلصا مكة، وذلك في عام ٣٤٢[2] وقد جرى بينهما وبين أصحاب الإخشيد من المصريين قتال شديد ظفر فيه الإخشيد، ثم استؤنفت المحاولة في عام ٣٤٣ هـ فكان الظفر لأصحاب الإخشيد.

ويبدو من هذا أن مكة كما عانت من الضيق من انقطاع المواسم في سنوات فتن الإخشيد وهم بعيدون عنها، عانت كذلك بعد اتصالهم بها من حروبهم وأهوالهم ما عانته وقد دام ذلك إلى نهاية العهد الإخشيدي.

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٩٢ وفيات الأعيان ٢ / ٥٣.

(٢) يذكر الفاسي أن الرجلين كانا يتقدمان الحج العراقي قبل عام ٣٤٢ ببضع سنوات، راجع شفاء الغرام ٢/ ٢٢١.

ولـم يذكر المؤرخون أسماء من تولوا مكة للإخشيد وذكر تقي الدين الفاسي أنه لا يعرفهم أما ابن ظهيرة القرشي فقد ذكر في الجامع اللطيف أن القاضي أبا جعفر محمد بن الحسن العباسي ولي مكة للإخشيد في عام ٣٣٨ ولم يذكر غيره[١] .

وظل العباسيون بعد هذا يندبون بعض العلويين لإمارة الحج سنوياً، ومن أشهر من ندب لذلك نقيب الطالبيين أبو أحمد الموسوي، وهو والد الشريف الرضي وقد ظل يحج على رأس العلويين عدة سنوات ولعل العباسيين كانوا يحاولون بذلك أن يستفيدوا من شخصيته بين القبائل في مكة فلم ينجحوا لأن حكم الإخشيد ظل وطيداً في مكة إلى أن انقرضت دولتهم في عام ٣٥٧هـ.

وشعر الإخشيد أن الدعاء لهم على منابر الحرمين أكسب دولتهم من الجلال الديني ما يسمو بشأنهم فبروا رجال الحرمين بأعطياتهم وعنوا بإصلاحات كثيرة في مكة والمدينة .

ويذكر صاحب النفوذ الفاطمي[٢] أن الإخشيد كتب إلى ملك الروم يقول : «إنه وإن لم يكن لي شرف إلا إمارة الحرمين لكفاني ذلك» وأظهر كافور الخصي في عهد وصايته على أولاد الإخشيد ثم في عهد استخلاص الولايات لاسمه عناية كبيرة في برِّ مكة بالصدقات -مع الأسف الشديد- ودعي له على منبرها كما كان يدعى للخلفاء[٣] .

وبالرغم من حكم الإخشيد الموطد فقد ثار بنوسليم[٤] عليهم في عام ٣٥٦هـ

(١) وأشار الفاسي إلى هذا وقال : إنه قرأ ذلك في كتاب لمؤرخ مصري . راجع شفاء الغرام ٢ / ١٩٧ .

(٢) ص ١٢ .

(٣) أبو الفدا ٢/ ١٩٧ .

(٤) هم بطن من قبيلة حرب تسكن شرقي المدينة المنورة إلى الجنوب .

ونهبوا الحجاج المصريين الذين يلوذون بهم وقتلوا أميرهم ولعلها كانت بدافع من تأثير العباسيين[1] .

(١) قال صاحب درر الفوائد ص ٣٥٥ : كان أمير الحج العراقي أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي نقيب الأشراف ، ونهبت بنو سليم حاج مصر والشام ، وكانوا عالماً كثيراً . . إلخ .

النواحي العامة
في عهد العباسيين الثاني

الناحية السياسية : مر بنا أن خلفاء العصر العباسي الأول استعانوا بأخوالهم من الفرس في حروبهم ضد الأمويين حتى إذا ما توطد ملكهم آثروهم على العرب وقدموهم في مهام الدولة وكبريات وظائفها .

ونحن هنا لا نلبث أن نجد خلفاء العهد العباسي الثاني يستعينون بأخوالهم ومواليهم من الترك وينسون الفرس ويمعنون في إهمال العرب فيترك هذا أثره في ضعف مركزهم السياسي بينما ترتفع سهوم مواليهم فيلقب أحدهم أمير الأمراء أو ملك الدولة وسلطانها أو ملك الملوك[1] ويدعى باسمهم فوق المنابر كما تنقش النقود بأسمائهم .

أما الحال بالنسبة إلى مكة أحد معاقل العروبة وموطن الإسلام الأول فقد نالها - من الناحية السياسية - أسوأ مما نال بقية أمصار العرب ، ذلك لأن الأمويين كانوا قد شغلوا أهلها عن حقوقهم التي كانوا يرونها في الخلافة بما يسروه لها من أسباب الترف ، ثم جاء العباسيون الأولون فأدرجوهم ضمن قوائم المنسيين في بنود السياسة واعتبروهم أمة تستحق الرثاء اكثر مما تستحق الاحترام ، ونظر الخلفاء إليهم نظرة فيها من العطف والإحسان أكثر مما فيها من التجلة وتقدير القيم .

وجاء العهد الذي ندرسه والذي هيمن الأتراك فيها على مقدرات الخليفة

(١) ابن خلكان ١ / ٤١٦ .

العربي في بغداد فازداد الامر سوءاً وتطورت معاني العطف إلى صور جديدة لا أدري كيف أسميها .

كان الأتراك المهيمنون على الخليفة في بغداد يحسنون إلى الحرم وسكانه ويتبارون في هذا الإحسان كما يتبارى المتباهون من زوار المقابر في توزيع الصدقات على المنقطعين بها .

نسيت مكة كبلد له حقوق على الدولة التي تحكمه، وله حظه من رقي غيره من الأمصار، وله قيمته ككائن حي بين معاصريه من الشعوب . نسي كل هذا وعدّ الأهلون فيها مجموعة منقطعة لكنس المسجد وتنظيفه والقيام على خدمته وخدمة وفوده في شكل لا يختلف كثيراً عن خدام الأضرحة وفقراء القبور الذين ينقطعون لأعمالهم، مقابل ما يستحقونه في أموال أسيادهم من أغنياء الأرض .

ولم تقتصر المأساة على هذا الحد، فقد وجدت مكة نفسها عرضة لكثير من الخارجين على الخلافة في بغداد، فثوار العلويين في أي منأى من الأرض يعدون احتلال مكة عنصراً له قيمته في طعن بغداد، وخارجون كبني طولون والقرامطة والإخشيديون يهدفون إلى الاستيلاء على مكة تدعيماً لمعنويتهم في نظر المسلمين وإمعاناً في الكيد لبني عباس فكانت مكة لا تخرج من فتنة الا لتستقبل غيرها، وقد أثر ذلك في أسلوب معاشها في الحياة فقطع أسبابها وهبط بمستوى رقيها السياسي وتركها عرضة لحكم المتغلبين .

الناحية الاقتصادية: وتبع ذلك أن تأخر التقدم الاقتصادي في مكة، فقد عانت في ثورة إسماعيل بن يوسف في منتصف القرن الثالث، ثم في فتنة القرامطة في أوائل القرن الرابع، ثم في فتنة الإخشيد في منتصفه ما عانت من الحرمان، ثم انقطع الحج بتأثير هذه الفتن أو بسبب القلاقل التي زخرت بها يومها

بلاد الإسلام أو بسبب الفوضى التي منيت بها بغداد عاصمة الخلفاء، فترك كل ذلك أثره في اقتصاديات البلاد، فكسدت أسواقها واندفعت القبائل في البادية إلى تعلم السلب ووضع الأتاوات على الحجاج .

وبدأ عدد السكان في مكة يقل في هذا العهد فقد هاجر كثير من رجال العلم إلى أصقاع الأرض وكسد سوق الأدب والفن الذي عرفناه في العهد الأموي وجزء كبير من العصر العباسي الأول وتفرق أصحابهم في البلاد جرياً وراء التكسب ورفاهية العيش .

وعرفت مكة في هذا العهد جاليات جديدة من الترك الموالي الذين كانوا يتبعون ولاة بني العباس مرة وينضمون إلى الثوار أخرى، إلى جانب جاليات من الفرس والبربر وبعض الأصقاع القريبة من بلاد العرب، والمظنون أن أغلب هؤلاء كانوا من أصحاب التقوى الذين يفرون بدينهم بعيداً عن ثورات أشد في فارس والمغرب وبقاع الإسلام، أو المتواكلين الذين يلذ لهم عيش الصدقات والتكايا، وليس في هؤلاء أو أولئك من يتقن حرفة أو يزاول عملاً؛ لهذا فترت حركة الصناعة في مكة في هذا العهد وكثر المحتاجون والمتسكعون .

مجوسي في مكة: ورأيت في مخطوط مجهول الاسم والمؤلف في مكتبة الشيخ عبدالرحمن عبدالله عبدالباري في السيدة زينب بمصر أن أحد العباسيين استقدم إلى مكة مجوسياً من العراق في هذا العهد ليصنع له سقوف بيته من الساج وكان بيته في المروة ثم قرأت الخبر عينه في إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» وفيه يذكر القصة ويعين صاحبها عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس ثم يذكر تاريخها عام ١٦٠ كما يذكر أن اسم المجوسي كان بحراً وهو أقرب للصحة؛ لأن عيسى عاش في عهد بني أمية ولا أستبعد أن يكون الخبر من تلفيق

بعض الأمويين ضد أولاد العباس.

الناحية الإدارية: وعرفت مكة بالرغم من تأخرها السياسي والاقتصادي في هذا العهد شيئاً من التنظيم الإداري الذي أحدثه العباسيون في عصوره المتأخرة فابتدأ يحدث فيها وظيفة صاحب الخراج لجباية أموال الدولة(١) وتوسعت وظيفة صاحب البريد المختص بنقل الأخبار إلى الخليفة، وأصبح من حقه أن يتجسس على الوالي وصاحب الخراج وأصحاب العبث والمفسدين، ولا نستغرب أن يجبي العباسيون أموالاً من بلاد كمكة تأخرت اقتصادياتها؛ لأن كتب التاريخ تحدثنا أن بلاد الحرمين كانت تساهم بنصيبها من جباية العباسيين، فقد ذكر كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» البلاد التي تجبى منها أموال الدولة ومقدار الجباية في آخر القرن الثالث الهجري وضمنها المقدار الذي كان مقرراً جبايته من الحرمين وقدره مائة ألف دينار ولا يخلو عن البال أن الطائف كانت مضمومة إلى الحرمين ولعلها كانت تضطلع بأوفى نصيب تدفعه من المقرر.

وكان أمير مكة قبل هذا العهد يضطلع بشؤون القضاء؛ لأن أمراء مكة كانوا من أصحاب الفقه في الغالب ولكن العباسيين في هذا العهد بدؤوا يختارون أمراءها من أصحاب السياسة أو رجال الثقة من ذوي قرابتهم أو أبنائهم وكانوا يعينونهم ببعض القضاة.

وكان للقاضي بيت خاص يجلس في أحد مجالسه للحكم ويسمونه بيت القاضي، ويبدو أن أحكام القضاة كانت نافذة دون أن يتوجها أمير، ولذلك كان

(١) لا يقل صاحب الخراج في الولايات العباسية منزلة عن الأمير أو الوالي إلا قليلاً وربما كانت ميزة الوالي في إشرافه على الأمور الدينية، وهي التي تميزه في الغالب على صاحب الخراج. راجع تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣/ ٢٦٨.

الأمراء كثيراً ما يختلفون مع القضاة أو يستبدون دونهم ببعض الأحكام، وثمت وظائف أخرى أهمها صاحب الجند وصاحب المعونة وهو مساعد صاحب الجند ومتولي السوافي وهو يشرف على الأملاك الحكومية[١] وكاتب الأمير ولا يقل شأنه عن شأن الوزير في عهدنا[٢] والمحتسب وله النظر في الأسواق والمحافظة على الآداب العامة والإشراف على الموازين والمكاييل[٣] .

الناحية العمرانية والاجتماعية: ولم يتقدم العمران في مكة بعد العهد الذي سبق لما نالها من الشدة التي أسلفنا عنها وأكاد أجزم أن القصور الشامخة التي أحدثها الثراء في مكة في العهد الأموي بدأ الخراب يتخللها في هذا العهد؛ ولهذا فقد ظلت مكة لا تتعدى أوائل حدود المسفلة من جهة وقبيل الشبيكة من جهة أخرى، أما حارة الباب فلم تنشأ إلا في قرون متأخرة عندما بني فيها باب مكة كما سنأتي على ذكره في حينه .

وشاع في هذا العهد لباس القباء في القصر العباسي وهو ما يشبه الثوب مفتوح الرقبة ولا يطول إلا إلى الركبة كان يتمنطق عليه الخليفة بمنطقة مرصعة بالجواهر ويتشح بعباءة أغلب ما تكون سوداء فانتقل هذا الزي إلى مكة بصورة متواضعة بانتقال أولاد العباس إلى إمارتها وقلدهم في ذلك المقربون من الكبراء، أما العلماء ورجال القضاء فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان[٤] وكانت قلانسهم تحت العمامة طويلة مخروطة الشكل[٥] وهو لباس ظل شائعاً في هذه الطبقة في

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٧٧ .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥ .

(٣) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٥٦ .

(٤) الطيلسان : كساء يتوشح به المشائخ .

(٥) الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم ٣/ ٤٤٢ .

أكثر الأمصار من بلاد الإسلام لذلك العهد إلى ما بعده بأجيال طويلة، أما غير العامة فكانوا يلبسون القلنسوة وحدها فوق كلُّوتة من الحرير[١] والكلُّوتة بتشديد اللام أشبه بالكوفية عندنا اليوم «الطاقية».

وكان العامة يلبسون إزاراً يشبه «الفوطة» وقميصاً ثم يتمنطقون عليه بحزام وتضيف الطبقة الراقية إلى هذا قفطاناً وجبة أو عباءة، ويحتذون النعال ذات أصبع واحد ينحني حتى تتصل الأصبع بأعلى القدم بسير من الجلد وربما لبس بعضهم الموزج[٢] وهو يشبه الشراب ويصنع من الصوف أو الجلد، و «الجرموق» وهو يشبه الحذاء فإذا دخل المسجد أو قصور الكبراء خلع الجرموق[٣].

وقلت الرغبة إلى الألوان المصبوغة من الثياب فعم اللون الأبيض وأضاف الكبراء اللون الأسود إلى العباءة والجبة؛ لأنه شعار العباسيين وقد ألزم به أصحاب المراتب.

أما رجال البادية فكانوا يقتصرون على الإزار ويتركون بقية أجسامهم عارية أو يلتحفون ما يشبه الرداء أو العباءة، وقد أمرهم الخليفة المستعين بلبس الأكمام الواسعة[٤] فكانوا يحفظون فيها دنانيرهم، وبذلك لا يستبعد أن تكون أقرب شبه بأكمام البادية اليوم[٥]

(١) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ج ٧ / ٢٣٠.
(٢) الآداب السلطانية ص ١٠.
(٣) راجع مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي ٣٨٨.
(٤) مروج الذهب للمسعودي ٢ / ١٨٧ وما بعدها.
(٥) هي نفسها، ولكنها اندثرت اليوم في البادية، وأبدلوها بأكمام المدروج، وهو ما يلتف على الذراع عند المعصم. (ع).

وكان النساء يلبسن القمصان المشقوقة عند الرقبة ويربطن رؤوسهن بعصابة تزينها الطبقة الراقية ببعض الحلي الثمينة، وقد يتصل بالعصابة منديل يحجب الوجه لدى المحتشمات في المدن، ويلبسن الملاءات الفضفاضة ويتخذن حليهن من الخلاخل الأساور[١] واشتهرت المكيات في هذا العهد بأنهن لينات الأرساغ «مؤنثات» تميل ألوانهن إلى البياض المشرب بسمرة في قدود حسنة وأجسام ملتفة وشعور جعدة وعيون مراض[٢] .

وكانوا يحتفلون بالأعياد الدينية احتفالاً شائقاً وكانت مكة إذ ذاك منقسمة إلى منطقتين هي المعلاة وتشمل نصف مكة الأعلى، والمسفلة وتشمل نصف مكة الأسفل، وكانت المنطقتان تتزاوران في أيام الأعياد ويتفنن أصحابها في أنواع من اللعب على صوت المزمار والطبل، وكان بعض النساء يعمدن إلى الشعاب البعيدة ويعقدن حفلاتهن على صوت المزمار والطبل .

وأكثر ما يتمتعن بحريتهن في اللعب أيام عرفات ومنى حيث كانت تخلو البلدة بالمتخلفات منهن عن الحج[٣] .

ولم تكن مكة تحتفل في هذا العهد بموالد النبي ﷺ وبعض الصحابة؛ لأنها لم تعرف ذلك إلا في عهد الفاطميين كما سيأتي ذكره في حينه .

وعرفت مكة في هذا العهد لعبة الشطرنج والنرد واتخذ سباق الخيل شكل الحفلات العامة في الأبطح من أعلى مكة لعناية الأمراء والعظماء به، ولم يكن لهم مقاه على النحو الذي نراه اليوم، بل كانت لهم مجتمعات في بيوتهم وكانوا

---

(١) راجع مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) نقلها تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ٤٤٨ عن كتاب مخطوط بمكتبة برلين .

(٣) وكانت لهن في ذلك عادات لطيفة وقوانين معروفة، وقد اختفت اليوم . (ع) .

يخرجون في الأصائل إلى الضواحي، فقد كانت البساتين إلى هذا العهد يحتفظ بعضها بنضارتها في جرول الخضراء بالقرب مما نسميه الهنداوية، وكان الطريق متصلاً بها من الشبيكة إلى الحفائر، كما كانت لهم بساتين في أعلى مكة. ونعتقد أن عدد البساتين في هذا العهد قل عما كان عليه عددها في الأجيال الماضية، كما كانت لهم مجتمعات في أطراف المسجد وكثير من أجزائه المكشوفة يعقدونها في ليالي الصيف وهي غير حلقات العلم.

وبدأت في هذا العهد تنقل البهارات وبعض ألوان الطعام من الهند وفارس فأضيف إلى ما عرفه العرب من الثريد والعصيد والهريس، وأخذت موائدهم أشكال المستطيل بعد أن كانوا يحفون بها حلقات.

الناحية العلمية: انتهينا في بحثنا السالف عن مكة العلمية في العهد العباسي الأول إلى أن مجالس العلم في مكة انتهت إلى جمهور من الفقهاء أشهرهم الأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والفضل بن العباس، وقلنا: إن سفيان بن عيينة كان من أبرزهم أخذ عنه الشافعي كما أخذ عنه ابن حنبل ومحمد بن إسحق.

وفي هذا العهد برز مسلم بن خالد الزنجي وغيره من الأعلام وكان الإمام مالك ابن أنس في المدينة قد لمع نجمه فشرع طلاب المعرفة في مكة يتصلون به ويروون عنه حتى تتلمذ له الشافعي(1) وبذلك ظلت حلقات العلم في مكة تغص بطلاب

(1) ولد الشافعي في غزة وأرسلته أمه إلى مكة ليلحق بأهله فيها، فوصل وتثقف بثقافة المبرزين فيها وخرج إلى البادية فلزم قبيلة هذيل وكانت أفصح العرب، ولما أتم العشرين أذن له أساتذته بالإفتاء، قرأ على مالك ودام معه ٩ سنوات بالمدينة ثم عاد إلى مكة ثم إلى نجران حيث تولى عملاً ثم سافر إلى بغداد وعاد إلى مكة ثم رجع إلى بغداد ومنها إلى مصر حيث توفي فيها.

العلم من تلاميذ الجيل الذي أسلفنا يضاف إليهم أصحاب مالك وأصحاب الشافعي ثم أصحاب ابن حنبل، ولمع بينهم أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي أول مؤلف في تاريخ مكة وأخبارها ثم ما لبث أن توزع أعلام مكة في الأمصار فضعف النشاط العلمي فما وافى القرن الرابع الهجري حتى كانت علامات الضعف قد زادت وضوحاً في البلاد.

وكان العالم الإسلامي قد زخر في هذا العهد باختلافاته الدينية، فاشتدت دعوة الخوارج، وشاعت أقوال المعتزلة والمرجئة، وذاعت مذاهب الشيعة على اختلاف أنواعها، وكثر الجدل والنقاش في أمهات المدن بين هذه الفرق ومناوئيها إلا الحجاز فقد ظل بعيداً عن هذه الخلافات لا يميل أهله لغير أصحاب السنة إذا استثنينا بعض حركات فردية لم تترك طابعها في المجموع. أما المذهب الشيعي فقد وجد على خلاف غيره من المذاهب من يناصره في مكة والمدينة وبعض مدن الحجاز في أوقات مختلفة من شيعة العلويين وأنصارهم.

الإصلاحات في المسجد: وعني خلفاء العهد العباسي الثاني وأمراؤهم من الأتراك بالمسجد الحرام فأمر المتوكل بزيادة ضبط الحجر «مقام إبراهيم» وأضاف إليه ثمانية آلاف مثقال من الذهب و ٧٠ ألف درهم من الفضة لشد ما تصدع فيه، ولما استعان عامل العباسيين في مكة جعفر بن الفضل بقيمة ذلك الذهب بعد قلعه وضربه دنانير لصرفها في ثورة إسماعيل بن يوسف العلوي سنة ٢٥١ التي قدمنا عنها عاد علي بن الحسين العباسي عامل مكة لتجديده فجعل له طوقين من ذهب فيهما ١٩٩٢ مثقالاً وطوقاً من فضة وأذاب العقاقير بالزئبق فشد بذلك بين أوصاله وكانت قد تفرقت إلى سبع قطع[1].

(١) شفاء الغرام للفاسي ١/ ٢٠٣.

ولما حج المتوكل في خلافته أنشأ منبراً عظيماً وجعله مكان المنبر القديم، وأقام عامل المعتز حول المطاف عشرة أساطين من الخشب جعل بينها حبالاً، وأناط بالحبال ثماني ثريات مقسمة على جوانب الكعبة في كل جهة اثنتان ليستصبح الطائفون، كما اتخذ حجز النساء خلف أعمدة ربط بينها بالحبال [(١)].

وأهدى إلى المسجد أحمد بن طريف مولى العباس بن محمد الهاشمي في عام ٢٤١ رخامتين خضراوين فوضعت إحداهما تحت الميزاب ووضعت الثانية على سطح جدار الحجر -بالكسر- مما يلي الميزاب، ثم نقلت وأوصلت بالرخامة الأولى تحت الميزَاب[(٢)] وربما اعتقد بعضهم أن إسماعيل عليه السلام مدفون تحت الرخامتين ولم أجد لهذا شيئاً يؤيده[(٣)].

وأصيب بعض جدار المسجد بوهن في عهد المعتمد بالله؛ لأن داراً بجوار باب إبراهيم سقطت على سطح المسجد فانكسرت أخشابه وانهدمت اثنتان من إسطواناته فقضت على نحو عشرة أنفس فصدر أمر الموفق أخي المعتمد بإصلاح ذلك فقام بالأمر عاملهم على مكة هارون بن محمد بن إسحق وقد تم ذلك سنة ٢٧٢[(٤)].

زيادة دارة الندوة: وظل المسجد بعد أعمال المهدي على حدوده التي وصفنا في العهد العباسي الأول، وهو باق عليه إلى اليوم [(٥)] إلا ما كان من أمر الزيادتين اللتين زيدتا في هذا العهد وأولاهم زيادة دار الندوة في عهد المعتضد.

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ١ / ١٩٣.

(٢) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ١٧٢.

(٣) المعروف عند جمهور الفقهاء أنه لم يصح قبر نبي بعينه إلا قبر محمد ﷺ.

(٤) عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامه ٥٢.

(٥) إذا استثنينا التوسعة الجديدة في عهد السعود.

وكان قد تقدم بنا في العهد الأموي أن بعض الخلفاء من بني أمية أدخلوا أجزاءً يسيرة منها في المسجد، وكذلك فعل المنصور في العهد العباسي الأول، وبذلك بقيت بقية الدار ينزل بها خلفاء بني أمية ثم خلفاء بني العباس، ثم ما لبثت أن خربت وتهدمت، فجعلوا يكرون مقاصيرها الخاصة بالنساء على الغرباء والمجاورين ويتخذون مقاصير الرجال لدواب ولاة مكة، ثم اتخذها عبيد العمال من السودان نزلاً لهم فكانوا يؤذون الجيران ثم ازداد خرابها فجعلوا يلقون فيها القمام فإذا جاء المطر سالت الأوساخ منها فدخلت المسجد من بابها الشارع في بطن المسجد الحرام، فكتب عامل البريد على مكة وهو من أهلها وكان يسكن بجوارها، كتب إلى بغداد يفصل أحوالها وما يترتب على ذلك من أضرار ويبدي رأيه في بنائها مسجداً يتصل بأبواب المسجد الكبير[1].

ويختلف المؤرخون في موقع دار الندوة فيجعلها بعضهم مكان المقام الحنفي ويؤخرها بعضهم إلى مؤخرته أو إلى الرواق الذي يقع خلف ذلك، والذي يبدو من متابعة التاريخ أن مساحة دار الندوة كانت متسعة تبدأ من نحو منتصف الأروقة خلف مقام الحنفي إلى نهاية باب الزيادة وباب القطبي بما يشمل ذلك من الحصوة الصغيرة وما حولها، ويؤيد ذلك أن بعض خلفاء الأمويين أدخلوا بعض أجزائها في المسجد ثم أدخل المنصور بعدهم جزءاً آخر فاستقام ضلع المسجد، ثم جاء المهدي وكان الضلع مستقيماً فعمل على استقامة غيره فيظهر في هذا أن بعض الرواق المستقيم خلف المقام الحنفي هو من دار الندوة وهو الجزء الذي ضم إلى المسجد قبل المهدي وأن بقية دار الندوة تنتهي إلى باب الزيادة وباب القطبي

(١) الإعلام لقطب الدين الحنفي المكي، تاريخ عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامه ٥٦ .

مع مشتملات ذلك من الحصوة وما حولها من أروقة .

وهكذا أقيمت دار الندوة أو أكثريته الباقية على الأصح مسجداً صغيراً وجعلت أبوابه تفتح على المسجد الكبير .

وكان عامل البريد الذي رأى هذا الرأي أضاف إليه غيره فذكر في كتابه إلى أمير المؤمنين أن مجرى السيل في شرقي المسجد ارتفع مستواه بمرور الزمن فصارت مياه السيل تطفح على المسجد ورفع سدنة الكعبة كذلك كتباً أخرى يشيرون فيها بتقوية بعض جدار الكعبة وتجديد عضادتي بابها وصفائحه وبلاط المطاف فأمر الخليفة بإرسال الأموال والمهندسين في عام ٢٨١ فجرى العمل في بناء دار الندوة وبقية الإصلاحات .

وفي سنة ٣٠٦ أعيد إصلاح مسجد دار الندوة ووصل بالمسجد الحرام حتى أصبح جزءاً منه كما هو اليوم[١] .

زيادة باب إبراهيم: وفي السنة نفسها أمر الخليفة المقتدر بالاستفادة من ساحة كانت بين دارين لزبيدة هي مكان دار إبراهيم[٢] اليوم، فهدمت وألحقت بالمسجد[٣] ولا يزال مكان الزيادة ظاهراً إلى اليوم عند حدود أروقة المسجد، وبهذه الزيادة انتهى ما بلغت إليه مساحة المسجد إلى يومنا هذا، وكل ما وقع بعد ذلك فهو ترميم أو تحسين أو إنشاء لا يزيد عن حدود هذا النطاق، وتنافس خلفاء هذا العهد من بني العباس في العناية بكسوة الكعبة، فيذكر صاحب العقد الفريد

(١) عمارة المسجد ٦٢ .

(٢) أزيل باب إبراهيم في التوسعة السعودية الأخيرة وليس باب إبراهيم منسوباً إلى إبراهيم الخليل كما تظن العامة، انما نسب إلى خياط كان يجلس هناك . (ع).

(٣) شفاء الغرام للفاسي ١ / ٢٢٧ .

أنها كانت تكسى في هذا العهد سنوياً يوم النحر بالديباج الأحمر الخراساني، وفيه مكتوب حمد الله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه، فإذا أثقلت عليه الكساوي جردت، وأخذ ذلك بنو شيبة قال: وإذا وافى وقت الموسم تفرج الكسوة عن الجزء الأسفل من الكعبة، ليستر مكانه بالقباطي من الديباج الأبيض وتبقى كذلك ما دام الناس محرمين، وذلك شبيه لحالة اليوم عندما تحرم في أيام الحج. أقول: وهي عادة فيها من الإسراف في المال ما كانت البلاد في حاجة إلى إنفاقه في مرافقها الخاصة براحة الحجاج والسكان، ولكننا نعنى ببعض المظاهر ونغفل الشؤون الحيوية في مرافقنا.

بعض أوصاف المسجد في هذا العهد: وقد وصف المسجد في هذا العهد صاحب العقد الفريد، فذكر أن طوله ٤٠٤ وعرضه ٣٠٤ وله ثلاث بلاطات «أروق» محدقة به، وهي داخلة في الذرع وفوقها سماوتها مذهبة وحافاتها على عمد جملتها ٤٣٤ عموداً كل عمود منها عشرة أذرع والمذهبة من رؤوس العمد ٣٢٠ رأساً، وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء، وأبوابه على عمد من رخام ما بين الأربعة والثلاثة إلى الاثنين وهي ٣٢ باباً لا غلق عليها يصعد إليها في عدة درجات(١).

ثم تحدث عن بئر زمزم، وقال: إن سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان، تحت كل ركن منها عمودان، وقد سد بين كل ركنين بشرحب خشب، وبشرقي زمزم بيت مقدر مقفل عليه(٢).

(١) ج ٦ / ٢٥٥ وما بعدها.
(٢) لعله بيت المحفوظات.

وشرقي هذا البيت بيت كبير مربع له ثلاثة أقباء وفي كل وجه منه باب[١] .

ثم قال : وحمام المسجد كثير أنيس ، ثم قال : إن الواقف على درج المروة يرى ميزاب البيت وما اتصل به ، لأنه قد هدم من أعلى القصور بينها وبين المسجد .

ثم يقول : وإذا هبط الساعي من الصفا يريد المروة سلك الشارع ، وهو بطن الوادي ، عن يمينه القصور وعن يساره المسجد[٢] وكأنه يقول : إن سور المسجد لا تغص به البيوت .

(١) لعله أراد به بيت الشراب .

(٢) العقد الفريد ج ٦ / ٢٥٩ .

في عهد الفاطميين
أو حكومة الأشراف

تمهيد: قلنا في فصل سابق إنَّ العصر العباسي الثاني زخر بالحركات الدينية التي انتشرت آثارها بانتشار الداعين إليها في أصقاع المملكة العباسية، وقلنا: إن كثيراً من أصحاب هذه الحركات كانوا يرمون بها إلى أغراض سياسية يسترونها بستار من الدين، وإن بعضهم قد يكون بريئاً فيما يدعو مخلصاً لمذهبه الذي يعتقد، إلا أن تيارات الحياة لا تلبث أن تجرفه أو تجرف خلفاءه من بعده إلى خضم السياسة فإذا بالحركة تتزعم ثورة، وإذا بالثورة تؤسس دولة، وقد يتسع هذا التأسيس إلى أبعد ما يكون من المدى وتشجعه روح الفوضى التي كانت تسود أقطار الإسلام.

وقلنا: إن من أهم الحركات المذهبية في هذا العصر الذي ندرسه هي حركات الشيعيين على اختلاف فرقهم في العالم الإسلامي من موسوية إلى إسماعيلية إلى اثني عشرية إلى قرامطة إلى كتامية وفاطمية.

وموضوعنا في هذا الفصل يتناول الفاطميين، وعلاقة ذلك بما كنا في سياقه من حوادث مكة وأخبارها.

تلقى عبيدالله المهدي أول الخلفاء الفاطميين أصول المذهب الشيعي على أساطين من علماء الإسماعيلية، ثم جاء إلى مكة مندوباً من القائمين بأمر الدعوة الشيعية ليدعو لهم سراً، وقد اتصل به بعض حجاج المغرب من كتامة في الجزائر على مقربة من قسنطينة، فاستمالهم لدعوته ورحل معهم في عام ٢٨٨ وظل يجمع القلوب حوله في كتامة(١).

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ١٩٨.

وفي سنة ٢٩١ بدأت أعمال عبيدالله الهجومية ووقع في يده كثير من المدن المغربية[١] وكان عبيدالله إلى جانب كونه محارباً فصيح البيان يفلق بالحجة، وقد بلغ من عنايته بذلك أن أخاه أبا العباس لما أراد أن ينفي من القيروان من يخالف مذهبه، قال له أبو عبيدالله: إن دولتنا دولة حجة وبيان وليست دولة قهر واستطالة، فاترك الناس على مذاهبهم.

وأسس عبيدالله دولته على أثر هذا في القيروان من المغرب، ونادى بنفسه أميراً للمؤمنين وسميت دولته الكتامية نسبة إلى كتامة في المغرب، ثم سميت الفاطمية.

وفي سنة ٣٠١ سير إلى مصر جيشاً بقيادة أحد أبنائه، فاستولى على الإسكندرية وبعض قرى الوجه البحري، ولكن العباسيين أعادوه إلى مراكزه في المغرب[٢] فأعاد الكرة في سنة ٣٠٧ ثم أعادها ابنه وخليفته القائم في سنة ٣٣٤ وكانت دولة الإخشيد قائمة فاستطاعوا صده عنها[٣].

وفي سنة ٣٥٨ استأنف المعز الخليفة الفاطمي الثالث الحملة على مصر بقيادة كاتبه جوهر الصقلي، فاحتل الإسكندرية، ومضى في فتوحه نحو الفسطاط يسوق الإخشيديين أمامه حتى طلبوا منه الأمان وسلموا إليه مقاليد الأمور[٤] وبذلك زال سلطان الإخشيد عن مصر كما زال عنها حكم العباسيين من قبلهم وأسس جوهر مدينة القاهرة وأحاطها بسور كبير من اللبن.

وقد حكم جوهر مصر أربع سنوات حتى سلم مقاليدها إلى المعز على أثر

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ١٩٨.

(٢) تجارب الأمم لمسكويه ١ / ٣٦.

(٣) ابن الأثير ٨ / ٥٨ وابن خلدون: العبر ٤ / ٣٩.

(٤) ابن خلكان ١ / ١٤٨ وما بعدها.

وصوله إليها من المغرب[1] وقد تأسس في هذا العهد جامع الأزهر .

وامتدت فتوحات الفاطميين بعد ذلك إلى بلاد الشام وفلسطين، ثم اتصل نفوذهم بالحجاز .

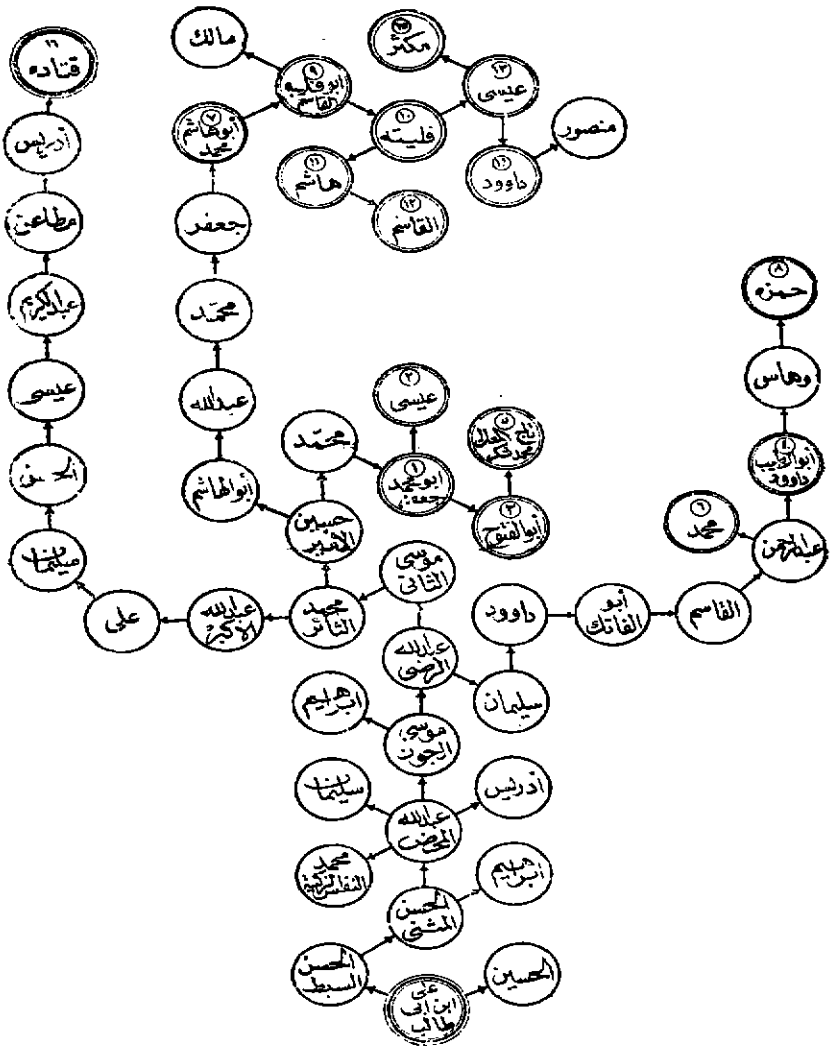
علاقة الفاطميين بمكة وإعلان حكومة الطبقة الأولى من الأشراف: وهنا نعود إلى سياق الأخبار في مكة، فقد تركناها تابعة لنفوذ الإخشيد إلى قبل سقوطهم في مصر على يد الفاطميين، ويبدو أن بعض العلويين من أحفاد الثائرين في مكة من عهد الأمويين والعباسيين رأوا أن الفرصة سانحة لاستقلال مكة عن الإخشيد في مصر خصوصاً وأن حكومة الإخشيد في مصر أصبحت مهددة باحتلال الفاطميين وبذلك ثار كبير الأشراف الحسينيين يومها جعفر بن محمد بن الحسين من أحفاد موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى [2] فنادى بسقوط الإخشيد واستقل بحكم مكة في عام ٣٥٨ وهي السنة التي سقطت فيها مصر في يد الفاطميين[3] وبذلك أسس حكومة الطبقة الأولى من الأشراف ويسمونهم الموسويين[4] .

(١) وقد استمر الحكم الفاطمي في بلاد الفاطميين إلى عام ٥٦٧ كما سيأتي .

(٢) وهو يجتمع مع الثوار العلويين السابقين في جدهم عبدالله المحض بن الحسن المثنى كما يظهر من الجدول المنشور في الصفحة التالية .

(٣) اتعاظ الحنفاء للمقريزي ٢ : ٨١ .

(٤) نسبة إلى موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم . (ع) .



طبقات الأشراف الثلاثة وتظهر الطبقة الأولى في الوسط ، والطبقة الثانية إلى اليمين، والطبقة الثالثة في أعلى الصورة في الوسط. كما تظهر نسبة الجميع إلى الحسن المثنى وهو جد ثوار العلويين السابقين، وفي الصورة يبدو موضع قتادة (رقم١٦) في أعلى، وهو جد الطبقة الرابعة من الأشراف.

منبر مكة بين العباسيين والفاطميين: ويبدو أن ثائر مكة جعفر بن محمد لم يلبث أن شعر بحاجته إلى مهادنة الفاطميين أصحاب الحكم الجديد في مصر، ولعله كان أخشى ما يخشاه عدوان القرامطة الذين كانوا لا يزالون يعيثون فساداً حول القطيف والبحرين، ويقطعون السبل على الحاج، فرأى أن يدعو في منبر مكة للخليفة الفاطمي المعز ففعل ابتداء من عام ٣٥٨[١] .

ولم يكن اسم المعز غريباً يومها على مكة فقد ثبت أن له علاقة خاصة يرجع عهدها إلى قبل هذا التاريخ، فقد أرسل وهو في المغرب قبل أن يحتل مصر رجالاً لتسوية بعض الخلافات التي بلغه أنها ناشبة في مكة بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب، وقد فعلوا ذلك وعقدوا بين الفريقين صلحاً في المسجد الحرام وأدوا في الوقت نفسه دية القتلى من بني الحسن مما حملوا من أموال المعز وذلك في سنة ٣٤٨[١] .

وما لبث الأشراف في مكة على أثر اتصالهم بالفاطميين أن أضافوا إلى الأذان عبارة «حي على خير العمل» وهو تقليد كان يتبعه الفاطميون وبذلك حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة في مكة[٢] .

ولا نشك أن العباسيين ساءهم ذلك فقد كان التنافس بينهم وبين الفاطميين في

(١) اتعاظ الحنفاء المقريزي ١٤٥ وما بعدها .

(٢) وكذلك حذف اسمه في المدينة ودعي فيها للمعز الفاطمي، وقد أشار ابن خلدون إلى أن أشخاصاً من بني الحسين بن علي بن أبي طالب كانوا يتحينون الفرص لاستقلالهم بالمدينة كما فعل الموسويون من بني الحسن في مكة حتى وافاهم من مصر طاهر بن مسلم من أحفاد الحسين وكان يدير في مصر أعمال كافور ما لبث أن اجتمع أهل المدينة عليه وولوه إمارتها وفي سنة ٣٦٠ استقل بها على غرار ما فعل السليمانيون في مكة وبذلك دعا للمعز الفاطمي .

انتزاع زعامة الإسلام على أشده، كان العباسيون يشعرون أنهم خلفاء الإسلام ويأبى الفاطميون إلا أن ينكروا ذلك عليهم، ويرون أنهم أحق بالخلافة لانحدارهم من سلالة العلويين وجهادهم في سبيل مبادئ آبائهم(١) .

ولقد كانت النظرية الشائعة في عهود الإسلام الماضية أن انضمام الحرمين شرط من شروط الخلافة، وأن نفوذ الخلافة لا تكمل عناصره في نظر الأمم الإسلامية ما لم تؤيده خطبة الحرمين وتنطق داعية باسمه(٢) ؛ لهذا اعتبر المعز الفاطمي تلاوة اسمه على منبر مكة تدعيماً لا بد منه لمركزه في الخلافة، إلا أن هذا التدعيم لم يدم أمره طويلاً في عهد صاحب الثورة في مكة جعفر بن محمد لأننا لا نلبث أن نجد العباسيين ينافسونهم عليها منافسة شديدة، ونرى أمراء الحج العراقي يضغطون على صاحب مكة حتى يدعو لخليفة بغداد المطيع في عام ٣٥٩ ويستطيع القرامطة أن يفعلوا ذلك فيضيفون اسمهم إلى جانب العباسيين في العام نفسه(٣) .

ومن هذا يبدو أن منبر مكة كان يتأثر بأكثر من عامل واحد من عوامل الضغط التي كانت تحيط به وأن القوات المسيطرة في أفق الإسلام يومها من عباسية إلى فاطمية إلى قرمطية كانت تتجاذبه بمختلف الوسائل وأن ثائر مكة كان لا يستطيع بقوته المحدودة أن يدافع عن رأيه؛ لهذا كان الظافر منهم بالتعاقب يقيم الخطبة

---

(١) يطعن بعضهم في نسبة الفاطميين إلى العلويين من أبناء الحسن ولكني أعتقد أنه طعن سياسي مغرض وقد أشار ابن خلدون في مقدمته ص ١٩٠ إلى هذا الغرض كما ذكر ابن الأثير في الكامل ج ٨ ص ٩٠٨ ما يدل عليه وأورد أبياتاً للشريف الرضي قال فيها :

أحمل الضيم في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي

وللمقريزي في خططه ما يؤيد نسب الفاطميين .

(٢) النفوذ الفاطمي لمحمد جمال سرور ١٤ .

(٣) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٢١ .

لنفسه إلى أن تنتزعها منه قوة أخرى .

ويلوح لنا أن العباسيين استمرؤوا طريقتهم في انتخاب أبي أحمد الموسوي والد الشريف الرضي ليمثلهم في الحج ويرأس ركب العراقيين[1] كما كانوا يفعلون في عهد الإخشيد ليستفيدوا من نسبته إلى العلويين وعلاقته بأسر الأشراف ، وأعتقد أنهم نجحوا في ذلك إلى حد واستطاعوا أن يبلغوا مناهم من الدعاء لهم في مكة في أكثر من سنة من سني جعفر بن محمد ، وعندما نقول : أكثر من سنة نعني بهذا أننا لا نستطيع التحديد بوجه خاص ، فأقوال المؤرخين متضاربة في شأن الأسماء التي كانت تظفر بالدعاء على منبر مكة والسنين التي يتم فيها ذلك الدعاء .

بل إن التضارب يتسع إلى أكثر من هذا ، فبينما تذكر بعض المصادر مثلاً أن الحج العراقي منع في بعض السنين تذكر مصادر أخرى أن منبر مكة كان يدعو في تلك السنوات نفسها لخليفة بغداد ، فيعز على مثلي أن يوفق بين منع حج بغداد والدعاء لصاحب بغداد وهو يعلم أن مكة لا تدعو لبغداد في هذه الفترة إلا إذا قام على رأسها أمير الحج العراقي يملي عليها بقوته أو ماله .

ويحسبنا أن نعرف أن جماع ما يمكن استنتاجه من أقوال المؤرخين في هذه الفترة أن جعفراً الثائر لم يستطع أن يقصر دعاءه للفاطميين ، وأنه قضى في سني حكمه نحو عشرين سنة تتجاذبه قوى مختلفة فتفرض عليه الدعاء لها .

ويجب ألا ننسى إلى جانب هذا أن التجاذب نفعه إلى حد كبير بقدر ما أساءه ، فقد كان ظفر الظافرين من القوات الإسلامية متوجهاً كما رأينا إلى ناحية واحدة

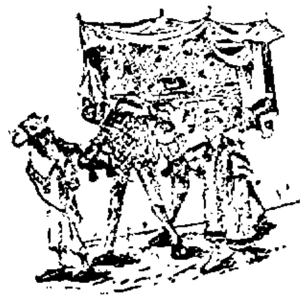
(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢/ ٢٢١ .

هي ربح الدعاء فوق المنابر، وبذلك ظلت مقدرات مكة وشؤون حكمها في نجوة -كما نعتقد- من التجاذب وظل جعفر يتمتع مدى حكمه باستقلاله بالحكم.

وقد نرى في بعض الأحاديث أن العباسيين مثلاً أو الفاطميين يملون إرادتهم في شيء معين فيمضيه لهم جعفر، ولكن ذلك لا يعدو أن يكون إملاء مؤقتاً تزول آثاره بزوال وقته ويبقى بعد ذلك أمر مكة مستقلاً به صاحب مكة جعفر.

ويبدو أن مكة استفادت من هذا التجاذب إلى حد لا بأس به كما استفاد صاحبها؛ لأن ملوك الإسلام في هذه الفترة كانوا يتنافسون في البر بها، وكان إذا حج أحدهم أو ذووهم أمعن في الظهور بما يرفع من قدره وغالى في أعمال الخير مغالاة يستفيد منها الأهالي في مكة فوائد لا حد لها.

حجت في سنة ٣٦٦ جميلة بنت ناصر الدولة في بغداد في قافلة تضم ٤٠٠ كجاوة لا يعلم أحد في أيهن كانت لما عليهن من الزينة، وكان معها عشرة الآف جمل عليها المؤونة والصدقات وقد زوجت كل علوي وعلوية[1] وهي لاتزوج العلويين إلا لغرض خاص ترمي من ورائه إلى التودد إلى أشراف مكة وأمرائها وقال المؤرخون عنها: إنها من أزهد الناس وأعبدهم وأجراهم دمعة، وكانت تقوم نافلة الليل وتسمع العظات



نوع من الكجاوات كانت تستعمل لأسفارهم

ونحن نقول: ليت زهدها أرشدها إلى الاقتصار من عدد «الكجاوات» وزينتها

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٢٢.

لتضيف أثمانها إلى أعمال الخير التي قامت بها، وليت أعمال الخير التي قامت بها في مجموعها كانت على غير هذه الوتيرة التي ألفوها في ترويج الصدقات. ليتها تعلمت من زبيدة زوج الرشيد كيف يكون البر في مشاريع خالدة تبقى بقاء الدهر، إنها لو فعلت وأمثالها من أصحاب البر ذلك لتوفر للحرمين على مر الدهور مشاريع لا نهاية لحدها ولاستطاعوا بذلك أن يهيئوا هذه البلاد لحياة غير الحياة التي ظلت تعيشها تتقبل صدقاتهم وبرهم، اللهم إنا نحتكم إلى عدلك فيما علمت من صدقاتهم ونسألك الفصل فيما أضاعت الغفلة أوبدد الغرض من فرص على بلدك الأمين وأكثر بلاد المسلمين.

المكوس: وفي هذا العهد ابتدع جعفر وضع المكوس على الحاج(١) ولعله شعر بحاجة البلاد إلى ما تنفقه فلجأ إلى هذه البدعة ويبدو أن الفاطميين لم يعارضوه وأن العباسيين لم يمنعوه منها.

عيسى بن جعفر: وتولى أمر مكة بعد جعفر ابنه حوالي عام ٣٨٠، وفي عهده بدا للمعز الفاطمي في مصر أن ينوِّب من يمثل الفاطميين في مكة ليضمن لهم استمرار الدعاء في الخطبة، فأرسل أحد العلويين إليها في جيش عظيم فدافع عيسى عن مكة وأبى عليه دخولها فظل يحاصرها مدة طويلة، وقد عانت مكة من جراء الحصار عناء شديداً واشتد الغلاء فيها.

ويبدو أن عيسى قبل تفادياً للعواقب أن يدعو للفاطميين(٢).

أبو الفتوح: وعلى أثر وفاة عيسى في سنة ٣٨٤ تولاها أخوه أبو الفتوح(٢)

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي (مخطوط).
(٢) ابن خلدون ٤ / ١٠١.

وكان صادق العزيمة طموحاً اشتدت شكيمته على العابثين، وعندما رأى بعض قطاع الطرق من الأعراب يفرون من سطوته إلى رابغ أو إلى المدينة ليحتموا بحكامها من أشراف آل المهنا خف إلى رابغ فاحتلها ثم إلى المدينة فقضى على حكم آل المهنا فيها وأضافها إلى حكمه في مكة[1] .

ونقل الشيخ عبدالله غازي [2] رواية غريبة تتلخص في أن الحاكم الفاطمي في مصر طلب إلى أبي الفتوح أن يحتل المدينة وينقل جثمان النبي ﷺ منها إلى مصر فأطاعه، وأن أهل المدينة بعد احتلالها احتفلوا به وقرأ قارئهم أمامه قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ..﴾ (سورة التوبة آية ١٣) إلى آخر الآية فشعر باستحالة الأمر فعدل عنه ولم أعثر على ما يؤيد هذه الرواية، ويكفي للتدليل على غرابتها أن الفاسي وابن ظهيرة والدحلان وهم أهم من كتب في تاريخ مكة بعد الأزرقي لم ينقلوا هذه الرواية[3] .

ويشير الفاسي إلى أن استيلاء أبي الفتوح على المدينة كان بسبب ما بلغه من منع الدعاء للفاطميين[4] .

خلافة أبي الفتوح: وما لبث أبو الفتوح أن اختلف مع الفاطميين؛ لأن الحاكم الفاطمي أرسل إليه سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة، وأمره أن يأمر

---

(١) إتحاف الورى لنجم الدين بن فهد القرشي «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام «مخطوط».

(٣) أحسن مؤرخنا السباعي حين نبه علي هذه الرواية، والذي أراه أنها مختلقة، ولا يمكن أن يفكر رجل مثل أبي الفتوح على نبش قبر رسول الله ﷺ، وخاصة وهو جده. (ع).

(٤) العقد الثمين (مخطوط).

الخطيب بقراءته على المنبر فشق ذلك على أبي الفتوح وفشى أمر ذلك في الموسم؛ فتداعى الحجاج والعرب حوالي مكة من هذيل وغيرهم واجتمعوا بالمسجد يريدون كسر المنبر على صاحبه وكان يوماً عظيما انتهى بعصيان أبي الفتوح[(١)] .

والتجأ بأبي الفتوح الوزير أبو القاسم الذي فر من جور الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر وأغراه ضد الفاطميين وانتزاع الخلافة منهم لنفسه، وأفتاه بأخذ ما في الكعبة من نفائس فأعلن أبو الفتوح نفسه خليفة وشرع يتلقى البيعة من الموالين له في مكة والمدينة ثم أقام الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونشط للعمل في نطاق أوسع فبايعه بنو سليم وبنو هلال وبنو عوف وبنو عامر ثم ما لبث أن شد رحاله في قوة عظيمة من عسكره يريد الشام فكان كلما مر ببعض بلادها جاؤوا إليه مبايعين حتى انتهى إلى منازل آل الجراح في الرملة فبايعوه وأقيمت الخطبة في منازلهم باسمه وفي كثير من بلاد الشام[(٢)] .

تنازله عن الخلافة: وتوافدت الأخبار إلى مصر مثيرة مقلقة وشعر الحاكم الفاطمي بسوء العاقبة فدس إلى أمير طيء في الرملة حسان بن مفرج الجراح واستطاع أن يستميله إليه وأن ينتزع منه وعداً بالتخلي عن مناصرة أبي الفتوح.

وفطن أبو الفتوح للأمر وبدا له أن تخلي آل الجراح عنه يسلمه إلى أسوأ العواقب فوقف يعيد النظر فيما أحدث ثم ما لبث أن وافته أنباء جديدة من مكة بأن بعضاً من بني عمه «السليمانيين» [(٣)] اغتنموا فرصة غيابه من مكة فاستولوا

(١) العقد الثمين (مخطوط).

(٢) المقريزي : خطط ٢ / ١٥٧ .

(٣) أصحاب الحكم في الطبقة الثانية من الأشراف ولم يثبت حكمهم في مكة إلا بعد نحو خمسين سنة من هذا التاريخ كما سيأتي.

عليها برئاسة أبي الطيب داود بن عبدالرحمن فأدرك أن الدسائس أحاطته وأن الفاطميين لم يكتفوا باستمالة مناصريه في الجيش حتى أثاروا عليه في مكة من تغلب عليه وأنه سيبيت منذ الليلة طريداً لا الشام يبلغها ولا مكة يكتفي بها(١) فهرع من فوره إلى مفرج والد حسان رأس المتخلفين عنه وأعلن التجاءه به فأكبر ذلك مفرج وأخذ على عاتقه تسوية الأمور وقد سواها فتوسط بينه وبين الفاطميين بالصلح على أن يتنازل عن دعوته بالخلافة لقاء إخلاء مكة من خصومه السليمانين وأن يعود إلى قواعده سالماً ليحكم مكة كما كان يحكمها من قبل .

وهكذا عاد إلى مكة في عام ٤٠٣ واستتب له الأمر فيها وشرع يدعو للحاكم الفاطمي (٢) كما نقش اسمه على النقد (٣) .

وفي عهد أبي الفتوح هجم رجل من مصر على الحجر الأسود وهو يصيح إلى متى يعبد هذا الحجر ومحمد وعلي ، فليمنعني مانع من هذا ، فخاف الناس وتراجعوا عنه وكاد يفلت لولا أن غافله أحدهم فضربه بخنجر وقطّعه الناس وأحرقوه وقتل ممن اتهم بمصاحبتهم جماعة وأحرقوا فكانت الفتنة عظيمة وقد قتل فيها نحو عشرين رجلاً غير ما خفي منهم ، وألح الناس من ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالسلب والنهب(٤) .

وكان أبو الفتوح إلى جانب شجاعته شاعراً يجيد القريض ومن شعره :

---

(١) ذكر في الفرائد المنظمة أن الحاكم الفاطمي أنفذ لأبي الطيب في مكة مالاً كثيراً لخذلان أبي الفتوح وتعهد بأن يدفع له خمسين ألف دينار ولكل فرد من إخوانه مثلها .

(٢) ابن خلدون ٤/ ٤٧٣ .

(٣) المقريزي خطط ٢ / ٢٨٨ .

(٤) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

وصلتني الهموم وصل هـــواك | وجـفـاني الرقـاد مـثل جـفــاك
وحكى لي الرسول أنك غضبى | ياكـفـى الله شــر مـا هـو حـاكي

وكان يتمتع بقوة نادرة، كما أن أختاً له تضاهيه في ذلك، ومن غرائب ما ذكر عن ذلك أن أخته أرسلت إليه ببعض الدراهم ليشتري لها شيئاً من الحنطة فأخذ الدراهم وفركها بين يديه فامحى رسمها، ثم بعث إليها بالحنطة مصحوبة بالدراهم ليوهمها أن دراهمها زيوف، فأدركت النكتة في ذلك فعمدت إلى قبضة من الحنطة وفركتها حتى صيرتها دقيقاً، ثم أرسلت بها إليه تقول: إن هذه الحنطة لا تصلح فكانت بليغة في ردها كما كانت نادرة مثله في فرط قوتها[1].

وفي عهد أبي الفتوح منع الحج في أكثر السنين نتيجة المنازعات والفتن في مكة وعصيان بعض القبائل في البادية وقطعهم الطريق[2].

شكر بن أبي الفتوح: وبوفاة أبي الفتوح في عام ٤٣٠ خلفه ابنه محمد شكر وكان في مثل بأس أبيه وشجاعته، حارب بني حسين[3] أصحاب المدينة عندما أرادوا الخروج عليه، فظهر عليهم وضم المدينة إليه وأدب كثيراً من عصاة البدو وكان يقول الشعر، ومن شعره:

قوض خيامك من أرض تهان بها | وجانب الذل إن الذل يجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة | فالمندل الرطب في أوطانه حطب[4]

(١) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط».
(٢) شفاء الغرام ٢ / ٢٢٥.
(٣) هم بنو الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ويعرفون اليوم في الحجاز بالسادة.
(٤) إفادة الانام «مخطوط».

وكان شكر يدعو للفاطميين وقد منع الحج العراقي في عهده سنوات لسوء صلته بالعباسيين، كما منع من جهات أخرى لعصيان البادية عليه، كما كان الحال في عهد أبيه.

عبد شكر: وتوفي شكر في عام ٤٥٣ ولم يعقب فانتهى أمر مكة بعده إلى عبد له[١] لم يذكر المؤرخون اسمه، ولعل من الغريب أن يتولى أمر مكة أحد العبيد وفيها من سادة العلويين والأشراف وأعيان الأهالي والمجاورين من لا يحصيهم العد، ولكن الذي يبدو من ثنايا الحوادث أن الأشراف في مكة كانوا منقسمين على أنفسهم وكان رجال الطبقات فيهم يتحيزون إلى طبقتهم ويتحيز المهاجرون في مكة وأعيان أهلها بتحيزهم أو يحايدون فيتلاقى هذا التحزب في ميدان ضيق ولعل عبد شكر كان له من شكيمة أسياده ونفوذه لديهم ما ساعده على اغتنام الفرصة والوصول إلى مقعد الحكم.

الطبقة الثانية من الأشراف "السليمانيون": ولم يدم حكم العبد طويلاً في مكة لأن السليمانيين أصحاب الطبقة الثانية من الأشراف[٢] لم يلبثوا أن قبضوا على أزمّة الأمر بعد أن أجلوا العبد عن الحكم وأجلوا بذلك جميع الموسويين من الأشراف حكام الطبقة الأولى[٣].

صاحب اليمن: ولم يتمتع السليمانيون طويلاً بهذا الحجم فقد اقتحم عليهم

(١) شفاء الغرام ج ٢ ص ١٩٨.

(٢) هم أولاد سليمان بن عبدالله بن موسى الجون ويجتمعون في موسى الجون مع الطبقة الأولى كما يبدو ذلك من شجرة النسب للطبقات الثلاث من الأشراف أمراء مكة.

(٣) ابن خلدون ٤ / ١٢٦.

الصليحي صاحب اليمن[1] بعد سنتين من استئثارهم بالحكم، ولم يذكر مؤرخو مكة أسماء من تولى مكة منهم إلا اسم محمد بن عبدالرحمن من أحفاد أبي الفاتك.

الطبقة الثالثة من الأشراف "الهواشم":ولم يطل مقام الصليحي في مكة إلى أكثر من شهر واحد؛ لأنه ما لبث أن اختار لحكمها مؤسس الطبقة الثالثة أبا هاشم محمداً بن جعفر بن محمد حفيد الحسين الأمير وهو يجتمع في الحسين هذا مع الطبقة الأولى كما يجتمع مع الطبقتين الأولى والثانية في جده الثامن عبدالله ابن موسى الجون.

وقد زوده الصليحي بالمال والسلاح وأفرد له جيشاً يستعين به على أمن البلاد ثم ارتحل إلى اليمن[2].

ويذكر بعض المؤرخين[3] أن الصليحي اضطر إلى الرجوع عن مكة لوباء أصاب جيشه ونحن لا نستبعد أن يكون ذلك بعضاً من أسباب عودته، أما السبب الأهم فهو فراغه من مهمته واستصفاء البلاد من الطبقة الثانية «السليمانية» وقد كانوا يدعون للعباسيين وتسليمها للهواشم وقد رضوا بالدعاء للفاطميين.

(١) علي بن محمد الصليحي كان أبوه من قضاة اليمن وقد ألحقه بأحد المشايخ وهو لا يعلم أنه من دعاة الباطنية فتلقى مبادئ الباطنيين وأخلص لها في السر وعندما اشتهر بعلمه كان يرأس الحج اليمني إلى مكة عدة سنوات، اجتمع في مكة بنفر من المخلصين لدعوته فبايعوه على امتلاك اليمن فسار فيهم حتى ملك بعض الأطراف، ثم استمال بعض القبائل فساعدوه حتى استولى على بلاد اليمن جميعها ودعى فيها للفاطميين ثم سار إلى مكة واستصفاها للهواشم بمساعدة الفاطميين «راجع تاريخ اليمن لعمارة اليمني» ص ١٦.

(٢) ابن خلدون ٤ / ١٢٦.

(٣) أورده الغزي في إفادة الأنام «مخطوط».

أبو هاشم محمد بن جعفر: وهكذا بدأ أبو هاشم يزاول الحكم بعد أن أمر بالدعاء للفاطميين. إلا أن الفاطميين ما لبثوا أن قطعوا عنه الإعانات التي كانوا يمدونه بها مضطرين لذلك بأسباب الشدائد العظمى التي حلت بالبلاد المصرية في ذلك العهد، فاحتاج أبو هاشم إلى ما ينفقه حتى أخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح بابها والميزاب وصادر بعض أموال التجار من أهل مكة.

ثم رأى أن يحذف اسم الفاطميين من الخطبة ويخطب للقائم بأمر الله العباسي، فخطب له في سنة ٤٦٢ ثم كتب إلى حاكم بغداد يخبره بذلك فبعث إليه العباسيون بثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة ورتبوا له سنوياً عشرة آلاف دينار وكتب إليه حاكم بغداد بأن أمير المدينة «مهنا» إذا فعل هذا أُجري له كل سنة خمسة آلاف دينار[١] .

وبذلك تمت الخطبة للعباسيين إلا أن الأذان بـ(حي على خير العمل) ظل على أمره في مكة متابعة للمذهب الشيعي، فانتدب العباسيون الشريف أبا طالب لإقناعه فناظره أبو هاشم طويلاً إلى أن قال له: هذا أذان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقال له أبو طالب: إن ذلك لم يصح عنه، وإنما فعله عبدالله بن عمر في بعض أسفاره فما أنت وابن عمر؟ فأسقطه أبو هاشم من الأذان[٢] .

وحاول السليمانيون من أشراف الطبقة الثانية أن يستردوا إمارتهم على مكة فثاروا على أبي هاشم وأجلوه عن مكة بزعامة أحد الأشراف حمزة بن وهاس بن أبي الطيب الذي تولّى أمر مكة فترة لم يعينها أحد المؤرخين، ثم ما لبث أبو

(١) ابن الأثير ١٠ / ٢١ .
(٢) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ٥ / ٨٤ .

هاشم أن أعاد كرته واستعاد الإمارة[1] .

وإني لأحسب أن للفاطميين يداً في ثورة السليمانيين على أبي هاشم أو أنهم على أقل تقدير كانوا يساعدونها ؛ لأنه من غير المعقول أن يترك الفاطميون أمر الدعاء لهم في مكة بعد أن بذلوا في سبيله ما بذلوه من أموال، وساعدوا على بناء حكومة الأشراف لتكون صوتاً لهم في مكة .

على كل فقد عاد أبو هاشم إلى مكة ظافراً بعد أن أجلى حمزة بن وهاس واستمر يدعو للعباسيين، ثم ما لبث أن سير إلى المدينة جيشاً من مقاتلة الأتراك فتغلب على بني مهنا من أولاد الحسين وأجلاهم عنها وضمها إلى إمارته[2] .

وشعر الفاطميون أنه لا بد من العمل على استعادة الخطبة لهم في مكة فندبوا في سنة ٤٦٦ من اتصل بأبي هاشم في مكة ؛ ليقبح له خطبته للعباسيين ويبذل له من الأموال ما يرضيه، ولعل العباسيين شعروا بذلك فأرسلوا صحبة «السلار» الذي يرافق الحج العراقي أموالاً عظيمة قدمها إلى أبي هاشم في جملة الهدايا التي قدمها، كما جمع أموالاً غيرها من الحجاج الذي رافقوه فقدمها إليه، وقد نجح السلار في مهمته بقدر ما فشل الفاطميون .

إلا أن النجاح كان مؤقتاً، فقد توفي في عام ٤٦٧ الخليفة العباسي المقتدي، فاستأنف الفاطميون سفارتهم مثقلة بالهدايا والتحف العظيمة، وكتبوا إلى أبي هاشم يقولون : إن عهودك كانت للخليفة القائم والسلطان السلجوقي وقد ماتا، فاستشار أبو هاشم أصحابه فأشاروا عليه بأن يقبل العرض الذي قدمه الفاطميون

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ١٩٦ .

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ٤ / ٢٧٠ .

وقالوا: أما وقد رجعت لنا المعونة من مصر فإننا لا نبتغي بابن عمنا بديلاً، وبذلك عاد الدعاء للفاطميين.

ولم يستمر نجاح الفاطميين طويلاً؛ لأن سلار الحج العراقي ما لبث أن عاد في موسم ٤٦٨ يحمل إلى أبي هاشم عروضاً جديدة منها أن يزوجوه من أخت جلال الدولة في العراق، وأن يمنحوه عشرين ألف دينار كتعويض عما فات من السنين الماضية فقبل أبو هاشم وخطب للعباسيين[١].

وهكذا ظل العباسيون والفاطميون يتناوبون استرضاء أبي هاشم أمير مكة بالهدايا والأموال عدة سنوات إلى أن كان عام ٤٨٤، حيث رأى العباسيون أن الفاطميين استطاعوا أن يستميلوه إليهم، فقرروا أن يعاملوه بالعنف فأرسلوا قوة من التركمان لقتال مكة، فقاتلها أبو هاشم قتالاً عنيفاً ثم يئس من النصر ففر إلى بغداد، ولعله أراد بذلك أن يسترضي العباسيين[٢]، ويشير الفاسي[٣]، إلى غير ذلك من الحوادث فيذكر أن السنيين وهم أتباع بغداد، والشيعيين وهم أتباع الفاطميين في مصر اشتبكوا عدة مرات في موسم الحج أثناء هذه السنوات وكان كل فريق يحاول استخلاص الخطبة له وأن الظفر كان سجالاً بين الفريقين.

والذي نستخلصه من جماع ما تقدم أن مكة عادت تدعو للعباسيين في عهد أبي هاشم بعد أن قطعت نحو مائة سنة، وأن الفاطميين بذلوا في سبيل استرجاع الدعاء لهم كثيراً وأن الظفر بين الفريقين كان سجالاً.

(١) افادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ١٩٧.

(٣) العقد الثمين للفاسي «مخطوط».

ويذكر ابن الأثير[1] أن مدة الدعاء للعباسيين في هذا العهد كانت أربع سنين وخمسة أشهر، ولعله أراد بذلك مجموع الفترات التي ظفر العباسيون فيها بالدعاء لهم.

وعانت مكة كثيراً من الضيق والغلاء والشدة في هذا العهد، وذلك نتيجة طبيعية للنزاع الذي جرّته الدعوة على منبر هذا البلد الضعيف بين قوتين عظيمتين.

وظل أبو هاشم في أخريات أيامه يدعو للعباسيين على النحو الذي أسلفنا إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة[2] وكان يمتاز بالقوة والشجاعة فقد حمل في بعض حروبه على شخص بالسيف فقطع درعه وجسده وقوسه حتى وصل السيف إلى الأرض[3]، ويذكره أبو المحاسن[4] فيبالغ في ذمه ويقول: إنه كان متلوناً تارة مع العباسيين وأخرى مع المصريين «الفاطميين».

قاسم بن محمد: وبوفاته تولى الإمارة بعده ابنه قاسم بن محمد، وظل أمر مكة في عهده عرضة للفتن التي تعرض لها أبوه قبله من جراء احتكاك العباسيين بالفاطميين في شأن الخطبة.

فقد أمر في أول عهده بالخطبة للفاطميين، ثم قطعها في عام ٤٨٧هـ وخطب للعباسيين، ثم أعيد للفاطميين، ورجعت بعدها للعباسيين في عام ٤٨٩هـ[5].

وفي هذه الأثناء هجم على مكة «أصيهيد بن سارتكين» القائد العباسي وأجلى

(١) ١٠ / ٨٣.

(٢) درر الفوائد المنظمة طبعة ١٣٨٤.

(٣) شفاء الغرام ٢ / ١٩٦.

(٤) في النجوم الزاهرة ٥ / ١٤٠.

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٤ - ١٠٥.

قاسماً عنها، ثم ما لبث قاسم أن أعاد الكرة على مكة فاستولى عليها وأجلى أصيهيد عنها في عام ٤٨٨هـ.

وقطع الحج العراقي في عهد قاسم عدة سنوات متفرقة وهي السنوات التي تغلب فيها النفوذ الفاطمي في مكة أو في السنوات التي اشتدت فيها الفتن الدينية في العراق من جراء الاختلافات المذهبية في ذلك القطر(١) .

وإذا كنا لا نرتاب في أن مكة كانت تستفيد من ميلها إلى الفاطميين فوائد مادية جمة فإننا لا نشك كذلك في أنها كانت تخسر كثيراً لقاء ذلك بسبب خلافها مع العباسيين وتتعرض في سبيله لكثير من الفتن والحروب وتعاني من غلاء الأسعار وضيق الأرزاق ما لا طاقة لها باحتماله، ولو قدر لها أن تعيش قوية بنفسها؛ لاستطاعت أن تمنع الدعاء عن الفريقين وتقف بينهما موقف المحايد، ولكن ضعفها وما منيت به من فقر في أراضيها هيأها للتأرجح بين الأقوياء.

وظل قاسم على أمره في مكة إلى أن توفي في عام ٥١٨ بعد أن حكم مكة نحواً من ٣٥ سنة وكان أديباً شاعراً، ومن شعره:

قومي إذا خاضوا العجاج حسبتهمْ ... ليلاً وخلت وجوههم أقمارا
لا يبخلون بزادهم عن جارهم ... عَدَل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الطراد دعاهُمُ لملمة ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا
وإذا زناد الحرب أذكت نارها ... قدحوا بأطراف الأسنة نارا(٢)

---

(١) راجع شفاء الغرام ٢ / ١٩٧ - ٢٢٨ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

ويذكره ابن خلدون [١] فيقول : إنه عجز عن إقرار الأمن والعمل على إصلاح شؤون إمارته .

فليتة بن القاسم: وعلى أثر وفاة قاسم بن محمد سنة ٥١٨هـ تولّى الإمارة فليتة بن القاسم [٢] ، وليس فيما نقله المؤرخون ما يثبت أنه كان يدعو للعباسيين أو الفاطميين إلا أن تقي الدين الفاسي [٣] ينقل إلينا أن في عهده حج الركب العراقي ، ولم يذكر أنه وجد فيه ما كان يجد في أبيه من قسوة في المعاملة أو خلاف ، ولا أستبعد أن يكون فليتة دعا للعباسيين فوق المنبر .

إسقاط المكوس: وأسقط فليتة المكوس التي كان يجعلها آباؤه على الحجاج ، وأحسن إلى الناس وسار فيهم أفضل سيرة . وكان فليتة من أدباء مكة ، وكان له شعر محفوظ ودامت ولايته في طمأنينة واستقرار إلى أن توفي سنة ٥٢٧هـ [٤] .

أول خلاف بين الورثة من الإخوان والأشراف: وبوفاة فليتة اختلف أبناؤه على الحكم فنشب بينهم القتال ، واستطاع هاشم أحدهم أن يتغلب بسيفه عليهم وأن يستأثر دونهم بالحكم .

هاشم بن فليتة: ويبدو أن هاشماً لم يكن في رفق أبيه أو عدله ، وأنه كان على خلاف مع العباسيين ، وقد تصدى مرة لأمير الحج العراقي في الطواف في عام ٥٣٧هـ ثم صادر بعض أمواله ، وقد دام حكمه نحو ١٨ سنة وتوفي في

---

(١) ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) فليتة : بفتح الفاء ، كما في الإعلام . ج ٥ ص ٣٦٤ . وتوجد الآن قبيلة بمكة يسمون سادة فليتة -بالفتح- ولا أدري ما إذا كانت لهم صلة بهذا الأمير . (ع) .

(٣) شفاء الغرام ٢ / ٢٢٩ .

(٤) إفادة الانام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

٥٤٥ ، ويذكر صاحب النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب أن هاشماً دعا للعباسيين في أواخر سني إمارته .

القاسم بن هاشم: وبوفاة هاشم تولى الأمر بعده ابنه القاسم، وكان في مثل شكيمة أبيه وبأسه، وقد ورث عنه كرهه للعباسيين فظل على خلاف معهم عدة سنوات، وفي هذه الأثناء أوفد إلى مصر عمارة اليمني[١] زيادة في توثيق الصلات بالفاطميين[٢]، وقد قوبل عمارة من الخليفة الفاطمي بحفاوة بالغة، وأنشد عمارة قصيدة قال فيها يصف العيش :

ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم[٣]

وفي عام ٥٥٥هـ علم القاسم أن الحج العراقي برئاسة أمير أرغش استعد لقتاله، فلما أنس اقترابه ترك مكة هارباً، ومن ثم كانت الفتنة بين أهل مكة والحج العراقي بمنى وقتل جماعة من أهل مكة ولحق الباقون بأهلهم فجمعوهم وأعادوا الكرة بهم فسلبوا نحو ألف جمل من الحاج، فنادى أمير الحج العراقي في جنده ووقع القتال فقتل جماعة من الفريقين وشاع النهب، ورأى أمير الحج العراقي أن يغادر منى لا إلى مكة لإتمام نسكه ولا إلى الزاهر حيث تقوم منازله بل إلى متجه الطريق الذي يعود به إلى بلاده دون أن يكمل حجه، وقد عاد كثير من الحجاج

(١) عمارة اليمني من دعاة الفاطميين وقد اشتهر بشعره السياسي الرائع ومساعيه الجبارة لخدمة الفاطميين مما جعل صلاح الدين يقضي عليه مصلوباً في عام ٥٦٩هـ.
(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٩٧ .
(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

ولم يستطيعوا إكمال حجهم خوف الفتنة[1] .

والظاهر أن المدافعين من عبيد صاحب مكة قطعوا طريق الحاج العراقي بين منى ومكة، فاضطر أكثرهم للفرار دون أن يتموا مناسكهم.

وبكل فقد كانت أعمال القاسم في مكة شديدة الوطأة، وكان يعامل الأهالي المجاورين معاملة قاسية ويصادر كثيراً من أموالهم، ومع هذا ظلت مكة تدعو للعباسيين طيلة عهد القاسم[2] .

ولعل قسوته في مكة أثارت عليه حفيظة المظلومين، فقد ثار عليه عمه عيسى ابن فليتة فأجلاه عن مكة وتولى إمارتها في عام ٥٥٦هـ، ولكن تقي الدين الفاسي يذكر أن قاسم بن هاشم غادر مكة متخوفاً من أمير الحج العراقي فتولى الإمارة فيها عمه عيسى بن فليتة[3] .

عيسى بن فليتة: وما كاد يستقر الأمر لعيسى حتى استأنف القاسم هجومه عليه وأجلاه عن مكة في شهر رمضان سنة ٥٥٧هـ فلم يبعد عيسى إلا أياماً ثم عاود الهجوم على القاسم فقتله واستولى على مكة في السنة نفسها ٥٥٧هـ[3] .

وفي هذا العام ٥٥٧ أو العام الذي قبله حج نور الدين محمود الزنكي صاحب حلب في موكب عظيم وأنفق في مكة والمدينة أموالاً كبيرة. . ولعلها كانت حجة سياسية لها ما بعدها مما سنبينه في الفصل الآتي.

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».
(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ٤ / ٢٧١ .
(٣) شفاء الغرام ٢ / ١٩٨ .

في عهد الدولة الزنكية

في هذا العهد الذي نؤرخه كان قد لمع نجم الدولة الزنكية(١) في نواحي الشام، وبدأت جيوش محمود نور الدين الزنكي تصول في ميادين القتال، وتجاهد الصليبيين، وتحتل البلاد مدينة إثر أخرى بينما كان الفاطميون في مصر قد بدأ الوهن يدب إليهم، وأخذت هجمات الصليبيين تعيث فساداً في أطرافهم.

في هذا العهد ندب محمود نور الدين الزنكي قائده أسد الدين في جيش عظيم لدفع الصليبيين عن مصر، وقد نجح فيما ندب ودخل مصر فاستوزره العاضد آخر الخلفاء الفاطميين في مصر، ولما مات أسد الدين وكان جيش الزنكي لا يزال محافظاً على مصر اختار العاضد الفاطمي للوزارة صلاح الدين بن أيوب أخا أسد الدين ولقبه بالملك الناصر، وبذلك ظلت مصر فاطمية في خلافتها زنكية في حكمها.

في هذه الأثناء كان حكم مكة لا يزال تحت إمرة عيسى بن فليتة بدأ النفوذ الزنكي يغزو الحجاز ويستقر في مكة وبدأ الخطيب فوق المنبر يدعو للزنكيين بجانب الفاطميين(٢).

واستفاد عيسى بن فليتة كثيراً من النفوذ الجديد في مكة فقد استقرت حالة التقلقل التي كانت تسود البلاد وتتجاذبها بين العباسيين والفاطميين، كما أن

---

(١) أسس هذه الدولة عماد الدين الزنكي، وقد كان أميراً على الموصل أثناء نفوذ السلجوقيين ببغداد في العهد العباسي، فحارب الصلبيين وانتزع منهم بعض البلاد في الشام، ثم استقل بها ولما توفي سنة ٥٤١هـ انقسمت بلاده بين أولاده، وكان النفوذ الأكبر لولده محمود نور الدين الذي وسع ملكه.

(٢) شفاء الغرام ٢ / ٢٣٠.

الزنكيين أنفقوا في مكة أموالاً طائلة كان لها وللاستقرار الذي نحن بصدده أطيب الأثر في انتعاش الحركة التجارية وتأمين السبل.

وفي سنة ٥٦٧ كان أمر مكة لا يزال في عهدة عيسى بن فليتة كان صلاح الدين بن أيوب وزير الزنكيين في مصر كما قدمنا قد استهان بالخليفة الفاطمي العاضد واستطاع أن يمنع الدعاء باسمه على المنابر في مصر بحجة أنه شيعي وأن يأمر بالدعاء للعباسيين، وقد جاءت رسله إلى مكة سنة ٥٦٧ لتأييد الدعاء للعباسيين.

وقد قبل عيسى بن فليتة في مكة أن يخطب للعباسيين، وظل على ذلك نحو سنتين ثم ما لبث أن أعلن صلاح الدين الأيوبي سقوط الفاطميين وقيام دولته على أنقاض ذلك في مصر والشام حول عام ٥٦٩هـ فشرعت الخطبة في مكة تدعو له فوق منبرها كما سيأتي في الفصل الخاص بالعهد الأيوبي.

النواحي العامة
في عهد الفاطميين

الحالة السياسية: يبدو أن العلوية التي جاهدت طويلاً في سبيل انتزاع الخلافة من العباسيين، صادفها شيء من النجاح تجلى أثره واضحاً في انتصارات الفاطميين «شيعة علي» في هذا العهد الذي نؤرخه، وفي استيلائهم على جزء هام من البلاد التابعة للعباسيين وإنشاء حكومة مماثلة لها في اليمن وأخرى باسم القرامطة في البحرين، عدا الحركات الصغيرة التي وجدت بعض الفوز في أنحاء شتى من بلاد الإسلام، وكلها تتشيع للعلوية على اختلاف مبادئها وبعض معتقداتها.

وجاء دور المقيمين من أحفاد العلويين في مكة، فرأينا رأساً من رؤوسهم هو جعفر بن محمد جد الأشراف من حكام مكة يقوم في أعقاب سقوط حكومة الإخشيد ويعلن حكمه في مكة واستقلاله بها.

وقد بدأت الحركة -كما رأينا فيما تقدم- محدودة لا تخرج عن نطاق مكة، وأعمالها التابعة لها من جدة غرباً إلى الطائف شرقاً، وهي لهذا وجدت لدى الفاطميين جيرانها وشركائها في مبادئ التشيع لآل علي تشجيعاً أعانها على الخطوات الأولى ووطد مركزها، كما وجدت من مؤهلات رئيسها جعفر ما ساقها إلى النجاح والفوز، إلا أن أغراض الحركة ما فتئت أن تكشفت عن نوايا جديدة عندما تولى أمرها أبو الفتوح على أثر وفاة أبيه جعفر، فقد ادعى لنفسه الخلافة ورأى أنه أولى بها من الفاطميين ونادى بنفسه خليفة في الحرم ودعا إلى

بيعته من والاه في الحجاز فبايعوه على ذلك ولقبوه بالراشد كما مر بنا.

وقد حفز هذا جيرانه الفاطمين للعمل ضده، فأغروا بعض مناصريه بالتخلي عنه، فما لبث أن سقط وتولى الأمر أحد بني عمومته، فلما شعر بسوء العاقبة عاد يسترضي الفاطميين ويجاور الأهالي حتى عاد إلى الحكم وألغى الدعوة إلى الخلافة من رأسه كما ألغاها بعده كل من ورث الحكم من طبقات الأشراف، ولم يبعثها إلا الحسين بن علي بعد مدة طويلة تزيد عن تسعة قرون ونصف قرن في ظروف خاصة سنأتي عليها في حينها.

ولقد بقيت الإمارة في ذرية أبي الفتوح قريباً من مائة سنة ثم انقرض نسله فانتقل الأمر إلى بني عمومته «السليمانيين» وهم أولاد سليمان الجون «الطبقة الثانية» وقد شعر الفاطميون أن السليمانيين لا يميلون للدعوة لهم فانتدبوا شيعتهم في اليمن للهجوم على مكة فهاجموها وأجلوا السليمانيين عنها وسلموا أمرها إلى طبقة ثالثة من بني عمومتهم هم أولاد أبي هاشم محمد بن جعفر بن محمد ابن الحسين(١).

وقد بقي الأمر في هذه الطبقة إلى سنة ٥٩٧ نحو قرن ونصف قرن ثم انتقل إلى بني عمومتهم الطبقة الرابعة على ما سنبينه في الفصل الآتي.

ولقد ظل استقلال الأشراف بمكة مشوباً بنفوذ دول الإسلام القوية، ويبدو أثر ذلك في دعاء مكة للعباسيين مرة وللفاطميين أخرى وللزنكيين في غيرها وفي الجمع بين دولتين في بعض هذه الفترات -وقد قدمنا ذلك- كما يبدو في أحداث

---

(١) في الشجرة السابقة: أبو هاشم: محمد بن جعفر بن محمد بن عبدالله بن أبي هاشم بن الحسين الأمير ابن محمد الثائر. (ع).

بعض المنشآت والمرافق العامة التي كانت ترى هذه الدول أن من حقها أن تنشئها في هذا البلد كأي مدينة تابعة .

ويجب ألا يفوتنا أن نفوذ هذه الدول ما كان ليشوب استقلال مكة إلا بمقدار ما تدعو إليه ضرورة الدعاء على المنبر وقبول المنح والعطايا ، ولعل أشراف مكة كانوا معذورين في هذا فقد استقلوا بمكة وليس في تعدادها وما يتبعها ما يكفي لإعداد جيش قوي يدافع عنهم ، وليس في مواردها ما يكفي لبعض نفقاتها ؛ لهذا كان لا مناص لهم من مهادنة الأقوياء وقبول المنح والهدايا من هؤلاء مرة ومن أولئكم أخرى .

الناحية الاجتماعية في العهد الفاطمي

الناحية العمرانية والاجتماعية : ولم يتسع العمران بمكة في هذا العهد عما كان عليه في العهد العباسي الثاني ؛ لأن انشغال مكة بالفتن حال دون العناية بعمرانها ، ولعل حكامها من طبقات الأشراف الثلاث كانوا يعنون بتحصينها أكثر مما يعنون بعمرانها ، فكانوا يبنون القلاع لرد عاديات بعضهم ، ويقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو : إنهم كانوا يبنون ما بين منافذ الجبال فحيثما وجدت فرجة سدوها بسور .

وتركت الفتن أثرها في السكان فقد قاسوا كثيراً من الجوع والقحط . . يذكر ناصر خسرو : أنه هاجر في بعض سنوات هذا العهد نحو ٣٥ ألفاً من سكان مكة ولم يزد تعداد القاطنين بها في عام ٤٢٢هـ عن ألفي نسمة .

ويشير ناصر خسرو إلى الضيق الذي عانته مكة في بعض سني هذا العهد من جراء قلة الماء ثم يقول : إنهم يتخذون المصانع والأحواض لجمع الماء ، وكان المصنع الواحد يكلفهم ١٠ آلاف دينار ، ويذكر أنه وجد بمكة حمامين كان بلاطهما من الحجر ، وأعتقد أنهما من بقايا العهد الأموي أو العباسي ، ويقول : إن حوانيت العطارين كانت في المسعى ، وأن الحجامين كانوا في المروة ، ويقدر عدد حوانيتهم بعشرين حانوتاً .

ويبدو أن حياة الفاطميين في مصر أثّرت رغم النوائب في حياة مكة أكثر مما أثّرت فيها حياة العباسيين ، إما لقرب مصر من الحجاز أو لأن اتصالهم بحكامها كان أوضح طابعاً من اتصال العباسيين ، وإنا نرى ذلكم بيناً في نظام الإدارة وتقاليد البلاد العامة .

كان الفاطميون يرون في إمامهم شخصاً مقدساً تحيطه هالة من الجلال والتنزيه[1] فأثر هذا في نظر الناس إلى حكامهم من الأشراف في مكة، وبعد أن كان الأمراء في مكة لا يمتازون في نظر رعاياهم بغير الإمارة التي لا تستحق التنزيه استطاع الأشراف أن يحيطوا مراكزهم بشيء من الجلال، وأن يطبعوا العامة على تقديسهم وأمعنوا في هذا أو أمعن الناس حتى عم الغلو في تقديس كل شريف ينتسب إلى بيت الحاكمين، وعندما أقول بيت الحاكمين أريد أن ألفت النظر إلى أن ما نسميهم السادة لم ينالوا من هذا التقديس ما ناله أقرباؤهم، بالرغم من أن درجة الشرف بينهما واحدة وأنهم يجتمعون معاً في جدتهم الزهراء رضي الله عنها.

واستمر هذا الإمعان في تقديس الأشراف الحاكمين حتى جاء الوقت الذي بات الرجل منهم يعتقد أنه يستحق الميزة الشرعية على سائر الخلق من غير الأشراف*.

وكان الفاطميون يميلون إلى مظاهر الأبهة وتكتظ قصورهم بتقاليد مرعية الجانب فأثر هذا في حكام مكة من الأشراف، وبدأت الأبهة تأخذ طريقها إلى مجالسهم ومواكبهم وحفلاتهم مما لا عهد لمكة به من قبل، وشرعوا يحتجبون عن رعايهم كما رتبوا لهم جوقة موسيقية خاصة تصدع بأنغامها أمام قصورهم كانوا يسمونها: «النوبة» إتماماً لمظاهر الأبهة، وابتدعوا المواكب التي تمشي بين أيديهم كلما غدوا أو جاؤوا.

ولا يمنعنا هذا من استثناء بعضهم ممن تواضع في حكمه وبرز للناس من غير

(١) راجع كتاب الإسلام السياسي ٣/ ٢٥٢.

* ما أشار إليه المؤلف هنا من البدع التي روج لها الفاطميون، وهي غير مقبولة شرعاً وعقلاً.

حاجب وجلس لمظالمهم في مجالس عامة أخذ فيها للضعيف والمظلوم .

وعرفت مكة في هذا العهد بعض التقسيمات الإدارية التي كانت متبعة عند الفاطميين في مصر ، فأضيفت بعد وظيفة القاضي وبيت المال وصاحب البريد ووظيفة المحتسب وهو المشرف على الأسواق ، وصاحب الشرطة وهو المسؤول عن الأمن ، ورئيس الجيش وصاحب باب الإمارة ، وكانت أكثر هذه الأعمال تدار في قصور خاصة بها خلف دار الندوة وبعضها في الطبقات السفلى من بيوت الأمراء ، وكان أكثرهم يسكنون قريباً من دار الندوة في المحلة التي نسميها اليوم الشامية .

وأحيط الموظفون بشيء من الجلال ، ولعل أكبرهم نصيباً في ذلك القاضي وإمام المسجد وخطيبه ، وأعتقد أن الحفاوة بالخطيب في يوم الجمعة وتجميل منبره بالأعلام المزركشة ووقوف الخدم بين يدي المنبر وجلوس المرقي على بعض درجاته ليؤمن على دعوات الخطيب في الصور التي كنا نراها قبل حكومة آل سعود لا شك أنها كانت من بدع هذا العهد تأثر فيها الناس بأعمال الفاطميين .

ومن بدع هذا العهد أوامر الحاكم الفاطمي في سنة ٣٩٦ التي فيها أن يقوم الناس عند ذكر اسمه في الخطبة ، وقد كان ذلك من عاداتهم في مصر يقومون عند ذكر الخليفة في المسجد أو في أماكن الاجتماعات والأسواق على الرغم من أن المذهب الفاطمي لم يرغم أحداً -كما قيل- على اعتناقة[1] .

وعرفت مكة في هذا العهد أعياداً جديدة تحتفل بها علاوة على ما كانت تحتفل به من الأعياد الدينية ، فعيد المولد النبوي ، وعيد مولد السيدة فاطمة ، ومولد

(١) عبقرية الفاطميين .

السيدة خديجة والسيدة آمنة، ومولد علي وأمثال ذلك كيوم عاشوراء وآخر أربعاء من صفر، كل هذه الأعياد أعتقد أنها انتقلت إلى مكة من الفاطميين كانوا يحتفلون بها تقليداً لتشيعهم لأهل البيت وما كانت مكة تعرفها قبلهم*، وقد ظلت هذه العادات جارية إلى أن دخل السعوديون مكة في عام ١٣٤٣ فأبطلوها(١).

وأحسب أن مذهب الشيعة بدأ يمد ظله في مكة بتأثير الفاطميين من جهة، وبأمر الأشراف الذين كان بعضهم يميل إلى التشيع من جهة أخرى ودليلنا على هذا إضافة «حي على خير العمل» إلى الأذان في منائر المسجد الحرام، وهو تقليد شيعي كان يعمل به الفاطميون وبعض حكام مكة.

وأعتقد أن من أوليات الفاطميين في مكة تلقيب حكام مكة من الحسنيين بلقب الأشراف وتلقيب بني عمومتهم بالسادة، ولم تكن هذه الألقاب معروفة من قبل ثورة جعفر في عهد الفاطميين.

وعرفت مكة في هذا العهد بالرغم من عسرها ثياباً جديدة من الحرير والكتان، وأنواعاً براقة تتلألأ إذا انعكست عليها أشعة الشمس، وكانت ترد إليها في تجارتها مع مصر، كما عرفت العمائم المزركشة بما يشبه القصب. وعرفت لبس الجبة بما يشبه شكلها في الوقت الحاضر.

وكان الفاطميون في مصر يخلعون على الأمراء والوزراء خلعاً خاصة بالأعياد والمناسبات، وكانت توشى بخيوط الذهب والفضة، ونحن نعتقد أن الأمراء في

(١) وهناك أعياد أخرى لأهل الحجاز كانت إلى عهد قريب، منها: يوم ٢٧ رجب وهو عيد المعراج، و ١٥ شعبان، وله دعاء مخصوص، و ٦ من صفر. حتى إن من أمثال بادية الحجاز: ما عيد إلا عيد النحر والا بست من صفر (ع).

* هذه -أيضا- من البدع التي أحدثها الفاطميون.

مكة كان لهم نصيب طيب من هذه الخلع بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين الفاطميين، وأن مكة كان يهدى إليها أنواع من هذه الأثواب الموشاة بخيوط الذهب والفضة في مواسم الحج ومناسبات الأعياد، ولا بد من أن يشيع تقليد هذه الأثواب في الأوساط الراقية في مكة، وأن تترك أثرها في أزياء الأهالي إلى حد تبدو فيه ملابسهم، وقد نالها من التطور ما يجعلها قريبة الشبه بما يلبسه الفاطميون.

الناحية العلمية: ذكرنا في فصل الحياة العلمية في عهد العباسيين الثاني أن حلقات العلم في المسجد ظلت تغص بطلاب العلم وأساتذته من تلاميذ أصحاب مالك وأصحاب الشافعي ثم أصحاب أحمد بن حنبل، ثم قلنا: إنه ما وافى القرن الرابع حتى كان النشاط العلمي قد دب إليه الوهن على أثر تفرق أعلام مكة في الأمصار، وقد ظل الوهن على ذلك طيلة القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة فلم يلمع في مكة إلا بعض أفراد كانت بيوتهم تتخصص في طلب العلم وتتوارثه كما تتوارث خطب الجمعة والإمامة في المسجد الحرام، ومن أظهر هذه البيوت في أواخر العهد الفاطمي في القرن السادس بيت الطبري.

وهم ينتسبون إلى قريش وقد هاجر أجدادهم في غمرة من هاجر في العهد العباسي ثم ما لبث الأحفاد أن عادوا إلى مكة في القرن الخامس، وأول من قدم منهم أبو معشر الطبري فقد جاور مكة وجلس للإقراء بها عام ٤٨٨هـ، واشتهر منهم في القرن السادس رضي الدين بن أبي بكر، وظل أحفاد هذا البيت يخدمون العلم في مكة إلى أن انقرضوا في القرن الثالث عشر[١].

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير طبع سنة ١٣٩٨ بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العامودي وأحمد علي (ع).

طريق الحجاج: وقد كان الحجاج أغلب ما يفدون في هذا العهد من طريق مصر يصلون إليها من الأندلس والمغرب وأفريقيا براً وبحراً كما يصلون إلى الشام من بلاد الترك والقوقاز وبخارى والقرم وشمال روسيا وسيبيريا وجزائر البحر الأبيض، ثم يسافرون إلى مصر ليجتمعوا مع من اجتمع فيها من غيرهم بالقاهرة، ومن ثم يصل بعضهم بعد شهر رمضان إلى السويس حيث تنقلهم المراكب الشراعية إلى جدة ويمضي الكثيرون مصعدين في الصعيد إلى قوص براً أو من طريق النيل، ويستغرق ذلك نحو عشرين يوماً ثم يتجهون إلى عيذاب[١] أو القصير[٢] في أعلى الصعيد على شاطئ البحر الأحمر حيث ينتظرون المراكب التي تقلهم إلى جدة وقد يستغرق انتظارهم في الميناء نحو شهر كما يستغرقهم السفر منها إلى جدة عشرة أيام.

وكانوا يستقلون مراكب غير محكمة وأشرعتها من حصير وأصحابها يتعسفون بالحجاج، ويشحنون فيها أكثر من حمولتها؛ ولذلك كانوا يتعرضون لأخطار البحر، كما أن بعض المراكب كانت تغرق بالفعل.

وكان يحكم عيذاب والقصير بدوي من عرب البجاه ومندوب يمثل حكومة مصر، وكان الحاكمان يتوليان استيفاء رسوم الحجاج في عيذاب نيابة عن صاحب

(١) عيذاب : ميناء على ساحل البحر الأحمر الغربي في مصر، كان على طريق القوافل من قوص - بصعيد مصر - وكان الحجاج يفضلونه لمواجهته لجدة، وبعد استعادة ميناء الطور لمجدها القديم اضمحلت أهمية عيذاب في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص٨١ .

(٢) القصير : ميناء صغير على نهاية طريق القوافل من قنا بمصر، ازدهر في العهد البطلمي وعرف باسم ليكوس ليمن. المصدر نفسه ص ٧٩ .

مكة ويقتسمان معه الواردات.

وكان عرب البجاه يتولون كذلك نقل الحجاج في صحراء الصعيد فوق جمالهم، في البحر إلى جدة في مراكبهم الشراعية، وكانوا يرهقون الحجاج باستغلاهم وربما عرضوهم للطريق المعطش ليموتوا فيستولوا على متاعهم.

الإصلاحات في المسجد: وعني الفاطميون بإصلاح كثير من الخراب الذي كان يطرأ على المسجد الحرام وجددوا بعض إسطوانات الرخام، وأصلحوا بعض المواضع من سقفه، إلا أن عناية العباسيين كانت أكثر وضوحاً فقد قاموا بإصلاحات كثيرة في الكعبة فعمروا في سقفها سنة ٥٤٢هـ، وأصلحوا رخامها عام ٥٥٠، وشدوا في ركنها اليماني عندما تضعضع عام ٥٥٩، وأهدى المطيع العباسي للكعبة قنديلاً من الذهب زنته ٦٠٠ مثقال، وعدة قناديل من الفضة في العام نفسه[١]، وأهدى الخليفة العباسي المكتفي في عام ٥٥١ باباً للكعبة بديع الصنع منقوشاً عليه اسمه كما أهداها ميزابا جميل النقش في عام ٥٤١، كما أمر وزير صاحب الموصل محمد الجواد بعمل إصلاحات كثيرة في المسجد أهمها تعمير منارة باب العمرة وقبة العباس بجوار زمزم، وأنشأ مزولة في صحن المسجد لمعرفة أوقات النهار، وكان مكانها على بعد ٤٣ ذراعاً من ركن الكعبة بذراع الحديد مما يلي المنبر، وقد أزيلت بعد ذلك ولم يبق لها أي أثر[٢].

وممن عني بالمسجد في هذا العهد أحد أعيان المسلمين المعروف بالشيخ رامشت واسمه أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي قد بنى رباطاً بجوار باب إبراهيم

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ سعيد الحضراوي «مخطوط».
(٢) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للقطبي ص ١٩١.

لسكنى فقراء الصوفية من أصحاب المرقعات [٢] وأهدى للكعبة ميزاباً في سنة ٥٤١ وكساها بالحبرات في عام ٥٣٢ كسوة كلفته ١٨ ألف دينار مغربية، وكذلك كساها أبو النصر الأسترابادي كسوة بيضاء من عمل الهند في عام ٤٤٦هـ.

وكان الفاطميون يكسونها بالديباج الأبيض كما كان بعض العباسيين يكسونها بالسواد شعار العباسيين واستمرت تكسى بالسواد إلى الآن[١].

ويذكر الشيخ باسلامة في كتابه عمارة المسجد[٢] أنه يظن أن المقامات الأربعة الموجودة بالمسجد أنشئت بين القرنين الرابع والخامس أي في هذا العهد الذي ندرسه الآن، وذلك لأن المؤرخين والرحالين الذين وصفوا المسجد قبل هذا العهد وآخرهم صاحب العقد الفريد لم يذكروا عنها شيئاً بينما يذكرها ابن جبير في رحلته عام ٥٧٨ فدل ذلك على أنها حدثت قبيل ذلك العهد.

والذي أحسبه أن ما ذكره الشيخ باسلامة لا يعدو الحقيقة؛ لأني أعتقد أنها أحدثت في العهد الفاطمي مع ما أحدث من بدع غريبة، وكان أئمة المذاهب يصلون متعددين ومنهم إمام الزيدية، أما الحنبلي فلم يكن موجوداً، وسنتحدث في كلامنا عن العهد الأيوبي عن وصف ابن جبير للمقامات الأربعة وكيفية صلاة الأئمة فيها.

وكان في جوانب حجرة زمزم أربعة أحواض يصب فيها الماء ويتوضأ الناس به، وأمام بئر زمزم من ناحية الشرق بناء آخر عليه قبة يسمى سقاية الحاج وضع به أزيار يشرب منها الحجاج وبعد هذا البناء ناحية الشرق بناء آخر مستطيل عليه

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام القطبي ص١٩١.
(٢) ص ٢٢٥.

ثلاث قباب يسمى خزانة الزيت به الشمع والزيت والقناديل، وحول الكعبة أعمدة قامت بينها عوارض من الخشب عليها زخارف ونقوش من الفضة، وقد أنيطت بها المصابيح معلقة في الحلق والكلابات ويفصلها عن الكعبة ١٥٠ ذراعاً وهي مسافة المطاف[١].

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

في عهد الأيوبيين

تمهيد : كنا ذكرنا في نهاية العهد الفاطمي أن محموداً الزنكي صاحب الشام ندب قائده أسد الدين لمساعدة الفاطميين في مصر ضد الصليبيين عندما شرع الوهن يدب في حكومة الفاطميين، وأن العاضد الفاطمي آخر خلفاء الفاطميين ما لبث أن استوزر القائد أسد الدين ثم استوزر ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب.

وقلنا: إن صلاح الدين بن أيوب استهان بالخليفة الفاطمي، وما لبث أن نادى بسقوطه وأعلن استقلاله بالحكم، وبذلك تأسست الدولة الأيوبية في مصر والشام على أنقاض الحكم الفاطمي.

ونستطرد هنا إلى أخبار مكة فنقول: إن نفوذ صلاح الدين الأيوبي امتد إليها على أثر نجاحه في مصر، وساعد على تأييد الدعاء للعباسيين فيها، فقد كان صلاح الدين يعترف بالخلافة في بغداد اسمياً، ويحاول تثبيت نفوذه في مكة تحت إشراف الخليفة العباسي، وقد وافقه أميرها عيسى بن فليتة فدعا باسم العباسيين، وأضاف إلى ذلك اسم صلاح الدين.

وشرع العراق على أثر هذا يرسل ركبه إلى الحج تحت إمرة من يختاره الخليفة[1].

ونازع عيسى مالك بن أبي فليتة في عام ٥٦٥ واستطاع أن يستولي على مكة نصف يوم ثم اصطلحا، ثم عاد النزاع بينهما في عام ٥٦٧، فهاجم مالك مكة

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٣٠.

بجيش من هذيل فهزمه عيسى، ففر إلى جدة، وسطا على بيوتها التجارية فنهبها.

داود بن عيسى: ولما مات عيسى في عام ٥٧٠ عهد إلى ابنه داود بالإمارة، فلم يدم حكمه أكثر من نصف يوم ثم هاجمه بإيعاز من العباسيين بعض الخارجين عليه هجوماً عنيفاً، حتى أجلوه عن مكة ونادوا بأخيه مكثر، وذلك في العام نفسه ٥٧١[(١)].

مكثر بن عيسى: وما كان يتولى الأمر مكثر في عام ٥٧١ حتى شعر بحاجته إلى تثبيت مركزه ليتحاشى استبداد بغداد به كما فعلت بأخيه بالأمس، فعمد إلى شراء الأسلحة وتجنيد بعض الرجال، وبنى على أبي قبيس قلعة لتكون له حصناً إذا فكر أمير الحج العراقي في مناوشته أو عزله، وظل مع ذلك يخطب للعباسيين والأيوبيين.

وعلمت بغداد بتحصيناته فاعتبرت ذلك منه تحدياً فكلفت أمير الحج طاشتكين أخا صلاح الدين الأيوبي بأن يجلي مكثراً عن مكة وأن يهدم حصنه.

فلما انتهى الحج العراقي إلى عرفات وأفاضوا لم يبيتوا بمزدلفة وإنما اجتازوها، ورمى بعضهم الجمار وهو سائر ثم نزلوا الأبطح فناوشوا بعض الأهالي، ثم نادى المنادي بالهجوم على مكة فكانت واقعة شديدة قتل فيها كثير من الفريقين ونهبت أموال الحجاج والأهالي[(١)].

وهكذا ينسى العباسيون وينسى الأشراف وينسى المسلمون من كل الأجناس في مثل هذه المناسبات روح الدين الذي جمعهم في صعيد واحد؛ ليتوادوا

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٣٠.

ويتراحموا ويتآلفوا ويجتمعوا حول رمز واحد، ينسون كل هذا ولا يذكرون إلا أغراضهم في الحكم ورغبتهم في السلطة، ولا يبالون في سبيل هذه الرغبات أن يحيلوا مواقف العفو والغفران إلى ميادين يشتبكون فيها بأفظع ما يشتبك الآثمون والمجرمون.

لا ريب أنها آثام يقشعر لهولها أقل المؤمنين حظاً في الإسلام، وأنه استخفاف جره قادة الإسلام على جماعة المسلمين في كل عصر فعلموهم الجرأة على قدسية الإسلام، وتركوهم ينظرون إلى شعائره باستخفاف لا يليق بهذا الدين العظيم.

ونحن اليوم إذا شهدنا عامة المسلمين لا يعنيهم من الحج إلا طقوسه التقليدية وأغلبية الحجازيين لا يهمهم فيه إلا ما يهمهم من مصالح، دون أن يحس هؤلاء أو أولئكم بإحساس الدين فيما يؤدون من نسك، فما ذلك إلا جناية بعض أسلافنا من القادة والعظماء الذين هيؤونا للاستهانة وطبعونا عليها جيلاً بعد جيل.

سلاح جديد: واستعمل المتقاتلون في هذه الموقعة سلاحاً جديداً لا عهد لمكة به من قبل، فقد رؤي رجل منهم يرمي داراً من دور مكة بقارورة مملوءة نفطاً فأحرقت الدار وكانت لبعض أيتام مكة.

ولجأ مكثر إلى حصنه الذي بناه على أبي قبيس فحصروه به ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع سلم أمير مكة الحصن لأمير الحج فهدمه بعد ذلك[1].

وأضاف طاشتكين إمارة مكة إلى أمير المدينة إذ ذاك القاسم بن مهنا بأمر الخليفة العباسي، فما لبث القاسم أن رأى نفسه بعد ثلاثة أيام عاجزاً عن إدارة الأمور

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٣٠.

والقيام بأعباء مكة، فأعاد طاشتكين داود بن عيسى المغضوب عليه سابقاً إلى الإمارة وهو أخو مكثر، وذلك في السنة نفسها ٥٧١ ثم ما لبث أن أعيد إليها مكثر[١] وقد ضرب طاشتكين الدراهم في مكة باسم صلاح الدين[٢].

إلغاء المكوس: وفي عهد مكثر حج الشيخ علوان الأسدي الحلبي، فلما وصل إلى جدة طولب بالرسوم المفروضة فأبى أن يسلم شيئاً، وأراد الرجوع فلاطفوه، وبعثوا إلى صاحب مكة فأمر بمسامحته، فلما انتهى إلى مكة واجتمع بالشريف مكثر اعتذر إليه هذا، وأوضح له حاجة الحجاز إلى فرض مثل هذه الرسوم، فلما اقتنع الشيخ كتب إلى صلاح الدين في مصر بتفصيل الأمر، فعرض صلاح الدين تقديم ثمانية آلاف أردب قمحاً سنوياً مقابل إلغاء الرسوم عن الحاج، وكان الرسم المفروض على كل شخص سبعة دنانير مصرية ونصف دينار[٢].

ومما يذكر في وقائع عام ٥٩٢ أن ريحاً عظيمة عصفت بمكة عند خروج الحجاج منها، وكان فيها رمل أحمر أصاب الناس وسقطت أحجار من ركن الكعبة اليماني، كما ذكر أن الذي سقط من الركن قطعة واحدة وأن الكعبة تحركت مراراً وأن ذلك لم يعهد من قبل[٢].

داود بن عيسى: وتولى الأمر بعد مكثر أخوه داود، وقد ظل الأخوان يتداولانها نحو سبع وعشرين سنة كانت آخر مرة فيها لإمرة مكثر، وقد ظل فيها عشر سنوات متتالية آخرها سنة ٥٩٧، وهي السنة التي انتزعت فيها إمارة مكة من

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٣٠.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

الهواشم طبقة الأشراف الثالثة؛ ليحل محلهم بنو عمومتهم من الأشراف أبناء قتادة أي طبقة الأشراف الرابعة[1] التي ظلت في الحكم نحو سبعة قرون ونصف إلى أن أجلاهم السعوديون عنها كما سيأتي.

طبقة الأشراف الرابعة:

قتادة: كان قتادة بن إدريس يجتمع مع أمراء مكة من الطبقة الثالثة -الهواشم- في جدهم الثامن، وكان وقومه ظواعن بادية، فلما نشأ جَمَعهم ومضى بهم إلى ينبع فاحتلها بعد أن أجلى عنها أمراءها من بني عمومتهم الأبعدين، ثم تطلع إلى إمارة مكة فسار إليها في جيش كثيف استخلصها لنفسه بعد أن أجلى مكثراً في سنة ٥٩٧هـ.

وأراد قتادة أن يتوسع في إمارته فندب ابنه عزيزاً على رأس جيش إلى المدينة إلا أن أمير المدينة قاسماً المهنا الحسيني كان أقوى مما ظن قتادة، فقد حمل عليهم حتى عادوا مهزومين ثم حصرهم في مكة وكتب إلى عزيز بن قتادة: «يا ابن العم، كسرة بكسرة، وأيام حصار بمثلها، والبادي أظلم، فإذا أعجبكم عامكم فعودوا ليثرب من قابل»[2].

ويبدو أن بغداد لم يرضها قيام قتادة بالحكم في مكة فناصبته العداء فقد وثب حاج من العراق على شريف من قرابة قتادة سنة ٦٠٨ فقتله، فاتهم به أمير الركب العراقي فثار الأشراف وعبيد مكة وصعدوا على الجبلين بمنى وهللوا وكبروا، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد واليوم الثاني، وقُتِل من الفريقين جماعة فانحاز أمير الحج العراقي

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط».

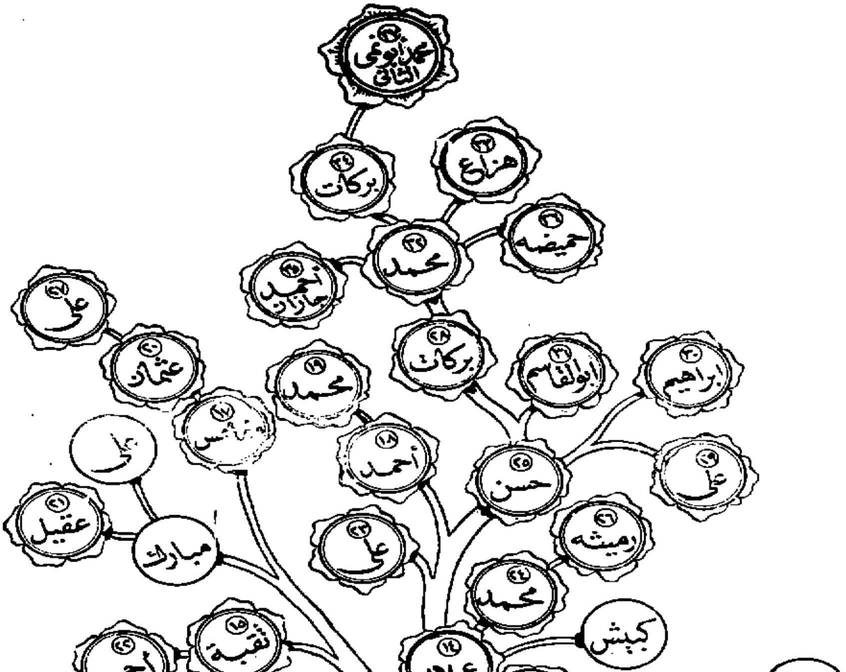
(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

إلى الزاهر، فأقام لهم قتادة بعسكره على الطريق فانهال عليهم ضرباً وتقتيلاً وهو يقول: ما فعل هذا إلا الخليفة، وما كان المقصود إلا أنا، والله لا أبقيت من حاج العراق أحداً. وهو قسم يدل على مبلغ ما بلغ إليه التوتر بين العراق وقتادة، أنه كان يعلم أنه المقصود بالقتل كما يدل على مدى شعور قتادة بنفسه ومبلغ ثقته فيها.

والتجأ أمير العراق بخيمة ربيعة خاتون أخت الملك العادل -ملك الشام- وهي يومئذ حاجة، فأرسلت إلى قتادة تتوعده فكف عنهم، وطلب مائة ألف دينار تعويضاً فجمعوا له ثلاثين ألفاً[1].

وندم قتادة على ما حدث فأرسل ولده راجحاً وجماعة من أصحابه إلى بغداد ؛ ليعتذروا عما حدث، فاستقبلتهم بغداد وقبلت أعذارهم، وما لبث الخليفة في بغداد أن أرسل إلى قتادة في عام ٦٠٩ مالاً وخلعاً وطلب إليه الشخوص إلى بغداد فتوقع الشر قتادة، وأبى أن يستجيب إلى دعوة الخليفة، وكتب إليه يقول من قصيدة طويلة:

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٣٣ .



الطبقة الرابعة من الأشراف (آل قتادة)

وفي الصورة يبدو موضع أبي نمي الثاني الذي حصر الإمامة في أولاده كما سيظهر في جدول آتٍ

ولي كف ضـرغـام أذل ببـسطهـا وأشــري بهــا عــز الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهـرها !! وفي بطنهــا للمــجــدبين ربيع
أأجــعلهــا تحت الرجــا ثم أبتــغي خــلاصــاً لهــا إني إذاً لوضـــيع
ومــا أنا إلا المسك في كل بقــعــة يضــوع وأمــا عندكم فـيـضـيع !!

فغضب الخليفة وكتب إليه: «أما بعد، فإذا نزع الشتاء جلبابه، ولبس الربيع أثوابه قابلناكم بجنود لا قِبَل لكم بها، ولنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون».

ولما تسلم قتادة إنذاره أعد نفسه لمواجهة الشدائد، وكتب إلى بني عمه آل المهنا في المدينة يحثهم على مناصرته ويذكرهم بجامعة القربى، ومما كتبه:

بني عـمنا من آل مـوسى وجـعـفـر وآل حـسين كـيف صـبـركم عنا؟
بني عــمنا إنا كــأفنان دوحـــة فــلا تتــركــونا يجــتني الفنا فنا
إذا مـــا أخ أخلى أخـــاه لآكل!!! بدا بأخـــيـــه الأكل ثـم به ثنا!!

وأنجزت بغداد وعيدها في عام ٦١٠ فأرسلت جيوشها إلى المدينة، وكان آل المهنا عند ظن قتادة بهم فقد قاوموا المهاجمين وكسروهم، فما لبثت بغداد أن قنعت بما حدث، واقتنعت بقوة قتادة واستأنف الخليفة معه العلاقات الودية وأقطعه قرى متعددة[١].

ولم يقتصر استخفاف قتادة على أصحاب بغداد بل تعداه إلى غيرهم فقد حج الملك عيسى بن العادل الأيوبي صاحب حلب* عام ٦١١، وكان قد بذل من أمواله في سبيل البر الشيء الكثير، وكان قد استقبله في المدينة أميرها وأنزله في

(١) إفادة الأنام «مخطوط».
* الصواب صاحب دمشق.

داره وبالغ في الحفاوة به وصحبه إلى مكة، فلما قدم مكة وتلقاه قتادة سأله أين أنزل؟ فقال قتادة وقد أشار بسوطه هناك - يريد الأبطح - فشعر الملك عيسى أن قتادة يستهين به فغاظه ذلك وأسرّه في نفسه، ولم يبده إلا في الوقت المناسب[١] .

ولا أستبعد أن جفاء قتادة الذي أبداه في استقبال ملك حلب كان مبعثه إلى جانب الاستخفاف بمقادير أصحاب السلطان استياؤه من تآلف خصمه القديم أمير المدينة بصاحب الشام ومشيه في خدمته إلى مكة؛ لذلك أراد قتادة أن يشعر صاحب حلب أنه أمام شخص من نوع غير الذي عرفه في صاحب المدينة، ومن ذلك ندرك أن دفاع صاحب المدينة عن قتادة واستجابته لندائه لم يكن كافياً لإزالة ما بينهما من ضغائن.

وتفاقم الخلاف بين قتادة وسالم صاحب المدينة في عام ٦١٢ فقد زحف قتادة إلى المدينة وحاصرها وأباد كثيراً من نخلها، وكان سالم ابن المهنا لا يزال في صحبة صاحب حلب في رجوعه إلى الشام، فدافع أصحابه عن المدينة حتى هزموا قتادة إلى وادي الصفراء[٢] ثم انتهت الأخبار إلى أمير المدينة بالشام فغادرها مسرعاً إلى المدينة، وبهذه المناسبة أبدى صاحب حلب ما أسره لقتاده فقد جهز جيشاً عظيماً من التركمان، وأرسله بصحبة أمير المدينة ليعينه على قتال قتادة وقد اتصل جيش سالم بوادي الصفراء فهزم قتادة هزيمة نكراء، وغنم من أمواله وسلاحه شيئاً كثيراً وأسر من جيشه عدداً كبيراً سيره إلى دمشق، وكان في الأسرى كثيراً من الأشراف الحسينيين، ومثلهم من الحسنيين وقد دفعوا إلى بعض

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٢٤ .

(٢) وادي الصفراء في طريق المدينة من ينبع بالقرب من قرية بدر المعروفة. (ع): بل قرية بدر واقعة في وادي الصفراء وهو واد ذو قرى وعيون عديدة يبدأ من قرب الفريش ٤٨ كم من المدينة، وينتهي عند آثار الجار على ٤٥ كم غرب بدر.

أشراف دمشق ليكفلوهم ويشاركوهم في حصصهم من أوقاف الأشراف[1].

وعاد قتادة بعد ذلك إلى مكة دون أن ينال ظفراً، ثم ما لبث أن فكر في توسيع نفوذه بين قبائل ثقيف فزحف في جيشه إلى الطائف فاحتلها بعد أن قاتله مشائخ ثقيف قتالاً عنيفاً، وفي هذه الواقعة فقد كتب أثري كان يحتفظ به حمدان العوفي -وهو من شيوخ ثقيف- في بيته وهو كتاب النبي ﷺ إلى أهل الطائف.

وعاد قتادة إلى مكة بعد أن أطاعته القبائل في الطائف ومن حولها، وقد ترك نائباً عنه في الطائف ليحكمها، وترك بعض عبيده لحفظ الأمن فاتفق بعض رجال من ثقيف على دعوة نائب قتادة والعبيد إلى دعوة عامة في ضاحية من ضواحي الطائف، وكانوا قد دفنوا سيوفهم في رمال المكان المعد للاجتماع، فلما حضروا واطمأن المجلس بهم بادروهم فقتلوهم عن آخرهم[1].

ومن غرائب ما اتفق لقتادة أنه أهدى مرة صلاح الدين الأيوبي مروحة بيضاء من خوص النخل نقش فيها بيتان من الشعر بنسيج من السعف الأحمر، فلما قدم رسوله بها إلى صلاح الدين قال: «إن الشريف قتادة يهديكم هذه المروحة التي ما رأيتم ولا أبوكم أو جدكم مثلها» فاستاء صلاح الدين لسوء التقديم واستفزه الغضب، ثم ما لبث أن سرى عنه عندما لفت الرسول نظره إلى أن المروحة منسوجة من خوص النخلة التي كانت في مسجد النبي ﷺ وقد قرأ فيها صلاح الدين هذين البيتين:

أنا من نخلة تجاور قبرا ... ساد من فيه سائر الناس طرا

شملتني سعادة القبر حتى ... صرت في راحة ابن أيوب أقرا[1]

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

وكان قتادة في أول أمره حسن السيرة طيب الذكر، وقد استطاع أن ينشر الأمان ويقيم العدل والرخاء ويكرم وفادة الحجاج، ثم ما لبث أن أساء السيرة وجدد المكوس ونهب الحجاج في بعض السنين، ويذكر السنجاري[1] في تاريخه أن ولايته اتسعت من حدود اليمن إلى مدينة النبي ﷺ، وكثر عسكره حتى خافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً.

ولا أدري كيف اتسع أمره إلى المدينة بعد الذي رأينا من دفاع صاحبها إلا أنني لا أستبعد أن يكون قد استأنف هجومه عليها بعد الذي ذكرت واستولى عليها. وخطب وده العباسيون في بغداد والأيوبيون في مصر، وأرسلوا إليه بالخلع والأموال.

وخطب قتادة في أول أمره للعباسيين، ولما قطعت علاقتهم به على أثر الحوادث التي ذكرناها عاد يخطب للأيوبيين وحدهم، وأعتقد انه لو مد في أجله لأعلن خلافته ودعا إلى نفسه، وحسبنا أن ابن خلدون يشير إلى ذلك فيذكر أنه كان يرى لنفسه أحقيته للخلافة.

وظل قتادة على أمره حتى اختلف مع ابنه حسن فقتله، وذلك أنه سير جيشاً إلى المدينة على رأسه أخوه وابنه حسن، فلما كان الجيش في بعض الطريق بوادي الفُرُع[2] اجتمع أخو قتادة برؤساء الجيش وأخبرهم بأن قتادة مريض وطلب إليهم أن يعاهدوه على الإمارة، فلما بلغ ذلك حسن بن قتادة دخل على عمه فقتله، فلما اتصلت الأخبار بقتادة عزم على قتل ابنه حسن قوداً في أخيه، فعلم حسن

(١) منائح الكرم «مخطوط».

(٢) وادي الفرع - بضم الفاء والراء - واد ذو عيون ثجاجة وقرى أهلة لقبيلة بني عمرو من حرب، يمر شمال المدينة على ١٥٠ كيلاً ويفرغ على مستورة. (ع).

بذلك فعاد إلى مكة ودخل بيت أبيه سراً وهو مريض، فقضى عليه خنقاً ثم أذاع موته ونادى بنفسه أميراً على البلاد وذلك في سنة ٦١٧هـ(١) .

الحسن بن قتادة: وهكذا تم الأمر للحسن وباشر حكمه بروح الرجل الشديد الذي لا يقبل هوادة في أوامره ودعا للعباسيين والأيوبيين .

النفوذ العباسي: وبالرغم من شدته فإن النفوذ العباسي استطاع أن يتسرب إلى إمارة مكة من طريق المرسوم لأول مرة منذ عهد جعفر الثائر، فإنه ما كاد يوافي المرسوم حتى أقبل الركب العراقي تحت إمرة مملوك من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه «إقباش» يحمل مرسوم الولاية باسم الحسن، وكان الحسن قد وصلته بعض الأنباء بأن أخاه راجحاً اتصل بإقباش وأغراه بنقل الإمارة إليه وبذل له وللخليفة مالاً!! فغضب لذلك حسن وأغلق أبواب مكة دون حاج العراق ومنعهم من دخولها فقاتله إقباش عند باب مكة، ثم ما لبث إقباش أن انفرد عن جنده مصعداً في جبل الحبشي بجوار السور(٢) إدلالاً بمركزه وثقة في نفسه، ولعله أراد أن يتوسل بذلك للمفاهمة - فأحاط به عسكر الحسن وقتلوه، وحملوا رأسه على رمح فنصبه الحسن بالمسعى عند دار العباس، وبذلك انهزم عسكر العراق وأحاط أصحاب الحسن بالحاج لينهبوه فمنعهم حسن من ذلك(٣) .

وهكذا تم الأمر للحسن بعد أن أبلى في سبيل ذلك ما أبلى وبعد أن ضحى بأبيه

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) كان قد أعيد تسوير مكة في عهد قتادة واتُّخذ للسور بابان .

(٣) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٣٤ .

وعمه في سبيل الحكم، وما لبث الحسن أن اعتذر للخليفة العباسي عما حدث فقبل منه .

وكان الحسن أديباً شاعراً، وفي شعره تتجلى روح المغامرة التي تميز بها ومن ذلك :

أبى الله والخطية السمر والظبا وكل كمي لا يـــــرى الذل مذهبا
بأن يتولى أمر مكـــة حاكـــم سوى من له سيف طويل ذو شبا[١]

وظل الحسن في إمارته إلى السنة التالية حيث أجلاه صاحب اليمن الملك المسعود عن مكة انتصارا لأخيه راجح الذي التجأ إليه في سنة ٦٢٠ .

صاحب اليمن في مكة: لم يكن راجح بن قتادة أقل من أخيه الحسن عناداً وجرأة ، فإنه أبى أن يترك ثأره لدى أخيه بعد الهزيمة التي مني بها وهو يقاتل مع إقباش؛ لذلك خف إلى اليمن واتصل فيها بصاحبه الملك المسعود ويلقبونه «إقسيس» .

والملك المسعود هو ابن صاحب مصر الملك الكامل الأيوبي ، وكان يحكم اليمن باسم أبيه الملك الأيوبي ويعتز فيها بقوة تستمد نفوذها من أبيه في مصر .

وقد استطاع راجح أن يستثيره ضد أخيه الحسن في مكة وأن يزين له احتلالها وضمها إلى نفوذ الأيوبيين في مصر واليمن، فمضى المسعود على رأس جيش إلى مكة مصطحباً معه راجحاً بن قتادة فانتهى إليها في ٤ ربيع الأول سنة ٦١٩ أو

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

٦٢٠ هـ وبادرها بالهجوم المفاجئ فلم يشتبك معه المدافعون إلا في شارع المسعى، وقد قاوم الحسن وأصحابه بعض المقاومة، ثم بدا للحسن أنه لا رجاء له في دفاع جيش المهاجمين فأجلي عنها وترك المسعود يحتلها.

ونهب عسكر المسعود بيوت مكة وجردوا المدنيين من ثيابهم وأموالهم ونبشوا قبر قتادة وأحرقوا تابوته، فلم يجدوا الجثة في القبر، فعلم الناس أن الحسن دفن أباه خفية في مكان سري، ورؤي الملك المسعود يصعد فوق قبة زمزم ويرمي حمام مكة «بالبندق»[1] كما رؤي غلمانه في ا لمسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ويقولون خففوا من سعيكم فإن السلطان نائم سكران. وكان الدم يجري من سيقان الناس في الطريق بجوار دائرة السلطنة بالمسعى[2].

ويحز بالنفس ويؤلمها أن يلطخ وجه الإنسانية بأمثال هذه الفظائع الشنيعة لا في تاريخ مكة وحدها ولا بين المسلمين في مختلف ميادينهم، بل في كل بقعة من بقاع الأرض منيت بإنسان ظالم تنشيه خمرة النصر فتنسيه مبادئ الرحمة وحقوق الإنسان، وقد رأيت بعض المؤرخين ينحون باللوم على قسوة أمراء مكة والواقع أنها قسوة لا يبررها دين أو عدل، وأنه يشاركهم في أمثالها كل العابثين في جميع أدوار التاريخ وفيهم من أنصار الإنسانية وزعماء الأديان ودعاة المبادئ ممن تنسيهم نشوة الظفر ما يدعون إليه من دين أو مبدأ إنساني، على أني رغم هذا لا أستبعد المبالغة في كثير مما يرويه المؤرخون عن خصومهم.

---

(١) البندق: كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها - راجع تاريخ التمدن الإسلامي ١٥٩/٥.

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٧٨.

والأنكى من هذا أن الحسن صاحب مكة، وكان قد أساء الأهالي يوم ظفره بما اقترف من فتك لم يمسه في هذا العدوان شيء، فقد نجا بنفسه إلى أطراف البادية دون أن يناله أذى، وترك المظلومين في مكة بعده يعانون من عذاب ما اقترف ويلاً وثبوراً وهكذا «يأكل الآباء الحصرم والأبناء يضرسون».

وأهل موسم الحج في ذلك العام ٦١٩ أو ٦٢٠ فدفع المسعود بجيشه إلى عرفات، ومنع من أن تنصب راية العباسيين على الجبل فيها وأمر بنصب راية والده ورايته، وكاد أن يشتبك معه أمير الحج العراقي لكنه شعر بقلة جنده، وقيل: إنه أباح رفع الراية العباسية قبيل غروب يوم عرفة بعد أن خوفه بعضهم من سطوة العباسيين[1].

وظل المسعود على أمره في مكة إلى ما بعد فراغه من الحج، ثم توجه إلى اليمن بعد أن أناب أحد قواده «عمر بن علي بن رسول» وأبقى لحراسته ٣٠٠ فارس وولّى راجحاً بعض الأعمال المتصلة بالبادية.

ومن الغريب أن أعمال المسعود العنيفة في مكة أفادت ضد الإفساد وشتتت شمل الإرهابيين وقطعت دابرهم فشاع الأمن بين البوادي وكثر جلب الأرزاق وعم الإخاء.

وسهل المسعود على الحجاج أمر دخول الكعبة، فأمر بجعل بابها مفتوحاً ليلاً نهاراً مدة مقام الحج فيها، وأطلق لسدنة الكعبة من بني شيبة مالاً لقاء ما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا وتحاشياً من زحام الناس؛ لقصر المدة التي كانوا يفتحون فيها الباب، وعظم ما يناله الناس من إرهاق وضرب وموت،

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٣٥.

وقد عاد الشيبيون لما يتقاضونه بعد الملك المسعود.

وبنى الملك المسعود القبة الحديد الموجودة على مقام إبراهيم، ولا تزال باقية إلى اليوم، وكانت قبته قبل ذلك غير ثابتة، فقد كانوا ينقلون حجر المقام إذا اشتد الزحام إلى داخل الكعبة أو أحد أركان المسجد (١).

واتصلت أنباء المسعود بالعباسيين في العراق فاستاؤوا وكتب الخليفة إلى عامل مصر وصاحبها الكامل الأيوبي والد المسعود يعاتبه على فعل ابنه، فكتب الأول بدوره إلى ابنه يعنفه ويشدد عليه اللوم إلا أن ذلك لم يغير من خطة الملك المسعود، وقد ظل نائبه في مكة يدعو له ولأبيه في مصر دون العباسيين ثم اقتصر على الدعاء له وحده(٢).

وحاول الحسن بن قتاده أن يعيد الكرة على حكومة المسعود في مكة بعد خروج المسعود إلى اليمن فاستنفر القبائل في ينبع، وسار بهم في جيش حتى انتهى إلى الحديبية «الشميسي» (٣) فخرج إليه ابن الرسول (٤) نائب المسعود فهزمه فولى الفرار متوجهاً إلى بغداد حيث مات بها ودفن في مشهد الكاظمي(٥).

أمير المدينة يحاول استخلاصها: وفي عام ٦٢٢هـ حاول أمير المدينة قاسم الحسيني استخلاص مكة من نائب المسعود ولعله دفع إلى ذلك بإشارة من

(١) شفاء الغرام ٢/ ٣٥.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٣) على ٢٠ كيلو متراً من مكة في الطريق إلى جدة.

(٤) هو عمر بن رسول من قواد الملك المسعود الأيوبي في اليمن، وقد استطاع عمر أن ينجح في قيادته وأن ينادي بنفسه ملكاً على اليمن على أثر وفاة الملك المسعود وأن يقضي على نفوذ الأيوبيين في اليمن، ويؤسس الدولة الرسولية التي عرفت باسمه، وقد حكمت اليمن أكثر من قرنين، وكان عمادهم في أول الأمر على جيش من الأكراد والمماليك ثم استعانوا بأبناء اليمن.

(٥) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

الأيوبيين في مصر* فسار بجيش كثيف إلى مكة وحاصرها نحو شهر ثم استأنف عودته دون أن يظفر منها بنائل[1] .

ياقوت المسعودي: وظل ابن الرسول في نيابته على مكة إلى عام ٦٢٥هـ ثم عاد إلى اليمن وتولى النيابة بعده في مكة ياقوت بن عبدالله المسعودي، وذلك في جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وكان يلقب نفسه «أمير الحاج والحرمين ومتولي الحرب بمكة ومدير أموال الجند»[2] .

موت المسعودي في مكة: وفي سنة ٦٢٦هـ قدم الملك المسعودي إلى مكة لزيارتها، فما لبث أن أصيب بمرض الفالج فتعطلت يداه ورجلاه عن العمل، وقاسى ما لا يطاق من الآلام المبرحة حتى ذكر أنه قال لرجل مغربي: إن نفسي لا تطيب لكل ما لدي من أموال فتصدق علي بكفني، فبعث إليه المغربي بمائتي درهم مع ما يكفي لكفنه، ثم ما لبث أن اشتد عليه المرض وتوفي بعد أن أوصى بألا يدفن إلا في مدافن الغرباء، وقد بنى عليه أحد عبيده بعد ذلك قبة. يقول السنجاري[1]: إنها كانت باقية إلى عهده.. وأقول: إذا كانت القباب تبنى على مثل هؤلاء فما أرخص القباب بين الشارات!** .

طغتكين : وبوفاة الملك المسعود اضطرب أمر الحكم في مكة وقام أصحاب مصر من الأيوبيين يناوئون الحكم اليمني في مكة، ودامت الاضطرابات بين الفريقين عدة سنوات. ذلك أن ابن رسول في اليمن عندما بلغته وفاة الملك

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

* الأرجح أنه دفع من قبل المعظم صاحب دمشق الذي كان على خلاف مع أخيه الكامل صاحب مصر والد المسعود بن الكامل صاحب اليمن.

(٢) شفاء الغرام ٢ / ١٩٩ .

** البناء على القبور ممنوع شرعاً أياً كان صاحب القبر.

المسعود نادى بنفسه ملكاً على اليمن، وبعث مرسومه إلى مكة بإقرار ياقوت المسعودي نائباً عنه، فندب الكامل الأيوبي في مصر جيشاً بقيادة «طغتكين» [1] لإجلاء اليمنيين عن مكة فقاتلهم قتالاً شديداً حتى أجلاهم عنها، وبذلك استولى على إمارتها وخطب فيها للكامل الأيوبي في مصر[1] وسمع الخطيب يقول على المنبر في حق الملك الكامل صاحب مكة وعبيدها !! واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين المحترمين الملك الكامل أمير المؤمنين، ولم أفهم مراده من مكة وعبيدها!! أكان يقصد أن عبيدها دون عظمائها تابعون له أم أن سجعة القافية جاءت بذلك دون أن يقصد بها معنى خاصاً.

راجح بن قتادة: وظل الأمر على ذلك إلى سنة ٦٢٧ حيث استأنف اليمنيون هجومهم على مكة في جيش كثيف، وعلى رأسه راجح بن قتادة وقد نزلوا بالأبطح محاصرين، وأرسل راجح إلى مكة يذكرهم بإحسان ابن رسول إليهم أيام حكمه، فمال رؤساء مكة إليه فلما أحس «طغتكين» بذلك فر إلى وادي نخلة[2] وترك مكة يحتلها راجح وبذلك عادت الخطبة للمنصور بن الملك المسعود من أيوبي اليمن.

بين كـرٍّ وفرٍّ: وظلت مكة عرضة لهجوم القوات الأيوبية من مصر مرة ومن اليمن أخرى نحو ٢٨ سنة، بدأت بهجوم صاحب اليمن في عام ٦١٩ وانتهت

(١) إفادة الأنام «مخطوط»، وطغتكين: هو أخو صلاح الدين الأيوبي.

(٢) وهي نخلة الشمالية وتمتد من وادي فاطمة إلى المضيق غير نخلة اليمانية ويمتد بها الوادي إلى سولة الزيمة من جهة أخرى.

بهجوم أحد أولاد قتادة لاستخلاصها لنفسه في عام ٦٤٧ كما سيأتي .

وقد تداول الحكم في مكة كل من الفريقين المتقاتلين أثناء ذلك نحو ثماني مرات ، قاست مكة في تضاعيفها من الأهوال والمصائب ما لا يوفّى حصره ، وعانت من غلاء المعيشة وقلة الأرزاق ما لا يطاق .

واضطر صاحب اليمن الملك المنصور بن رسول أن يقود بنفسه جيش اليمن في واقعتين من وقائعه كانت إحداها في عام ٦٣٥ وكانت الثانية حوالي عام ٦٣٩ ، وقد ذكروا أن المحتلين لما علموا بقدومه إلى مكة في المرتين أحرقوا دار الإمارة فيها بما ذخرت به من عتاد وسلاح كما أحرقوا كثيراً من الأرزاق[1] وعندما ظفر ابن رسول بإجلاء أيوبي مصر في ٦٣٩ أقام بمكة حتى صام رمضان بها ، وأبطل المكوس والجبايات وكتب بذلك مربعة جعلت قبالة الحجر الأسود ، وقد دامت هذه المربعة عدة سنوات ثم اقتلعها خصومه على أثر إجلائه من مكة[2] .

وتداول الحكم في مكة أثناء هذه الفتن جماعة منهم «طغتكين» وقد وليها مرتين وابن مجلي ، وجفريل وهما من مماليك الأيوبيين في مصر ، كما تداولها في المرات التي احتلها أيوبو اليمن ، راجح بن قتادة في أكثر فترات الاحتلال ، ثم فخر الدين ابن السلاح ثم محمد بن المسيب اليمني[3] .

الحسن بن علي بن قتادة : وقد استبد المسيب آخر ولاة اليمنيين بأمره في مكة واستولى على بعض الصدقات الخاصة بالأهالي ومنع الجند نفقتهم وأعاد

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» .

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٠ .

(٣) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» .

الجبايات والمكوس[1] فاقترح بعض كبار العرب على أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة استخلاص إمارة مكة لنفسه وحسنوا له ذلك وكان يقيم في ينبع، فسار في مقاتلته إلى مكة فحاصرها ثم حمل على أصحاب اليمن حملة موفقة استولى فيها على مكة في يوم الجمعة ٩ ذي القعدة سنة ٦٤٧ بعد أن قبض على ابن المسيب وصادر خيله وسلاحه وأمواله ثم أطلقه.

وباستيلائه على مكة انطلق عمه راجح بن قتادة إلى المدينة يستنجد أميرها من أولاد المهنا بني حسين وهم أخواله فأنجدوه بنحو ٧٠٠ فارس ليجلي بها الحسن بن علي بن قتادة[2].

ظهور أبي نمي الأول: وعندما شعر الحسن بن علي بن قتادة في مكة بحركة راجح في المدينة وعلم أنه سيهاجمه بقوة من المدينة، كتب إلى ابنه أبي نمي في ينبع أن يقطع الطريق على المهاجمين.

وكان سن أبي نمي في هذا العهد لا يتجاوز السابعة أو الثامنة عشرة، إلا أنه كان موفور النشاط معروفاً بالشجاعة وقد استطاع أن يخرج عليهم بأربعين من قومه فيقطع طريقهم ويهزمهم.

ودخل أبو نمي مكة بعد هزيمة عم أبيه منصوراً فأكرمه أبوه واتخذه شريكاً له في الإمارة[3] وهي أول شراكة ابتدعت في إمارة مكة تلاها كثير من نوعها فيما سيأتي من فصول.

---

(١) الذهب المسبوك ٨٠.

(٢) افادة الانام «مخطوط».

(٣) إفادة الأنام «مخطوط»

ويشيد الفاسي[1] بأوصاف الحسن فيضعه من الشجاعة في المكان الأعلى ويقول: إن أمه - وهي حبشية - كانت مثلاً طيباً في النساء، لحقته في بعض حروبه في هودج وقالت له: إنك تقف اليوم موقفاً إن ظفرت فيه قال الناس: ظفر ابن بنت رسول الله، وإن فشلت قالوا: فشل ابن الأمة السوداء، فانظر لنفسك فإنه لا موت قبل فراغ العمر، فكان لذلك أعظم الوقع في نفسه؛ لأنه قاتل في تلك الموقعة حتى ظفر.

وفي عهد الحسن حج الملك المظفر بن المنصور صاحب اليمن في سنة ٦٤٩ فلم يناوئ الحسن ووزع في مكة كثيراً من العطايا وكسا رؤساء الحرم، ووصلت أعطياته إلى كل بيت في مكة وشملت كثيراً من الحجاج[2].

سقوط الأيوبيين والعباسيين: حدثت في هذه الأثناء حوادث خطيرة في العالم الإسلامي دالت على أثرها الدولتان العظيمتان اللتان كانتا تهيمنان على المقدرات السياسية في الحجاز إلى حد، وبذهابهما انتقلت السياسة إلى دور جديد نتحدث عنه في الفصول الآتية.

ولعلنا لسنا في حاجة إلى تفصيلات مطولة عن زوال الدولتين العظيمتين؛ لأن المطلع على التاريخ الإسلامي يعلم أن الدولة الأيوبية ثار عليها مماليك الأتراك وأعلنوا سقوطها في سنة ٦٤٨ وأسسوا على أنقاضها حكومة جديدة دعيت بدولة المماليك الأتراك، كما يعلن أن الدولة العباسية بعد أن ظل الفسّاد يسري في كيانها نحواً من أربعمائة سنة على أثر انقضاء دورها الأول الذي كانوا يسمونه العصر

(١) العقد الثمين «مخطوط».

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٤.

الذهبي ثار عليها التتار في عام٦٥٥* وقضوا على آخر خليفة فيها .

ومن الغريب أن تتشابه في كل من الدولتين عوامل السقوط وأسبابها ، فقد كان أصحاب السلطان في كل من الدولتين يستعينون بمواليهم من الأتراك ؛ لتثبيت دعائمهم ويولونهم من النفوذ والسيطرة ما يهيئ لهم مراكز ممتازة ، فأصبحت هذه المراكز في نهاية الأيام مصدراً خطيراً استطاع أمراء الأتراك في العباسيين أن يحكموا به مقدرات الخلافة وأن يحيلوا الخليفة إلى شخص آلي يحكمون البلاد باسمه وليس له شيء فيما يحكمون .

كما استطاع مماليك الأتراك في الدولة الأيوبية في مصر أن يستبدوا بقيادة الجند وأن يتفقوا على قتل مليكهم توران بن الصالح الأيوبي ، وأن يولوا الأمر جاريته شجرة الدر ثم يقصوها وينادوا بمملوك آخر هو «عز الدين أيبك»[١] .

في مكة: ونحن الآن بعد هذا العرض السريع عائدون إلى تعقيب الحوادث في مكة وتتبع أنبائها ، وكنا قد تركنا أميرها الحسن بن علي بن قتادة يتولى إمارتها بعد أن استخلصها من عامل الأيوبيين في اليمن .

ولعله من إعادة القول أن نشير إلى أن نفوذ الأيوبيين في مصر والعباسيين في بغداد قد تقلص قبيل سقوط حكومتيهما وبعده ، وأن الحسن بعد أن اعتمد جهوده الخاصة في استيلائه على مكة بات يتمتع بحكم لا تشوبه شائبة ويدعو في الخطبة لنفسه وحده .

جماز بن الحسن: ولم يدم أمر الحسن بن علي بن قتادة في مكة طويلاً فقد

* الصواب في عام ٦٥٦هـ.

(١) اشترك مع عز الدين حفيد الأيوبيين اسمه الأشرف ، كان عمره ثماني سنوات ، ثم ما لبث أن خلفه عز الدين وانفرد بالملك .

هاجمه في رمضان عام ٦٥١هـ ابن عمه جماز بن الحسن بن قتادة في عسكر كثير صحبة الركب الشامي فتغلب عليه وقتله واستولى على حكم مكة .

وساعد جماز في هذه الحملة صاحب الشام الذي وعده أن يخطب باسمه في مكة، وقد دعا جماز لصاحب الشام مدة قصيرة، ثم دعا لصاحب مصر الأشرف حفيد الأيوبيين(١) .

ومع هذا لم يبق في إمارتها إلا شهراً واحداً؛ ذلك لأن راجحاً بن قتادة بطلنا القديم وحليف اليمن قبل الحسن المقتول هاجم مكة في جيش قوي لم يوضح المؤرخون هل ساعده به اليمنيون أصدقاؤه القدماء الذين كانوا سئموه أم استطاع أن يجمعه من مناصريه في البادية؟ ولكن الذي ثبت أنه ظفر بإجلاء جماز وأنه عاد إلى الحكم في ذي الحجة من السنة نفسها ٦٥١ واستمر بها إلى ربيع الأول سنة ٦٥٢ ، وبذلك كانت آخر ولايته بمكة بعد أن تداول حكمها نحو ثمان مرات، ومنيت مكة في هذه الفترة بغلاء عظيم وعطش بيعت فيه «شربة الماء» بدرهم كما بيعت الشاة بأربعين درهم .

غانم بن راجح: وفي سنة ٦٥٢ انتزع ابنه غانم منه إمارة مكة بعد أن تغلب عليه بدون قتال يذكر، ويبدو أن راجحاً سئم النضال بعد أن غلبه ابنه وكان قد تقدمت به السن وطحنته الأهوال فاستكان في داره حتى وافاه الموت بعد سنتين من اعتزال الإمارة تقريباً(٢) .

ويضيف الدحلان في خلاصة الكلام راجحاً بن قتادة إلى قائمة الشجعان

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٣٧ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

ويقول: إنه كان من طوال الرجال، إذا قام وصلت يداه إلى ركبتيه، وإنه كان عظيم الشأن قوي الشكيمة.

ولم يدم غانم طويلاً في حكمه بعد غدره بأبيه وانتزاع الإمارة منه، فقد ثار عليه بعد أشهر جماعة من بني عمومته آل قتادة، وعلى رأسهم إدريس وابن عمه أبو نمي الأول[1].

إمارة أبي نمي الأول: وقد تغلب عليه الثائران فانتزعا منه الأمر في شوال من السنة نفسها عام ٦٥٢، واضطلع الاثنان بالحكم في مكة مشتركين، وبذلك عاد أبو نمي إلى الحكم بالشراكة مرة أخرى، فقد شارك أباه الحسن فيما مر بنا وهو اليوم يشارك عمه إدريس، واتصل الخبر بصاحب اليمن الملك المظفر عمر بن رسول، وجاءته رسله بأن الأمر في مكة قد خرج من حليف اليمن راجح بن قتادة إلى ابنه ثم إلى الثائرين إدريس وأبي نمي، فجهز جيشاً إلى مكة بقيادة ابن برطاس، وقد انتهى الجيش إلى مكة والتحم في قتال شديد في قوز المكاسة[2] بأسفل مكة ثم دخلها واستولى عليها في ذي القعدة من السنة نفسها ٦٥٢هـ وظل في إمارتها إلى المحرم من عام ٦٥٣ حيث أعاد الكرة عليه الثائران إدريس وأبو نمي من آل قتادة فأجلياه عنها.

وكان القتال شديداً في هذه المرة سفكت فيه الدماء بالحجر داخل المسجد الحرام، وقد أسر ابن برطاس في هذه الموقعة ففدى نفسه بمال وقفل راجعاً إلى اليمن واستمر الشريكان على ولاية مكة ثم انفرد بها أبو نمي مستقلاً في عام

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٢.

(٢) رمل بجوار كدي بمسفلة مكة، واسمه مشتق من المكس، ولعل المكوس كانت تؤخذ عنده من حجاج اليمن. والعامة تخطئ في اسمه فتقول: قوز النكاسة. (ع).

٦٥٥هـ.

ويذكر الفاسي ما يدل على أن إدريس أحد الشريكين تغيب في زيارة أخيه راجح فاستقل أبو نمي بالأمر[1] .

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٠٢ وما بعدها.

النواحي العامة في عهد الأيوبيين

الحالة السياسية: كان انتصار الأيوبيين في مصر والشام وقيام دولتهم على أنقاض الفاطميين انتصاراً للعباسية ونجاحاً لقضيتها في هذا الجزء من بلاد العرب، فقد كان صلاح الدين في مصر يميل إلى ممالأة العباسيين وتقديس الخلافة فيهم، ويسخِّر جيوشه في خدمتهم والدعاء لهم على منابر البلاد التي يحكمها لنفسه أو التي يمتد نفوذه إليها كالحرمين.

وليس من شك في أن أشراف مكة خسروا بسقوط الفاطميين حليفاً كانوا يتفقون معه في أكثر المبادئ، وإن كانوا يختلفون وإياه في بعض الغايات، وأنهم وجدوا أنفسهم بعد سقوطه في حاجة إلى مهادنة الأيوبيين وإرضائهم بقبول الدعاء للعباسيين وإشراكهم في ذلك على منبر مكة.

ويبدو أن العباسيين لم يقنعهم اختصار علاقتهم بمكة على الدعاء لهم على منابرها، وأنهم أرادوا أن يتوسعوا فيها فاستأنفوا إرسال ركبهم الذي انقطع عن الحج عدة سنوات وأرادوا أن يمدوا نفوسهم إلى شؤون الحكم، وأن يباشروا إقصاء من لا يرغبونه لإمارة البلاد، ليقربوا بعض بني عمومتهم ممن يختارون، فشعر مكثر بن عيسى بالخطر المحدق وراح يبني ما يحصنه في مكة.

وقد حدث ما توقعه مكثر فنشبت الفتنة بين الركب العراقي على النحو الذي أسلفناه في حينه، ولم ينتصر العباسيون لأن مكثراً وأخاه داود ظلا يتداولان الحكم بينهما نحواً من ثلاثين سنة، ورغم عدم رضاء العباسيين، وكانا يتمتعان بشؤونهما الداخلية إلا أن ابن جبير يشير في رحلته إلى أن القضاء في عهد مكثر

كان يتعين من الخليفة العباسي؛ لأنه يذكر أن أمير الحج العراقي عندما وصل إلى مكة في عام ٥٧٨هـ كان يصحبه الخطيب المعين للقضاء في مكة، ورغماً من هذا فإن مكثراً وأخاه كانا يفرضان أوامرهما في مكة، ويقرران رسومهما على الحجاج لا يمنعهما من ذلك مانع، حتى إن شكايات الحجاج عندما اتصلت بصلاح الدين الأيوبي لم يستطع أن يغير من شأن المكوس إلا بما دفعه من تعويض قدَّره المؤرخون بثمانية آلاف أردب من القمح تصرف لصاحب مكة؛ لقاء العفو عن المكوس المطلوبة من الحجاج، ولعلها كانت في بعض السنين تزيد أو تنقص؛ لأن الفاسي يذكر هذا التعويض ويقول: إنه كان ألفي دينار وألف أردب قمحاً وإقطاعات بصعيد مصر واليمن[1].

وعندما استطاع قتادة بن إدريس أن يجلي بني عمومته عن مكة، وعلى رأسهم داود بن عيسى، ويؤسس على أنقاضهم لطبقته «الرابعة» حكماً جديداً في مكة حاول العباسيون إخضاع الحكم الجديد لنفوذهم، إلا أن قتادة كان أشد شكيمة من سابقيه فقد ناوأ نفوذهم وأبى أن يعترف إلا بدعاء الخطبة لهم مرة وللأيوبيين أخرى في الأحيان التي اضطر فيها إلى ذلك.

أما في عهد الحسن ابنه فقد استطاعوا أن يجعلوا نفوذهم يتسرب إلى الإمارة في مكة، وأن يهيئوا الحسن لقبول مراسم التولية وزاد الأمر ضغثاً على إبالة، عندما اختلف الحسن، مع أخيه راجح وعمد الأخير إلى تمكين أيوبي اليمن في مكة سنة ٦٢٠ ثأراً من أخيه الحسن، وبذلك ضاع استقلال البلاد وتركت مكة

(١) كان يستوفي المكوس وكيل الأمير في عيذاب، وهي من شواطىء الصعيد ثم يعلم على اسمه علامة الأداء، والا فيمنع من الحج في جدة، وربما سجن أو عوقب. راجع شفاء الغرام ٢ / ٢٣١ .

سنة ٦٤٧ مسرحاً لفوضى الطامعين من الأيوبيين في مصر واليمن، يحتلونها بالتناوب ويذيقونها من ويلات الحروب والفتن ما يذيقونها على النحو الذي فصلناه في كلامنا في الفصل السابق.

إلا أن الأشراف ما لبثوا أن استخلصوا مكة من مغتصبيها بقيادة الحسن وابنه أبي نمي الأول وهما من ذرية قتادة، وبذلك استطاعوا أن يستقلوا بحكمها، وبالرغم من الصعاب التي واجهها أبو نمي من أقاربه المنافسين فإنه استطاع في النهاية أن يظفر بالإمارة، ويحفظها مستقلة إلى أن انقرض عهد الأيوبيين في عام ٦٤٨ وأفل بعده نجم بني العباس في عام ٦٥٥، ولاح في أفق السياسة كوكب المماليك الأتراك الذين استولوا على شؤون الحكم في مصر، كما نبينه في الفصل الآتي:

الناحية العلمية: وظلت الحركة العلمية في مكة على وهنها الذي ذكرناه في عهد الفاطميين تقتصر على حلقات المدرسين وأهل العلم، وأشهر البيوت التي تخصصت في طلب العلم ووقفت أبناءها عليه في هذا العهد بيت الطبري الذي ذكرناه في العهد الفاطمي، ثم آل ظهيرة القرشيين، وآل النويري، وقد لمع من البيتين الآخرين أسماء كثيرة في هذا العهد، واستطاع أصحابها أن يشاركوا آل الطبري في رئاسة التدريس بمكة وأن يتداولوا بدورهم الاضطلاع بأعباء خطبة المسجد الحرام والإمامة وأمور الفتوى فيه، وكان بعض آل الطبري يسكنون بين المحناطة والمدَّعى، ولا يزال لهم حوش بجوار المكان المعروف بالقبان يسمى حوش الطبري[1].

---

(١) زال الحوش والقبان في الهدميات الخاصة بتوسعة المسجد الحرام عام ١٣٧٨هـ.

الناحية الاجتماعية والعمرانية: يبدو أن مكة لم تتأثر بالأيوبيين كما تأثرت بالفاطميين من قبل لضيق المدى الذي تمتع فيه الأيوبيون بنفوذهم في مكة، إلا أن صلاح الدين كان له بعض الأثر فيها؛ فقد نجح في إلغاء الأذان بحي على خير العمل، الذي كان مستعملاً في العهد الفاطمي، وبنى في مكة داراً لضرب النقود باسمه.

ولما تولى الأمر قتادة مؤسس الطبقة الرابعة من الأشراف بدأ يعنى ببعض العمران، فأنشأ سوراً في أعلا مكة وسهل العقبة التي كانت تفصل الشبيكة من حارة الباب، حيث بنى المظفر مكانها سوراً (١) وأعتقد أن العقبة كان مكانها موقع الريع بين الشبيكة وحارة الباب، وأن حارة الباب سميت كذلك لأن باب السور كان فيها.

الناحية الاجتماعية في عهد الأيوبيين: وأنشئت في مكة في هذا العهد عدة برك كانوا يتخذونها لتخزين المياه، منها بركة الصارم، وكانت تتصل بسور المعلاة اتصالاً مباشراً مما يلي محلة شعب عامر اليوم، ووصف ابن جبير مكة في رحلته في هذا العهد عام ٥٧٩ فقال: إنه رأى فيها ثلاثة أبواب هي: باب المعلاة، وباب المسفلة، وباب الزاهر، وقال: إن سوقها الحافل هو بين الصفا والمروة، وسوق العطارين والبزازين على مقربة منها. وقال: إن بمكة حمامين أحدهما: للفقيه التعايشي أحد الأشياخ في الحرم، والثاني: لوزير صاحب الموصل الشيخ جمال الدين، ولعل هذين الحمامين هما الذين أوردناهما في عهد الفاطميين نقلاً عن الرحالة الفارسي ناصر خسرو، ثم قال: وقد شاهد البلاط في «دار الندوة» كله مصاطب تحت قسي «حنايا» يجلس فيها الناسخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة.

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

وتحدث ابن جبير عن عناية المكيين بحفلاتهم فقال : إنه رآهم ليلة رجب يحتفلون بالعمرة ، فيخرج النساء إليها بالهوادج يسيل بها أباطح مكة حتى لا يبقى في مكة من أهلها إلا من خرج للعمرة ، وقد زينت الهوادج بقلائد من الحرير وفاضت عليها الأستار المزركشة التي تسحب أذيالها على الأرض[١] ، وفي صباح رجب يخرج الأمير إلى العمرة في حشد عظيم ويخرج المعتمرون قبيلة قبيلة وحارة حارة فرساناً ورجالاً يتواثبون ويتثاقفون الأسلحة حراباً وسيوفاً في حذق عجيب ، وكانوا يرمون السيوف في الهواء ثم يتلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم بالرغم من شدة زحامهم ، فإذا عاد الأمير من العمرة هرع إلى المسجد وشرع يطوف في حشده العظيم[٢] .

وطواف الأمير في هذا العهد له طرافته ، وقد شهد ابن جبير الأمير مكثر يطوف في حاشيته ، فوصفها بإسهاب ، ويتلخص ذلك في أن للأمير قراءً يتقدمون موكبه إلى الطواف ، يتقدمهم رجال الحرس من السودان شارعين حرابهم ، فإذا بدأ الطواف شرع مؤذن صبي يبلغ الحادية عشر ، وهو أخو المؤذن الزمزمي يغرهد فوق قبة زمزم داعياً للأمير ، فإذا بدأ الأمير من الركن اليماني قال : صبَّح الله الأمير بالسعادة الدائمة والنعمة الشاملة ، ثم يصل ذلك بكلام مسجوع مطبوع حفيل بالدعاء ، ثم يختمه ببعض أبيات من الشعر في مدحه ، فإذا شرع في الشوط الثاني اندفع بدعاء آخر ووصله بأبيات غيرها من الشعر ، وظل على ذلك إلى نهاية الطواف[٣] .

(١) رحلة ابن جبير ١٠٤ .
(٢) ابن جبير ١٠٥ .
(٣) المصدر نفسه ٦٩ .

ويذكر ابن جبير أن الأمير مكثر كان يسكن بالقرب من المسجد الحرام أمام باب علي في دار تتصل بالميل الأخضر حيث يبدأ الساعون في الهرولة .

ويصف ابن جبير عادة صيام رمضان في مكة فيقول ما خلاصته : إن دبادب الأمير أخذت تضرب في مكة ليلة الشك إيذاناً بصيام يوم الشك ، وبدأ المسجد يتلألأ نوراً وتفرق الأئمة فرقاً لإقامة التراويح ، فلا يكاد يبقى في المسجد زاوية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه ، وقد صفت الشموع على اختلاف أشكالها في محاربه ، ويطوف بعضهم بين تسليمتين سبعاً ، وللمسجد فرقعة(1) يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من آذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء ، ويتولى التسحير في مئذنة باب علي المؤذن الزمزمي لقرب المئذنة من دار الأمير ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه في أصوات رقيقة ، وقد نصبت في أعلى المئذنة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع ، أنيط بطرفيها قنديلان يطفآن إذا حان الإمساك ، وأهل مكة في سطوحهم المرتفعة البعيدة من المسجد يمسكون إذا طفئ القنديلان(2) .

ويذكر ابن جبير احتفال الناس في مكة بليلة النصف من شعبان فيقول : إن مواكبهم تزدحم في كل مكان في المسجد ، والجهلة يعتقدون أن زمزم تفيض في هذه الليلة حتى تطفح فيزدحمون على التبرك بمائها(3) وأقول : إن هذا التخريف ظل سارياً في مكة يعتقده عوامها طوال الأجيال ، ولم ينفع فيه إنكار حتى قضت حكومة جلالة «الملك عبدالعزيز آل سعود» في العهد الأخير على هذه الخرافة .

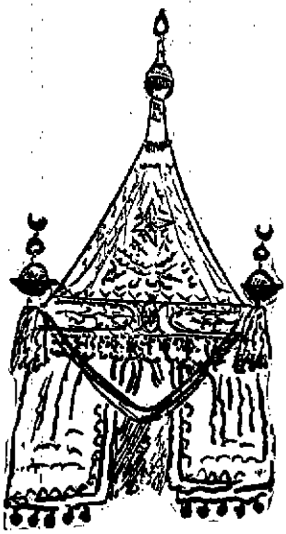
---

1) الفرقعة نوع من الكرابيج يضرب بها في الهواء فتحدث صوتاً مدوياً .

(2) ابن جبير ١١٩ وما بعدها .

(3) ابن جبير ١١٥ .

طريق الحج: وفي هذا العهد بدأ سبيل الحج يتحول معظمه من طريق عيذاب والقصير في الصعيد إلى العقبة شرقي مصر حيث ينحدرون براً إلى شمالي الحجاز، فقد سافرت «شجرة الدر» على رأس قافلة من الحجاج من ذلك الطريق، فتحولت القوافل إليه وكان يقلها «محمل» على شكل هودج اتخذ فيما بعد شعاراً لقافلة المصريين ثم قلدهم فيه بعض الأمم من المسلمين.


*

وحج ابن جبير في هذا العهد من طريق عيذاب فوصف القوافل التي كانت تسير بين قوص وبينها وقال: إن المترفين فيها كانوا يمتطون «الشقاديف» وهي أشباه المحامل يوصل منها اثنان بالحبال، وتوضع على البعير، ولها أذرع قد حفت بأركانها يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله يطالع فيها متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب، ومن شاء ممن يستخير اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكهاً.

والذي أقوله: إن هذا الوصف يشبه وصف «الشقادف» التي كنا نركبها فوق

* صورة المحمل.



صورة الشقاديف إلى عهد قريب قبل شيوع السيارات وهي تشبه
الشقاديف التي أشار إليها ابن جبير في رحلته

الإبل، ولا تزال بقاياها إلى عهد قريب، ويفهم من هذا أن استعمال الشقاديف لم يكن خاصاً بالحجاز، بل كان مستعملا في مصر.

الإصلاح في المسجد: ولم يذكر المؤرخون أعمالاً كبيرة للأيوبيين في المسجد، بل إنهم ذكروا من الإصلاحات ما كان في عهد العباسيين أو بعض الأغنياء المسلمين.

فقد أنشأ شرف الدين أحد مماليك المستنصر بالله العباسي في عام (٦٤١هـ) بيمارستاناً بالقرب من باب الزيارة في مكان المدارس التي تسكنها قبل اليوم المحكمة الشرعية، كما بنى مدرسة على يمين الداخل إلى باب السلام، وأوقف فيها كتباً كثيرة، وبنى حاشية المطاف[١].

يقول قطب الدين: إن الكتب التي أوقفت تفرقت في عهده «عهد القطبي» شذر مذر، وصارت المدرسة رباطاً، وفيه محل للتدريس، وبه كتبُ بعض المتبرعين.

وفي عام ٥٧٦ هـ أمر الناصر أبو العباس بفرش حجر إسماعيل بالرخام[٢] وفي

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ص ١٧٤.

عام ٦٢٩هـ أمر المستنصر بالله بتعمير الكعبة وسقفها وبعض أركانها[١] وكان العباسيون يكسون الكعبة طوال هذا العهد ويكتبون في طرازها «حزامها» آيات من القرآن كما يكتبون اسم الخليفة، ويذكر ابن جبير أن كسوتها كانت خضراء.

ويذكر ابن جبير أن بعض أرض المطاف كان مبسوطاً بالحجارة منها البيض كأنها الرخام، ومنها السود والسمر، وقدر عرض هذا الفرش بتسع خطوات ثم قال: وفرش باقي المطاف بالرمل الأبيض إلا جهة مقام إبراهيم فقد اتصل فرش الحجر حتى أحاط به. ثم قال: وطواف النساء في الجزء المفروش بالرمل من أرض المطاف[٢].

وكان المسجد يضاء في هذا العهد بمشاعل وصفها ابن جبير في رحلته فقال: إنها توقد في صحاف من حديد فوق خشب مركوزة، تطيف بحاشية المطاف وعلى بعد يسير منه فيتقد الحرم نوراً. ثم قال: ويوضع الشمع بين يدي الأئمة في محاريبهم[٣].

ومحاريب الأئمة هي المقامات التي ذكرنا إنشاءها في العهد الفاطمي ليصلي فيها الأئمة الأربعة.

وقد وصف ابن جبير صلاة الأئمة في رحلته إلى مكة في عام ٥٧٨هـ فقال: وهم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية[٤] وأشراف هذه البلدة

(١) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ٢٣٢.

(٢) رحلة ابن جبير ٥٧.

(٣) المصدر نفسه ٧٥.

(٤) الزيديون هم أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهم يقولون بإمامة أولاد علي، ويجوزون إمامة المفضول على الأفضل للمصلحة العامة، وكانت الشيعة ترفض هذه المبدأ فسميت كل طوائف الشيعة روافض إلا الزيدية، وأهم مواطن الزيدية اليوم في اليمن، وكان أول من دعى فيها إلى مذهب الزيدية هو السيد يحيى بن القاسم المرسي جاء إلى اليمن في عام ٣٨٠ هجرية وأقام في صعدة، وملك ما بينها وبين صنعاء بعد وقائع عظيمة حاربه فيها عمال العباسيين.

على مذهبهم، وهم يزيدون في الأذان «حي على خير العمل[1]».

أقول: وقد مر بنا أنه قضي على زيادة «حي على خير العمل» في الأذان في العهد الأيوبي، ولكنه لا يستبعد أن يكون قد أعيد في فترات؛ لأن أكثر أشراف مكة كانوا يميلون إلى مذهب المتشيعين.

خطيب الجمعة في المسجد: ثم قال: وأول من يصلي بالناس من أئمة السنية الشافعي وله حطيم حفيل بإزاء مقام إبراهيم، وهو خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان ،وقد عقد الخشب على رجلين من الجص، واعترض في أعلى الخشب خشبة فيها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج.

ثم قال: ويصلي بعد الشافعي إمام المالكية قبالة الركن اليماني، وله محاريب تشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها، ثم يصلي الحنفي قبالة الميزاب تحت حطيم موضوع له، وهو أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها؛ لأن دول الأعاجم كلها على مذهبه، ويصلي الحنبلي مع صلاة المالكي في حين واحد قبالة الحجر الأسود والركن اليماني، وله حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي[2].

ويقول ابن ظهيرة القرشي: إن صلاة المغرب كان يصليها الأئمة الأربعة في وقت واحد فيحصل للمصلين بسبب ذلك لبس كثير.

وجاء في حاشية ابن عابدين على الدر المختار أن بعض العلماء أنكروا تعدد الجماعات في ذلك العصر، وأفتوا بعدم جواز ذلك على المذاهب الأربعة، ويشير ابن ظهيرة أن تعدد الجماعات بقي في المسجد إلى عهد الشراكسة ثم ألغي ثم أعيد

(١) رحلة ابن جبير ٧٣.

(٢) المصدر نفسه ٧٤ وما بعدها.

العمل به مرة أخرى، أقول: وقد ظل العمل به إلى أن ألغي في عهد الحكومة السعودية الحاضرة.

وفي يوم الجمعة يدفع المنبر على بكرات حتى يتصل بصفح الكعبة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويعلوه الخطيب مستقبلاً المقام، فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوباً أسوداً معتماً بعمامة سوداء «وهو شعار العباسيين» وعليه طيلسان أسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر العباسي، وعليه الوقار والسكينة، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يحملهما رجلان من المؤذنين، وبين يديه أحد القومة في يده «الفرقعة» (١) ينفضها في الهواء فيسمع لها صوت عال يسمعه من داخل الحرم وخارجه؛ فيكون إعلاناً بخروج الخطيب، ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه لابساً السواد على عاتقه السيف، وقد أمسك بمقبضه، وتُركز الرايتان على جانب المنبر، فإذا صعد الخطيب أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف؛ فيضرب بنصل السيف ضربة على الدرج يسمع بها الحاضرون وهكذا على سائر الدرج، فإذا استوى في أعلاه استقبل الناس وسلم عليهم ثم يقعد ويؤذن المؤذن على قبة زمزم، فإذا فرغ من خطبته دعا للخليفة العباسي ثم لأمير مكة ثم لسلطان الأيوبيين، حتى إذا انتهى من خطبته بدأ الصلاة ثم انصرف على الوضعية التي أتى بها ثم يعاد المنبر إلى مكانة إزاء المقام(٢) .

مقام إبراهيم لم يكن ثابتاً: ولم يكن مقام إبراهيم ثابتاً في موضعه كما هو اليوم، بل كان ينقل من مكانه أيام الموسم ليصان في جوف الكعبة وكانت له قبة

---

(١) قدمنا أن الفرقعة نوع من الكرابيج يضرب بها في الهواء فتحدث صوتا مدوياً .

(٢) ابن جبير ٩٧ .

من خشب يرفعونها عنه في بعض المواسم ويجعلون بدلها قبة من حديد، ويقول الفاسي[1]: إنه لا يعرف متى جعل المقام ثابتاً في القبة، ثم يقول: وأظن أن القبة التي فوق القبة الحديدية أنشئت في عهد الملك المسعود صاحب اليمن، وأنه أول من بناها، وقد ذكرنا ذلك في عهد الحسن بن قتادة[2].

ويصف ابن جبير شكل المسجد بما يطول سرده، وتجده مفصلاً في رحلته، ثم يذكر قبة زمزم والقباب التي كانت بجوارها، ويتلخص ذلك في أن باب قبة زمزم يتجه إلى الشرق، وباب قبة العباس وقبة اليهودية يتجهان إلى الشمال[3]، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك، والقبة العباسية كانت سقاية الحاج، وهي حتى الآن «في عهده» يبرد فيها ماء زمزم، ويخرج مع الليل ليسقي الحاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منهم ذو مقبض واحد، ثم يقول: وفي القبة العباسية خزانة تحتوي على تابوت متسع مبسوط، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة بخط زيد بن ثابت منتسخ سنة ٢٨ من وفاة رسول الله ﷺ. كبير الورقات واسعها. ثم يقول: وأهل مكة متى أصابهم قحط أو نالهم شدة أخرجوا المصحف وفتحوا باب الكعبة ووضعوه في قبة المقام «داخل الكعبة»، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم متضرعين، فلا ينفصلون عن مقامهم حتى تكون رحمة الله قد تداركتهم، ويقول: وفي جانب قبة زمزم الذي يقابل الحجر الأسود مصطبة من الرخام دائرة بالقبة يجلس الناس فيها يشاهدون الكعبة. ثم يقول: وتفتح الكعبة كل يوم إثنين ويوم جمعة كما تفتح في كل يوم من رجب، وللباب كرسي كبير شبه المنبر له تسع درجات

(١) شفاء الغرام ١ / ٢٠٤ .
(٢) ويذكر ابن جبير في رحلته أن مقام إبراهيم كان في عهده غير ثابت.
(٣) ابن جبير ٧٢ .

مستطيلة، قد وضعت له قوائم من الخشب مطمئنة مع الأرض؛ لها أربع بكرات كبار مصفحة بالحديد لمباشرتها الأرض يجري الكرسي عليها حتى يصل إلى البيت[1]. وأقول: إن هذا يشبه ما نسميه اليوم «بالمدرج»، وهو قائم بجوار باب بني شيبة يدفع على بكرات في الأرض إلى باب الكعبة إذا فتحت للدخول العام.

شكل المسجد في العهد الأيوبي: ويذكر ابن جبير منائر المسجد فيقول: إنه رآها سبع صوامع ذات أشكال بديعة ارتفعت بمقدار النصف، مركنة من الأربعة جوانب بحجارة رائعة النقش، عجيبة الوضع، أحاط بها شباك من الخشب وارتفع عن الشباك عمود في الهواء، كأنه مخروط يستدير بأعلاه شباك آخر من الخشب، والذي أقوله: إن هذه المنائر التي شهدها كان أكثرها من صنع الفاطميين، وقد تغير كثير من أوضاعها في العهد العثماني فأصبحت على غرار المنائر التركية، وقد أزيلت وحلت محلها المنائر الموجودة اليوم بعد التوسعة السعودية للمسجد الحرام.

---

(١) ابن جبير ٧٦ وما بعدها.

في عهد المماليك الأتراك والشراكسة

أبو نمي الأول: ظل أبو نمي وعمه إدريس يحكمان مكة بالاشتراك عدة سنوات، ثم عادا إلى الاختلاف فخرج إدريس من مكة غاضباً، وبقي أبو نمي في حكمها منفرداً[١].

وفي هذه الأثناء كان مماليك الأتراك في مصر قد فرغوا من أعمال التأسيس في حكومتهم كما أسلفنا في الفصل السابق، واستطاع الظاهر بيبرس أن يقضي على جميع الخلافات التي نشأت بين قوادهم في سني التأسيس الأولى وأن ينتزع الأمر لنفسه في سنة ٦٥٨[٢] فيوطد بنيانه ويثبت دعائمه وأن يستقبل حفيد الخليفة العباسي المشرد بعد وقائع التتار في بغداد استقبال المضيف لضيفه، ويوطئ لمقامه في مصر، ويبايعه بالخلافة الروحية فيها.

وفي هذه الأثناء، وعلى أثر هذا الظفر الذي ناله بيبرس، امتد طموحه إلى بلاد العرب وخدمة الحرمين ليضيف إلى اسمه مفخرة جديدة.

ويبدو أن بيبرس أراد أن يتوسل إلى ذلك بأجمل الوسائل، فقد شدَّ رحاله في عام ٦٦٧ إلى الحج فاستقبله أبو نمي في حفاوة بالغة وتقدير عظيم.

وبسط بيبرس يده بالبذل في مكة والمدينة فقدَّم إلى صاحبها أبي نمي من التحف والهدايا والأموال ما لم يقدَّر، ووزَّع على الأشراف عطاء سخياً وأغدق على الأهلين في المدينتين مبالغ طيبة، ورتب لكثير من العائلات فيهما منحاً سنوية، وأعطى القبائل من أهل البادية أعطيات جزيلة تركت أثرها الطيب في حياتهم.

---

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢ / ٢٠٢.

(٢) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٦.

وعلم بيبرس بالخلاف بين أبي نمي وعمه إدريس فجمع بينهما، وسوى جميع الخلافات ولم يتركهما إلا بعد أن تصالحا على كل الأمور كما اتفقا على أن يخطبا للسلطان بيبرس[1].

ثم ما لبث أن عاد الخلاف بين أبي نمي وعمه فخرج العم إلى البادية واستنفر القبائل فأطاعوه، فعاد إلى مكة بجموعه المقاتلة، واشتبك الفريقان في وادي خليص[2] بالقرب من عسفان شمالي جدة، واقتتلا قتالاً شديداً انتهى بقتل إدريس وعودة أبي نمي إلى الحكم منفرداً بنفسه.

ويختلف المؤرخون في عدد المرات التي اختلف فيها أبو نمي وعمه، وتواريخ الوقائع التي اشتبكا فيها، ولكنهم اتفقوا في أن ذلك انتهى بقتل إدريس وانفراد أبي نمي بالحكم.

واتصلت الأنباء بالظاهر بيبرس، ولا نستبعد أن يكون أبو نمي كتب إليه بذلك، وأنه برر أعماله بحجج أدلى بها، فكتب إليه الظاهر بيبرس يشترط إلغاء المكوس وإباحة بيت الله الحرام للعاكف والباد، وألا يمنع زائراً في ليل أو نهار، وألا يتعرض لتاجر بظلم، وأن تكون الخطبة والسكة باسمه لقاء عشرين ألف درهم تقدمها مصر سنوياً[3].

وظل أبو نمي على أمره نحو ثلاث سنين، ثم هاجمه من المدينة أحد أولاد عمه إدريس المقتول في جماعة من بني عمهم آل قتادة وكثير من مقاتلة البادية،

---

(١) الذهب المسبوك للمقريزي ٨٧ وما بعدها.

(٢) وادي خليص - بضم الخاء - يقع شمالي مكة على (١٠٠) كيل، وشمال عسفان على (٢٠) كيلاً، وهو واد زراعي خصب به نحو من ٢٥ قرية، وقد أجري بعض مائه إلى جدة، سكانه بنو حرب (ع).

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

واستطاع المهاجمون أن يجلوا أبا نمي عن مكة ويتولوا أمرها نحو ٤٠ يوماً، ثم ما لبث أن استأنف أبو نمي الكرة عليهم فأجلاهم، وعاد إلى حكم مكة وذلك في سنة ٦٧٠[١].

واتصلت هذه الأنباء الجديدة بالملك الظاهر بيبرس في مصر، ولعل أنباء أخرى سيئة بلغته معها، وكان يقظاً للعلاقة السياسية التي تربطه بمكة حريصاً على العناية بالإشراف عليها، فكتب إلى أبي نمي في عام ٦٧٥هـ كتاباً شديد اللهجة هذا نصه:

«من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبي نمي محمد بن أبي أسعد.. أما بعد: فإن الحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن! والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أسوأ! وقد بلغنا عنك أيها السيد أنك أبدلت حرم الله بعد الأمن بالخيفة وفعلت ما يحمر به الوجه.. وتسود به الصحيفة، ومن العجب كيف تفعلون وجدكم الحسن، وتقاتلون حيث لا تكون الفتن، ولا تقاتلون حيث تكون الفتن، هذا وأنت من أهل الكرم وسكان الحرم، فكيف آويت المجرم واستحللت دم المحرم؟ ومن يهن الله فما له من مكرم، فإما أن تقف عند حدك، وإلا أغمدنا فيك سيف جدك والسلام».

وقد أجابه أبو نمي معتذراً عما حدث[١] ولا يعتذر أبو نمي إلا لخلال سيئة ارتكبها، ونعتقد أنها كانت في غير موضوع القتال مع آل قتادة في المدينة؛ لأن موقفه من آل قتادة موقف المدافع عن إمارته إلا أن يكون آل قتادة - وقد كانت

(١) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط».

تجمعهم بسلطان المماليك في مصر مودة عظيمة - قد أوغروا صدر الظاهر بيبرس على أبي نمي، إذا صح هذا فمن الطبيعي أن يعتذر أبو نمي اعتذار الضعيف الذي لا يملك من القوة ما يقاوم به جنود المماليك في مصر.

اعتذر أبو نمي، ونحن نعتقد أنه لم يكن في اعتذاره مخلصاً كل الإخلاص، وأنه ما لبث أن عاد إلى عناده مع مماليك مصر، وليس للضعيف المستعصي على الطاعة من حيلة أمام القوي إلا العناد في الحدود التي يستطيع أن يمارس فيها عناده؛ لهذا لا عجب أن يؤدي العناد إلى استئناف فرض المكوس وإهمال بعض شؤون الحراسة، خصوصاً فيما يتعلق بالركب المصري، ولا عجب أن يتصل بحكومة الرسوليين سراً في اليمن، ويتقبل هداياهم ويحتفي بركبهم في مكة، ولعله كان يقدمهم على ركب المصريين.. ويدلنا على هذا جميعه ما يذكره الفاسي من أن الملك المنصور قلاوون الألفي[1] كتب إلى أبي نمي في عام ٦٨١ يستحلفه بأن يخلص طويته، ولا يضمر للمماليك غدراً، ولا يلتفت إلى جهة غير جهتهم!! وألا يقدم غيرهم عليهم، وأن يبيح زيارة البيت للعاكف والبادي، وأن يؤمن سيرهم، وأن يفرد الخطبة والنقود باسمهم، وألا ينقض ذلك.

وقد حلف أبو نمي صيغة اليمين التي طلبوها منه، وكأني به لا يملك سبيلاً إلى العصيان، ولعله شعر أن الجهة التي يعرضون بها فيما استحلفوه -وهم الرسوليون في اليمن لا يملكون مناصرته ضد مماليك الأتراك في مصر.

(١) المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك في مصر، وكان قد تغلب على السلطنة، وانتزعها من أولاد بيبرس في عام ٦٧٨، قد سمي الألفي لأن صاحبه اشتراه يوم كان مملوكاً بألف دينار.

فإن الفاسي يحدثنا أن أبا نمي ما لبث أن نقض بعض الشروط الخاصة بالدعاء في الخطبة للمماليك ولعله كان متأولاً إلى أن يقول: حلف أبو نمي يمينه، ولعله كان لا يضمر الوفاء وهو تأويل غير مستقيم[1] .

وفي عام ٦٨٣ هجم جماعة من آل قتادة على مكة واستطاعوا أن يجلو أبا نمي عنها ثم ما لبث أن عاد إليها بعد أن أجلاهم ، ونحن نعتقد أن لهجوم آل قتادة علاقة بغضب مماليك مصر واستيائهم من أبي نمي .

ويؤيد ما نذهب إليه ما يذكره صاحب الأرج المسكي تعقيباً على هذا الحادث فهو يقول ما خلاصته . . ثم ورد جيش من مصر مع الحاج؛ لإخراج أبي نمي من مكة فمنعه أبو نمي من دخولها، وأغلق أبواب السور فاقتحم المهاجمون السور من جهة الشبيكة، ففر أبو نمي هارباً من الباب الآخر إلى منى، ثم تربص لقائد جيش المماليك حتى قتله ثم أمر أن ينادى في الناس: إن من قتل رجلاً من المماليك فله فرسه وسلبه ففتكت العرب بجيش المماليك وأخذوا خيلهم، وعاد الهاربون منهم إلى مصر وذلك في نهاية عام ٦٨٣ ، ومن الطبيعي أن يكون لوصول أخبار الهزيمة إلى مصر أسوأ الأثر لدى صاحبها المنصور قلاوون، وأن يأمر بتجنيد حملة لاستئصال أبي نمي، وقد فعل ذلك وعزم على قيادة الجيش بنفسه إلى مكة لولا أن ثبطه عالم في مصر كان معروفاً بتقواه وصلاحه، فقد دخل عليه وهو يأمر بالتأهب فقال: إلى أين تمضي بمقاتلتك ؟ فقال : أمضي الى استخلاص الحرم من أبي نمي . . فقال: إنك حسنت العبارة، ولكن الناس لا يقولون هذا . . إنهم يقولون: إنك ذاهب الى القتال في حرم الله وقتل أولاد الرسول . فوقع ذلك من

(١) العقد الثمين للفاسي «مخطوط» .

السلطان موقعاً ثبط من عزمه[١] .

واستمر أبو نمي بعد هذا على أمره، وظل يخطب للمماليك في مصر ويتلقى إعانتهم بالرغم من جفاء العلاقة بين الطرفين .

وفي عام ٦٨٩هـ توجس أبو نمي شراً من عسكر ابن عقبة أمير الحاج الشامي؛ فأمر بمنعه من دخول مكة، وأغلق أبواب سورها، فتسلق أجناد ابن عقبة السور من جهة الشبيكة، وساعدهم بعض أجناد المصريين ثم أحرقوا باب السور، فانثال العسكر الشامي والمصري منه إلى مكة، وحدث الاشتباك واشتد القتال عند درب الثنية[٢] بالشبيكة ثم اتصل بالمسجد الحرام، وكان عدد السيوف التي شهرت به نحو عشرة آلاف سيف، وقد قتل من الفريقين نحو أربعة آلاف وجرح خلق كثير[٣] .

الخطبة للرسوليين في اليمن: وهكذا ظلت مكة تعاني من المتاعب التي جرتها مشاكل العناد بين أبي نمي وأصحاب مصر من المماليك أهوالاً شديدة حتى عنَّ لأبي نمي أن يسفر عن قناعه، ويقطع علاقته بمماليك الأتراك، ويعلن تأييده للجهة المضادة في اليمن، فألغى الدعاء للملك الأشرف خليل في مصر، وأثبت اسم المظفر ملك الرسوليين في اليمن مكانه ابتداء من آخر يوم في ربيع الأول سنة ٦٩١هـ.

(١) الأرج المسكي الطبري «مخطوط».

(٢) الثنية هي القطعة المرتفعة من الأرض بين الشبيكة ونهاية حارة الباب، وذكر لي الأستاذ حمد الجاسر أنه لا يستبعد أن الشبيكة سميت باسم رجل كان يدعى شبيكة الحسني؛ لأن صوفي الشاعر يقول :

بيات شبيكة الحسني ... وهي صبري فواحزني

ويجوز أن أوافقه على هذا أو أسميها شبيكة؛ لأنها كانت موضع اشتباك وقتال عدة مرات في الهجوم على مكة والدفاع عنها.

(٣) الأرج المسكي «مخطوط».

وفي هذا العام جهَّز المظفر صاحب اليمن محملاً تلقاه أبو نمي بالإجلال والتكريم، فخفقت أعلام الرسوليين في ذاك اليوم على جبل عرفات، وأعلن المؤذن على قبة زمزم مناقب المظفر على رؤوس الأشهاد.

وتسلم أبو نمي هدايا اليمن، وفيها كثير من المال والغلة والكساوي والطيب والمسك والعود والصندل والعنبر والثياب الملونة والخلع النفيسة، وقدِّر المال بمبلغ ثمانين ألف درهم والغلة بمبلغ ١٢٠٠ غرارة من كيل مكة - في عصر الفاسي - كما قدر الجميع بما يوازي ثلاثة أمثال ما ترسله مصر إلى صاحب مكة سنوياً[(١)] .

ولا نشك في أن ما فعله أبو نمي كان تحدياً ظاهراً للمماليك في مصر، ومن الصعب أن يجرؤ أبو نمي على مثل ذلك دون أن يتعرض لسخطهم ونقمتهم ولكن من يعرف إقدام أبي نمي على المجازفات لا يستغرب منه هذه الجرأة، سيما وأنه كان إلى جانب إقدامه بشيء من بعد النظر، فهو لم يخط خطوته الحاسمة في عهد المنصور قلاوون ولا في عهد بيبرس قبله؛ لأن قوة المماليك في عهدهما كانت غيرها في عهد الأشرف خليل الذي منيت أيامه بكثير من الفتن الداخلية التي أودت بحياته فيما بعد، يضاف إلى ذلك أن الأشرف كان مشغولاً بحرب التتار أكثر مما كان عليه الأمر في عهد أسلافه، فلا عجب أن يهتبل الفرصة أبو نمي فيجازف بورقته الأخيرة ويعلن قطع العلاقات، ولا عجب إذا رأينا مصر تقابل ذلك بالصمت.

ودليلنا على هذا الصمت أن المؤرخين لم يذكروا من حوادث مكة ما يدل على الفتن في هذا العام وما بعده إلى عدة أعوام إلا ما أورده الفاسي؛ فقد ذكر أنه

---

(١) العقد الثمين.

وجد بخط ابن محفوظ أن أمير الركب المصري في سنة ٦٩٢ استحلف أبا نمي على الذهاب معه إلى مصر - وأعطاه ألف دينار، وأن أبا نمي خرج معه إلى ينبع ثم عاد لما بلغه موت الأشرف[١].

واستحلاف أبي نمي على الخروج فيه شيء من رقة الضعيف، والذي أحسبه أن أمير الركب أراد بذلك أن يصلح بينه وبين مصر، وأن أبا نمي بعد أن رضي عاد إلى النكوص؛ لأن موت الأشرف أحيط بفتن قاسية خشي أن يعرض نفسه أثناءها للثائرين ففضل العودة.

على أن علاقة أبي نمي باليمنيين لم تكن خالصة - فيما أعتقد كل الإخلاص، وإنما هي صداقة لا بد له منها لمناوأة الطرف المناقض في مصر والانتفاع بما تدره اليمن من خيرات وهدايا، فقد ظل أبو نمي يفرض مكوسه على اليمنيين كما يفعل مع غيرهم، وكان يأخذ عن كل جمل منهم ثلاثين درهماً، ثم لا يتركهم يسلمون من العسف[٢] ويبدو أن الأحوال في مكة استقرت على أثر ذلك، وبدأت مكة تزدحم بوفود الحجاج، وكان من جملة حجاج هذه السنوات أمراء من مماليك مصر، فقد حج أنس بن الملك العادل بن بيبرس في عام ٦٩٤هـ، وحج في عام ٦٩٧هـ الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله الذي كان يقيم في مصر على أثر وقائع التتار[٣] كما حجت أم المستعصم في إحدى هذه السنوات.

وعمت خيرات هؤلاء جميع السكان في مكة، واتصلت منحهم بكثير من بيوتها، وبزتهم جميعاً أم المستعصم فقد أنفقت الأموال ما وسعت به على الناس

(١) العقد الثمين «مخطوط».

(٢) سمط النجوم للعصامي.

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٢.

بعد ما قاسوه من الشدائد في أزمات السنين السابقة. وكم كنت أتمنى لو عاش هذا البلد كبيراً على المتصدقين غنياً بسواعد بنيه عن كل ما ينفحه المحسنون والمتصدقون.

يومان في عرفة: ومن غرائب عام ٦٨٨ أن الناس وقفوا في عرفات يومي الجمعة والسبت لاختلاف ثبوت الرؤيا لدى أمير الركب الشامي عنها لدى الشيخ محيي الدين الطبري شيخ الفقه في الحجاز[١] وليست هذه أول حادثة من نوعها، فقد تكرر مثلها عدة مرات في تاريخ مكة، وذلك أن كل ركب كان يعتمد فتوى خاصة به، ولو كان مصدر الفتوى بين المسلمين موحداً لما وجد مثل هذا الخلاف.

وفي عام ٦٩٨ حدث نزاع في مكة بين الأهالي ورجال البادية، ويسمونه «هوشه» وكان عدد القتلى نحو ١١ شخصاً[١].

ودام حكم أبي نمي إلى أن توفي في صفر عام ٧٠٠ نحو ٥٠ سنة، قضى بعضها شريكاً مع أبيه ثم عمه إدريس، وقضى البعض الآخر منفرداً بالإمارة إلا في بعض الأيام التي غلب على أمره فيها، وقد ترك أبو نمي نحو ثلاثين ولداً بين ذكر وأنثى كان يعتد بأكثرهم فيما مر به من شدائد[٢].

وشيع أبو نمي في جنازة طافوا بها حول الكعبة سبعاً على عادتهم قبل الدفن*.

وقد ذكر الحافظ الذهبي أبا نمي فقال: إنه عاقل سايس شجاع محترم. وقال الفاسي: ذكره أبو عبدالله الدماهي فأثنى عليه، وقال: لولا المذهب لصلح

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤١.

(٢) خلاصة الكرم للدحلان ٢٨.

* هذه العادة من البدع التي لا أصل فها في الشرع.

للخلافة فقد كان زيدياً كأهل بيته[1].

أولاد أبي نمي يتنازعون الإمارة: وتنازع الإمارة بعد أبي نمي أربعة من كبار أولاده هم: رميثة، وحميضة، وأبو الغيث، وعطيفة، وقد دام نزاعهم من سنة ٧٠١هـ إلى سنة ٧٣٧هـ أي نحواً من ست وثلاثين سنة، انتهى الأمر في نهايتها إلى رميثة.

وفيما يلي نلخص أهم الحوادث عن ذلك:

ما كاد يقضي أبو نمي حتى انقسم القواد والأشراف في مكة إلى حزبين؛ ناصر أحدهما حميضة ورميثة، وناصر الثاني أبا الغيث وعطيفة، وقد استطاع الأولان أن يظفرا بالحكم دون الآخرين في العام نفسه ٧٠١هـ[2].

وعلى أثر هذا الانتصار عمد رميثة وحميضة أصحاب الحكم الجديد إلى سجن أخويهما أبي الغيث وعطيفة، وقد لبث الأسيران فيه مدة، ثم فرا منه إلى ينبع، حيث اجتمعا بمن يناصرهما، وأعدا عدتهما للهجوم على مكة.

وكان قد أوفى شهر ذي القعدة عام ٧٠١هـ على نهايته عندما أقبل الركب المصري في طريقه إلى مكة برئاسة أميره بيبرس الجاشكير، وفي صحبته نحو ثلاثين من أمراء المماليك في مصر، فوجد الأخوان الفاران الفرصة قد سنحت للكيد لأخويهما، فاتصلا فوراً بأمير الركب المصري وطلبا مساعدته لقاء الخطبة للمماليك، فقبل أمير الركب.

وليس ما يمنع أمير الركب المصري من مساعدة الأخوين الفارين وقد وضعا بين

---

(١) العقد الثمين «مخطوط».

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

يديه الفرصة التي كان المماليك يبحثون عنها؛ لهذا تقدم الركب فهاجم مكة بعسكره، وساعده أبو الغيث وعطيفة على رأس أنصارهما، واستطاعا أن يملكا مكة ويتقلدا إمارتها . . وأسر عسكر المماليك حميضة ورميثة وسيَّروهما إلى مصر في صحبة الركب، فظلا في القاهرة إلى سنة ٧٠٣هـ[١] .

وفي هذه السنة نجد أن المأسورين رميثة وحميضة استطاعا أن يقنعا الملك الناصر سلطان المماليك في مصر باستئناف العودة إلى حكم مكة، وتعهدا له بالدعاء والطاعة، وقد رضي الملك بذلك، والمعتقد أنه أعانهما بقوة عظيمة بقيادة نائب السلطان في مصر «سيف الدين سلار» لأننا نجد الفاسي[٢] يذكر في حوادث ٧٠٣هـ نقلاً عن البرزالي: أن نائب السلطنة المذكور حج في هذا العام على رأس قوة عظيمة يصحبه خمسة وعشرون أميراً. وقد ذكر ابن ظهيرة عودة المأسورين رميثة وحميضة في هذا العام نفسه إلى الحكم، فنستطيع أن نستنتج من خلال الروايتين أن نائب السلطة في قوته العظيمة اصطحب رميثة وحميضة من مصر؛ ليساعدهما ضد أبي الغيث وعطيفة ويعيدهما إلى مكانهما في الحكم.

وقد هاجمت القوة مكة هجوماً عنيفاً لاقى فيه أهل مكة والحجاج كثيراً من الشدة، واشتبك القتال في عدة مواضع من مكة، ولم يدم ذلك طويلاً؛ لأن قوة أبي الغيث وشريكه كانت أضعف من أن تصمد أمام قوة المماليك المهاجمة، فلم يلبث أبو الغيث وشريكه أن أجليا عن مكة، وتولى حكمها أخواهما رميثة وحميضة، ثم قبض على أبي الغيث وشريكه وأُرْسِلا إلى مصر[١] .

واصطحب قائد حملة المماليك في هذا العام معه إلى مكة عشرة آلاف أردب

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٤٢ .

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» .

قمحاً لتوزيعها على فقراء مكة والمجاورين ، وقد وزعها على أثر انتصاراته، كما وزع الأمراء الذين صحبوه من المماليك والأتراك أموالاً طائلة على المجاورين في مكة والأشراف ، وقد فعلوا مثل هذا في المدينة ، وبهذا استتب الأمر من جديد لرميثة وأخيه حميضة، ودانت القبائل لهم في مكة وأمنت الطرق وألغيت بعض المكوس، وبدأت مكة تستقبل عهداً فيه شيء من الطمأنينة، كما بدأ نفوذ المماليك ينشر ظله فيها .

وساعد الأمن على إقبال الحجاج ، فقد توافد إلى الحج في السنوات التالية عام ٧٠٤هـ و ٧٠٥هـ من حجاج مصر والمغرب وبلاد العراق والعجم عدد لا يحصى(١) .

ثم ما لبث أن تغير الأمر وشرع رميثة وحميضة يحدثان بعض المكوس على الحجاج، فظل العمل جارياً بذلك سنوات، حتى قيل إن كثيراً من الحجاج انتقد هذه المكوس، وإن المماليك في مصر رأوا إلغاءها، ولكن رميثة وشريكه أبيا إلا أن يظل العمل بها لاستخدامها في مرافق الحكومة وإقامة الأمن وتحصين السبل، أو أنهما شعرا بأن موافقتهما على إبطال المكوس فيه رضاء بتدخل مماليك الأتراك في شؤونهم الداخلية أكثر مما يجب .

ويبدو أن أحداث المكوس بحجة تأمين السبل كان له رد فعل خاص، فإن الحجاج الذين يدفعون الضريبة لقاء تأمينهم يسيئهم أن يضطرب حبله بأبسط الحوادث، وقد وقعت بعض حوادث في موسم عام ٧٠٥هـ كان لها ما بعدها، فقد اشتبك جماعة من المكيين مع فريق من البدو في «هوشه» بسوق منى ، والظاهر أن بعضَ المفسدين يحلو لهم استغلال الفتن ليستفيدوا من النهب، وقد

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٣ .

فعلوا ذلك بمناسبة هذه الهوشة فاتصل الخبر بأمير الحج المصري قبل أن يتصل بأصحاب الحكم، فرأى أن دفع ضريبة الأمن لا يتفق مع حركات النهب، وكأنه أراد أن يؤدب أصحاب الفتنة بسيفه بدلاً من أن يحيل الأمر إلى صاحب مكة، فتطور الحال وتفاقمت حوادثه، وانطلق العسكر المصري خلف أصحاب الفتنة، فهرب المكيون في الجبال وانطلق معهم جماعة من البدو، وسيطر المماليك بقوة سلاحهم، وسطا أمير الحج المصري على جماعة من البدو فقدمهم قرباناً عوضاً عن البدن التي كان يريد أن ينحرها[1] .

ولعل حادث الفتنة في هذا الموسم بالإضافة إلى إصرار رميثة وحميضة على فرض المكوس ترك أثره في حجاج الشام ومصر، وأوغر صدر سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون فأسرها في نفسه.. وبدأت المواسم التالية قليلة المحصول لقلة الوارد من الشام ومصر وانقطاع العراقيين من سنوات، وظل الأمر على حاله تقريباً إلى أن رأى الملك الناصر أن يضرب رميثة وحميضة بأخيهما أبي الغيث، فأعد عدته للحج، وخرج بنفسه على رأس مائة فارس وستة آلاف مملوك على الهجين في عام ٧١٢هـ ، فاحتل مكة بعد أن أجلى رميثة وحميضة، وولى مكانهما أبا الغيث.

ويبدو أن الأشراف في مكة وكثيراً من سكانها البدو والحاضرة كانوا أميل إلى رميثة وحميضة منهم إلى أبي الغيث؛ لهذا ما كاد يستقر الأمر لأبي الغيث بسلاح الملك الناصر حتى استأنف الأهالي مناوأته فعانى كثيراً في حكمهم طوال عامي

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٣ وقد اختلفت الروايات عنده في تاريخ وقوعها بين سنة ٧٠٥ وسنة ٧٠٧ . ويقول صاحب «درر الفوائد المنظمة»: إنها كانت سنة ٧٠٥هـ.

٧١٣ و ٧١٤ وفي سنة ٧١٥ التفوا جميعاً حول حميضة، وهاجموا أبا الغيث فقتلوه، وبذلك تم الأمر من جديد لحميضة دون شريكه وأخيه رميثة الذي كان غائباً[١].

الخطبة للتتار: وما كاد يستقر الأمر لحميضة حتى هاجمه أخوه رميثة ففر حميضة ملتجئاً بالتتار في العراق واستعان بجيش منهم للهجوم على مكة، وبذلك استخلصها من أخيه ثم قام يدعو لهم وكان ذلك في سنة ٧١٨هـ، وقد كبر ذلك على المماليك في مصر فأعانوا عطيفة شريك أبي الغيث فهاجم أخاه حميضة هجوماً عنيفاً، واستطاع أن يستعيد إمارة مكة بعد أن قتل حميضة في سنة ٧١٨هـ[٢].

وبقتل حميضة وعودة عطيفة إلى الإمارة عاد نفوذ الأتراك المماليك إلى مكة.

وفي هذا العهد حج الملك الناصر حجته الثانية وذلك في سنة ٧١٩هـ، وقد اصطحب معه نحو خمسين من أمراء المماليك وكثيراً من أعيان دولته في الشام ومصر، وأنفق في سبيل الإحسان أموالاً طائلة.

وتوالت السنة التي بعدها ٧٢٠هـ فازدحم الموسم بعدد وافر من الحجاج، ويذكر المؤرخون أن هذا الموسم حظي بكثير من أعلام العلماء.

وفي هذا العام أحيا الحجاج سُنَّةً كانت متروكة، وذلك أنهم صلوا الصلوات الخمس بمنى يوم التروية، وأقاموا بها إلى أن أشرقت الشمس على ثبير[٣] وتوجهوا إلى عرفة[٤].

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤٣.

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ص ٣٠. ويذكر الغازي في إفادة الأنام: أن حميضة قتل غيلة بيد أحد المماليك الأتراك في سنة ٧٢٠هـ.

(٣) ثبير ككبير: الأثبرة بمكة كثيرة يطول الحديث عنها. انظرها ج ٢ من معجم معالم الحجاز (ع).

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

ولم يذكر السنجاري تعليلاً لإجماع الحجاج في هذا العام على إحياء هذه السنة بعد تركها، والذي أظنه أن اجتماع أكبر عدد من أعلام العلماء في موسم ذلك العام كان له أثر في اجتماع الحجاج على ما فعلوا، فقد يكونون تدارسوا الفكرة في مجتمعاتهم بمكة ثم حبذوها وأعلنوها في الناس فاتبعها الناس.

ووقف الناس في هذا العام يوم الجمعة دون أن يكون بينهم خلاف، وقد كانت تتمة مائة جمعة وقفها المسلمون من عام الهجرة إلى ذلك اليوم.

ويقول السنجاري: إن الشيخ رضي الدين الطبري إمام مكة كان يقول: إني حججت مدة عمري فلم أر أكثر زحاماً من هذا الموقف[1].

وحج في عام ٧٢٤ ملك التكرور[2] وكان اسمه موسى فوصل مكة في ١٥ ألفاً من أتباعه فتحرش بعض الأتراك بهم؛ فكانت فتنة شهرت السيوف فيها في المسجد ولم يخمدها إلا ملك التكرور الذي أمر أتباعه بالكف فكفوا[3].

وأعاد عطيفة الدعاء لسلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون، ولعل هذا أساء ملك التتار بالعراق فأراد أن يشتري عطيفة بالأموال والهدايا؛ لأننا نجد في حوادث هذا العام ٧٢٠ أن الركب العراقي حج في أحمال كثيرة من الهدايا والتحف والأموال[4] ولا نشك في أن أوفر نصيب في هذه الهدايا كان من حظ عطيفة كرشوة مقابل الدعاء له إلا أنهم لم يظفروا بذلك؛ لأن عطيفة يدين بنجاحه في الإمارة للملك الناصر في مصر.

---

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) التكرور بلدة في صحراء جنوب أفريقيا الشرقي، سمي بها أهل المقاطعة، ونسميهم اليوم تكارنة.

(٣) خلاصة الكلام للشيخ أحمد دحلان ٣٠.

(٤) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٤٤.

وظل عطيفة في حكمه على مكة إلى عام ٧٢٨هـ أو نحو ذلك بعد أن فقد أخاه الشريك أبا الغيث وأخاه الخصم حميضة في سبيل الحكم، ولم يبق أمامه في الميدان إلا أخوه «رميثة» الذي أجلته عن مكة جيوش مماليك الأتراك التي كانت تؤيد الطرف الذي فيه عطيفة على الطرف الذي كان فيه رميثة.

حكم رميثة: ولم ينم رميثة عن ثأره بالرغم من التأييد الذي كان يلقاه أخوه عطيفة من المماليك بمصر، وبالرغم من انشغال التتار- بحروبهم الداخلية - عن مظاهرته.

لم ينم عنه فقد اعتمد على نفسه، وشرع يؤلب القبائل على أخيه، ويراسل أشراف مكة الذين ظلت أغلبيتهم الساحقة على ولائهم له كرهاً لعطيفة وانتقاداً لاحتمائه بمماليك الأتراك الذي أضاع كثيراً من استقلال مكة وأفقدها حيوية الحكم.

وقد نجحت أعمال رميثة ضد أخيه، واستطاع أن ينتزع منه الحكم حوالي عام ٧٢٩هـ أو ٧٣٠هـ.

وعلى أثر انتقال الحكم إلى رميثة عاد الركب العراقي بالرغم من فتنه الداخلية يواصل مجيئه إلى مكة، وكان قد امتنع عنها في السنوات التي يحكمها عطيفة، وفي هذا ما يؤيد رأينا في تأييد العراق لحكم رميثة.

وينقل الفاسي عن البرزالي عن العفيف الطبري، وهو من علماء مكة في هذا العهد: أن الركب العراقي حج في عام ٧٣٠هـ وفي صحبته فيل وقف معهم في جميع مواقف الحج ثم اصطحبوه إلى المدينة، ولكنه مات قبل أن يبلغها بأقل من مرحلة، إلى أن يقول وما عرفت مقصد أبي سعيد بن خربندا[1] من إرسال الفيل

(١) هو ملك التتار في العراق، وقد ذكروا أن من عادة التتار أن يتفاءلوا بأول حيوان يدخل وقت ولادة المولود، فكان الداخل حماراً ويسمونه «خر» فسموه خربندا.

مع الركب العراقي[1] .

والذي أقوله: إنني لا أستبعد أن يكون مقصده الضجة والشهرة بما فيهما من إعلان عن العراق وركبه وحكومته، وهي وسائل أصبحت اليوم معروفة في الأوساط التي تتفنن في وسائل الإعلان.

وينقل الفاسي[2] عن البرزالي أن جماعة من بني حسن هاجموا مكة في هذا العام ٧٣٠هـ واشتبكوا مع العراقيين في قتال عنيف لعبت فيه السيوف، ودخل الفرسان بخيلهم إلى المسجد، ونهبت الأسواق، وكاد أن يفنى الحجاج عن آخرهم. والذي أعتقده أنها فتنة أرادها عطيفة وأنصاره من بني حسن ضد أخيه رميثة.

ولم يسكت عطيفة عن أخيه رميثة فقد شرع يناوئه بما يجتمع إليه من القبائل ثم ما لبثت أن اشتدت المناوأة في عام ٧٣١هـ واحتدم بينهما القتال.

ولما وافى الركب المصري في هذا العام كان القتال على أشدِّه بين الأخوين، فلم يخرج رميثة لاستقبال الركب على جري العادة، ولم يتصل عطيفة بأمير الركب أو يلاقيه، ولعله كان مستاء من قعود مصر عن مناصرته ضد رميثة، فعاد أمير الركب بعد الحج يشكو إلى الناصر قلاوون جفاء الأخوين له، ويصف الفتن القائمة في مكة بينهما فكتب الناصر إلى الأخوين يطلب حضورهما إلى مصر، فرفض الأخوان الشخوص إليه واتفقا على الصلح، وأن يقطعا معاً علاقتهما به.

ولما علم الناصر بذلك شق عليه الأمر وأمر بتجريد حملة عسكرية إلى مكة تستأصل الأخوين وكل من يلوذ بهما من أشراف بني حسن وقوادهم وعبيدهم، وأوصى قائد الحملة أن يستحل دم كل من بقي منهم فيها، وأن يحرق وادي

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٤٦

(٢) شفاء الغرام ٢/ ٢٤٥ .

نخلة[1] حتى لا يدع فيه شجرة مثمرة ولا دمنة عامرة وأن يخرج نساءهم من جميع المنازل في مكة وما حولها .

وكان القاضي جلال الدين محمد القزويني حاضراً في مجلس الناصر فقام يعظه ويذكره بوجوب تعظيم الحرم، ويقترح عليه أن يكتب بتأييد رميثة في الحكم، وأن يمده بقوة عسكرية تساعده على تأمين البلاد فاستحسن الناصر رأيه، وانتدب من جنده ستمائة فارس أرسلهم إلى مكة مع كتاب تأييد رميثة .

وقد فصل الجند من القاهرة في نصف صفر عام ٧٣١هـ فوصل إلى مكة في العشر الأول من ربيع الآخر، وبوصولهم ارتاب الأخوان في أمرهم وشرعا يعدان مقاتلتهما للدفاع عن مكة، فكتب قائد الجند إلى رميثة يخبره بجلية الأمر، واتصل به من أكد له ذلك، وأقسموا له أغلظ الأيمان حتى اطمأن إليهم، وركب وإياهم إلى المسجد حيث تقلد خلعة السلطان وتقبل هداياهم، ثم ما لبث قائد الجند أن عاد إلى مصر بعد أن ترك الجند لخدمة رميثة[2] .

وقد نقل القلقشندي في صبح الأعشى صورة المرسوم الذي تسلمه رميثة بتأييد إمارته، وقد جاء فيه: «اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيم رميثة في بلده أميراً مفرداً إليه يشار، وأن نصطفيه، وإنه عندنا لمن المصطفين الأخيار، والإمرة وإن كانت بيد غيره هذه المدة فما كان في الحقيقة أمير عندنا سواه؛ لأنه كبير بيته المشكور من سائر الأفواه!!» .

وفي ذلك ما يشير إلى رأينا في أن الناصر كان يؤيد عطيفة ضد أخيه حتى بدا له

(١) لعله وادي نخلة الشامية، ويمتد من وادي فاطمة إلى المضيق .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

أن رميثة أولى بالتأييد لثباته وقوته واجتماع الأهلين حوله، كما بدا له أن في ذلك ضماناً للحيلولة دون انضمام رميثة إلى فريق مضاد.

وحج الملك الناصر على أثر هذه الحوادث في هذا العام ٧٣٢هـ[١] حجته الثالثة في موكب حافل كان يضم نحو سبعين أميراً من المماليك وجماعة كبيرة من أعيان الفقهاء المصريين، ولا ندهش من وفرة عدد أمراء المماليك في مثل هذا الموكب؛ لأن الناصر كان لابد له من أن يحشد هؤلاء في موكبه ليأمن غائلتهم والمعارضين منهم إذا ظلوا في مصر بعد غيابه عنها.

وقد حج في موكبه طائفة كبيرة من أعيان الفقهاء المصريين واستقبل الجميع رميثة استقبالاً حافلاً فترك الأهلين يخرجون إلى خارج مكة؛ احتفاءً بمقدمهم، ووزع الملك الناصر أعطياته وهداياه حتى شمل ذلك أكثر الأسر والأفراد[٢].

وفي سنة ٧٣٤هـ اتصل عطيفة بمصر ثم جاء بكتاب من الناصر إلى أخيه ليوليه نصف الإمارة فقبل رميثة ثم عاد فأخرجه منها ثم عاد فقبله بوساطة الناصر، وظلا على وئام إلى سنة ٧٣٦هـ ثم عادا مرة أخرى إلى الخلاف فرحل عطيفة إلى مصر وبقي فيها إلى أن مات عام ٧٤٣هـ وبذلك استقر الأمر لرميثة[٣].

وفي موسم عام ٧٤١هـ وقف الحجاج في عرفة يومي الجمعة والسبت تفادياً من الشك[١].

وفي سنة ٧٤٣هـ حج صاحب اليمن الملك المؤيد - الرسولي - وحاول مماليك الأتراك في مصر أن يؤثروا في رميثة ليضيق على صاحب اليمن في منازله بعرفة،

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٤٦.

(٢) بلوغ القرى لعبد العزيز بن فهد القرشي.

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

ولعلهم أرادوا أن يمهدوا بذلك إلى إثارة الخلاف بينهما تحاشياً من نتائج الاتفاق بين اليمن ومكة ، ولكن رميثة كان أفطن من أن يتأثر باقتراحات مصر فقد قابله أحسن استقبال، ووكل به جماعة من الأشراف والقواد ليقوموا بخدمته، وقد وزع في مكة أموالاً طائلة وحمل إليها هدايا عظيمة، وأراد أن يترك لنفسه أثراً في مكة فاقترح على رميثة أن يكسو الكعبة ويجدد بابها، فأبى رميثة ذلك عليه تحاشياً من أن يتطور الموقف بينه وبين مصر إلى حد لا يمكن تلافيه، وقد ساء ذلك صاحب اليمن وسافر وهو غير راضٍ عنه بعد الذي كان من إكرامه وخدمته[1] .

على أن رميثة وإن أغضب صاحب اليمن فإنه لم يرض صاحب مصر فقد حفظ عليه الناصر عنايته بصاحب اليمن وانتداب الأشراف لحمايته من المصريين في عرفة .

ويبدو لنا أثر هذه الحفيظة واضحاً عندما استدعى الملك الصالح بن الناصر صاحب مصر ابناً لرميثة اسمه عجلان في عام ٧٤٦هـ وأقنعه بنقل الإمارة إليه .

ولا يبعد أن عجلان كان يستعير العجلة من اسمه أو أنه أدرك أن أباه قد طعن في السن وأنه إذا تردد في قبول الإمارة فسيرشح غيره لها من إخوانه أو أقاربه؛ لهذا قبل من غير تردد وتعهد للسلطان أن يسوي الأمر بنفسه مع أبيه في مكة .

وأعتقد أن شخصاً غير عجلان لا يستطيع إقناع أبيه بالتنازل عن الإمارة؛ لإصراره على الثقة بنفسه وعناده، ولكن عجلان استطاع أن يقنع أباه ليتخلى عن الإمارة لقاء ٦٠ ألف درهم يقدمها له كتعويض، وبذلك ترك رميثة له شؤون الحكم بعد أن دام فيه نحو ٤٥ سنة اعتزل في أثنائها عدة سنوات ثم عاد شريكاً في بعض المرات ومنفرداً في غيرها، وكانت مدة حكمه منفرداً تضاهي نحو عشر سنوات .

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٤٧

عجلان بن رميثة وإخوانه: تولى أمر مكة بعد ذلك عجلان بن رميثة في جمادى الآخرة عام ٧٤٦هـ، وشعر أن أخويه سند ومغامس يتطلعان إلى مشاركته فأبعدهما إلى وادي نخلة ثم ما لبث أن ألحق بهما أخاه الثالث ثقبة[١] .

وتولى في هذا العام ٧٤٦هـ سلطان المماليك الكامل شعبان فكتب إلى مكة يؤيد عجلان ويخبره أن إخوانه وصلوا إلى مصر فاعتقلوا فيها، فأمر عجلان بتزيين الأسواق، وكان والده رميثة مريضاً، فما لبث أن توفي أيام الزينة فطيف بنعشه وقت صلاة الجمعة حول الكعبة*، ودفنوه بالمعلاة في ذي القعدة من العام المذكور[٢] .

وفي سنة ٧٤٧هـ أطلق الإخوان الثلاثة من مصر، وأعطوا مرسوماً بالموافقة على اشتراكهم في إمارة مكة مع أخيهم عجلان على أن تكون لهم نصف البلاد ولأخيهم عجلان النصف الباقي وحده[٣] .

وفي هذا ما يدل دلالة قاطعة على أن المماليك الأتراك كان لا يعنيهم استقرار الأمر في مكة بقدر ما يعنيهم أن تبقى الخطبة باسمهم، وإلا فأي معنى لإطلاق الإخوة الثلاثة وتزويدهم بمرسوم يخولهم حق الشركة، ولست أعرف بالضبط معنى لشركة أشخاص أربعة في محيط أضيق من أن يتحمل الشركة.

إنني لا أرتاب في أن الرؤوس المفكرة في دولة المماليك كانت - وهي تشعر أن الأشراف يتنافسون على حكم البلاد- لا يعنيها أن تعالج هذا التنافس بشيء من الحكمة بقدر ما يعنيها أن تحتكر الدعاء لاسمها.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣١ .

* هذه العادة سبقت الإشارة إلى أنها من البدع التي لا أصل لها في الشرع.

(٢) منائح الكرم السنجاري «مخطوط».

(٣) إفادة الأنام «مخطوط».

أو أنها كانت تعجز عن علاجه وتخشى أن تساعد شريكاً آخر فيخونه التوفيق فتفقد استحقاقها للدعاء في الخطبة في نظر الغالب؛ لهذا نراها لا تتصرف ضد المشاغبين لحاكم مكة إلا في نطاق محدود، وهي إذا تصرفت فأسرت المشاغبين أو أبقتهم لديها في مصر فإنها تحاول أن ترضيهم ما وسعها ذلك، وأن تقبل أياديهم وتحلهم في الصدارة في جميع مجالسها.

ذلك لأنها تشعر أن أسراها اليوم لم يفقدوا كل آمالهم في الحكم، وأنه لابد أن يبلغهم أو ذراريهم اليوم الذي يقبضون فيه على زمام مكة، وعند ذلك يثأرون لأنفسهم مما نالهم فيربطون علاقتهم مع حكومة أخرى من حكومات الإسلام ويعلنون اسمها على منابرهم.

لهذا فهي تتصرف في نطاق محدود، فلا عجب أن تمسك إخوان عجلان؛ لتحول دون وصولهم إلى مكة حتى إذا شعرت أنها أساءت إليهم وأنهم باتوا ساخطين خشيت عاقبة السخط وأطلقتهم، وقد ترى نفسها مضطرة؛ لأن تمنحهم مثل التأييد الذي منحته للحاكم في مكة ثم تتركهم ليتدبروا أمورهم ويعالجوا قضاياهم بسيوفهم إذا قدروا أو بأسباب أخرى من أساليبهم العديدة التي ألفوها، وتظل هي في مكانها ترقب الميدان لتتدخل بقدر ولا تضيع على نفسها استحقاقها في الدعاء باسمها.

وهكذا أطلقت الإخوة الثلاثة، وتركتهم يمضون إلى مكة، فيناوئون صاحبها ويشهرون السلاح ضده.

وقد استطاعوا أن يجلوه عن مكة في عام ٧٤٨هـ فشدَّ رحاله إلى مصر؛ ليبقى فيها مدة ثم يعود مقاتلاً ليظفر بالإمارة في شوال ٧٥٠هـ، ويجلي إخوانه عنها

فيولون شطر اليمن[1] .

القبض على ملك اليمن في منى: وفي عام ٧٥١هـ وصل إلى مكة صاحب اليمن علي بن المؤيد حاجاً، ولا أستبعد أن يكون عجلان أوجس خيفة من قدومه بعد أن التجأ إليه في اليمن ثقبة وإخوانه؛ لهذا قابله بأسوأ ما يمكن أن يقابل به ملك وافد فنجد الفاسي[2] يذكر لنا في حوادث هذه السنة أن عجلان اتفق وأمير الحج المصري على إلقاء القبض على ملك اليمن في منى، وقد قصدوا مخيمه في صبيحة اليوم الثالث من أيام منى شاهرين أسلحتهم فقاتلهم أصحاب اليمن ساعة من نهار ثم تسامع الطامعون في النهب الخبر فأقبلوا ينحازون إلى المهاجمين حتى تمت الغلبة لهم فنهبوا كل ما في المخيم من أموال ومتاع ودواب وسلم الملك نفسه فأسره أمير الحج المصري ثم قاده إلى مصر دون أن يتركه ليتم شعائر الحج.

إلا أن صاحب مصر الملك حسن بن محمد بن قلاوون أحسن استقباله في مصر ثم سيره مكرماً إلى بلده من طريق الحجاز فلما كان بالدهناء[3] قريباً من ينبع قبض عليه مرة أخرى؛ لأن حراسه وشوا به إلى مصر بما غير عليه نفس الملك في مصر فأمر بالقبض عليه، ثم نفاه إلى بلاد الكرك[4] في جنوبي سوريا، فظل إلى أن عفا عنه مرة أخرى وأعاده إلى بلاده فبلغ اليمن في ذي الحجة عام ٧٥٢هـ.

وإذا كان في هذا ما يدل على استياء عجلان من صاحب اليمن لإيوائه ثقبة وإخوانه، فإن فيه كذلك ما يدل على تأصل روح العداء بين المماليك في مصر وأصحاب اليمن أولاد علي بن رسول ولعله عداء قديم ورثه المماليك من أسلافهم

١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٧ .　　(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٢٤٧ .

(٣) قرية كانت عامرة بالضفة اليسرى من وادي ينبع ثم اندثرت، تعرف خرائبها اليوم بالساقية (ع).

(٤) مدينة حصينة تتربع على تلال عالية بين الغور والصحراء في الأردن، تبعد قرابة (٨٠) كيلا جنوب عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية (ع).

الفاطميين في مصر، فقد كان علي بن رسول جد أصحاب اليمن تابعاً لأصحاب مصر من الفاطميين، ثم ما لبث أن ثار عليهم وقطع علاقته بمصر فظل الجفاء مستحكماً بينه وبين مصر حتى ورثه المماليك. فإذا استغل عجلان الفرصة وصور لهم أن صاحب اليمن يأوي إخوانه ليساعدهم غداً على احتلال مكة وإقامة الدعاء له فيها فإن ذلك بالإضافة إلى العداء القديم كاف لاستثارتهم ضده وإقناعهم بمهاجمته واصطحابه إلى مصر مأسوراً.

ثقبة يعود إلى المناوأة: وأهل عام ٧٥٢هـ فأهلت معه منازعات ثقبة فقد ترك اليمن فيما يبدو، وعاد إلى الحجاز يناجز أخاه عجلان ويناجزه؛ لأننا نرى فيما ينقل الغازي عن ابن فهد في حوادث سنة ٧٥٢هـ أن ثقبة اتخذ مقامه في وادي فاطمة وأنه أحاط بقوته بعض المراكب القادمة من اليمن، واستحصل وإخوانه من أصحابها ضرائب جمركية عنيفة، وأمرهم أن يبيعوا بضائعهم في وادي فاطمة، ثم قال: وجاء أمر سلطان المماليك بمصر إلى الفريقين المتنازعين بالسفر إلى مصر فامتنع ثقبة وأراد عجلان أن يسافر ثم عدل فاعتذر بعدم استطاعته ترك البلاد وفيها ثقبة وإخوانه.

ثم لا نلبث أن نجد ثقبة في رمضان في مصر ليتسلم مرسوماً جديداً بالإمارة ويتلقى عروضاً وإعانات من رؤساء المماليك ثم يفصل عائداً إلى مكة فيناجز عجلان من جديد ثم يتريث حتى يقبل الركب المصري فيطلب منه العون عن فتح مكة فيمتنع ويغضب ثقبة لامتناعه ويهدده بمنع الركب مع دخول مكة فتتفاقم المشاكل ويزداد الاضطراب ثم يعود الحال إلى الصفاء؛ لأن أمير الحج وفي صحبته قاضي مصر عز الدين بن جماعة يتوسطان في إصلاح الأمر بين الأخوين وتوفيقهما على أن يحكما مكة بالاشتراك.

وقد ظل الحال على هذا مدة قصيرة ثم عاد الخلاف بين عجلان وثقبة فأجلى ثقبة عجلان ثم عاد عجلان فأجلى ثقبة[1] .

ويبدو أن المماليك شعروا أن ثقبة يتجنى على أخيه وأنه لابد من عمل حاسم مهما كلفهم ذلك فأسروا إلى أمير الحج في عام ٧٥٤هـ أن يقبض على ثقبة بعد أن زودوه بقوة كافية من الجند، فلما انتهى الركب إلى مكة علم أن ثقبة في وادي فاطمة، فكتب أمير الحج يطلبه أن يوافيه إلى الزاهر[2] ليصلح بينه وبين أخيه فوافاه في نفر من أخصائه، فاستقبله استقبالاً طيباً وخلع عليه ثم فاجأه فقبض عليه ومن معه من النفر، وكبله بالحديد وسافر من توه بهم إلى مصر حيث سجنوا في الجب.

وفي هذا يقول الغازي الذي ننقل عنه هذا الخبر بعد أن نقله من ابن فهد: إنه لم يتفق مثل هذا فيما سبق، ويقول: إنه لم يتفق له ذلك إلا أن سكان البلاد من الأشراف والأهالي ضاقوا بمناوءات ثقبة وبشغبه الذي امتد لسنوات دون أن يظفر بطائل.

وإن غلاء الأسعار واضطراباتها طول تلك المدة جعل الناس يترقبون للأمر نتيجة حاسمة، ويؤيد ذلك ما يذكره الغازي عن ابن فهد نفسه في تتمة الحديث وهو يقول: وقد سر الناس ذلك، إلى أن يقول: وعاد جلب الغلال ورخصت الأسعار حتى بيع أردب القمح بعشرين درهماً.

وظل ثقبة في سجنه بمصر ثم ما لبث أن أطلق ففر من مصر، وعاد إلى مناوأة أخيه فاقتتلا مرة ثم اصطلحا ثم عادا إلى الاختلاف[1] .

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) هو وادي فخ ويقع في ضاحية مكة.

عام ٧٦٠هـ أرسل صاحب مصر يستدعي عجلان وثقبة إليه فرفضا ذلك فأصدر مرسومه بعزلهما وتوليه أخيهما سند بن رميثة بالاشتراك مع ابن عمه محمد بن عطيفة.

عجلان وثقبة في السجن: وكان محمد بن عطيفة يقيم في مصر فتوجه إلى مكة في فرقة عسكرية من المماليك فيهم أربعة من الأمراء، واستطاع محمد بن عطيفة أن يتولى الحكم ثم ما لبث أن وصل سند فشاركه فيه[1] .

وهدأت الأمور في مكة على أثر ذلك وألغيت المكوس التي كان يتقاضاها عجلان وثقبة فرخصت الأسعار ونادى قائد العسكر في مكة بمنع حمل السلاح فعم الأمن في البلاد.

وهكذا أثبت أن عجلان وثقبة ومن والاهما من الأشراف يسيئون إلى إدارة البلاد بتصرفاتهم القاسية وخلافاتهم، وأن تأمين البلاد ورخاءها - مع كل أسف- رهين بإدارة عسكرية حازمة تقضي على بواعث الخلاف من أصولها.

واستطاع قائد العسكر أن يقبض على عجلان وثقبة ويصحبهما معه إلى مصر ليعتقلا فيها.

ويبدو أن أعمال الخلاف السالفة بين عجلان وثقبة وما ترتب على ذلك من اضطرابات وفتن هيأ للمماليك الأتراك فرصة جديدة للتدخل في شؤون البلاد تدخلاً عملياً؛ لأن الفرقة العسكرية التي صحبت مجيء محمد بن عطيفة والتي استطاعت أن تقضي على أسباب الفتن ما لبثت أن أقامت في البلاد بحجة الإشراف على شؤون الأمن فيها.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٣ .

ويحدثنا الفاسي[1] أن هذه الفرقة عندما اعتزمت الرحيل إلى مصر في عام ٧٦١ كان قد وصل إلى مكة غيرها من عسكر الأتراك ليحلوا محل الفرقة القديمة.

وإحلال فرقة جديدة في مكان فرقة قديمة تعطي دليلاً على أن البلاد باتت من عام ٧٦٠ محتلة احتلالاً عسكرياً وأنها أصبحت تابعة للمماليك تبعية مباشرة.

إلا أن أمر ذلك لم يدم طويلاً لأن الأشراف ما لبثوا أن اشتبكوا معهم في عام ٧٦١هـ في غارة عظيمة انتهت بإقصاء الفرقة وإنهاء الاحتلال.

وذلك أن عسكرياً من الترك سكن بيتاً عند باب الصفا فطالبه بالأجرة صاحبه من الأشراف فرفض دفعها- ولابد أنه أبدى شيئاً من العنجهية التي يبديها المحتلون في العادة -فثار النزاع واشتد، فضرب التركي الشريف فاشتد غضب الشريف فقتله، فاجتمع الأتراك للثأر، واجتمع الأشراف للدفاع فكانت الواقعة.

ووجد الأشراف خيلاً للأتراك عند باب الصفا تنتظر أصحابها للسعي عليها فامتطوها ومضوا بها إلى مستودع للترك بأجياد فاستولوا على ما فيه من سلاح وخيل ومضوا يحاصرون الأتراك حتى حصروهم وأوقعوا فيهم القتل فالتجؤوا بالمسجد الحرام وأغلقوا عليهم أبوابه، واستجار قائدهم ببعض نساء الأشراف.

ولحق بعض الأشراف بالمحصورين في المسجد ولم يقتحموه عليهم بل ظلوا يرمونهم بالنشاب، ويطالبونهم بالتسليم حتى سلموا أنفسهم، وقبلوا أن يغادروا مكة دون أن يتخلف منهم أحد، وألا يصطحبوا من عتادهم شيئاً، وأن يكتفوا بما خف حمله من أموالهم، وقتل في هذه الموقعة جماعة من الأشراف كان منهم

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٨.

الشريف مغامس بن رميثة[١] .

وبهذه الموقعة انتهى أمد الاحتلال وعاد الأشراف إخوان عجلان إلى حكمهم بعد أن نقلوا أسراهم من مماليك الأتراك إلى ينبع وأعلنوا بيعهم في الأسواق، ولما بلغ الأمر الملك الناصر الصالح في مصر أمر بتشديد السجن على عجلان في مصر وأن ينقل إلى برج في الإسكندرية، كما أمر بتجهيز حملة قوية لاستئصال الأشراف، إلا أن أمر الحملة لم تتم؛ لأن المماليك كانوا قد ثاروا على مليكهم بعد ذلك بأيام فاعتقلوه في سجن القلعة وولوا مكانه المنصور محمد أبو المعالي بن المظفر[٢] .

ورأى ابن المظفر أن يعالج أمر الأشراف في مكة بغير ما اختاره سلفه، فأمر بإطلاق عجلان بن رميثة من البرج في الإسكندرية، واتفق معه على ترحيله إلى مكة مزوداً بما يلزمه من عتاد وجيش ليستخلصها لنفسه من أخيه سند وابن عمه محمد وأن يحكمها بنفسه مستقلاً بأمره لقاء الدعاء لهم فوق المنبر.

وقد رضي عجلان بعرضهم وارتحل من توه إلى مكة فاستولى عليها وذلك في سنة ٧٦٢هـ بالاشتراك مع أخيه ثقبة إلا أن أخاه ثقبة ما لبث أن توفي فاستقل عجلان بالحكم[٢] .

فرض المكوس: ولم يكن عجلان بالأمير الجافي ولم تكن أحكامه من الشدة والقسوة في المكان الذي عرف به إخوانه، ولكنه كان لابد له من استعمال العنف مع مناوئيه في الحكم من إخوانه وبني عمه عطيفة، كما أنه لا يستطيع فيما يظهر

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤٩.

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٣

أن يستغني عن إلغاء المكوس لأنها مورده الوحيد؛ لهذا ما لبث أن أعاد المكوس إلى ما كانت عليه بعد أن خفف بعضها، وما لبث أن عاد إلى عنفه مع مناوئيه.

ويورد الفاسي[1] بيان المكوس التي كانت مقررة في ذلك العهد على أساس النقد المسعودي في اليمن مما يدل على أن مكة كانت تتعامل به ذلك الحين، وقد جاء فيه أن المقرر على حمل الجمل من الحنطة [2] هو مدان بكيل مكة وهي نظرية اقتصادية تعمل بها أكثر حكومات اليوم لتحد من واردات الخارج وتشجع الإنتاج الداخلي.

ويمضي الفاسي في بيان التعرفة الجمركية فيذكر أن المقرر على الحمل البصل هو ثلاثة دنانير مسعودية وهو مقرر فادح إذا قارنا ذلك برخص الأسعار في العالم في ذلك العهد، ثم يذكر المقرر على السمن والعسل والخضروات وهو ما يوازي ٢٠٪ من أثمانها، أما التمر فمقرره على السلة[3] الواحدة دينار مسعودي، ولم يذكر لنا الفاسي ثمن السلة لذلك العهد لنستطيع تحقيق نسبة ما يؤخذ منها.

ثم يعلق الفاسي على هذا فيقول: إن الناس كانوا يقاسون شدة من ذلك، قد بلغه أن بعضهم استورد شاة فلم تساو المقدار المقرر عليها، ومنه نعلم أن هذه المقررات كانت فادحة بنسبة أثمانها في زمانها وإذا استطعنا أن نعذر أصحاب الأمر يومها في فرض المكوس لتغطية النفقات الضرورية فإننا لا نستطيع أن نعذرهم في تقرير النسب المرهقة والذي أظنه أن نظرتهم إلى المكوس كانت أوسع

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٩.

(٢) الحمل بكسر الحاء هو وسق بعير، ويقدر في الحنطة وأمثالها بأردب، أي ستين كيلة من كيل مكة اليوم.

(٣) السلة: بالفتح: كمية من تمر العجوة تزن - غالباً - قنطاراً ونصف القنطار موعنة في ماعون من سعف النخل أو نحوه، فهي في الحجاز كالقلة عند أهل هجر. (ع).

من أن تختصر على تغطية نفقات الدولة، وأن لهم مطالب خاصة بهم لا تسعها إلا المقررات الباهظة والواردات الضخمة.

على أن هذه الشكاوى من فداحة الضرائب لم تقف عند حد التذمر المحلي فقط فيما يظهر، إذ لابد أنها تعدت إلى أوسع من ذلك حتى اتصلت بحاكم مصر شعبان بن حسين بن الناصر قلاوون المتولي عام ٧٦٤هـ فأراد أن يفعل شيئاً مفيداً لسياسة بلاده فقرر أن يكلف خزانة مصر بعض الهبات لحكومة مكة فيربح ثواب ذلك عند الله والتاريخ، ويوثق الصلة بينه وبينها وقد أمضى ذلك فعلاً؛ لأننا نجد الفاسي[1] يذكر في حوادث سنة ٧٦٦ أن سلطان مصر رسم لحكومة مكة ثمانية وستين ألف درهم من بيت المال، وألف أردب قمح سنوياً مقابل إلغاء المكوس على الحاج في كل ما يحمل إليها من المتاجر عدا ما يصطحبه تجار الهند والعراق من البضائع، وقد قبل عجلان صاحب مكة ذلك وطابت نفسه به.

ويلاحظ القارئ أنهم لم يدرجوا حاج الهند والعراق في المعفين من الرسوم، ولعله يدرك أن السبب في هذا كون العراق هو القطر المنافس بالنسبة لنفوذ المصريين في مكة، ومن المظنون أنه كان ينافس بتجارته تجارة الأقطار الأخرى والمصريين منهم خاصة، ولا أستبعد أن الحكومة العراقية كانت تكلف خزينتها كثيراً في سبيل عرض السلع الخاصة بها في مكة بأقل من أثمانها كما كانت تفعل اليابان في عز مجدها من سنوات سلفت، كما لا أستبعد أن الهنود كانوا يستعملون لترويج بضائع العراق بجانب بضائعهم.

وقد ظل إلغاء المكوس بالنحو الذي أسلفنا جارياً في مكة يعمل به جميع الأمراء إلى مدة طويلة.

---

(١) شفاء الغرام ٢ / ٢٤٩.

وعلى الرغم مما كانت تحاوله مصر لتثبيت علاقاتها بمكة وما كانت تنفقه في سبيل استمرار الدعوة لها على منبرها فإن سياسة عجلان معها كانت أشبه ما تكون بسياسة اللاعبين على الحبال، فقد كان يقبل هباتها ويدعو باسمها على المنبر، ولكنه يخالف مقترحاتها في بعض ما يعن له وكأنه أراد ألا تثبت عليه تبعية.

كما كان يستثير عنادها أحياناً فيدعو لغيرها معها، وفي هذا يحدثنا الفاسي[1] في حوادث سنة ٧٧٢هـ أن عجلان أمر خطيب مكة أبا الفضل النويري أن يدعو للسلطان أويس بن حسن صاحب بغداد في منبر مكة. قال: وقد أهدى السلطان قناديل جميلة للكعبة وهدايا فخمة لأمير مكة عجلان، وقد ظل الدعاء لصاحب بغداد مدة لا يدري الفاسي مقدارها.

وعلى العموم فقد كان عجلان من أمراء مكة القلائل الذين استطاعوا أن يثبتوا شخصيتهم في الحكم، وأن ينهجوا في سياستهم نهجا خاصا له أثره الطيب في علاقته بمصر وغيرها.

وينقل لنا ابن خلدون في تاريخه «ديوان العبر» أن عجلان كان معروفا بالعدل بين الرعية متجافياً عن الظلم وأنه أبطل ما كان عليه قومه من التعرض للتجارة والمجاورين.

ويذكر ابن فهد[2] أن عجلان عندما تزوج أم السعد بنت القاضي شهاب الدين أمهرها سبعين ألف درهم ثم ما لبث أن طلبت إليه طلاقها؛ لأنه يتوسع في بعض أموالها فطلقها.

وشب لعجلان ولد اسمه أحمد، وقد أنس منه الطموح الذي شعر به في فتوته

(١) شفاء الغرام ٢/ ٢٤٩.

(٢) إتحاف الورى لنجم الدين ابن فهد القرشي «مخطوط».

يوم استعجل الحكم في حياة أبيه فأراد أن يعالج طموحه دبلوماسيا، فأشركه في الحكم وجعل له ربع المتحصل يصرفه في خاصة نفسه، ولعله أراد بذلك أن يتركه يستعين بذلك المال في تهيئة الأبهة التي تشبع غريزته في الطموح، فركن الولد إلى هذا عدة سنوات كانت نهايتها عام ٧٧٤ ثم مالبث أحمد أن انفرد بالحكم دون أبيه بعد أن اتفق مع أبيه على شروط منها، ألا يقطع اسمه في الخطبة والدعاء له على زمزم وغير ذلك، وقد حلف لأبيه على المصحف العثماني[1] ووفى بما حلف، وظل على ذلك، إلى أن توفي عجلان في عام ٧٧٧ فاستقل أحمد بالأمر[2]. ونحن نميل إلى الرواية السابقة عن ابن ظهيرة.

أولاد عجلان: اشتهر من أولاد عجلان خمسة هم: أحمد -وعلي- ومحمد- وكبيش- وحسن- وقد رأينا أحمد يشارك أباه في الحكم ثم يستقل به قبل وفاة أبيه عجلان في سنة ٧٧٧ وقد كتب إلى سلطان الممالك بذلك فأيدوه، وقد قرىء التأييد في المسجد وأقسم أحمد يميناً بالعدل وطاعة السلطان.

وجرى أحمد على سنة أبيه في إثبات مراسم العدل وإحياء معالمه حتى شاع ذلك عنه في الآفاق على ألسنة الحجاج والمجاورين، وقد ذكره الدحلان[3] فقال: إنه كان شجاعاً، وإنه جمع من الأموال والخيل ما لم يجمعه أحد من أسلافه.

ويذكر الفاسي[4] أن أحمد استعان بابن صغير له اسمه محمد سنة ٧٨٠ ولكن هذا الابن لم يظهر له أثر في الحكم لصغر سنه.

---

(١) هو المصحف الذي كتب في عهد عثمان بن عفان، ومنه يستدل على وجوده في مكة لذلك العهد.
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي «مخطوط».
(٣) خلاصة الكلام ٣٣.
(٤) شفاء الغرام ٢ / ٢٠٧.

وظل أحمد بن عجلان على علاقته الطيبة بحكومة المماليك الأتراك في مصر يدعو لهم على منبر مكة ويتقبل هداياهم، ثم ما لبث أن بلغه خبر سقوط حكومة مماليك الأتراك في عام ٧٨٥هـ وقيام حكومة المماليك الشراكسة على أنقاضهم بقيادة أبي سعيد برقوق الذي نادى بنفسه ملكاً على مصر على أثر استيلائه عليها ولقب نفسه بالملك الظاهر برقوق[١] .

عندئذ أرسل من يمثله لدى البلاط الجديد ويقدم تهانيه ويعرض صداقته فسر الملك الجديد بهذه الرسالة الطيبة، وأيد علاقته بأصحابها وعاد المندوبون إلى مكة يحملون الهدايا والخلع ورسائل الود[٢] .

وأعتقد أن المخصصات السنوية التي رسمها مماليك الأتراك ظلت على حالها ترسل إلى مكة، كما ظل إلغاء المكوس معمولاً به؛ لأن أحداً من المؤرخين لم يحدثنا بعودة المكوس إلى ما كانت عليه قبل الإلغاء.

ووصل إلى مكة في هذا العهد محْمَلٌ من اليمن صحبة الحجاج اليمنيين عام ٧٨١[٣] ولعل صاحب اليمن بلغته بعض القلاقل في مصر فأراد أن يغتنم الفرصة للدعاية لنفسه في مكة.

(١) كان مماليك الأتراك يستخدمون في أعمالهم مماليك الشراكسة ويولونهم كثيراً من الثقة، فلما تقادم العهد وبدأ الضعف ينساب إلى كرسي الحكم كانت شوكة الشراكسة المماليك اشتدت وقوي نفوذها فثاروا ضد أصحاب الملك أسيادهم من الأتراك كما ثار الأتراك من قبل ضد أسيادهم الأيوبيين، وقد نجحت الثورة بقيادة رئيسها أبي سعيد برقوق الشركسي الذي أعلن نفسه ملكاً على أثر انتصاراته في عام ٧٨٥ ولقب نفسه بالظاهر برقوق وبهذا دخلت مكة في علاقة جديدة مع مماليك الشراكسة في مصر بعد مماليك الأتراك.

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٣) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٥٠ .

وظل أحمد بن عجلان على أمره في الحكم ثم عاد فأشرك معه ابنه محمداً في عام ٧٨٧هـ واستمر بعدها إلى أن وافته منيته عام ٧٨٨هـ[1] .

ويذكر الدحلان أنه مات في جوف الكعبة في عهد أحمد هذا أربعة وثلاثون رجلاً من شدة الزحام وذلك في سنة ٧٨١هـ[1] .

ومن الحوادث المهمة التي وقعت في عهد أحمد أنه قبض على جماعة من بيته وأقاربه فيهم عنان بن عمه مغامس، وسجنهم مقيدين في الحديد في سجن أجياد ثم ما لبث أن نقلهم إلى سجن العلقمية بالمروة، وذلك أن الظاهر برقوق رسم لهؤلاء مبالغ يستوفونها من أحمد فلم يوافق فثار النزاع وانتهى بالقبض عليهم، وكتب إليه صاحب مصر أن يطلقهم فامتنع، وقد حاول هذا النفر الفرار من سجنهم بعد أن ربطوا بعض ثيابهم بأحد الشبابيك ثم انتقلوا إلى منزل مجاور فتنبه الحراس لهم وأدركوهم إلا عناناً الذي خلص إلى خارج السجن ولم يشعر به أحد، وقد اتجه في فراره إلى سوق الليل فصادفه كبيش بن عجلان جاداً في البحث على ضوء المصابيح فاختفى منه، ثم خلص إلى بيت لأحد معارفه في شعب علي فخبأه في صهريج له، وقد نمي ذلك إلى كبيش فأسرع إلى اللحاق به فاختبأ عنان في بيت امرأة يعرفها في المعابدة، ولما جاء كبيش إلى حيث اختبأ أكدت المرأة أنها لا تعرفه حتى اقتنع كبيش وعاد، ومن ثم خرج عنان إلى وادي خليص حيث كانت قد أعدت له ناقلة سريعة ركبها وولى هارباً إلى مصر فنزل ضيفاً على أصحابها من مماليك الشراكة يتحين الفرص للثأر، ولم يمكث غير قليل حتى بلغ غايته من الثأر، واستطاع أن يصل بمثابرته إلى مركز الحكم في مكة بعد

(١) خلاصة الكلام ٣٠٤ .

أن تركها شريداً[١] .

وبموت أحمد بن عجلان في عام ٧٨٨ انفرد بالحكم بعده ابنه محمد، وتولى الوصاية عليه عمه كبيش، وكان يدير دفة الحكم ويشرف على جميع أعماله[٢] .

ولم يدم حكم محمد بعد ذلك أكثر من مائة يوم فقد أصابه مقذوف ناري في حفلة المحمل من موسم ذلك العام (٧٨٨) فقتله، وذلك أنه دعي إلى حفلة استقبال المحمل، وكان من رأي عمه الوصي ألا يجيب الدعوة ولعله شعر أن بعض عناصر الأشراف من بني عمومته غير راض عن حكومته؛ لهذا خشي أن يغتالوه في غمرة الاحتفال فأوصاه بعدم الحضور، ولكن الصبي الأمير أبى إلا أن يحضر وقد حضر فأصابه مقذوف ناري أثناء اللعب في الاحتفال، وقد قيل: إن الذي اغتاله في الحفل كان دسيسة بدافع من أمير الحج المصري[٣] .

كما قيل إن القاتل كان من بعض الباطنية ولم يتضح أكان الباطني من أشراف مكة لنعرف علاقة ذلك بسياسة الأشراف أم كان أجنبياً دفع إلى القتل بدافع ديني لا علاقة له بالأشراف؟ إلا أننا وقد مررنا بالحادثة التي ذكرناها عن فرار عنان من سجن عمه أحمد بالصورة التي مرت بنا نستطيع أن نربط بين الحادثين برباط وثيق.

ولا يكلفنا الدحلان[٤] عناء هذا الربط؛ لأنه لا يلبث أن يذكر لنا على أثر مقتل

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٦ .

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» وقال عبدالقادر الجزيري في درر الفوائد المنظمة ص ٣١٤ : وكان أمير الحاج المصري آق بفا الماردیني، ولما وصل مكة خرج أميرها محمد بن أحمد بن عجلان بعسكره إلى أن حضر عند المحمل فأحاط به الترك الذين حوله فلما أخذ يقبل خف جمل المحمل على العادة وثب عليه باطنيان فجرحاه جراحات مات بها من فوره، وحمل إلى المعلاة .

(٤) خلاصة الكلام ٣٤ .

محمد الذي قتله أمير الحج المصري ثم يقول: وقيل قتل في سوق منى بسكين مسمومة، وقيل إنه مات في احتفال المحمل، ثم يسرد عبارته بالشكل الذي يتراءى فيه ارتباط الحوادث فيقول: «وذلك أنه كان في جيش أبيه جماعة من أقاربه الأشراف -وهم الذين ذكرناهم- فلما توفي أبوه سأله سلطان مصر أن يطلقهم فأبى، ثم كحلهم وهو يريد أنه سمل عيونهم بمسامير محماة فأضمر السلطان ولاية عنان بن مغامس «غريم أبيه» الذي فر من سجنه، وهكذا سيره مع أمير الحج المصري وأمره بألا يظهر أمره إلى بعد أن تجري مراسيم استقبال المحمل في مكة بحضور أميرها محمد، فلما حضر محمد الاحتفال انطلق مقذوف ناري أصاب الأمير فأرداه قتيلا. وهكذا ثأر لنفسه من ابن عمه، وبه ارتبطت حوادث اليوم بحوادث الأمس ونادى على الأثر عنان بن مغامس بنفسه أميراً».

وقد دافع إخوان المقتول من أولاد عجلان وأصحاب حزبهم فلم يجدهم ذلك وهجم الترك بسلاحهم حتى انتهوا إلى أجياد فأوقعوا في من ثبت من أصحاب محمد وكان ذلك في ذي الحجة من العام المذكور ٧٨٨هـ.

عنان بن مغامس: وهكذا تولى الأمر عنان بن مغامس[١] وقد استعان في حكمه بنفر من بني عمه هم أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك وعلي بن مبارك على أمل أن يساعدوه في استقرار الأمور ولكن الأمور أبت أن تستقر؛ لأن كبيشاً عم الأمير المقتول ووصيه أثارها شعواء ضد المتولين الجدد في أوائل العام ٧٨٩هـ وساعده أولاد عجلان أعمام المقتول، وقد اتجهت الثورة إلى جدة فاستولى عليها

(١) من أوليات عنان في مكة أنه أعفى سدنة الكعبة من الأموال التي كان يحصلها منهم أمراء مكة قبله، وكانوا يأخذون منهم جانباً من كسوة الكعبة أو خمسة آلاف درهم عوضاً عن ذلك مع ستارة الكعبة وثوب مقام إبراهيم، عن كتاب «إفادة الأنام» للشيخ عبدالله غازي.

العم كبيش، ونهب الثائرون أموال التجار في جدة من الحضارم، واستولوا على الغلال التابعة لمصر فيها[1] ولعل الثائرين أرادوا بذلك أن يمونوا ثورتهم بأموال التجار من الأهلين وبالغلال الخاصة بحكومة مصر من الشراكسة الذين اغتالوا أميرهم الصغير واختاروا خلفه من غير ولد عجلان، وقد أعانهم على الثورة بعض أقارب عنان المتولي الجديد في مكة، وقد مضت الثورة تأخذ طريقها من جدة إلى مكة مكتسحة أمامها جميع ما صادفها، وقد عبث العبيد فيها بأموال العرب النازلين في الطريق والمسافرين به، ثم انتهى الثوار إلى وادي فاطمة حيث ظلوا يعدون عدتهم للهجوم على مكة واستخلاصها من حكم عنان[2] .

علي بن عجلان: وانتهى الخبر إلى الشراكسة في مصر فندموا على نقل الحكم من أولاد عجلان، وأرسلوا مرسوماً جديداً بتولية الابن الثاني لعجلان وهو علي ابن عجلان فكان انتصاراً لأولاد عجلان الثائرين وقدجمع أولاد عجلان جموعهم ليدخلوا مكة مع كبيش رأس الثائرين، ولكن عناناً وأنصاره من أولاد رميثة أبوا أن يخضعوا لمرسوم الشراكسة وتقدموا للدفاع عن حكمهم في مكة، فكانت موقعة شديدة سالت فيها الدماء غزيرة بين الفريقين في شعب أذاخر[3] وقتل فيها كبيش وكبار من أنصاره وذلك في ٢٩ شعبان سنة ٧٨٩هـ.

وأهل رمضان فتنادوا بالهدنة وعاد آل عجلان إلى وادي فاطمة[4] وآل رميثة

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٧ .

(٢) وتوجد ذرية عنان اليوم وهم الأشراف ذوو عنان في قرية الحوار بين خليص وساية وهم فلاحون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة (ع).

(٣) شعب يتصل بأعلى المعابدة إلى الزاهر، ويسمى اليوم «حريق العشر».

(٤) هو وادي مر المعروف، ويبعد عن مكة نحو ٢٣ كيلو متر .

إلى مكة، وطالت الهدنة حتى وافى الموسم من تلك السنة ٧٨٩هـ وجاءت وفود الشراكسة تحمل إليهم حلاً جديداً من مصر: هو أن يشترك في الحكم عنان من أولاد مغامس وعلي من أولاد عجلان، ويبدو أن عناناً لم يعجبه هذا الحكم فانتقل بأنصاره إلى الزيمة من وادي نخلة، ثم سافر إلى مصر لمقابلة ملك الشراكسة، وبذلك استولى علي بن عجلان على مكة وانفرد بولايتها[١].

وفي أثناء سنة ٧٩٢ عاد عنان من مصر يحمل مرسوماً جديداً يخوله حق الاشتراك مع علي بن عجلان، فرضي علي بالشركة وكان قد استرضى أكثر الأشراف في المدة التي غاب فيها عنان، فلما عاد لمشاركته في الحكم كانت ميول الأشراف قد اتجهت إلى علي بن عجلان بقدر ما كانت ميول الشراكسة تتجه إلى عنان[١].

وما لبث الشريكان إلا قليلاً حتى اتفق جماعة من أنصار علي بن عجلان على الفتك بعنان في المسعى، فلما بلغ ملك الشراكسة الظاهر برقوق ذلك استدعى الشريكين إلى مصر ثم ترك علياً يعود إلى الإمارة منفرداً بينما سجن عناناً عنده.

وظل علي على إمارة مكة منفرداً إلا أن حكمه الأخير لم يظفر بالاستقرار المنشود؛ لأن أشراف مكة الذين استرضاهم لم يلبثوا أن شعروا بشدة وطأته، فقد سجن جماعة منهم وأهانهم فعادوا إلى مناوأته، واشتدت المناوأة حتى نال الناس تعب شديد وكثرت القلاقل والفتن واضطرب الأمن وشعر التجار أنهم غير آمنين فارتحل أكثرهم إلى ينبع فراراً من الفوضى، ودام الأمر على ذلك حتى تغلب مناوئوه عليه فقتلوه في شوال سنة ٧٩٧هـ[٢].

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٠٧ .

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

محمد بن عجلان : ولما قتل علي قام بالأمر بعده أخوه محمد بن عجلان وهو الابن الثالث لعجلان، ولعله أراد أن ينجح في تهدئة الأحوال في مكة، وأن يظفر بتأييد الشراكسة في مصر والأهالي في مكة فلم يستطع لضعفه وعجزه عن إدارة البلاد، وبذلك تفاقمت الفوضى واشتد النهب والقتل.

واختطف بعض القواد - ولعله من الشراكسة - شيئاً من المسجد الحرام واحتمى ببعض أصحابه فجرى بينهم وبين الحاج قتال شهرت فيه السيوف بالمسجد الحرام، واتصل القتال بالشوارع وتحركت قوات أمير الحج الحلبي من مخيمها في الأبطح فهاجمت القواد في معسكراتهم بأسفل مكة إلى جهة الشبيكة وجرى بين الفريقين قتال كان الظفر فيه للقواد.

ولم ينته الأمر عند هذا، فقد أغرت الفوضى بعض اللصوص فقاموا يضعون أيديهم في أموال الحجاج والأهالي، وتطور النهب يوم التروية في مكة وعلى الطريق إلى عرفات وفي ليلة الإفاضة بين المأزمين وفي الطريق إلى مزدلفة ثم تفاقم الأمر في مكة فنهبت كثير من بيوت الأهالي ووقع السلب في حاج اليمن ولم يستطع محمد بن عجلان لفرط عجزه أن يقمع الفوضى أو يعيد الاستقرار[1].

وفي هذا العام اصطحب الحاج الشامي معه إلى مكة محملاً من حلب وفيه حج العراقيون بعد انقطاعهم مدة طويلة، وكان عددهم قليلاً فلم يتجاوز ركبهم خمسمائة جمل[1].

---

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٥٠ .

حسن بن عجلان: وفي هذه الأثناء وبين غمار هذه الفوضى لمع اسم جديد في مكة هو حسن بن عجلان الذي كان من أشد إخوته حزماً وإيماناً بنفسه، ولعله لم يكن من أبناء عجلان مثله في قوة الشكيمة والقدرة على ضبط الأمور وقد عده أصحاب التراجم من العلماء وأصحاب الفضل(١).

والذي يبدو من ثنايا ما كتبه المؤرخون أن حسناً كان غير راض عن الفوضى في عهد أخيه، وأنه توجه إلى مصر في عهد حكم أخيه علي قبل قتله بعام واحد، فدس علي عليه لدى الشراكسة فاعتقلوه ظناً منهم أنهم بذلك يساعدون علياً على وجود الطمائنينة في مكة، لكن الأمر لم يلبث أن بدا على عكس ما يظنون، فإن الثورة ما لبثت أن اشتد أوارها حتى انتهت بقتل علي وقيام أخيه محمد بعده، ولعل الشراكسة انتظروا بضعة أشهر ليروا تأثير حكم محمد في تهدئة الأحوال، فلما خاب فألهم عادوا يفكرون في أسيرهم حسن وعند ذلك أطلقوا سراحه، وكتبوا مرسوماً بولايته على مكة فشدَّ رحاله إلى مكة وتسلم زمامها من أخيه في ٢٤هـ من ربيع الآخر سنة ٨٠٩هـ بدون قتال(٢).

وقد استطاع ضبط أحوال البلاد وحسم أسباب الفساد فيها ونظر إلى الفوضويين من أبناء عمومته من الأشراف نظرة قوية حازمة أراد بها أن يمهد للموسم الجديد تمهيداً طيباً؛ ليعود الهدوء إلى البلاد قبل حلول الموسم فأعد لهم حملة تأديبية قاسية صبحهم بها في مكان بوادي فاطمة كان يقال له: الزبارة، وذلك في ٥ شوال من السنة نفسها وقد نجحت الحملة نجاحاً راح ضحيته نحو

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

أربعين شخصاً[١] من الأشراف وانتهى بالهدوء والاستقرار، واستطاع التجار الفارون بأموالهم من الفوضى أن يعودوا إلى متاجرهم في مكة.

وفي هذا العهد أهدى بعض ملوك الإسلام إلى المسجد الحرام شيئاً من الخيام وطلب إقامتها في صحن المسجد؛ ليستظل بها المصلون من الشمس يوم الجمعة قريباً من الخطيب وقد قبلها حسن وأقامها منصوبة في المسجد إلا أن المصلين كانوا يتعثرون في أطنابها فما لبث أن أبطلها[٢].

وفي هذا العهد مات أمير المدينة ثابت بن نصير[٣] فأرسل حسن إلى أحد إخوة المتوفى واسمه عجلان بن نصير يستدعيه إلى مكة فلما حضر فوض إليه أمر المدينة وقبل أن يغادر مكة وافت الأنباء بأن جمنازاً بن هبة ثار بالمدينة واستولى على ستارة باب الحجرة النبوية وعلى مخازن المسجد بما فيها من هدايا نفيسة وأموال عظيمة، ولعله أراد أن يمون ثورته بها.

ولست أعجب لشيء عجبي لمن يهدي إلى المسجد نفائس غالية لتربط باسمه في مخازنها في وقت يكون المسلمون فيه أحوج إلى أثمان هذه النفائس لتنفق في إصلاح مرافق البلاد وإنشاء المشاريع وتعميم التعليم.

وقد سير الشريف حسن ابنه أحمد في جيش بلغت عدته مائتين وستين ما بين فارس وراجل واثنين وعشرين مملوكاً كما سير عجلان بن نصير الذي أمره على

---

(١) إتحاف فضلاء الزمن «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٣٧.

(٣) يرى الأستاذ البحاثة حمد الجاسر أنه ثابت بن نغير، ولكنني لم أعثر فيما بين يدي من مصادر إلا على اسم نصير، وذكر المستشرق زامباور في كتاب (معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي) أميراً من أمراء المدينة المنورة اسمه نعير - بضم النون وتصغير الترخيم - ابن منصور (ص ١٧٨) (ترجمة الدكتور زكي حسن بك وحسن أحمد محمود).

المدينة في جيش آخر لإخضاع الثورة، وقد نجح الجيشان في طرد الثوار وإقرار الأمن في المدينة لعجلان بن نصير وذلك في عام ٨١١هـ[١] .

وفي عام ٨١٢هـ منع صاحب اليمن تصدير الأرزاق إلى مكة لاستيائه من حسن بن عجلان ويورد الغازي[٢] سبب الاستياء فيذكر قصة غريبة خلاصتها أن صاحب اليمن كان قد طلب إلى حسن بن عجلان نظم بيت من الشعر في موضوع اقترحه، فأرسل إليه بذلك فلما لم يهده مقابله شيئاً عمد إلى العفيف عبدالله الهبي -ولعله كان وكيلاً لليمن في مكة- فأخذ منه خمسة آلاف مثقال من الذهب فغضب صاحب اليمن ومنع تصدير الأرزاق إلى مكة؛ فشق ذلك على الشريف حسن، ووجد من يغريه بغزو اليمن ويعده بجمع الرجال لمساعدته فاستعد لذلك ثم ما لبث أن أشار عليه بعضهم بانتداب السبكي إلى اليمن لتسوية الأمور فانتدبه، وبذلك سويت الأمور وعادت إلى مجراها الطبيعي أو ما يقرب منه.

وفي هذه السنة (٨١٢) وشي بحسن بن عجلان عند الناصر فرج بن الظاهر برقوق صاحب مصر بوشايات ذكر فيها أن حسناً انحرف عن علاقته بالناصر، فأصر الناصر على عزله عن مكة وأوعز إلى أمير الحج بأن يعد عدته من السلاح والجيش والمدافع ولعلها - أول مرة وصلت إلى الحجاز مدافع - وأن يعلن أن الغرض من حركته هو اليمن وقد فعل، ولكن الشريف حسناً لم يخف عليه الأمر وقرر الدفاع عن إمارته فاستنفر القبائل العربية والأشراف حتى اجتمع له منهم في الطائف، وليه، وجبل الحجاز[٣] أربعة آلاف واجتمع له في مكة ألفان كما اجتمع

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام «مخطوط».

(٣) هو من سلسلة جبال السراة غرب وجنوب الطائف ويسكنه قبائل من غامد وزهران .

له نحو ستمائة فرس .

وبينما كان قائد الجيش المصري في طريقه إلى مكة أرسل الشريف حسن يبلغه : «أني على استعداد لملاقاتك ، ولكني أرى أن تحرص ألا يصيب الحجاج شيء ، فإما أن تتقدمهم أو تتأخر عنهم» (١) .

وقبل أن تبارح الرسالة مكة وافى رسول مستعجل من الملك الناصر يعلن عدوله عن الحركة وتأييده من جديد لإمارة الشريف الحسن . . وكان رسول السلام هو فيروز ساقي الملك الناصر ، وقد جاء يصحب معه الخلع والهدايا ، وبذلك عادت الطمأنينة إلى مكة وظل الشريف حسن على إمارته فيها .

وطلب رسول السلام إلى الشريف حسن ألا يتعرض لجيش مصر ؛ فقبل بشرط أن يسلم الجيش سلاحه وآلة حربه في رباط ربيع بأجياد فوافق أمير الحج بعد تمنع ، وظل السلاح محجوزاً حتى تسلموه بعد قضاء الحج ، وبذلك استقر الأمر ودخل أمير الحج مكة آمناً ، وزار الشريف حسناً في داره بأجياد ، ومع هذا فقد صادف بعض الخوف في عرفات ومنى لعدم اطمئنانهم لما انتهى إليه الوفاق .

ويقول تقي الدين الفاسي : إنه كان بين حجاج هذا العام ، وإن أمير الحج الشركسي لم يثبت عنده يوم الوقوف فدفع بجيشه بعد الغروب من عرفة ثم عاد إليها ليستأنف الوقوف في اليوم الثاني فظن أهل مكة أنها خدعة الحرب ؛ فحدث الاشتباك واضطرب حبل الأمن ، وكادت الفتنة أن تقع لولا أن تداركها عقلاء الطرفين(١) .

ويذكر القطبي في حوادث سنة ٨١٥ أن هذا العام كان شديد الجدب على

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢٥٣ .

الناس وقد بيعت الغرارة من الحنطة بعشرين ديناراً ذهباً كما بيعت البطيخة بدينار من الذهب.

وفي هذا العهد قطع الحج العراقي فلم يصل ركبه إلى مكة ولا محمله، وظل ذلك نحو سبع سنوات، وذلك بسبب ما أثير من الفتن في العراق فقد ثار فيها ابن يوسف التركماني فقتل صاحب العراق واستولى على حكمها[١].

فلفل إلى مصر: ومن أطرف ما يرويه الشيخ عبدالله غازي في كتابه إفادة الأنام أن الفلفل قل وجوده في مكة في عام ٨١٥هـ كما قل وجوده في مصر[٢]، فأرسل صاحب مصر يطلب شراءه من مكة فوجد أن سعر وسق البعير منه يبلغ قيمته ٢٢٠ مثقالاً من الذهب بينما كانت قيمته قبل ذلك لاتزيد عن ٦٠ مثقالاً، ومع هذا فقد أمر صاحب مصر أن يحمل إليه ما قيمته ٥ آلاف دينار.

وفي سنة (٨١٦) استأنف الركب العراقي حجه، واصطحب محمله المعتاد وهداياه إلى أشراف مكة وصدقاته إلى فقرائها، وقد دعي له بالبقاء والعز على قبة زمزم في ليلة الجمعة ١٦ ذي الحجة من العام المذكور.

وكان لحكومة العراق ترتيب خاص في مسجد مكة يجتمع فيه بعض القراء المرتبين، فيقرأ القارئ منهم جزءاً خاصاً من المصحف، ويقرأ آخر غيره وغيره كذلك، وبذلك يختمون القرآن ثم توزع العطايا المرتبة على أصحابها سنوياً، وقد احتفل بهذا المجلس في ذلك العام بعد أن قطع عدة سنوات[٣].

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢/ ٢٥٣.

(٢) ذكر صاحب دور الفوائد المنظمة في حوادث سنة ٧٤٧هـ ما نصه: وعز الفلفل بالقاهرة حتى بلغ الرطل ستة وأربعين درهما. ص ٣٠٨.

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

وكان الحسن بن عجلان نشيطاً في بعض أعمال العمران، فقد لاحظ أن البيمارستان الذي بناه المستنصر العباسي بين باب الزيارة وباب الدريبة وقفاً لإيواء المجانين وعلاجهم - وقد ذكرنا في حينه- قد تقادم عليه العهد فاستأجره في عام ٨١٦ من القاضي الشرعي بمكة إجارة مدتها مائة عام !!! بأربعين ألف درهم ثم آذنه القاضي بصرف المبلغ على تجديدات البيمارستان وإعداده لإيواء الفقراء والمرضى والمجانين، وقد ظل البيمارستان على ذلك حتى خرب ودثر ثم استبدل في أواخر السلطان سليم كما استبدل بجواره رباطان وعمر مكان الجميع المدارس الأربعة الموجودة إلى اليوم(١) كما سيأتينا(٢) .

الخيول في المسجد: ومن أغرب حوادث هذا العهد أن أمير الحج المصري غضب على أحد غلمانه في مكة في عام ٨١٧ فأدبه وسجنه فثار زملاؤه من الغلمان والقواد فهاجموا المسجد الحرام من باب إبراهيم راكبين خيولهم والناس في صلاة الجمعة، وانتهوا إلى مقام الحنفية فلقيهم الأتراك والحجاج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى أجلوهم واستغل بعضهم الفرصة وأوقعوا في الناس نهباً وسلباً، وأمر أمير الحج المصري بإغلاق أبواب المسجد وتسميرها إلا الأبواب التي تحاذي منزله عند المدرسة المجاهدية(٣) ليدخل منها هو وأتباعه إلى المسجد ثم أدخلت خيله إلى المسجد الحرام، وجعلت بالرواق الشرقي قريباً من رباط الشرابي فباتت الخيل في المسجد تلوثه بروثها وبولها .

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) هدمت هذه المدارس ودخلت في مشروع توسعة المسجد الحرام .

(٣) مدرسة المجاهدية كانت بين باب السلام وباب الدريبة .

ورأى الشريف حسن أن الحرم قد انتهك وأن كرامته قد أهينت فاجتمع بكبار الحجاج والأهالي في مكان له بأسفل مكة، وتشاوروا في الأمر ثم اتفقوا على ندب شخص يتصل بأمير الحج المصري ليبلغه استياء الإمارة مما حدث وضرورة تسوية الأمر وإجلاء الخيول عن المسجد، وقد قبل أمير الحج هذه السفارة ووافق على وساطتهم في تسوية الأمر فجرى الصلح بينه وبين غلمانه وعاد السلام إلى ما كان.

ومن غريب المصادفات أن الرجل الذي وقعت الفتنة بسببه كان اسمه جراداً، وقد أشار شاعر مكي إلى هذه الحادثة بهذه التورية:

وقع الغلاء بمكة ... والناس أضحوا في جهاد
والخير قل فهاهموا ... يتقاتلون على جراد[1]

إلغاء البدع: ومما يذكره التاريخ في هذا العهد أن علماء مكة اجتمعوا على توقيع عريضة طلبوا فيها إلغاء بدع المؤذنين وما يتغنون به من المدائح النبوية فوق المآذن وإلغاء الاحتفال بليالي ختم القرآن في رمضان ومنع إيقاد مشاعل المقامات في رمضان وهلال ربيع الأول ورجب، فقبل ما عرضوه وصدر بإلغاء جميع ذلك، ولكنه لم يمض على ذلك عامان حتى سعى بعض الكبراء لدى أمراء مكة لإعادته فأعيد ثم أعيد[2].

رميثة بن محمد بن عجلان: وما لبث الحسن أن عاد إلى الخلاف مع الشراكسة في مصر في عام ٨١٨هـ فندبوا لقتاله جيشاً يقوده رميثة بن محمد بن

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٣٨.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عجلان فاستطاع أن يستولي على مكة وأن يجلي عمه عنها .

حسن بن عجلان : ولا أستبعد أن يكون الحكم في مكة قد شعر بالفراغ الذي كان يملؤه الشريف حسن ، وأن الشراكسة في مصر شعروا به كذلك ؛ لأننا لا نلبث أن نرى الشراكسة يعودون إلى تأييد الشريف حسن من جديد في توليته على مكة ولم ينقض على ذلك بضعة أشهر فقد عاد إليها في رمضان سنة ٨١٩ بقوة سلاحه وتأييد الشراكسة ، وقد تعهد بدفع ثلاثين ألف مثقال لخزانة الشراكسة مقابل تأييده[١] .

عاد الحسن إلى مكة بنفس الروح القوية التي كان يعمل بها فأبى ابن أخيه رميثة أن يسلم له زمام الحكم وتحصن بداخل البلدة ، وأغلق أسوارها فشرع عسكر الشريف حسن يهاجمون السور جهة المعلاة ، وقد فتحوا فيه ثغرة دخل بعضهم منها وعمد البعض الآخر إلى باب السور فدهنوه وأوقدوا فيه النار حتى سقط محروقاً على الأرض ، وقصد جماعة إلى طرف السور مما يلي جبل الشامي جهة المقبرة وهو يحاذي حارة السليمانية اليوم[٢] فاقتحموه على أصحابه واشتد التراشق بالنبال بين الفريقين واستعملت الحجارة كراً وفراً .

وكان عسكر حسن نحو ٣٠٠ فارس وأكثر من ألف راجل بينما كان عسكر رميثة لا يتجاوز الثلث .

ورأى جماعة من أعيان البلاد وعلمائها أن يسعوا لإخماد الفتنة فتوجهوا إلى

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) يعرف اليوم : بجبل السليمانية لإشرافه على حارة السليمانية من الغرب ، ووجهه الغربي يسمى جبل العبادي . (ع) .

الشريف حسن في عسكره يحملون ربعات من المصحف الشريف[١] وأخذوا يسألونه الكف عن القتال فأجابهم إلى ذلك على أن يغادر مكة رميثة وأتباعه، وعلى هذا جرى الصلح وأجلي رميثة عن مكة فدخلها الشريف حسن في ٢٦ شوال سنة ٨١٩هـ وخيم بعسكره حول بركتي المعلاة[٢] ولما حج مضى إلى المسجد لابساً خلعته فاستقبله علماء المسجد الحرام وخدمه على أبوابه، ولما قصد إلى الطواف كان أصحاب المباخر التي تعبق فيها روائح العود يمشون بين يديه، وصعد صاحب قبة زمزم إلى أعلاها يدعو له أثناء طوافه بالتوفيق والتأييد، وقرئ مرسوم الملك بتأييده فوق المنبر بعد فراغه من الطواف.

ثم مضى في موكبه يطوف شوارع البلدة وأمر مناديه أن ينادي بالأمان وأن يؤجل المناوئون خمسة أيام يغادرون في أثنائها مكة. . وقد توجه أكثرهم إلى اليمن يتقدمهم أميرهم رميثة[٣] إلا أن رميثة ما لبث أن عاد إلى مكة بعد أن أعلن توبته وخضوعه لعمه فأكرم وفادته .

وعرف حسن ببعض السيئات إلى جانب حميد صفاته؛ فقد ذكر أنه كان يحتكر بعض الأرزاق لنفسه ثم يبيعها على التجار، وقد عاتبه صاحب مصر في ذلك فأجابه: إني لم أحتكرها وإنما كنت اشتريتها لبيتي وعسكري فلما رأيت اضطرار الناس إليها بعتها إليهم[٤] .

وعصى بعض أشراف مكة في عام ٨٢٠ على حسن، وأعلنوا ولاية بعض بني

(١) كانوا يقسمون المصحف إلى ثلاثين جزءاً يطبع كل جزء على حدته ومجموع هذه الأجزاء كانوا يطلقون عليها اسم ربعة.

(٢) كانت بركتا المعلاة تقعان خلف السور مباشرة.

(٣) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

عمه فكاد أن ينجح أمرهم في جدة ولكن حسناً عاجلهم وقضى على آمالهم[1] .

وفي هذه الأثناء قدم ابنه بركات من مصر فاشترك مع أبيه في إدارة الحكم[1] .

ولما امتنع بعض الأهالي بالقيم [2] ووج والعقيق وليه وجبل السكارى في ضاحي الطائف من دفع بعض الضرائب التي أضافها حسن إلى ما يجبى منهم في عام ٨٢١ سار إليهم في مقاتلته، فخرب بعض أملاكهم وحصونهم، ومر في عودته بطريق نخلة اليمانية والزيمة فسولة فخيف بني عمير[3] ثم إلى وادي مر فصالحه فيها عموم القبائل المترددة على دفع الجباية .

وبلغ الشراكسة في مصر قسوته على معارضيه فاستاؤوا منه ثم عادوا إلى الرضا، ويذكر ابن الفهد أن المؤيد صاحب مصر كتب إلى الناصر صاحب اليمن يذكر استياءه من الشريف حسن وما أعقبه من رضا، وفيه يطلب إلى الناصر أن يشمله بنفس الرضا، ومن أطرف ما جاء في الخطاب : «علمت أهل مكة بإنكارنا لأعمال حسن فأنكرت مشاركته في البيت، وأخرجته من الحرم وأغلقت الأبواب وقالت هيت، ولم تتعرف به عرفات لما طرد منكراً على وجل، ولا أمكنه أن يقول بعدها سآوي إلى جبل، ونزل بعد ذلك على الطور فقال له لسان الحال، والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع، إلى أن يقول : ثم التزم بالتوصل إلى رضاء الخواطر الكريمة ليفوز بالتفات العواطف «الناصرية» إليه، وقد أجاب الناصر

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) اسمه لقيم - بتصغير الترخيم، وهو وادي عقيق الطائف حين يصل المليساء فيقال : لقيم الأعلى، وإذا انحدر قليلاً سمي لقيم الأسفل . ولكن عندما يقال وادي لقيم يخيل إلى السامع القول وادي القيم (ع) .

(٣) ويسمى الزبارة وعنده يطلق على الوادي وادي الزبارة، وهو بعد مجتمع النخلتين، وبنو عمير : بطن من هذيل لا زال يسكن هذه الناحية (ع) .

صاحب اليمن فكان مما قال : إنه «حسن» غزل الصداقة بعد القوة، فحل عرى الرفق عروة بعد عروة فأحدث على التجار كل عام حادثة، وكلما تضجروا من واحدة أتبعها ثانية وثالثة إلى أن يقول: وقد أرسل ولده وشرط على نفسه هذه الشروط الصادرة، وقد تحاملنا له على التجار ليطيب خاطره، وأردنا أن يكون تمام ما بدا به المقام الشريف على يديه، ويعرف ما شرط على نفسه لينفذه ويقضي به عليه، إلى آخر ما جاء فيه من غريب التنميق(١) .

ويبدو أن الشريف حسن سئم البقاء في الإمارة على أثر هذه الحوادث، فاعتزم التنازل عنها لولديه بركات وإبراهيم، وكتب إلى مصر يطلب تأييدهما ليتفرغ للعبادة فوافاه المرسوم سنة ٨٢٤ بتأييد بركات في شركته دون إبراهيم، فظل الخطيب يدعو له ولولده بركات فاستاء إبراهيم وهجم في مقاتلة له على مكة حتى قبلا أن يدعوا له معهما ثم عاد أبوه فعزله .

وفي هذا العام رتب الملك المظفر في مصر ألف أحمر سنوياً تحمل إلى الشريف حسن مقابل تنازله عن المكوس الخاصة بالخضار، وقد سجل هذا في أسطوانة بالمسجد الحرام(٢) .

وفي هذا العهد أهدى السلطان محمد الأول(٣) هدايا نفيسة لصاحب مكة، ووقف باسم فقراء الحرمين أوقافاً، وجعل يرسل غلتها سنوياً في صر فكان أول صر منظم عين لفقراء الحرمين .

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطط» .

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٠ .

(٣) السلطان محمد الأول هو أحد أجداد العثمانيين وكانت عاصمته عبر الأناضول في «قرا حصار» قبل أن يتسع أحفاده في فتوحاتهم في بلاد الشرق، ولقد كان لهذا أثره في اكتساب ود أصحاب مكة بعد هذه الحوادث بنحو قرن كامل عندما اتصلت أنباء العثمانيين بمكة ودعي باسمهم على منبرها كما سيأتينا .

علي بن عنان: ودامت ولاية الشريف حسن وابنه بركات على مكة إلى أوائل عام ۸۲۷، وكان مناوئوهما من بني عمومتهما من أولاد رميثة مقيمين في مصر على كثب من سراي سلطان الشراكسة يتحينون الفرص، وقد سنحت لهم في هذه السنة، ولعل ذلك كان على أثر خلاف بين صاحب مكة والشراكسة في مصر؛ لأننا نجد أن ابن ظهيرة يذكر أن برسباي ملك مصر عقد لعلي بن عنان من أولاد رميثة على مكة في موسم عام ۸۲۷، وأنه قدمها صحبة العسكر الأشرفي فلم يناوئه الشريف حسن بل سلم له الأمر ثم ارتحل إلى مصر.

مطبعة للنقود: واصطحب علي بن عنان معه إلى مكة مطبعة لضرب النقود فضربت باسمه على أثر وصوله، وظل علي بن عنان في مكة إلى موسم ۸۲۸هـ[١].

عودة حسن وبركات: وفي موسم الحج من هذا العام استطاع الشريف حسن أن يعود إلى إمارته مؤيداً من الملك برسباي نفسه، وقد قرئ مرسومه في المسجد بعد أن طاف بالكعبة ودعي له على قبة زمزم وطيف به في شوارع مكة لابساً خلعة الإمارة.

وعندما قضى الحج عاد إلى مصر ليقدم شكره إلى برسباي كما يبدو وقد قوبل بها في حفاوة، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً، وقد ظل فيها إلى أن أدركته المنية في ١٦ جمادى الأولى سنة ۸۲۹هـ بعد أن كان قد تجهز للعودة إلى مكة[١].

وكان الشريف حسن من أصحاب الثروات الطائلة ولم يكن بمكة من يدانيه في جوده وكرمه، كما كان من أفاضل العلماء. أجازه بالتحديث جماعة من علماء

(١) شفاء الغرام للفاسي ٢ / ٢١١.

مصر والشام، وأخرج له التقي بن فهد أربعين حديثاً، ومدحه كثير من الشعراء منهم العلامة شرف الدين إسماعيل بن المقري صاحب الروض والإرشاد في مذاهب الشافعية وله في مدحه قصائد منها قصيدة مطلعها:

أحسنت في تدبير ملكك يا حسن　　　وأجدت في تحليل أخلاط الفتن[1]

وبنى الشريف حسن في مكة رباطاً للرجال وآخر للنساء[2] ولعلهم كانوا يرون في بناء الأربطة غير ما يراه العصر الحديث؛ لأن المشاهد اليوم أن الأربطة كثيراً ما تأوي الكسالى من الآفاق الذين لا يفيدون البلاد بقدر ما يكونون عالة عليها، وإذا كان المظنون أن الغرض من بنائها هو ربطها للفقراء من طلبة العلم، فالواقع أن هؤلاء الطلبة كثيراً ما يورثونها لأبنائهم توريثاً أشبه بالتوريث الشرعي، وقد لا يكون لأبنائهم حظ آبائهم في طلب العلم فيتخذونها مجالس لغير ما بنيت له، وقد تكون لها غلة موقوفة يتناولونها للإنفاق منها فيحملهم ذلك على الكسل، ويعلمهم الشحاذة التي لا تتفق مع أصول الإسلام، وبذلك يؤدي بناء الأربطة في أغلب الأحيان إلى غير ما بنيت له. ولو اقتصرت الأربطة على إيواء طلبة العلم وبشكل محدود وفرض أصحابها على المتعلم أن يتلقى فيها بعض الصناعات التي تقيم أوده وتغنيه عن صدقة الجراية لاستطاعت البلاد أن تنتفع من النازلين بها وتستفيد من جهودهم.

عزل بوابي المسجد القضاة: وفي هذا العهد صدر مرسوم بقفل أبواب المسجد بعد الموسم إلا أربعة منها فضاق الناس بذلك واشتكوا، فصدر الأمر بعزل بوابي المسجد القدامى وكانوا من الفقهاء والقضاء وأن يعين بدلهم بعض

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤١ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

المحتاجين من عامة الناس وألزموا بملازمة الأبواب والنوم بجوارها[١] .

بركات بن حسن: وبوفاة حسن أيد ملك الشراكسة برسباي ابنه بركات، وجعل أخاه إبراهيم نائباً عنه فاستطاع أن يضع الأمور في نصابها، وأن يحكم مكة بشيء من الطمأنينة والعدل[٢] .

وفي هذا العهد بدأت مراكب الهند يتوافر عددها آتية للحج بعد أن كانت قليلة الورود، وقد فرضت الإمارة في مكة عليهم رسوماً للحج وظلت تتقاضاها لنفسها، فلما كانت سنة ٨٣٢هـ وصلت إلى مكة مراسيم من برسباي لجعل ثلث الواردات من رسوم مراكب الهند لصاحب مكة وإرسال الثلثين الباقين إلى صاحب مصر، ويبدو أن الشريف بركات ما لبث أن استضعف حصته من الرسوم، وطلب زيادتها فوافق الشراكسة على ذلك. لأننا نجد الدحلان يذكر لنا أن مصر أرسلت في عام ٨٤٠هـ مراسيم جديدة تقرر بموجبها مناصفة الواردات التي ذكرناها بين إمارة مكة وحكومة الشراكسة في مصر[٣]. وينقل الغازي أن الشراكسة في مصر ألزموا بركات بدفع عشرة آلاف دينار سنوياً، وألا يتعرض لعشور البضائع في جدة، ولم يذكر شيئاً عن رسوم الحجاج، ولعلهم تركوها لحصة بركات . . وفي هذا ما يدل على اتساع نفوذ الشراكسة في مكة في هذا العهد كما يذكر أنه كلف بدفع خمسة آلاف دينار[١] .

وازداد نفوذ الشراكسة اتساعاً على أثر هذا في عهد السلطان جقمق؛ لأننا نجده يندب أحد رجاله الأمير سودون ليتولى في مكة نظارة الحرمين وأمر عمارتها

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٤٢ .

ويرسل معه خمسين فارساً من الترك يقيمون في مكة[1] .

وهي تشكيلات كان مماليك الأتراك قد ابتدعوها قبلهم في مكة كما أسلفنا عام ٧٦٠هـ فلم يستقم أمرهم فيها ؛ لأن الأشراف ثاروا بهم وحصروهم في المسجد، وأوقعوا فيهم قتلاً وأسروا بعضهم فأرسلوهم إلى ينبع وباعوهم في أسواقها بيع الرقيق، وقد ظل أمر هذه الفرقة بضع سنوات ثم امَّحَى ذكرها فيما يظهر ؛ لأن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن وجودها بعد الذي كان .

ومن الغريب أن من تقاليد أمراء مكة في ذلك العهد أن يقبلوا خف جمل المحمل عند وصوله إلى مكة، ولكن بركات طلب إلى جقمق إعفاءه من ذلك فأعفاه[2] .

علي بن حسن: وظل الشريف بركات على أمر مكة إلى سنة ٨٤٢هـ ثم نازعه أخوه علي عليها، ولما لم يستطع علي أن يظفر بأخيه بركات سافر إلى مصر بصحبة الحاج، وأقام فيها إلى أن عاد في مستهل شعبان عام ٨٤٥هـ يحمل مرسوماً بتوليته أمر مكة[2] .

وقد سلم إليه أخوه بركات بذلك، وتوجه إلى اليمن فظل علي في إمارته إلى ١٥ محرم من عام ٨٤٦ حيث هاجمه أخوه بركات بجموع كبيرة فلم ينجح في هجومه[2] .

القاسم بن حسن: وظل علي بن حسن بن عجلان على أمره في مكة يساعده

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٢ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

أخوه إبراهيم ثم ما لبث أن وقع الخلاف بينهما وبين قائد الجند الشراكسة في مكة، فاستطاع قائد الجند أن يستصدر أمراً بالقبض على الأخوين وعزلهما، وعندما وصلت إليه الأوامر بذلك احتال القائد على الأخوين حتى قبض عليهما، وأظهر مرسوماً بتولية الأخ الرابع أبي القاسم بن الحسن بن عجلان، ثم ما لبث الشراكسة أن وضعوا الأغلال في أعناق الأخوين المعزولين وساقوهما إلى مصر في شوال عام ٨٤٦هـ.

واستفظع الأهالي في مكة هذه الإهانة التي لم يسبق لها مثيل، واستغربوا شأنها.. وفي هذا يقول قطب الدين محمد المالكي، وهو من شعراء مكة:

ما جاءنا قط ولم يأتنا ... مثلك يا تمراز[1] في الفتك
تسير بالأخشب من مكة ... والأخشب الثاني على العلك
ومثل هذا لم يكن قط في ... ملك بني العباس والترك
إن شريفي مكة يمسكا ... ن من غير طعن ولا سفك
هذا بتقدير الذي قهره ... ينزع من شاء من الملك[2]

وظل أبو القاسم على إمارته في مكة إلى عام ٨٤٩هـ وقد ضربت الدراهم له ونقش فيها اسمه ثم هاجمه أخوه بركات في ربيع الأول عام ٨٤٩هـ واستولى على مكة فأيده الشراكسة وظل إلى سنة ٨٥١هـ.

وفي ربيع الثاني من السنة المذكورة صدر مرسوم الشراكسة بتأييد الشريف بركات أميراً على مكة فأجلى أبا القاسم، واستولى عليها للمرة الرابعة،

---

(١) هو قائد جند الشراكسة في مكة الذي استصدر الأمر بالقبض على الأخوين.

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

وباستيلائه عاد الاستقرار إلى مكة، ونال العلماء حظوتهم في مجلسه الذي كان مثابة لرجال الفضل والعلم[١] .

ثم ما لبث أن استدعاه السلطان جقمق إلى مصر فوصل إلى القاهرة في مستهل رمضان من السنة نفسها ٨٥١هـ، فخرج السلطان للقائه إلى الرميل، وبالغ في إكرامه وأخذ منه العلماء بالقاهرة وازدحموا عليه لعلو سنده وقد أجاز كثيراً منهم، ويذكر الغازي نقلاً عن العلامة السخاوي هذه الرحلة فيقول: إن القاهرة ارتجت لاستقبال بركات وخرجت العذارى من خدورهن لرؤيته وكان يوماً مشهوداً . . إلى أن قال: وكنت ممن لقيته أنا والقلقشندي والبقاعي والسنباطي، وسمعنا عليه بإجازته من الزين العراقي والهيثمي عشرة أحاديث وسمع معنا القاضي أبو بركات ابن ظهيرة[٢] .

وقد ظل بركات في مصر بضعة أشهر ثم غادرها إلى مكة فوصلها في جمادى الأولى ٨٥٢، ودخلها محرماً بالعمرة فطاف وسعى بالليل ثم خرج إلى الزاهر وبات به، ولما أصبح دخل مكة في موكب رسمي حافل [٣] واستمر بركات في ولايته إلى سنة ٨٥٩ ثم مرض واشتدت العلة به فنقل إلى وادي مر فظل به إلى أن توفي في شعبان عام ٨٥٩، وقد حمل على أعناق الرجال إلى مكة وغسل وصلي عليه وطيف به حول الكعبة سبعاً على عادة أشراف مكة، ودفن بالمعلاة وبني عليه قبة [٤] وقد رثاه الشعراء وأطالوا في رثائه وذكره الإمام السيوطي في كتابه «نظم

(١) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام «مخطوط».

(٣) ذكره السيد الدحلان في خلاصة الكلام ٤٣ ونقل عبدالله الغازي أن الرحلة لم تستغرق إلا نحو نصف شهر.

(٤) خلاصة الكلام ٤٣

العقيان» من أعيان الأعيان ومن شعره:

يا من بتذكاره قد زال وسواسي ... وقد شغلت به عن سائر الناس
ومن تقرر في قلبي محبته ... وجئته طائعاً أسعى على الرأس
سألتكم شربة من ماء مشربكم ... تغني عن الراح إذ لا راح في الكأس

ومن طرائف مايروى في ترجمة بركات أن أحمد بن إسماعيل ملك اليمن كتب إلى الشريف بركات بخروجه إلى الحج، وطلب إليه إخلاء بيوت مكة لإقامته وأن يتلقاه جند حلي[1] فأجابه بركات بقصيدة أنشأها عفيف الدين عبدالله بن قاسم الذروي فيما يزيد على ثلاثين بيتاً وفيها يقول:

بالقنا الخطى والبيض الظبا ... وبخيل تتبارى شزبا[2]
وبأبطال إذا ما استعرت ... نار حرب ولظاها التهبا
نحمي ذا البيت ونحمي جدة ... وربا حلي[3] وأكناف قبا

إلى أن يقول:

قل لمن رام بناوينا ومن ... رام يأتي بيتنا مغتصباً
لا يحج البيت إلا خاضعاً ... دافعاً عشراً لنا ثم جبا[4]
وإذا ما كان رأساً لم يعد ... عندنا يا صاح إلا ذنبا

(١) حلي تقع في جنوب بلاد الحجاز.
(٢) الخيل الشزب هي الخشنة أو الضامرة اليابسة.
(٣) وهذا الشعر يدل على أن حلياً من الحجاز، ويسمى حلي بن يعقوب، وهو واد خصبٌ يقع على أزيد من ٤٠٠ كيل جنوب مكة، وعلى مصبه في البحر ميناء صغير، هو آهل بالسكان، ويتبع اليوم إمارة القنفذة (ع).
(٤) الجبا: عطاء إكرامياً أي ليس مستحقاً بأية صفة، فهو هبة. (ع).

فلما انتهت إلى ملك اليمن تخلف عن الحج، وأمر من يترصد لعفيف الدين الذروي فترصدوه حتى نزل جيزان فاحتالوا عليه حتى حملوه إلى اليمن فحبسه ملك اليمن، وضيق عليه الخناق في الحبس فأرسل بركات يفتديه بمائة ألف ناقة -وأعتقد أنه بولغ في عدد النوق ولعلها مائة ناقة- وقد رفض ملك اليمن العرض وأقسم ألا يطلقه حتى ينشعب هذا الصدع (ولعله أشار إلى صدع في صخر أو حجر).

وفي هذا يقول عفيف الدين الذروي من قصيدة ذكرها الشيخ الحضراوي في «تاريخ البشر»:

إن ظننت الدهر يوماً واحداً ... فلقد حاولت أمراً كذبا
رب صدع كان أعيا شعبه ... أدركته رحمة فانشعبا
فينال الملتجئ من ربه ... في أعاديه الذي قد طلبا

ومن الغريب أن الشاعر لم يبت ليلته حتى سحت السماء بمدرار هطال انشعب له صدع الحجر فأطلقه الملك وأحسن صلته.

والذي ألاحظه أن أحمد بن إسماعيل ملك اليمن توفي في عام ٨٢٧هـ أي قبل ولاية بركات في عام ٨٢٩هـ بنحو سنتين فلا تستقيم الرواية إلا إذا كان الحادث قد حدث في عهد شركة بركات لأخيه حسن، ولا أستبعد ذلك لأن نفوذ بركات في شركته لأبيه لا يقل عن نفوذه في عهد انفراده في الحكم.

أولاد بركات بن الحسن بن عجلان: عندما شعر بركات بضعفه عن الحكم كتب إلى نائب جدة الأمير جاني بك الظاهري بأن يرسل إلى السلطان في مصر يسأله ولاية ولده محمد على مكة، فحاز طلبه القبول لدى الشراكسة وكتب إليه

السلطان بتأييد «محمد بن بركات» وقبل أن يصل التأييد بساعات كان الأمير بركات قد لاقى منيته في ١٩ شعبان عام ٨٥٩هـ[١]، وبوصول الخبر في مساء ذلك اليوم، أعلن في المسجد ودعي باسمه بعد صلاة المغرب في ذلك اليوم وبعد أيام تحرك موكبه من وادي فاطمة فدخل مكة ليلاً في موكب حاشد، وقرئ مرسومه في صبيحة ذلك اليوم الجمعة ٧ رمضان عام ٨٥٩هـ.

الشريف محمد بن بركات: كان كأبيه وجده الحسن من أنجاب العلماء، وكانت له شهرة واسعة في تشجيع العلم وتأييد العدل، وكان يقظاً لأمور المسلمين معروفاً بالشفقة والرأفة والعدل، ولذلك طالت مدة حكمه نحواً من ثلاث وأربعين سنة[٢].

وفي عهده انتقل الملك في مصر إلى الأشرف قايتباي، وقد أصدر مرسوماً بإلغاء المكوس في مكة وسجل ذلك في أسطوانة بباب السلام، ثم ما لبث أن جاء مكة حاجاً ووزع على فقرائها من الخيرات ما شملهم[٢].

وقد أشرك محمد ابنه بركاتاً الثاني في الحكم ابتداء من عام ٨٧٧، وظلا معاً يديران دفته في هدوء لا تعكره الثورات ولا المظالم حتى توفي محمد في الحادي عشر من شهر محرم عام ٩١٣*هـ بوادي الأبيار[٣] وحمل إلى مكة فطيف به حول الكعبة سبعاً على عادة أسلافه[٤].

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٤.

* الصواب سنة ٩٠٣هـ.

(٣) هو وادي البيضاء يمر جنوب مكة على (٥١) كيلاً، وهو المرحلة الأولى على طريق اليمن القديم، وقد جنب الطريق بعد تعبيده سنة ١٣٩٧هـ إلى الساحل والبيضاء بئر المحطة هناك، وبأسفل الوادي بئار عديدة نسب إليها، وسكانه الأشراف الحمودية من الأشراف العبادلة. (ع).

(٤) بلوغ القرى لعبد العزيز القرشي «مخطوط».

وفي بلوغ القرى (١) أن الحزن شمل مكة على أثر وفاته وأن الأهالي ظلوا يجتمعون لقراءة الربعات جماعات كبيرة نحو ستة أيام. وجز بعض النساء شعورهن حزناً عليه وعم الحداد في البلاد مدة أيام وتعطلت أعمال البيع والشراء في الأسواق*.

ومن أعماله أنه بنى رباطاً للفقراء في مكة وسبيلاً للماء في النوارية(٢) ومثله في طريق جدة ووقف على ذلك أوقافاً عديدة(٣).

وخلف محمد بن بركات ستة عشر ذكراً غير الإناث، وكان أشهرهم بركاتاً وأحمد وجازان وهزاعاً وقايتباي وعلياً وراجحاً، وقد اتخذ الثلاثة الأولون من إمارة مكة مسرحاً لمنازعاتهم واختلافاتهم، وقاست البلاد من جراء ذلك أهوالاً عظيمة كما سيأتي.

أولاد محمد بن بركات: تقدم بنا أن محمداً أشرك معه في إمارته ابنه بركات الثاني، فكان من الطبيعي أن يتولى أمر أبيه بعد وفاته وقد تولاه واحتفل به في يوم الوفاة ١١ محرم عام ٩٠٣هـ، ثم كتب إلى قايتباي ملك الشراكسة في مصر، فوافاه التأييد في ٤ ربيع الآخر من العام المذكور وأشرك معه أخاه هزاعاً(٤).

هزاع: ولم يدم الاتفاق بينهما إلا نحو سنة واحدة ثم ثار الخلاف، وخرج هزاع إلى ينبع مغاضباً ومنه كتب إلى أصدقائه من مماليك الشراكسة يطلب التوسط في تأييده مقابل مائة ألف دينار شريفي يدفعها، فوافاه التأييد صحبة الحاج المصري

(١) بلوغ القرى.

* هذه الأعمال غير مقبولة من الناحية الشرعية.

(٢) النوارية بطن سرف بين التنعيم ووادي فاطمة.

(٣) إتحاف فضلاء الزمن للطبري «مخطوط».

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

في أواخر عام ٩٠٤هـ فسار من ينبع على أثر ذلك في جمع من مقاتلته بصحبة الركب المصري، فلما علم بركات بذلك خرج للقائه في وادي «مر» [١] فانتصرت جيوش هزاع وفر بركات إلى جدة، وبذلك اضطربت حالة البلاد والحجاج في مكة وعرفات وعاث أصحاب الفساد فيها وضج الناس، ومضى كبراؤهم إلى هزاع فاشتدوا في لومه[٢] .

ثم أصلح الأشراف بينهما فعاد بركات إلى مكة في أواخر ذي الحجة عام ٩٠٤هـ، ثم عاد الخلاف بعد سنتين فاستأنف هزاع هجومه على بركات فالتقيا في البرقاء في ٩ جمادى الأولى سنة ٩٠٧هـ، فانهزم بركات إلى الليث، وبذلك تولى هزاع الأمر في مكة إلا أنه مالبث أن وافته منيته في ١٥ رجب من العام المذكور بالقرب من مكة فحمل إلى مكة وطيف به حول الكعبة قبل دفنه[٣] .

أحمد الجازاني: وبوفاته عقد مجلس في المسجد بحضور قاضي مكة أبي السعود بن ظهيرة وأصحاب الحل والعقد، واتفقوا على تولية أحمد الجازاني بن محمد بن بركات الأول، ونادوا به ثم كتبوا إلى ملك الشراكسة في مصر بذلك .

وشعر أحمد جازان بحاجته إلى إرضاء العسكر في مكة فأمر القاضي وبعض الأعيان بجمع بعض المبالغ من التجار ليرضي بها العسكر، وقد وزعها عليهم بنسبة عشرين أشرفياً للفارس وعشر أشرفيات للراجل[٣] .

وشعر أن بعض أهالي جدة لا يميلون إليه فسار إليهم في جمع من مقاتلته

(١) مر الذي يتردد هنا هو: مر الظهران، واد فحلٌ من أكبر أودية الحجاز كان فيما يقال فيه ثلاثمائة عين جارية، ولم يبق منها اليوم سوى بضع عشرة، ويسمى وادي فاطمة ووادي الشريف، يمر شمال مكة على (٢٢) كيلاً (ع).

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٣) بلوغ القرى لعبد العزيز بن نجم الدين القرشي «مخطوط».

وأوقع فيهم النهب والسلب .

ولم يدم أمر أحمد إلا نحو أسبوعين ثم وافت الأخبار بقدوم أخيه بركات الثاني بن محمد من اليمن يحمل مرسوماً بتأييده من الشراكسة[١] .

بركات بن محمد للمرة الثانية: وفي أوائل شعبان ٩٠٧هـ انتهى بركات في جيشه إلى مكة فلم يقاومه أخوه أحمد الجازاني وفر هارباً ، ولما استتب أمر بركات أراد امتحان التجار الذين ساعدوا أخاه أحمد بتبرعاتهم للعسكر ، فجعل عليهم مبالغ مضاعفة يعينونه بها كقرض فاضطروا إلى دفعها حتى لجأ بعضهم إلى بيع أملاكهم لإيفاء ما تقرر عليهم .

وأراد أن ينتقم لنفسه من قاضي مكة أبي السعود بن ظهيرة لتقريره الإمارة لأخيه أحمد ولبعض خطابات عثر عليها بخط القاضي يحث فيها أحمد على القدوم إلى مكة ، فأمر بإحضار القاضي إلى مجلس عقده لذلك ، وبعد أن تلا على الحاضرين اتهاماته حكم عليه بالسجن ومصادرة أمواله وعقاره، وقد حاول المجتمعون طلب العفو له فأبى العفو وأصر علي إهانته ولطمه أخوه قايتباي على وجهه ، ثم كتب بذلك محضراً بالحكم وأمر القضاة والفقهاء والتجار بتوقيعه ثم أرسله إلى الشراكسة في مصر[٢] .

ثم أغلق بيوت أبناء القاضي وبناته بعد أن جمع نساءهم في إحداها ثم أمر بغل أيدي بعض أبناء القاضي في خشب مسمر ، فتشفع فيهم الناس فقبل أن يفتدوا أنفسهم بخمسة آلاف دينار وبعضهم بأقل من ذلك ثم فتحت بيوتهم وبيوت والدهم وبيع ما فيها من موجودات وأثاث وكتب ، وصودرت أثمانها وكانت تبلغ

(١) إفادة الأنام «مخطوط» .

(٢) بلوغ القرى «مخطوط» .

مئات الألوف .

ثم نفى عائلة القاضي على أثر ذلك إلى جزيرة ابن بركوت[(١)] فما لبث أن أخذهم نائبه في الجزيرة إلى عرض البحر في مركب صغير فأغرقهم .

وما كاد يستقر الأمر لبركات بضعة أشهر حتى علم أن أخاه أحمد يجمع مقاتلته في ينبع فخرج للقائه في أواخر ذي الحجة عام ٩٠٧هـ فهزمه ، ثم عاد ثم بلغه أن أخاه سيستأنف القتال ، وكان بركات مريضاً لا يستطيع القتال فغادر مكة إلى طريق اليمن وترك أخاه أحمد يدخلها .

أحمد الجازان مرة ثانية: وهكذا دخل أحمد الجازاني مكة في أوائل عام ٩٠٨هـ وكأنه أراد أن يثأر لنصيره القاضي ، فاستعمل العنف وترك عسكره يعبثون في مكة فيفعلون أفعالاً قبيحة وينتهكون حرمة البيت ويصادرون أموال الأهالي ، ويسبون الأرقاء وأمهات الأولاد وينهبون بيوت التجار .

وما استقر به الأمر حتى فرض على بعض التجار من حزب أخيه في مكة وجدة أموالاً كثيرة ، وعذب بعضهم فقيد أيديهم في خشب ضيق حتى اضطر بعضهم إلى بيع أملاكهم واضطر آخرون إلى الهرب من البلاد .

وظل أحمد على أمره بضعة أشهر ثم بلغه أن أخاه بركات يزمع مهاجمته ، فخرج لملاقاته بالقرب من منى واستطاع أن يهزمه إلى مسافة بعيدة ، إلا أن بركات المهزوم ما لبث أن عاد في حركة التفاف سريعة إلى مكة ، واستطاع أن يدخلها من ناحيتها الجنوبية في ١١ رمضان عام ٩٠٨هـ[(٢)] .

(١) لعل الجزيرة نسبة إلى شهاب الدين بركوت وهو من أعيان القرن التاسع ترجم له السخاوي في الضوء اللامع ، وقال صاحب درر الفوائد المنظمة : ونفي بجزيرة الصبايا . ص ٣٥٣ .

(٢) بلوغ القرى لعبد العزيز القرشي «مخطوط» .

بركات للمرة الثالثة: وبدخوله إلى مكة اجتمع إليه الأهالي وعاهدوه على النصر، وشرعوا معه في تحصين البلد وتقوية أسوارها، وقد حفروا خندقاً دون السور من جهة المعلاة وآخر من جهة المسفلة ولم يلبثوا طويلاً حتى هاجمهم أحمد بجنوده في رمضان من العام نفسه هجوماً عنيفاً، إلا أنه لم ينجح فقد أبدى الأهالي من الشجاعة في الدفاع ما يطول شرحه، واندفع بركات يجتاز الخندق بفرسه وكان عرضه سبعة أذرع ليضرب في الجيش المهاجم ويقصيه عن السور.

ثم أعيد الهجوم في منتصف شوال فلم يظفر أحمد بشيء فيه، إلا أنه لبث في مقاتلته على غير بعيد من مكة ينتظر الفرصة المواتية[١].

أحمد جازان للمرة الثالثة: وقد واتته الفرصة بعد ذلك بأسابيع لأن بركاتاً خرج إلى بعض جهات الجنوب في أعمال خاصة، فانثال أحمد في مقاتلته إلى مكة واحتلها وعاد جنده إلى نهب البيوت وسلب الأموال وقتل النفوس وقد قيل: إن أحمد عندما أراد منعهم من النهب لم يسمعوا له، وقالوا إن بيننا وبينك أن ننهب ثلاثة أيام.

وظل أحمد على مكة إلى أن وافى أمير الحج المصري في ذي القعدة من العام المذكور فاتصل به وأغراه بالقبض على بركات واصطحابه معه إلى مصر، وجعل له لقاء ذلك ستين ألف شريفي أحمر فاحتال أمير الحج المصري حتى قبض على بركات واصطحبه إلى مصر أسيراً، وقد غضب السلطان الغوري في مصر لذلك وأطلق بركات وأنزله في القاهرة منزلاً خاصاً به وأكرمه[٢].

---

(١) بلوغ القرى لعبدالعزيز القرشي «مخطوط».

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

واستمر أحمد على أمر مكة نحو ثمانية أشهر كانت مثاراً للخلاف والفتن، وتألب الأقارب عليه حتى انتهى ذلك بأن دس أخوه حميضة عليه جماعة من الأتراك قتلوه في المطاف في صباح يوم الجمعة ١٩ رجب عام ٩٠٩هـ.

ثم طرح في الصحن بجوار الكعبة فانهال الناس عليه رجالاً ونساء يقذفونه بكلمات جارحة، وقد ظل كذلك حتى نقله عمال الجنائز المختصين بموتى الغرباء، ودفنوه ببعض ثيابه بلا غسل ولا صلاة، ولم يشيّعه أحد من الأشراف أو الأهالي.

حميضة بن محمد بن بركات: وبوفاته تولى الأمر أخوه حميضة في ١٩ رجب عام ٩٠٩هـ ونودي به في البلاد دون أن يناوئه أحد، وقد كتبوا بذلك إلى الغوري سلطان الشراكسة في مصر.

وأهل الموسم في تلك السنة فقابل حميضة وفود الحج وألبسه أمير الحج المصري الخلعة الواردة، إلا أنه لم يشرق يوم التروية حتى ضجت البلدة بفتنة جديدة وصاح النذير يعلن وصول بركات بن محمد على رأس جيش مهاجم[1].

بركات بن محمد بن بركات للمرة الرابعة: وكان بركات هذا قد فر من منزله الذي خصه به الغوري على أثر وصوله مأسوراً في ركب الحج المصري كما أسلفنا في حوادث العام السالف.

فر من مصر إلى ينبع وعلم فيها بأخبار قتل أخيه أحمد في المطاف واستيلاء أخيه الثاني حميضة على مكة؛ فقرر الارتحال إلى بعض الجهات شرقي مكة[2]

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) لعل الصواب: شرقي المدينة، كما يظهر من سياق الحديث المقبل؛ لأن بني لام وبني عقبة ليسوا من سكان شرقي مكة. (ع).

ليعمل على انتهاز الفرصة فيها لاستخلاص مكة من أخيه حميضة.

وقد أقام ببعض القبائل وتزوج فيها بسيدة من بنات الحسين أنجبت له فيما بعد ابنه أبا نمي الثاني[١].

ولم يدم انتظاره إلا بضعة أشهر وقد استطاع أثناء ذلك أن يستنفر بعض القبائل من بني عقبة وبني لام وغيرهم، حتى اجتمع لديه عدد وافر استطاع أن يهاجم به مكة يوم التروية، ثم يمضي في جيوشه إلى عرفات وينصب خيامه على كثب من جبل الرحمة.

ومضى أمراء الحج يصحبون أتباعهم إلى عرفات فنزلوا بها وتبعهم سائر الحجاج، ولم تحدث إلا مناوشات بسيطة مع بعض الأعراب في طريق منى بينما تخلف عن الحج أكثر أهل مكة في ذلك العام، ثم نفر الناس إلى المزدلفة ثم إلى منى سالمين إلا من حوادث «فردية» نهب فيها بعضهم[٢].

ويبدو أن الحجاج شعروا بضرورة إسراعهم في العودة إلى جدة قبل اشتباك المتنازعين، فما كادت القوافل تغادر منى حتى واصلت رحيلها إلى جدة، وقد استغل الفرصة بعض رجال البادية فاعترضوا القافلة الأولى في طريق جدة، وكانت تبلغ ألف جمل فجعلوا على كل جمل ستة «محلقة» وعلى كل حمار «محلقان»، وفعلوا مثل ذلك في قافلة بعدها كانت في مثل حمولتها ولم يجدوا من يصرفهم عن ذلك؛ لأن حميضة كان في شغل عن ذلك بنفسه.

ولم يجد جيش بركات من يقاومه كثيراً، ولعل حميضة شعر باستحالة ثباته

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٤٩ .

(٢) بلوغ القرى لعبد العزيز القرشي «مخطوط».

أمام المهاجمين فغادر مكة فراراً من سيف أخيه، وبذلك استولى بركات على مكة في ١٢ ذي الحجة عام ٩٠٩هـ للمرة الرابعة(١) .

وأمن بركات الحجاج والأهالي على أثر ذلك، ثم كتب إلى السلطان الغوري يطلب منه التأييد فوافاه التأييد، ودعي له ولعلي ابنه على قبة زمزم كما دعي له وحده بعد السلطان الغوري على المنبر وخلع عليه وعلى أخيه قايتباي(٢) .

وفي عام ٩١٣هـ جرد بركات على بعض القبائل التي نهبت البيوت في مكة أثناء هجمات أخيه السابقة، وأحضر بعض الخارجين الذين جعلوا على قوافل الحجاج أتاوات خاصة، فأمر بضرب أعناقهم وأرسل بعضهم إلى الشراكسة في مصر فضربت أعناقهم فيها.

ومن غريب ما يرويه التاريخ في هذا العهد أن المكلف بأمر التنظيفات في مكة كان يمر في شوارعها وأزقتها، فإذا وجد تحت بيت أحدهم شيئاً من القمامة دعا صاحب البيت وأمر بضربه على رجليه، وأنه فعل ذلك بعدة أشخاص سماهم المؤرخ، فأمسك الناس عن إلقاء «القمام» في الطرق العامة(٣) .

وأوفد بركات في عام ٩١٥هـ بعض أقاربه إلى السلطان الغوري في مصر بهدايا نفيسة كان من جملتها عشرون عبداً حبشياً وعشرون ألف دينار ذهباً

---

(١) بلوغ القرى . . ويورد ابن ظهيرة في الجامع اللطيف ما يخالف هذا فيذكر أن حميضة بقي في إمارته سنوات وهي رواية انفرد بها دون غيره من المؤرخين وليس في مجرى الحوادث ما يدل عليها.

(٢) منائح الكرم للسنجاري. ويذكر ابن ظهيرة أن قايتباي تولى أمر مكة بعد قتل حميضة، وظل فيها نحو سنتين وأعتقد أن ما سقناه أقرب إلى الصحة فقد ساقه أكثر مؤرخي مكة.

(٣) بلوغ القرى لعبد العزيز بن نجم الدين بن فهد القرشي «مخطوط».

وعشرون فرساً وثلاثة آلاف دينار للدويدار «الكاتب»[1]. وهكذا تنعكس الآية في مثل هذه المناسبات ويصبح الحجاز الفقير إلى ما يقيم أوده ويشبع أهله، يقدم الهدايا في أرقام بليغة إلى البيوت الملكية في البلاد الغنية، ويترك بلاده في حاجة إلى كل قرش من هذه الأرقام تصرفه في مرافقها العامة وتغني به عوز فقرائها ممن تركوا يحترفون الصدقات.

وفي عام ٩١٨هـ أرسل السلطان الغوري يدعو بركات لزيارة مصر فاعتذر بكبر سنة، وأوفد إليه ابنه محمداً أبا نمي الثاني في جماعة من علماء مكة كان بينهم قاضيها صلاح الدين بن ظهيرة القرشي ونجم الدين بن يعقوب المالكي، وكانت سن أبي نمي إذ ذاك لا تتجاوز الثامنة، وقد قوبل بحفاوة عظيمة وأبدى أبو نمي من ذكائه ما أعجب به السلطان الغوري.

وقبل الغوري يد أبي نمي أول ما قابله ثم كتب له مرسوماً يخوله حق الشركة مع أبيه في إمارة مكة[2].

قتال البرتغال: وفي هذا العهد كانت هجمات البرتغال على بلاد الهند قد اشتد أوارها، وامتدت إلى البحر الأحمر فأرسل الغوري جيشاً من الترك والمغاربة إلى جدة؛ ليدفعوا عنها وجعل رياسة الجيش إلى حسين الكردي الذي بنى سورها وشيد فوقه أبراجاً للدفاع، كما أرسلوا قوة بحرية إلى جزيرة «كمران» [3] فاتخذتها قاعدة للانطلاق وحماية بلاد العرب.

وكان الكردي شديد الوطأة فقد فرض على عامة الأهالي والتجار حمل الطين

---

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٣) مجموعة جزر تقع قرب ميناء اللحية من ساحل اليمن بينها وبين الحديدة. (ع).

والحجر حتى أتم بناء السور في أقل من عام، وبلغ من قسوته أن أحد البنائين تأخر عن موعده فبنى عليه السور وتركه يموت في جوفه(١) .

وقد ظل حسين الكردي على إمارة جدة إلى نهاية عهد الشراكسة حيث أمر العثمانيون بقتله غرقاً في البحر(١) وحجت زوجة السلطان الغوري في عام ٩٢٠هـ فاستقبلها بركات استقبالاً حافلاً، وأكرم وفادتها، فلما عادت إلى مصر دعته ليصحبها فسافر معها فاحتفلت بقدومه مصر، وظل فيها إلى أن عاد إلى مكة في شهر رجب من العام نفسه(٢) .

واستطاع بركات بعد ذلك أن يعيد الأمور إلى نصابها وأن يشيع الأمن في أطراف البلاد ويسع الحجاج بحكمته وعدله . . وظل على أمره فيها حتى وافته أخبار سقوط الشراكسة بمصر ودخول العثمانيين إلى القاهرة في عام ٩٢٣ كما سيأتي .

---

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٦٦ ويورد الشيخ عبدالقادر الخطيب في السلاح والعدة أن سور جدة بني في عام ٩١١ على أثر هجوم بني إبراهيم في ينبع على جدة في ٩٠٨ . وكنا ذكرنا خبر هذا الهجوم في حوادث القتال الذي أشعله أحمد الجازاني في العام المذكور، والذي أحسبه أن السور بني على أثر حوادث البرتغال حوالي عام ٩١٨ كما أورده القطبي .

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٥٠ .

النواحي العامة

في عهد المماليك الأتراك والشراكسة

الحالة السياسية : تقدم بنا أن مكة تعرضت في أعقاب العهد الأيوبي لأطماع جيرانها في اليمن بفعل الدسائس التي كان يحركها المختلفون من أشرافها على الحكم، وأنها ظلت على ذلك إلى أن استخلصها من الفوضى شخصان من كبار أشرافها هما الحسن وابنه أبو نمي الأول عام ٦٤٧ ، واستقلا بإدارتها بعيدين عن كل نفوذ، وقد استمر أبو نمي الأول بعد أبيه يضطلع بأعباء حكمه مستقلاً إلا أن هذا لم يدم طويلاً؛ لأن المماليك الأتراك الذين قهروا الأيوبيين في مصر أنشؤوا على أنقاضهم حكومة جديدة ما لبثوا أن تطلعوا إلى مد نفوذهم إلى مكة، وشرع سلطانهم الظاهر بيبرس عام ٦٦٧ ثم قلاوون بعده يحاولان بجميع الوسائل التدخل في شؤون أبي نمي وحمله على الدعاء لهم على منبر مكة، وقد بذلا في سبيل ذلك كثيراً من الأموال وأغرياه بكثير من الهدايا ثم جربا معه شيئاً من الوعيد عندما علما أن سياسته شرعت تنحاز إلى حكومة الرسوليين في اليمن، حتى استطاع قلاوون في عام ٦٨١ أن يفرد الدعاء له في مكة وفرض فيها تداول النقود المطبوعة باسمه مع شروط أخرى بيناها في فصلنا السابق.

ولم يرضخ أبو نمي الأول للأمر الواقع مخلصاً، وقد حاولوا تأديبه فأعادهم كما أسلفنا منهزمين من خلف أسوار مكة ، ثم عاد فقبل هداياهم ورضي بالدعاء لهم على مضض لينتفع بأموالهم فيما أحسب ويتفرغ لمناوئيه على الحكم من بني عمومته وأقربائه ، ثم ما لبث أن جفاهم ودعا للرسولين في اليمن بقية حياته.

وعندما اختلف أولاد أبي نمي بعده وجد المماليك الفرصة سانحة لتأييد فريق

ضد آخر، واستطاعوا أن يعيدوا الدعاء بأسمائهم على منبر مكة وأن ينشروا ظلاً من نفوذهم فيها كما استطاع الفريق المضاد أن ينتزع الدعاء في بعض السنوات لملك التتار في بغداد، وقد رؤي الركب العراقي في هذا العهد يبذل الصدقات ويوزع الفضة والذهب حتى رخص ثمن الذهب في مكة لكثرة ما تصدقوا به، ولست أشك أن ذلك كان دعاية لملك التتار.

ولم يدم أمر الدعاء للتتار طويلاً في مكة؛ لأن المماليك كانوا يتحينون الفرص لإعادة نفوذهم في مكة ويساعدون البيوت المتنافسة من الأشراف على الحكم؛ ليظفروا بالمكانة التي يريدونها حتى تمت لهم رغباتهم بفعل التنافس بين بيوت الأشراف الحاكمة، وحتى استطاعوا في عام ٧٦٠ أن يمكنوا لفرقة من جيشهم الإقامة في مكة بدعوى حفظ الأمن وتثبيت الأشراف - محمد بن عطيفة - من أولاد أبي نمي وتمكينه من إقامة الأمن في البلاد، وبذلك دخلت البلاد في دور يتنافى مع الأدوار التي سبقته ابتداء من ثورة جعفر بن محمد مؤسس حكم الأشراف في مكة إلى ذلك اليوم، وأصبح الأهلون يشعرون بأنهم محتلون عسكرياً بجنود المماليك لأول مرة في تاريخ استقلالهم، ولم يدم أمر الاحتلال أكثر من سنة واحدة؛ لأن الأشراف ثاروا على الحامية ثورة عنيفة، فاستسلمت الحامية وسيق بعض الأسرى منهم إلى ينبع، وبيعوا في أسواقها بيع الرقيق.

ويبدو أن المماليك الأتراك اقتنعوا بما جربوا وعادوا يستأنفون علاقتهم بمكة على الصورة التى سبق بها غيرهم، ويتمثل ذلك في الدعاء لهم على المنبر وقبول الهدايا والإعانات لقاء تأييد الأمير الجديد وكتابة المراسيم الخاصة بتوليته وإرسال مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له

الحرم من الشمع والزيت في كل سنة .

في عهد الشراكسة : وظل الأمر على ذلك حتى تقلص عهد المماليك الأتراك وورث حكمهم في مصر مماليكهم من الشراكسة ، شعر شريف مكة أحمد بن عجلان بضرورة تأييد علاقته بالحكم الجديد ، فأرسل وفوده بالتهنئة والهدايا وعرض استئناف العلاقات بشكلها السابق في عهد المماليك الأتراك ، فأرسلت إليه الموافقة ومرسوم التأييد تصحبهما الجرايات والمخصصات .

واستمرت علاقة الشراكسة بمكة على هذا النحو سنوات طويلة ، ثم اتسع نفوذهم وأصبحوا يهيمنون على مقدرات الإمارة ويباشرون عزل الأشراف وتوليتهم إلا أن الأشراف فيها كانوا لا يتقيدون كثيراً بمراسيم التأييد ، فكان بعضهم يطرد الأمير المؤيد بقوة السلاح ويتولى مكانه ، فلا يلبث أن ينسى الشراكسة تأييدهم السابق ويكتبوا إلى خصمه الظافر تأييداً جديداً ، وقد سجنوا مرة الشريف بركات في مصر ليأمنوا شره على أخيه حميضة ، فلما فر بركات من سجنه واستطاع أن يدخل مكة عنوة بعد أن يطرد أخاه منها لم يبخل الشراكسة بتأييده ونسوا أمر عطيفة .

وقد يعمد الشراكسة إلى عزل بعض الأمراء فيرفض ذلك منهم ، وقد شهدنا حسن بن عجلان يرفض عزله ويقابل أمير الحج المصري باستعداد المحارب حتى إذا تأكد عدولهم عن عزله ، يأبى دخول الجيش الشركسي مكة إلا بعد أن يجرد من السلاح فيمتثل الشراكسة لذلك .

إلا أن علاقة الشراكسة بمكة ما لبثت أن تطورت ؛ لأن بعض الأشراف كانوا يستعينون بهم على البعض الآخر ، فاستطاعوا أن يمكنوا لأنفسهم مركزاً ممتازاً

ويلزموا صاحب مكة مقداراً من الخراج يدفعه سنوياً، كما استطاعوا أن يستولوا على رسوم البضائع كاملة، وأن ينتدبوا في عهد بركات بن محمد حامية مكونة من خمسين فارساً تقيم في مكة تحت إمارة رجل من الشراكسة اسمه «سودون»، ثم ما لبثوا أن أضافوا إلى أمير الحامية نظارة المسجد، وأدخلوا في صلاحياته شؤون العناية بمرافق الحجاج وإقامة المنشآت الخاصة براحتهم وتعمير ما يلزم للمسجد، وقد أورد القطبي في كتابه الإعلام أن ناظر الحرم في عهده حوالي عام ٨٥٢ كان بيرم خوجة، ثم يقول : وقد عزل بالأمير برديك عام ٨٥٤ ، ويذكر في موضع آخر ما نصه : «أن أمير الترك جاني [1] سافر في عام ٨٥٦ ولي عوضه ناظر الحرم التاجي كما ولي منصب الجيش» وقد جاءه في مرسومه أنه ولي نظارة الحرم والربط والأوقاف والصدقات وأن يكون محتسباً لمكة.

وبذلك أصبحت مكة في حكم التابع للشراكشة، وأصبح يدير شؤون البلاد ومرافق البلاد الهامة أمير منتدب منهم، كما أصبح الأمراء من الأشراف يتلقون أوامر تعيينهم من ملك الشراكسة، وإذا تغلب بعضهم بقوة سيفه واستطاع طرد الشريف المغصوب فإنه لا يلبث أن يطلب تأييده من الشراكسة الذين لا يبخلون بتأييد المتغلب كما أسلفنا.

الناحية العمرانية والاجتماعية : وقد ظل عمران مكة في هذا العهد على ماعرفناه في العهد الأيوبي، وظل سورها الذي بناه قتادة بن إدريس قائماً على حاله، ويصفها تقي الدين الفاسي [2] وقد عاش بها في هذا العهد فيقول : إنها بلدة مستطيلة كبيرة لها ثلاثة أسوار : سور المعلاة وفيه بابان، وسور الشبيكة وفيه

(١) وذكره الطبري في إتحاف فضلاء الزمن «مخطوط».

(٢) شفاء الغرام ١/ ١٠ .

باب كبير، وسور اليمن وهو في المسفلة، والسور هنا معناه «سد» بين جبلين؛ لأن مكة تحوطها الجبال من باقي الجهات ووصفها ابن المجاور بما يؤكد رواية الفاسي، ولكنه رسم لها خارطة مستديرة على عادته في رسم خرائط المدن، وتوجد في كتابه نسخة خطية كتابتها رديئة في مكتبة الشيخ حمد الجاسر بالرياض، وذكرها ابن بطوطة في رحلته في هذا العهد عام ٥٢٧ فقال: إن أبواب مدينة مكة ثلاثة: باب المعلاة، وباب الشبيكة، وباب المسفلة [١] وهي نفس الأبواب التي ذكرها ابن جبير في عهد الأيوبيين، ويقول ابن بطوطة: إنه شاهد بين الصفا والمروة سوقاً عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة [١] ثم يقول: وعن يمين المروة دار أمير مكة عطيفة بن أبي نمي ودار رميثة برباط الشرابي عند باب بني شيبة «باب السلام» وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب [١].

وجاء على ذكر الزاهر «الشهداء» فقال: إنه رأى دوراً وأسواقاً وبساتين [١]، وأسهب ابن بطوطة في وصف أخلاق المكيين وعاداتهم في هذا العهد، فذكر أن أفعالهم جميلة وأنهم يؤثرون الضعفاء والمنقطعين، وإذا صنع أحدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء ويستدعيهم بتلطف ويقول: إن أكثر المنقطعين يرابطون بجوار الأفران حيث يطبخ الناس خبزهم، فيقطعون لكل واحد ما قسم له ولو كانت له

---

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ٨٠ وما بعدها

خبزة فإنه يعطي نصفها أو ثلثها وقال: إنه شاهد اليتامى الصغار يقعدون في الأسواق وفي أيديهم «القفف» فإذا اشترى الرجل من مكة حاجته أودعها قفة واحد من هؤلاء وأرسله إلى بيته؛ ليذهب إلى طوافه أو حاجته ويترك الصغير يذهب إلى بيته دون أن يخونه فيما آمنه[1] أقول: ومما يلفت النظر قول ابن بطوطة «ليذهب إلى طوافه» وفي هذا ما يدلنا على الحال السائد يومها في مكة، فإن الرجل يقضي حاجته من السوق ثم يذهب إلى طوافه لا إلى مكان أعماله؛ لأن المجتمع كان يستغني في الغالب بما يربحه من عطايا الحجاج أو مكاسبهم عن أعمال الحياة العادية، حتى إذا توافر له ذلك يقضي حاجته منها ثم يذهب إلى الطواف، وأعتقد أنه لو كان السائد غير هذا لسبق على قلم ابن بطوطة مثلاً قوله: «وذهب إلى أشغاله أو مكان أعماله» إلا إذا كان قد أراد بقوله: «أو حاجته» نوعاً من أعماله؛ وهو مالا أظنه؛ لأن الأعمال في مكة كانت نادرة أو غير متوفرة.

ويمضي ابن بطوطة في ذكر الفضائل التي شهدها أهل مكة في هذا العهد فيقول: وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون ويكثرون السواك بأعواد الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، رائعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية، وتشتري بقوتها طيباً، وهن يقصدن للطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على المسجد رائحة طيبهن[2]. ثم يقول: وأهل مكة لا يأكلون في

(١) رحلة ابن بطوطه ١/ ٨٠ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٩١، ٩٢.

اليوم إلا أكلة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر، ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات [1] والذي أقوله: إن أكلة العصر هي الأكلة الدسمة ولا بد من وجبة الصبح أو الضحى.. ويمضي ابن بطوطة بعد هذا في وصف بعض العادات في مكة كما فعل ابن جبير في رحلته في عهد الأمويين، فيذكر أنهم يستقبلون هلال رجب بالأبواق والطبول ثم يخرجون في موكب الأمير فرساناً ورجالاً يلعبون بالأسلحة ويقذفون حرابهم في الهواء، ويتلقفونها حتى يعتمروا من التنعيم ثم يعودون إلى الطواف والسعي، ويذكر الهوادج التي ذكر ابن جبير أنها تزدحم في شوارع مكة عليها أكسية الحرير والكتان ثم قال: وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يعنون في رجب ويشاركون أهلها حفاوتهم بالعمرة ويجلبون معهم إلى مكة كثيراً من منتجات بلادهم فيعم الرخاء، وهم يعتقدون أن بلادهم لا تخصب حتى يبروا مكة بما ينتجون [1].

الحالة الاجتماعية في عهد الشراكسة:

ويصف ابن بطوطة هذه القبائل فيقول: إنهم فصحاء الألسن صادقو النية يتطارحون على الكعبة داعين بأدعية تتصعد لرقتها القلوب، ويتزاحمون عليها حتى يعجز غيرهم عن الطواف معهم ثم قال: وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود وإذا وردوا مكة هلت أعراب الطريق مقدمهم [2] أقول: وقد فقدت هذه القبائل من مزاياها اليوم، ولعل ذلك يعود إلى كثرة اختلافهم على المدن واستيطانهم وامتهانهم فيها بعض الأعمال الصغيرة كالخدمة وما يشبهها، وقد أفقدهم ذلك

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ٩٣.

(٢) المصدر نفسه ١/ ١٠٠.

أخلاق القبيلة التي كانوا يعتزون بها كما أن بلادهم اختلطت بأجناس كثيرة من الدخلاء.

وأتى ابن بطوطة على وصف احتفالات الأهلين في مكة بشهر رمضان، فذكر ما ذكرناه في عهد الأيوبيين عن ابن جبير من تفرق الأئمة في كل زاوية من المسجد لصلاة التراويح وقال: إنهم يستقبلون رمضان بالطبول والدبادب، ويجددون حصر المسجد ويكثرون فيه الشمع والمشاعل حتى يتلألأ نوراً، وقال عن التسحير: إن المؤذن الزمزمي يتولاه والمؤذنون في المنائر الأخرى يجيبون عليه، وذكر قناديل المئذنة التي تطفأ إشارة بالإمساك كما ذكرها ابن جبير[1].

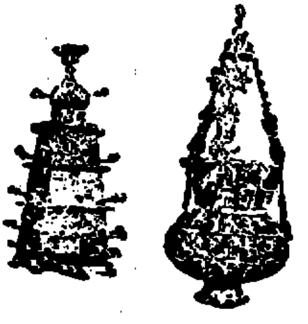
وذكر أصحاب الصناعة الذين اتخذوا مقاعدهم في بلاط المسجد المتصل بدار الندوة كالخياطين وبجانبهم المقرئين والنساخين كما ذكر ابن جبير قبله، وأوردناه في العهد الأيوبي إلا أن ابن جبير ذكر بيع البضائع في المسجد الدقيق إلى العقيق ولم يذكره ابن بطوطة[1].

ويبدو أن مماليك الشراكسة كانوا ألصق بحياة مكة من أسيادهم مماليك الأتراك؛ لأن حاميتهم التي استوطنت مكة اتصلت بالأهلين ولعل الأهلين تأثروا ببعض مظاهرهم الخلابة فقد كان جنود الشراكسة يميلون إلى الأبهة وكانت آثار الغنى تبدو واضحة في كل مكان يتركون أثرهم في البيئة التي تحيط بهم.

---

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ١٠٠.

يقول القطبي : إن طائفة من المقدمين في خدمة الشراكسة كانوا يشدون على أوساطهم شدوداً مصقولة ، ويسدلون أطرافها إلى أنصاف سوقهم [1]، ونحن نرى اليوم صورة من هذه الشدود في مكة لدى الأغوات في المسجد في شكل لا يبعد عن الأصل ، ولا أستبعد أن تكون هذه الشدود استعملت لدى الأعيان في مكة ثم تركت بتداول الأيام إلا من الأغوات الذين احتفظوا برسمها ، بل أقدر أن مناطق العلماء التي كانوا يشدونها في أوساطهم تحت الجبة إلى عهد قريب لا تزيد عن صورة ملطفة من شدود الشراكسة .



نوع من المصابيح التي كانت شائعة في هذا العهد في بعض جهات المسجد وفي منازل بعض الكبراء



جندي شركسي ويظهر أنه من الفرسان

وفي عهد المماليك تحسنت أحوال البلاد مادياً إذا استثنينا أيام الفتن ، وفاض الغنى في عهد

(١) الإعلام ص ١٢٧ على هامش خلاصة الكلام .





الشراكسة، ونمت الثروات لوفرة النقد لدى الشراكسة وحبهم للجود والبذخ شأن أكثر الذين أثروا بعد فقر فكان المتصلون برؤساء العسكر في مكة ينالون من خيراتهم شيئاً كثيراً.

وفي هذا العهد زادت المراسيم في قصور الأمراء في مكة عن مثلها في العهد الفاطمي والأيوبي، وإن من يقرأ وصف الاحتفالات التي كانت تتبع في استقبالهم يدرك مبلغ الأبهة التي انتهوا إليها في مراسمهم.

ذكر القطبي في الأعلام أن الأمراء كانوا إذا قدم أحدهم من سفر دخل مكة لتأدية النسك ليلاً ثم عاد إلى الزاهر للمبيت، فإذا أصبح الصبح شرعت مراسيم الاحتفالات العظيمة فيمضي موكبه إلى المسجد الحرام حيث يستقبله عليه القوم وخدم المسجد شرع في الطواف قام أحد المؤذنين على قبة زمزم «المقام الشافعي» ينشد له بعض الأدعية ويستمر في إنشاده حتى يفرغ

من طوافه، فإذا فرغ وأدى ركعتي الطواف وقف في موكبه في ظل زمزم متوجهاً إلى الكعبة، وارتفع صوت من يقرأ مرسوم الولاية - إذا كان قدومه لتولي منصبها بين حشد الحاضرين ثم يأخذ الموكب طريقه إلى الصفا حيث يمتطي الأمير فرسه أو عربته ماراً بأهم شوارع البلدة «ولعله يستعرضها أو يعلن ولايته ببروزه فيها» ثم ينتهي بعد ذلك إلى قصره ليستقبل وفود المهنئين.

الناحية العلمية: وظلت البيوت المتخصصة للعلم في مكة على أمرها في عهد الفاطميين والأيوبيين تنشر العلم على طلابها في حلقات عامة في المسجد الحرام وفي بيوتها الخاصة، وقد نبغ كثير من طلابهم في هذا العهد فزادت حلقات التدريس عما كانت عليه وأضيف إليهم مثلهم من المجاورين الذين اتخذوا مكة موطناً لهم وشرعوا يبثون علومهم ومعارفهم.

وقد اشتهر من آل ظهيرة القرشي في هذا العهد المشايخ: محمد أبوالسعود، وإبراهيم وجمال الدين، محمد بن عبدالله وصلاح الدين وعبد القادر عفيف الدين، كما اشتهر من آل الطبري [1] شيخ الإسلام إبراهيم بن محمد بن إبراهيم والشيخ رضي الدين وقاضي مكة نجم الدين وزين الدين وشهاب الدين وسيدة من أجلة العلماء في هذا العهد هي أم سلمة بنت المحب الطبري، كما اشتهر جماعة من آل النويري كانوا يتداولون إمامة المسجد وشؤون الفتوى مع آل الطبري وآل ظهيرة أشهرهم: أبو الفضل محمد النويري قاضي مكة وخطيبها، وقاضي الحرمين محب الدين النويري، واشتهر من غير هؤلاء المشايخ أحمد بن العليف وأحمد الحرازي وأحمد علاء الدين والد العلامة قطب الدين من مؤرخي

---

(١) الطبري: نسبة إلى طبرستان وليس إلى طبرية كما يظن البعض، وقد تحدث المؤلف عن هذا البيت فيما سبق. انظر الدليل. (ع).

مكة، وقد سمي فيما بعد باسم القطبي نسبة إلى ابنه قطب الدين، كما اشتهر الشيخ تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي والشيخ نجم الدين بن فهد وابنه عبد العزيز وثلاثتهم من كبار مؤرخي مكة، كما اشتهر الشيخ مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي صاحب القاموس، وقد ألف كتابه «القاموس» في منزله بمكة بجوار الصفا وذكر ذلك في خاتمة الكتاب.

واشتهر عالم مكة الأوحد في هذا العهد الشيخ محمد بن الفقيه وإمام الحنابلة محمد بن عثمان البغدادي، وهو نائب القاضي والمحتسب كما اشتهر شهاب الدين ابن البرهان وعبدالله بن عمر الصوفي وشهاب الدين أحمد بن علي وعبد الحق السنباطي وعبدالكبير الحرازي والسيد محمد الخطاب، كما اشتهر من المجاورين السيد إبراهيم خرد والمشايخ أحمد الريمي وأحمد الحنبلي وعبدالله بن أحمد باكثير ومحمد المشرع اليمني والسيد محمد التريمي، وقد عاش بعض هؤلاء العلماء حتى أدركوا أوائل العهد العثماني(١).

وكانت مجالس بعض الأمراء في هذا العهد ندوة لكبار العلماء يتجلى فيها روح البحث العلمي، ومن أشهر ذلك مجالس حسن بن عجلان وابنه بركات وحفيده محمد، وكانوا من أمراء مكة لهذا العهد كما كانوا يمتازون بكفاءة علمية فائقة.

وأسهب الشيخ عبدالله أبو الخير في كتابه نظم الدر في تراجم علماء مكة لهذا العهد وفصل آثارهم ومؤلفاتهم تفصيلاً لا يسعه إلا مجال التراجم. وقد عثرت على نسخة خطية منه في مكتبة الشيخ عبد الوهاب دهلوي بمكة.

---

(١) نظم الدر للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط».

وكان بعض هؤلاء العلماء يتولون قضاء مكة وشؤون الفتوى فيها، كما تولى بعضهم وظيفة المحتسب وهي الإشراف على أمور السوق والشؤون العامة، وكان المماليك يؤيدون ولاية القاضي في بعض الفترات أو يندبون من مصر من يتولى القضاء وكان الأشراف يعزلون أو يؤيدون القضاة (١).

وعني السلطان قايتباي - من ملوك الشراكسة - بشؤون التعليم في مكة فأمر في عام ٨٨٢ وكيله التجاري في مكة بالبحث عن منطقة تشرف على المسجد، وأن يبنى باسمه فيها مدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ورباطاً لسكنى الفقراء يحوي ٧٢ خلوة للأيتام، ويشيد مكتباً للأيتام يأوي ٤٠ طالباً، وأن يخصص للفقراء واليتامى ما يكفيهم من القمح، فاستبدل الوكيل بعض الأربطة من باب السلام وباب النبي واشترى داراً للشريفة شمسية من بني حسن، ثم بنى هناك مدرسة قايتباي المعروفة واتخذ لها منفذاً إلى المسجد سمي باب قايتباي، كما بنى فوقها منارة سميت باسمه ثم نظم الدراسة فيها، وخصص المرتبات للمدرسين لتنفق غلاتها على المدرسة، وكانت تغل في كل عام نحو ألفي دينار ذهباً، وكانت غلات الضياع الموقوفة تحمل إلى مكة سنوياً إلى عهد قطب الدين الحنفي في القرن العاشر (٢).

ويظن الشيخ باسلامة في كتابه «عمارة المسجد الحرام» أن بعض ملوك مصر المتأخرين استولوا على تلك الأوقاف وأدخلوها في إيراد الدولة (٣).

وأسس قايتباي خزانة للكتب تحوي كثيراً من المؤلفات، ويذكر الشيخ قطب الدين أن هذه الخزانة عبثت بها أيدي المستعيرين بمرور الأيام، وأنه تولى في عهده

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام (١٥٣)

(٣) عمارة المسجد ٧٧.

- العهد العثماني الأول - أمرها وحاول إصلاح ما أمكن من أمرها ، ثم يقول : وقد آلت المدرسة إلى السقوط على إثر ذلك، وصارت نزلاً لأمراء الحج أيام الموسم ولغيرهم إذا زاروا مكة في أثناء السنة (١) .

ويقول قطب الدين في الأعلام : إن رباط المراغي في عهده هو رباط السلطان قايتباي، ثم يقول : وباب الحريريين واقع بين مدرسة قايتباي ودار الخوجة بن عباد، ويريد بباب الحريريين ما كنا نسميه قبل التوسعة باب النبي، وكان الحرير يباع في هذا الباب ويسمى أحياناً باب القفص؛ لأن الصياغ كانوا يعرضون حليهم للبيع في أقفاص بدكاكينهم هناك(١) .

وفي هذا العهد ندب سلطان البنغال غياث الدين مندوباً يحمل أموالاً كثيرة، ووزع بعضها على الفقراء، وبنى رباطاً ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة، وقد بناها بجوار دار أم هانئ وأجرى إصلاحات في عين زبيدة ، كما أصلح البركتين اللتين في المعلاة إلى أن جرت عين بازان فيهما (٢) .

وحج في هذا العهد سلطان المماليك الناصر بن قلاوون فكان في موكبه أحواض من خشب زرعت فيها الخضروات والبقول والمشمومات وحملت على الجمال، كما كانت في موكبه أفران لإصلاح الخبز والسميد و(الكماج) وقد أحصيت حمول الشعير في الموكب ١٣٠ ألف أردب (٣) .

---

(١) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام (١٥٣)

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» .

(٤) الذهب المسبوك للمقريزي ص ١٠٠ وما بعدها

الإصلاحات في عهد المماليك الأتراك والشراكسة : لم يبذل المماليك الأتراك الجهود التي بذلها مماليك الشراكسة بعدهم في سبيل الإصلاح، ومع هذا فقد كانت لهم إصلاحات منها أنهم في عام ٧٣٦ عمروا الأساطين التي حول المطاف، وقد جعل بعضها من الحجارة المنحوتة الدقيقة والباقي آجراً مجصصاً، وجعل بين كل أسطوانتين خشبة تعلق فيها القناديل عوض الأخشاب التي كانت تعلق فيها [١].

وفي عام ٧٤٩ عني الأمير فارس الدين من مماليك الأتراك بإصلاح المسجد، وجدد الأعمدة حول المطاف [١] وفي سنة ٧٢٠ عمر الناصر محمد بن قلاوون رخام الحجر، ثم عمر من بعده المنصور علي بن الأشرف سنة ٧٨١، وصنع باباً للكعبة، وصنع ولده الناصر حسن باباً للكعبة سنة ٨٧١ [٢].

ووقف الصالح إسماعيل الناصر في عام ٧٤٣ قرية من نواحي القاهرة يقال لها: «بيسوس» [٣] بجوار القليوبية وظل ينفق من غلتها على الكسوة، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى الحج سنة ٧٢٨ أن الملك الناصر كان يتولى كسوتها وكانت سوداء مبطنة بالكتان.

وأنشأ الناصر بن قلاوون متوضأ مقابل باب علي.

وعني الشراكسة بالإصلاحات في مكة وفي المسجد؛ فجدد برقوق في عام

(١) إتحاف الورى لابن فهد «مخطوط»

(٢) تاريخ الكعبة للشيخ حسن باسلامة ١٩٩

(٣) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٤٤

٨٠١ عقد المروة وأصلح درجاتها، وعمر في عام ٨٤٢ ناظر الجيش الشركسي ومدير الحرم سودون كثيراً من المواضع المأثورة في منى ومزدلفة وعرفات، وأزال أشجار الشوك والصخور الكبيرة من طريق عرفات؛ لأن اللصوص كانوا يختفون وراءها[(١)].

وكانت العين من نعمان إلى عرفات خربة انقطع ماؤها من عهد المماليك الأتراك فأصلحوا مجراها في عام ٧٤٨ إلى أن عاد ماؤها يروي الحجيج [(٢)].

وأمر السلطان قايتباي بهدم المتوضأ التي ذكرنا أن المماليك الأتراك أنشؤوه أمام باب علي ثم بنى مكانها رباطاً للفقراء، وأدخل في مساحة الرباط نحو ثلاثة أذرع من المسعى وعندما عارض قاضي مكة في إضافة الأذرع من أرض المسعى إلى الرباط، ومنع البناء أصدر قايتباي أمره إلى أمير الحج تنفيذ البناء بقوة العسكر فتم ذلك وأنشئ إلى جانب الرباط متوضأ صغيراً، وجُعل له باب يشرع على سوق الليل – القشاشية – كما أنشئ بجواره مطبخ تطبخ به الدشيشة وتوزع على الفقراء كما عمر قايتباي مسجد الخيف في منى ومسجد نمرة في عرفات [(٢)].

وفي عهد الشراكسة شبت النار في رباط رامشت [(٣)] بين باب إبراهيم وباب الوداع في شوال ٨٠٢ فاتصل لهبها بسقف المسجد ثم التهمت جميع الأروقة إلى باب الباسطية؛ فندب الشراكسة أمير الحج المصري في عام ٨٠٣ لإصلاح ما تهدم وقد احتاج العمل إلى تغيير بعض الأسطوانات الرخامية فنحتوا من الجبل المعروف بجبل الكعبة حجارة بشكل نصف دائرة أقاموا منها الأسطوانات

---

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٥١

(٣) راجع بناءه في عهد الفاطميين .

الثخينة ، ثم زخرف المسجد بالألوان ونيطت السلاسل بالسقف لتعليق القناديل كما كانت في العهد العباسي ، وعمرت المقامات الأربعة على هيئاتها القديمة وتمت أعمال البناء في سنة ٨٠٧ وذلك في عهد أبي السعادات بن الظاهر برقوق ثاني ملوك الشراكسة [١] .

وشيدوا مقام الحنفي في عام ٨٠٢ على أربع أساطين من حجارة عليها سقف مدهون مزخرف وقد أنكر ذلك جماعة من العلماء وأفتوا بتعزير من أجاز بناءه كذلك لشغله حيزاً كبيراً من المسجد [١] ولتمييزه على ما أظن عن بقية مقامات الأئمة في المسجد إلا أن هذا الإنكار لم يغيره بل أضاف إليه كثيراً من الزخرف ، فقد كشف الأمير سودون سقفه في عام ٨٣٦ ، وعمره وزخرفه أحسن مما كان وفرش أرضه بالحجارة الحمراء ، وعقد فوق سقفه قبة وعني بعد ذلك بتحسينه عدة مرات [٢] حتى كان عهد نفوذ العثمانيين الذين حسنوه أكثر مما كان ، وقد أزيل في أعمال التوسعة في عهدنا الحاضر .

وظل الأئمة في هذا العهد يصلون مرتين ، كما كان الشأن في عهد الأيوبيين فيصلي الشافعي ثم المالكي والحنبلي معاً ثم الحنفي ، وفي بعض السنوات كان الحنفي يتقدم ثم المالكي [٢] ويقول ابن بطوطة [٣] : إنه شاهد المالكي والحنبلي يصليان بعد الشافعي معاً ثم يصلي الحنفي في آخرهم .

أما المغرب فيصلي الحنفي والشافعي في وقت واحد . وكانت قد رفعت شكوى من التشويش إلى الناصر فرج بن برقوق الشركسي فأمر بأن يصلي الشافعي بمفرده في المغرب وذلك في عام ٨١١ ، ثم لما تولى الملك المؤيد أمر بأن

(١) شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي ٢/ ٢٩٩

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ٩٩ .

يصلي الأئمة في وقت واحد [1].

ويذكر ابن بطوطة [2] قبة زمزم في هذا العهد وما يجاورها من القباب أن قبة زمزم مفروشة بالرخام، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مصطبة دائرية يقعد الناس عليها للوضوء، ثم وصف قبة العباس بما وصفها ابن جبير في عهد الأيوبيين، وذكر الدوارق التي كان يبرد فيها الماء وقال: وفيها تخزن الكتب والمصاحف، ومنها مصحف بخط زيد بن ثابت نسخ سنة ١٨ من وفاة رسول الله، وقد تبرك به كما فعل ابن جبير قبله ثم يقول: وباب هذه القبة إلى جهة الشمال، ويليها القبة المعروفة بقبة اليهودية [3] وقد عمر الشراكسة في القبتين في هذا العهد سنة ٨٠٧، ولعلهم أجروا بعض التغيير فيها، لأن ابن ظهيرة وصفها بعد هذا العهد فقال: إن قبة العباس مخصصة للشراب، أما المحفوظات فكانت في القبة الأخرى ولم يذكر شيئاً عن مصحف زيد بن ثابت.

ونحن لا نستبعد أن يكون قد عبثت به الأيدي في إحدى الفتن الكثيرة التي منيت بها مكة.

أما القبتان فقد أزيلتا من أساسهما في عام ١٣١٠ كما سيأتي في حينه.

وفي هذا العهد عام ٨٠٧ سد باب الخلوة إلى جانب زمزم، والتي كان فيها مجلس ابن عباس وجعل في موضع الخلوة بركة مقبوة وفي جدارها الذي يلي

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) رحلة ابن بطوطة ١ / ٨٤

(٣) ذكر الفاسي قبة اليهودية هذه، وقال: إنه لا يعرف أصلاً لهذه التسمية إلا أنه قرأها في رحلة ابن جبير. راجع شفاء الغرام ١/ ٢٤٢.

باب الصفا «بزابيز»[1] من نحاس يتوضأ الناس منها على أحجار نصبت للجلوس، وفوق البركة المقبوة خلوة فيها شباك إلى الكعبة وشباك إلى الصفا وطابق صغير إلى البركة.

وعمر الشراكسة حجر إسماعيل بالرخام، وأرسلوا له كسوة من الحرير الأسود كُسيَ به دائره من الداخل والخارج، وكانت أول كسوة من نوعها لحجر إسماعيل وآخرها أيضاً[2].

وأمر قانصوة عام ٩١٧ بنقض جدار الحجر مرة أخرى، وأرسل لإصلاحه رخاماً جديداً من مصر، وأنشأ الشراكسة فوق مصلى إبراهيم قبة عام ٨٨١ وأرسلوا منبراً من الخشب في عام ٨١٥ وأرسلوا غيره عام ٨٦٦ ثم غيره في عام ٨٧٧.

وعنوا بكسوة الكعبة طوال مدة حكمهم في مصر، وفي عام ٨١٠ أحدثوا في جانبها الشرقي جامات منقوشة بالحرير في سنة ٨١٩ جعلوا لبابها ستارة أجمل مما كانت وكانوا يكتبون في طرازها اسم صاحب مصر الشركسي[3].

وكسا جقمق الجانب الشرقي والشمالي من الكعبة ديباجاً أبيض بخامات سود في عام ٨٦٥ وكساها قايتباي من الداخل في عام ٨٨٣[4] ولا تكسى الكعبة من الداخل إلا إذا بليت كسوتها أو أراد أحد الخلفاء تجديدها[5].

---

(١) صنابير يصب منها الماء ويقولون اليوم لها حنفيات، والمسميات تتغير دائماً، ولعل كلمة «بزبوز» أخذت من: بزبز الماء أو الحليب إذا تدفق بقوة، وله وجه في اللغة. (ع).

(٢) الإعلام لقطب الدين على هامش خلاصة الكلام ١٤٧

(٣) الأرج المكي لعلي الطبري «مخطوط»

(٤) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٥) تاريخ الكعبة للشيخ حسن باسلامة ٢٢٦.

وفي عام ٨١٧ عمر الغوري في زيادة باب إبراهيم وبنى فوقة قصراً مرتفعاً مع مرافقه، وجعل حول القصر من خارج المسجد معازل ومساكن، وبنى خارج ذلك متوضأة تشتمل على مراحيض وبركة ماء، ووقف القصر السابق والمساكن على بعض أعمال الخير، وبنى على يمين الداخل باب إبراهيم من الداخل حاصلاً في أرض المسجد وعلى اليسار مثله وقرر فيهما بعض المستحقين، وجعل في الجانب اليماني حاصلاً يشتمل على سبيل ماء وصهريج كبير من ماء المطر من سطح المسجد.

وخربت المظلة القائمة فوق بئر زمزم في عام ٨١٨ فنقضت وبنيت مرة أخرى[١] ثم عمر الشراكسة كثيراً من الخرائب في أماكن متعددة من المسجد وعمروا باب النبي وعمروا ثمانية عقود جهة باب الزيادة، ونقضوا منارة باب السلام ثم أعادوها في عام ٨١٦ كما نقضوا بعد ذلك منارة باب الزيادة ثم أعادوها في عام ٨٢٣ وأصلحوا في سطح الكعبة وتراكمت في هذا العهد طبقات من التراب في المسجد، فاستعان المسؤولون بالثيران لجرفه ثم نقلوه إلى المسفلة ثم بطح مكانه بطحاً مغربلاً من ذي طوى ووادي الطندباوي[٢] .

طريق الحجاج : وكان طريق الحجاج قد انتقل في أواخر عهد الأيوبيين من القصير وعيذاب إلى طريق العقبة [٣] كما أسلفنا ذلك ثم ما لبث أن أخذ هذا الطريق أهميته في عام ٦٦٠ حيث سير الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحجاج منه وأرسل معها كسوة الكعبة ومفتاحها الذي صنعه لها.

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) إتحاف الورى لابن فهد القرشي «مخطوط» (ع): رجحنا في (معجم معالم الحجاز) أن يكون اسمه التنضباوي.

(٣) هي ميناء الأردن اليوم، على رأس خليج ينسب إليها. (ع).

ثم عني الشراكسة بتنظيم السير في هذا الطريق عما كان في عهد الأيوبيين وأول من نظم شؤون السير هو أحد الأمراء المصريين، واسمه جمال الدين، فقد سافر والده أميراً للمحمل في عام ٨٠٩ فعني الولد بترتيب القافلة عند وصولها إلى عجرة [١] وهي محطة قبيل السويس - فأمر بكتابة أكابر الحجاج، ورتب سيرهم في مكان معين من القافلة بعد أن ضبط طليعة القافلة وساقها بجماعة من العسكر وجعل الأموال تتوسطها [٢].

والطريق بين السويس والعقبة شاق جداً تسوخ في رماله الناعمة الجمال ويتيه في بيدائه المسافرون فلا يهتدون إلا بأنصاب من الحجر بنيت على الطريق لهدي المسافرين، وكان الحجاج يعانون فيه من قلة الماء ما يعانون وكانت المسافة بين السويس والعقبة زهاء ٣٠٠ كيلو تقطعها قافلة المحمل وهي أسرع القوافل سيراً في أكثر من عشرة أيام.

وتصعد القوافل في العقبة وتنيخ في مدينتها للراحة، فقد كانت محطة من محطات الحج المصري في هذا العهد الذي ندرسه، وكانت مصر تحشد من جنودها في قلعتها ما يكفي لتأمين طريق الحجاج.

وكانت العقبة إلى ذلك ملتقى الحج السوري [٣] بالمصري، فقد كانت قوافل السوريين تصل إليها من غزة فتلتقي بقوافل المصريين ثم ينحدرون إلى قرية أبلة وهي المدينة القديمة التي اندثرت وقامت العقبة على أنقاضها.

وتنتقل قوافل الحجاج بعد ذلك إلى مدينة الوجه فتصلها في أقل من نصف

(١) لعله عجرود: محطة مشهورة بين القاهرة والسويس (ع)
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»
(٣) أي: سوريا الساحلية فلسطين ولبنان. (ع).

شهر، وكان في الوجه محافظ يحكم المدينة من الشراكسة وقاض ينظر في قضاياهم الشرعية وجند يحافظون على الأمن، وسوق عام تعرض فيه السلع الواردة من الشمال والجنوب والغرب(١).

وكان الطريق يتشعب بعد الوجه إلى العلا شرقاً وينبع جنوباً والمدينة المنورة من الناحية الجنوبية، وبذلك كان سير القافلة يستغرق في العادة نحو شهر ونصف إلى المدينة أو مكة وذلك للقافلة ذات السير السريع.

وكانت ثمة طرق أخرى أكثرها تمضي فيها قوافل الشام والقدس، أهمها طريق العريش وطريق العلا، وهو الطريق الذي يقطعه المحمل الشامي من دمشق في مدة لا تقل عن أربعين يوماً (١).

وظلت هذه الطرق عامرة بقوافل الحجاج إلى سنة ١٣٠١، حيث اتخذ الحج المصري طريقه من السويس إلى جدة في المراكب الشراعية قبل استعمال البواخر كما سيأتينا.

نشأة الطوافة : ولعل صناعة التطويف ابتدعت في هذا العهد؛ لأن الشراكسة بحكم جهلهم اللغة العربية، وميلهم إلى الأبهة والبذل، كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم ويدلهم على مشاعر الحج ويتلو أمامهم أدعيته.

وقد ذكروا أن السلطان قايتباي حج في عام ٨٨٤ ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره، وأن القاضي إبراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الأدعية (٢) ولم يذكر المؤرخون مطوفاً قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة فيما قرأته من تواريخ مكة.

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غاري «مخطوط»

(٢) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٥٨.

ومما أورده القاضي في حديثة عن حج قايتباي أن صاحب مكة محمد بن بركات ندب من يستقبله في الحوراء - وهي بالقرب من أملج ينبع [1] وأنه مد له فيها سماطاً عربياً، كان بين أنواعه صنف من الحلوى أعجب به السلطان فسأل عن اسمه، فقيل له: إن اسمه «كل واشكر» [2].

وفي هذا ما يدل على عنايتهم بالأسمطة وتصنيف أنواعها في ذلك العهد، وفي تسمية الحلوى «كل واشكر» ما يدل على لون خاص من العاطفة الدينية.

وبعد أن يذكر القطبي [3] كيفية استقبال قايتباي واشتراك علماء مكة وأعيانها في ذلك يقول: إنه عندما انتهى موكب السلطان إلى باب السلام الخارجي تخطى عتبته بفرسه، فجفل الفرس فسقطت عمامة السلطان عن رأسه، وفي هذا يقول ابن فهد [4]: إن ذلك كان تأديباً من الله؛ لأنه يتعين على السلطان أن يترجل ويدخل محرماً مكشوف الرأس. ثم قال: وكان مدة إقامته كثير الصدقات، وقد بذل من الأموال ما لم يسبقه إليه أحد.

إمام الحرم وقايتباي:

ومن طريف ما يروى من قصص حجه أن إمام المسجد الحرام الشيخ محب الدين الطبري المكي لم يكن ضمن مستقبليه خارج مكة، وقد وشى به بعض حساده عند قايتباي فأمر به فحضر؛ فعاتبه في ذلك فقال: إني استقبلتك في

---

(١) آثارها اليوم بطرف أملج من الشمال، ويبدو أن أملج قامت على اندثار الحوراء، ولعل الاسم كان لميناء الحوراء وقرية لصيقة بها. (ع)

(٢) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه ١٥٨.

(٤) إتحاف الورى لابن فهد «مخطوط».

أشرف بقعة وهي المسجد الحرام فُسرَّ لجوابه، ثم بلغه أنه لا يتقاضى شيئاً لوظيفة الإمامة فقال له: إني فرضت لك مائة دينار شهرياً لقاء إمامتك، فقال: إن إمامتي حسبة لله فلا أقبل عليها جزاء، ثم ما لبث أن انسل من المجلس دون أن يأذن له قايتباي، وقال وهو يخرج: سلام عليكم. فعلق بعض الوشاة على ذلك، وقال للسلطان: إنه أراد الآية ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص ٥٥] فلم يسمع السلطان للوشاية وقال: إنني تصورته أسداً قوي الشكيمة في أول مقابلته لي. ولما عاد السلطان إلى مصر أرسل أمراً بتعيين الشيخ رئيساً للقضاة ومشيخة الحرم والإفتاء والتدريس والحسبة، فوصل الرسول مكة وأراد تسليم الأوامر إلى الشيخ نفسه، فلما انتهى إلى بيته قيل له: إنه ذهب يحمل عجين بيته ليخبزه في فرن في أقصى الشارع. فعجب الرسول من ذلك واستخف بعمله ثم انتظره إلى جوار البيت حتى حضر وسلّمه الأوامر، فأهداه الشيخ رغيفين من خبزه، فصعب ذلك على الرسول، وقال: إن مثل هذه التعيينات لا تقل مكافأتها عن الألف. فأعاد الشيخ إليه أوراق التعيينات وقال: تفضل فأعدْها إلى سلطانك فإنه لا حاجة لي بها [1].

(١) تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي «مخطوط»